المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر

تأليف

أبي الفتح ضياء الدّين نصر الله بن محمّد بن محمّد بن عبد الكريم

المعروف بابن الأثير الموصلي

" المتوفى سنة ٦٣٧هـ "

بتحقيق

محمّد محيي الدّين عبد الحميد

الجزء الأوّل

المكتبة العصرية

صيدا - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

١٤١١هـ - ١٩٩٠م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله، والصّلاة والسّـلام على رسول الله، وعلى آلـه وصحبـه وسلّم.

أمّا بعد؛ فإنَّ بي من حُبِّ العربيَّة والشغَف بها ما يَدْفعني إلى احْتِمال المصاعب والرِّضا بركوب المخاطر والأهوال، وبَذْل النفيسين الْوَقْتِ وَالراحةِ. وإني لأَجد من السرور بهذا ما لا يبلغ معشارَهُ غريبٌ أَلقى بين أهله عصـا الترحال، أو مُحِبٌّ لقي حبيبـه بعد طـول افتراق، وواصله بعـد طول تَجَنٍّ وجُهود.

وقد أخذت على عاتقي أن أقوم لهذه اللغة بما يَسَعُه جَهدي من خدمة، فلم أجد أنْبَلَ مقصِداً، ولا أسْمَى غَرَضاً، ولا أقرب عند الله قبولاً؛ من أن أتوَفَّر على كُتُب أسلافنا من علماء هذه اللغـة، فأحَققهـا وأحاول ردَّهـا إلى الصورة التي خرجت عليها من أيدي مؤلّفيها قبل أن يُصيبها تحريفُ النسَّاخ وتصحيف الناشرين، أو مَسْخُهُم.

وأردت أن أجمع بذلك بين خلال أربع:

أولاها: أن أبتعد عن الغرور بالنفس والتفاخر بالتأليف.

وثانيتها: أن أظهر شباب هذه الأمة على تراثنا الذي ورثناه عن آباءٍ لنا كانوا قادةَ العالم وأهل الرأي فيه يوم كان الناسُ كلهم يتيهـون في بَيدَاوات الجهالة ويعيشون عيش السائمة والأنعام، وأنا أعلم أنّ شبابنا اليوم ليس لهم الصبر والجلد على قراءة هذه الذخائِر في منظرها الذي يختاره لهم الورّاقون وتجار الكُتب، وأن من حسن الرأي أن نضع بين أيديهم كتباً بهيجة المنظر بديعة الرُّوَاية؛ ليقبلوا عليها، وينتفعوا بما فيها من علم.

وثالثتها: أن أثبت لهؤلاء الذين ينتقصون من قدر آبائنا وينالون منهم أنّ لأولئك الآباء من المجد والمنزلة ما يفاخر به الأبناء؛ وليس يضير الغادة الهيفاء ضنانةُ أهلها وبخلهم ولؤم أنفسهم، ولا يغض من جمالها أن تظهر في أطمار مهلهلة ولكنّ على مَنْ تكون من نصيبه أن ينفض عنها غبار الإهمال، ويَجْلُوَها في فاخر الديباج؛ ليظهر له بديع ما أنعمـها الله من فتنة وجمال.

ورابعتها: أن أنفي عن نفسي تُهمة التقصير في وقت نحن أحوجُ ما نكون إلى التساند والتضافر على إعادة رُسُومنا الدارسة إلى ما كانت عليه يوم كنا قادَةَ الشعوب وسادَةَ هذا العالم؛ وليس للبلاد العربية كلها من بُدٍّ أن تسلك لوحدتها طريقَ الاتحاد في المشاعر والمعارف، وأقربُ ما يصل بنا إلى هذه الغاية معاودةُ معارفنا القديمة مع اختيار أقربها إلى أنفسنا وقلوبنـا في فروع العلم كلها.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أُنَبِّهك إلى حقيقة قد تُغفلها أو تتشكك فيها إذا عرضت لك؛ أحبُّ أن تعلم أن الجهد الذي يبذله مَنْ يحقق كتاباً من كتب أسلافنا لا يقل عن الجهد الذي يبذله مؤلف كتاب حديث، بل أنا أجاهر بأن جهد الأول فوق جهد الثاني، وفَرْق بين مَنْ يَعمد إلى المعارف فيختار منها ما يشاء ويدع منها ما يشاء، ثم يعبر عما اختاره بالأسلوب الذي يرضاه، وبين آخر لا يسعه إلَّا إثبات ما بين يديه بالأسلوب الذي اختاره صاحبه منذ مئات السنين، وهو بين عبارات شوّهها التحريف وغيّر الكثير منها تعاقب أيدي الكتاب والصفافين، وأكثرهم ممن لا يتصل بالعلم من قريب أو بعيد.

والكتاب الذي أضعه اليوم بين يديك هو كتاب «المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعـر» الذي صنّفـه في علم البلاغـة الأديبُ الكاتبُ أبـو الفتح نصرُ الله ضياءُ الدين بن أبي الكرم محمـد بن محمد بن عبـدالكَريم بن عبدالواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير؛ وهو كتاب «جَمَعَ فيه فأوعى. ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره»[1] وهو كتاب امرىء:

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (٣ ـ ٩٦ الوطن بمصر).

أَطَاعَتْهُ أَنْوَاعُ البَلَاغَةِ فَاهْتَدى … إلى الشِّعْرِ مِنْ نَهْجٍ إِلَيْهِ قَوِيمِ (١)

وستقف على رأينا في هذا الكتاب عند الكلام على ترجمة المؤلف، ولكنا نذكر لك ههنا عملنا في هذا الكتاب لتدرك مقدار الجهد المضني الذي بذلناه في إخراجه على هذه الصورة التي نتمنى أن تخرج عليها كتب العربية، بل كتب الثقافة الإسلامية عامة؛ لتنقطع ألسنة الأفاكين الذين يتهمون آباءنا بقلة الإنتاج الصحيح، وإذا اعترف أحدهم لهم ذكر في جانب اعترافه هذا أن الإنتاج محدود لا أثر فيه لشخصية المنتج، ولا برهان فيه على الاستقلال والحرية الفكرية، في الوقت يسطو هو على إنتاجهم وعصارة أذهانهم فينتحلها وينسبها لنفسه، وهو بمأمن من أن يعرف ذلك سواد الناس ودهماؤهم؛ لأنهم لا يقرءون هذه الكتب.

لم يكن من رأيي أن أعمل على نشر هذا الكتاب الآن: فقد كنت أرى أنّ غيره من كتب العربية أحق بالتقديم وأكثر عائدة؛ ذلك لأن الكتاب قد طبع من قبل مراراً في بولاق وفي غير بولاق، ولأن الذين ينتفعون به عدد قليل من قرّاء العربية، وهم ـ أو أكثرهم ـ مستطيعون أن ينتفعوا منه على حاله التي كان عليها. ولكن بعض الإخوان رجاني أن يكون هذا الكتاب في مقدمة ما أخرجه من كتب العربية، وذكر لي أنه وكثيراً من المشتغلين بتحصيل العلم يجدون العنت والمشقة في تقويم عبارته التي عدت عليها عوادي المسخ والتشويه؛ فوعدته بأن أقبل؛ وكنت أظن الأمر هيناً حين قطعت على نفسي ذلك العهد؛ ولكني حينما شرعت في مراجعة أصول الكتاب وجدت العجب العاجب؛ فمن عبارات مشوهة، إلى أعلام محرّفة تحريفاً أبعدها كثيراً عن أصلها؛ إلى نصوص من الحديث النبويّ والشعر العربيّ قد بدّلتها الأيدي التي تناولت الكتاب، إلى غير ذلك بما ستراه في أثناء قراءتك؛ فلما رأيت ذلك هالني الأمر وترددت كثيراً في المضي فيه، ولكني لم أشأ أن أنقض ما قطعته من عهد، أو لم أشأ أن تضعف عزيمتي عن إتمام ما شرعت فيه.

(١) هذا بيت من كلام ابن الأثير صاحب الترجمة يقوله عن نفسه.

الكتاب إذاً كثير التحريف برغم أنه طبع مراراً، فما من بُدٍّ لي من مراجعة أصوله على عدة نسخ، وما من بُدٍّ لي من مراجعة جميع ما ورد فيه من النصوص على مصادرها الأولى، ثم ما من بُدٍّ لي من الأناة والرويّة في تفهم عبارات المؤلف والوقوف عند كل جملة منها؛ وذلك أمر شاق يورث الضنى والكلال، ولكنه ـ مع ذلك ـ ميسور لمن لا يبالي بما يجد في هذا السبيل؛ ولما لم يكن بد من ذلك كله أقدمت عليه وثابرت فيه مثابرة الحريص على إدراك الغاية والوصول إلى النتيجة؛ وأعتقد أنني أدركت ـ بمعونة الله وتوفيقه ـ ما أردت، وبلغت ما أملت.

في دار الكتب المصرية جزء من نسخة خطية كتبها أبو المكارم بن منصور الباوشناي الموصلي، وفرغ من كتابته في يوم السبت الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة (٦٢٢) اثنتين وعشرين وستمائة من الهجرة، وفي أول هذا الجزء إجازة بخط المؤلف كتبها بالموصل في شهر شعبان من عام كتابته أجاز بها الشيخ أبا محمد المظفر عضد الدين بن محمد بن علي بن جعفر بن زهير الدمشقي. وفي الدار نسخة كاملة مكتوبة بقلم معتاد، ولم أعرف عن زمن كتابتها ولا عن قيمتها الأثرية شيئاً؛ فراجعت نسختي على هاتين النسختين، وهما المرموز لهما في الحواشي بحرف د.

وعند صديقي الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد محمد شاكر القاضي الشرعي نسخة خطية تمت كتابتها في نهار الأربعاء الموافق اليوم الخامس والعشرين من شهر جمادى الثانية في عام (١٠٩٣) ثلاث وتسعين بعد الألف، وكاتبها محيي الدين بن ناصر الدين الصفوري، وهذه النسخة منقولة عن نسخة كتبها أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن مهران القويسني وفرغ من كتابتها في مستهل جمادى الأولى من سنة سبع وعشرين وستمائة، ويقول محيي الدين بن ناصر الدين الصفوري في شأن النسخة التي نقل عنها نسخته: «وهي نسخة صحيحة، رحم الله مؤلفها وكاتبها رحمة واسعة، وهي على هذا التاريخ مكتوبة قبل موت المؤلف بعشر سنين أو ما يقرب منها» اهـ، ثم كتب على حاشية آخر ورقة: «بلغ مقابلة على

أصله الذي كتب منه والله الموفق» اهـ. وقد تفضل الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر - حين علم قيامي على تحقيق الكتاب - فأعارني هذه النسخة فراجعت عليها نسختي هذه، وهي المرموز إليها في حواشي الكتاب بحرف أ.

والكتاب مطبوع بمطبعة بولاق عام (١٢٨٢) اثنين وثمانين ومائتين وألف من الهجرة، بتصحيح الشيخ محمد الصباغ، وهذه النسخة هي المرموز إليها في حواشي الكتاب بحرف ب.

والنسخ المطبوعة - عدا نسخة بولاق - هي المرموز إليها في الحواشي بحرف ج.

راجعت نسختي على هذه النسخ كلها، وراجعت جميع النصوص التي اشتمل عليها الكتاب في مظانها الأولى، فراجعت الحديث على أمهات كتب الحديث، وراجعت الشعر على دواوين الشعراء وكتب التراجم والشعر، مثل كتاب «الأغاني» وكتاب «ديوان الحماسة» وشرحه الذي صنّفه أبو زكرياء يحيى بن علي الخطيب التبريزي، وكتاب «طبقات الشعراء» لابن قتيبة، وكتاب «وفيات الأعيان» لابن خلّكان وغيرها، ودللتك في أكثر الأحوال على مكان النص لترجع إليه إن شئت. وبيّنت لك اختلاف النسخ في الكثير الغالب مع بيان النسخة التي اعتمدتها في إثبات العبارة التي أثبتها في صلب الكتاب.

وضبطت جميع النصوص، وهي كثيرة جداً، وفسّرت غريبها تفسيراً بقدر ما تمس له الحاجة.

ولم أشأ أن أناقش المؤلف في آرائه، كما لم أشأ أن أترجم للأعلام التي ذكرها المؤلف؛ لأن ذلك يخرج بنا عن الغرض الأصلي من تحقيق الكتاب وإخراج صورة صحيحة منه بقدر ما وسعه الجهد، ثم إن الأعلام التي وردت فيه ليست مما يعسر على المتأدبين معرفتها والوصول إلى تراجمها إن كانت بهم حاجة إلى معرفة ذلك.

ولا أدّعي أنني بلغت بالكتاب درجة الكمال التي تتوق إليها نفسي،

ولكني أدّعي غير متحرّج أنني بذلت فيه جُهداً ليس بالقليـل، وأدّعي ـ مع ذلك ـ أنّ هذه المطبوعة أدقّ ما يتداوله الناس من نسخ الكتاب، وأقر بها إلى الصورة التي أرادها المؤلف منه، وأصحُّ ما يعوِّل عليه أهل العلم.

فإن حاز عملي هذا قبول إخوان في الأقطار العربية فذلك من نعمة الله تعالى وتوفيقه وفضله، وإن كانت الأخرى فمعذرتي أنني بذلت المستطاع، ولم أترك جهداً كان من الممكن أن أبذله؛ وبِحَسْبِ المرء من عمله أن تحسُنَ نيته، وأن يقوم فيه بالأسباب التي تبلِّغ القصدَ عادةً، وليس عليه أن يُـدْرِكِ النجح أو تتم له المطالب.

ربِّ إني أبرأ من الحول إلا بك، وأسألك أن تَبْلُغَ بي من خير الدنيا والآخرة ما لا سلطان عليه إلا لك، ربِّ اغفر لي ولوالديّ، ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تَباراً.

القاهرة ٢٦ من رجب الفرد ١٣٥٨ هـ
١٠ من سبتمبر ١٩٣٩ م

كتبه المعتز بالله تعالى
أبـو رجـاء
محمد محيي الدين عبدالحميد

ترجمة ابن الأثير
صاحب كتاب
المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر
(٥٥٨ - ٦٣٧ هـ)

نسبه:

هو أبو الفتح نصرُ الله ضياءُ الدين بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشَّيْبَانِي، المعروف بابن الأثير، الْجَـزْرِيّ، الْمَوْصِلِيّ.

مولده:

وُلد نصرُ الله بن الأثير في يوم الخميس العشرين من شعبان عام ثمان وخمسين وخمسمائة؛ بجزيرة ابن عمر.

وجزيرة ابن عمر - على ما يقول ياقوت الحموي معاصرُ أبناء الأثير الثلاثة -: «بلدة فوق الموصل، بينهما ثلاثة أيام، ولها رُسْتَاق مخصب واسع الخيرات، وأحسب أن أول مَنْ عَمَرَها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي، وكانت له إمرة بالجزيرة وذكر، قرابة سنة ٢٥٠ هـ، وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال؛ ثم عمل هناك خندق أجري فيه الماءُ، ونصبت عليه رَحًى فأحاط بها الماء من جميع جوانبها بهذا الخندق»[١] ويقول ابن خلكان[٢]: «أكثر الناس يقولون إنها جزيرة ابن عمر، ولا أدري مَنِ ابنُ عمر، وقيل إنها منسوبة إلى يوسف بن عمر الثقفي أمير العراقين؛ ثم إني

(١) انظر معجم البلدان (٣ - ١٠٢ مصر).

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (٢ - ٣٦ الوطن بمصر).

ظفرت بالصواب في ذلك، وهو أن رجلاً من أهل برقعيد من أعمال الموصل بناها وهو عبدالعزيز بن عمر، فأضيفت إليه، ورأيت في بعض التواريخ أنها جزيرة ابني عمر أوْسٍ وكاملٍ، ولا أدري أيضاً مَنْ هُمَا، ثم رأيت في تاريخ ابن المستوفي في ترجمة أبي السعادات المبارك بن محمد (هو أخو نصرالله بن الأثير الذي نترجمه) أنه من جزيرة أوس وكامل ابني عمر بن أوس الثعلبي».

فالجزريُّ في نسب ابن الأثير نسبة إلى جزيرة ابن عمر هذه.

نشأته وحياته:

نشأ أبو الفتح نصرالله بن الأثير بجزيرة ابن عمر، ثم انتقل مع والده إلى المَوْصِل، وبها اشتغل بحفظ القرآن الكريم وتحصيل العلوم، فحفظ القرآن، وكثيراً من الأحاديث النبوية، وطرفاً صالحاً من النحو واللغة وعلم البيان، وشيئاً كثيراً من الشعر قديمه وحديثه.

ولما كملت له الأدوات قصد في شهر ربيع الأول من عام سبع وثمانين وخمسمائة جَنَابَ السلطان الملك الناصر أبي المظفر صَلَاح الدين يُوسُفَ ابن الأمير نجم الدين أيُّوبَ بن شَادِي بن مَرْوان؛ فاستعان بالقاضي الفاضل أبي علي عبدِ الرحيم بنِ علي بن محمد بن حسن اللخميّ البيسانيّ[1]، وهو يومئذ آثر الناس عند صلاح الدين؛ فوصله القاضي بخدمة صلاح الدين في جمادى الآخرة من العام نفسه، ولم تطل به الإقامة في خدمة صلاح الدين، حتى أرسل الملكُ الأفضلُ نور الدين علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، إلى أبيه صلاح الدين، يطلب أن يرسل إليه ابن الأثير، فخيّره صلاحُ الدين بين أن يقيم في خدمته وأن ينتقل إلى خدمة ولده نور الدين؛ فاختار أن ينتقل إلى خدمة نور الدين، فمضى إليه في شوال من العام نفسه، وهو يومئذ شاب لم يكمل العقد الثالث من عمره؛ فاستوزره الملك الأفضل، وحسنت حالته عنده.

---

(١) توفي القاضي الفاضل في عام ٥٩٦ من الهجرة.

ولما خلص للملك الأفضل مُلْكُ دمشق بعد وفاة أبيه: «استقلَّ ضياءُ الدين بن الأثير بالوزراة، ورُدَّت أمُور الناس إليه، وصار الاعتماد في جميع الأحوال عليه»[1] فأساء ضياءُ الدين السيرة ويقول ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة[2]. إنه: «شغف قلوبَ الجند إلى مصر حتى ساروا إليها فلقيهم الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين، وأكرم مثواهم»: «ولما انفصل الجند عن دمشق فوّض الملك الأفضل أمر الدولة إلى وزيره ابن الأثير وحاجبه الجمال محاسن ابن العجمي، ولم يكن أحدهما أحسن سياسة من الآخر، فأفسدا عليه الأحوال وكانا سبباً في زوال دولَتِهِ»[3]، ويقال[4]: «إن أهل البلاد حينما خرج الأفضلُ هموا بقتل ضياء الدين بن الأثير، وإن الحاجب ابن العجمي أخرجه مستخفياً في صندوق مقفل عليه، ثم صار إليه وصحبه إلى مصر»؛ ويقال: «إن الملك الأفضل حينما عاد إلى البلاد الشرقية طلب إلى ضياء الدين أن يخرج معه ليعود إلى خدمته، فلم يقبل ذلكَ لأنه خاف على نفسه من جماعة كانوا يقصدونه». ولما استقرّ الملك الأفضل في سميساط عاد إلى خدمته، ولكنه لم يطل مقامه عنده، وما عتم أن فارقه، واتصل بخدمة الملك الظاهر غازي صاحب حلب، وهو أخو الملك الأفضل، ولم يطل مقامه عنده أيضاً، ولا انتظم أمره، فعاد إلى الموصل، فلم يستقم حاله أيضاً، فترك الموصل إلى إربل، ثم فارقها إلى سنجار، ثم عاد إلى الموصل واتخذها دار إقامته وكتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر عزّ الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه. ويقول تقيّ الدين أحمد بن علي المقريزي في كتاب السلوك[5]: «واستوزر الأفضلُ الوزيرَ ضياء الدين نصرالله بن محمد بن الأثير، وفوض إليه أموره كلها؛ فحسَّن له طرد أمراء أبيه وأكابر أصحابه، وأن يستجدَّ أمراء غيرهم؛ ففارقه جماعة منهم الأمير فخر الدين جَهَارَكْس، وفارس الدين ميمون القصري،

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان (٣ ـ ٦٥).
(٢) ص، ١٢ ج ٦.
(٣) النجوم الزاهرة (٦ ـ ١٢٢).
(٤) وفيات الأعيان (٣ ـ ٦٥).
(٥) القسم الأول ص ١١٥.

وشمس الدين سنقر الكبير، وكانوا عظماء الدولة. فصاروا إلى الملك العزيز بالقاهرة فأكرمهم، وولي فخر الدين أُسْتَا داره وفوّض إليه أمره؛ وجعل فارس الدين وشمس الدين على صيداء وأعمالها، وكان ذلك لهما، وزادهما نابلس وبلادها؛ وسار القاضي الفاضل أيضاً من دمشق ولحق بالقاهرة، فخرج العزيز إلى لقائه، وأجلّ قدومه وأكرمه، فشرع القومُ في تقرير قواعد ملك العزيز، والأفضلُ في شغل عنهم»، ويقول أيضاً: إنه في سنة ٥٩٠ تسعين وخمسمائة قويت الوحشة بين العزيز وأخيه الأفضل، وتنافرت القلوب، واضطربت أحوال الأفضل، وخرج العزيز من القاهرة بعساكر مصر يريد الشام لينتزعها من أخيه الأفضل، «وهمَّ الأفضل بمراسلة أخيه العزيز واستعطافه؛ فمنعه من ذلك وزيره ابن الأثير وعدة من أصحابه، وحسّنوا له محاربته»[١]، ويقول أيضاً[٢]: «وفي سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وصل الملك الأفضل إلى دمشق، وتفرقت العساكر إلى بلادها، ولزم الأفضل الزهد، وأقبل على العبادة. وصارت أمور الدولة بأسرها مفوضة إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير، فاختلت به الأحوال غاية الاختلال، وكثر شاكوه».

ومؤرخو هذا العصر مجمعون على أن ضياء الدين بن الأثير كان في وزارته سيىء السيرة مع رجال الدولة، وأن أحوال السلطنة كانت تسوء بسببه، ونحن نأخذ عليه أمرين: أحدهما: أنه كان يحاول الإيقاع بين الملك الأفضل وأخيه العزيز صاحب مصر، وكلما هم الأفضل بالاتّفاق مع أخيه وإعادة الصفاء بينهما اجتهد ضياء الدين في تنفيره وإبقاء الجفاء، مع ما كانت تتطلبه حال المسلمين في ذلك الوقت من اتحاد الكلمة واجتماع الشمل؛ إذ كان الصليبيون في نزاع دائم معهم وكانوا يهتبلون فرصة انقسامهم واختلافهم ليغيروا على البلاد وينتقصوها من أطرافها؛ والأمر الثاني: أنه كان سبباً في إغضاب القاضي الفاضل وخروجه من دمشق إلى مصر، مع أن القاضي هو الذي قرّبه من الملوك وفتح له باب الاتّصال بصلاح الدين على ما سبق بيانه.

---

(١) القسم الأول ص ١١٦. (٢) القسم الأول ص ١٢٩.

ولسنا ندري أكان ذلك راجعاً إلى المحيط الذي كان يعيش فيه ضياء الدين، وهو محيط مضطرب دائم الاصطخاب كثير المنازعات والمشاكل، أم كان يرجع إلى خلق فيه؛ فإنا نلمح في كتابته آثار الكبرياء والصلف والاعتداد بالنفس، وهذا خلق ينأى بصاحبه كثيراً عن الحكمة والاتزان والنظر إلى الأمور بعين الإنصاف ووزنها بميزان الروية والعقل.

مؤلفات ابن الأثير:

ذكر ابن خلكان لابن الأثير عدة مؤلفات، وصدَّر كلامه عليها بقوله[1]: «ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله وتحقيق نبله».

ونحن نذكر لك ما ذكره ابن خلكان وغيره من مصنفاته؛ فنقول:

١ ــ أشهر هذه المؤلفات هو كتاب «المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر»، وهو كتابنا هذا الذي نقدمه الآن؛ ويقول عنه ابن خلكان[2]: «وهو في مجلدين جمع فيه فأوعى، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتاب إلا ذكره».

٢ ــ ومن مؤلفاته كتاب «الوَشْي المرقوم، في حل المنظوم»، ويقول عنه ابن خلكان[3]: «وهُو مع وجازته في غاية الحسن والإفادة»، وقد طبع هذا الكتاب في عام ١٢٩٨ من الهجرة بمطبعة ثمرات الفنون بمدينة بيروت؛ ويقول المؤلف في أوله: «ولما ألفت كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر قَصَرْت فصلاً منه على ذكر هذه الطريقة[4] وأتيت فيها بالمعاني الجليلة التي تفتقر إلى الفهم الدقيق، غير أني أحلت في مواضع منه على هذا الكتاب؛ وجعلت لذلك رمز الاختصار ولهذا مكاشفة الإسهاب... وبنيته على مقدمة وثلاثة فصول: الفصل الأول، في حل الشعر؛ الفصل الثاني، في حل آيات القرآن؛ الفصل الثالث، في حل الأخبار النبوية» اهـ.

---

(١) و(٢) و(٣) وفيات الأعيان (٣ ـ ٦٦ الوطن بمصر).

(٤) يشير إلى الباب العاشر من مقدمة الكتاب وهو في الطريق إلى تعلم الكتابة وهو في الجزء الأول(٩١ ـ ١٤٨) من هذه المطبوعة.

٣ ـ ومن مؤلفاته كتاب «المعاني المخترعة، في صناعة الإنشاء»، يقول عنه ابن خلكان(١): «وهو أيضاً نهاية في بابه».

٤ ـ ومن مؤلفاته مجموع اختار فيه شعر أبي تمام والبحتري وديك الجن والمتنبي؛ ويقول عنه ابن خلكان: وهو في مجلد واحد كبير، وحفظه مفيد؛ وقال أبو البركات ابن المستوفي في تاريخ إربل: نقلت من خطه في آخر كتابه المختار ما مثاله:

تَمَتَّعْ بِهِ عِلْقاً نَفِيساً فَإِنَّهُ اخْـ ـتِيَارُ بَصِيرٍ بِالأُمُورِ حَكِيمِ
أَطَاعَتْهُ أَنْوَاعُ الْبَلَاغَةِ فَاهْتَدى إِلَى الشِّعْرِ مِنْ نَهْجٍ إِلَيْهِ قَوِيمِ

٥ ـ وَمن مؤلفاتِهِ «ديوان ترسُّل» ويقول عنه ابن خلكان: وهو في عدة مجلدات؛ وذكر المؤلف نفسه في كتاب المثل السائرِ أنَّ رسائله تبلغ كثيراً من المجلدات.

٦ ـ ومن مؤلفاته «المختار من ديوان الترسُّل» ويقول عنه ابن خلكان: «وهو في مجلد واحد».

هذا ما ذكره ابن خلكان من مؤلفاته، وابن خلكان معاصر لابن الأثير، وإن لم يقابله، وهو يقول في شأنه(٢): «ولقد ترددت إلى الموصل من إربل أكثر من عشر مرات، وهو مقيم بها، وكنت أود الاجتماع به لآخذ عنه شيئاً لما كان بينه وبين الوالد رحمه الله تعالى من المودة الأكيدة، فلم يتفق ذلك، ثم فارقت بلاد المشرق، وانتقلت إلى الشام، وأقمت به مقدار عشر سنين، ثم انتقلت إلى الديار المصرية، وهو في قيد الحياة، ثم بلغني بعد ذلك خبر وفاته وأنا بالقاهرة» اهـ.

ومن مؤلفاته التي لم يذكرها ابن خلكان، ووقفنا عليها ما نذكره لك:

٧ ـ منها كتاب «الجامع الكبير، في صناعة المنظوم والمنثور» وهو

(١) و(٢) وفيات الأعيان (٣ ـ ٦٦ الوطن بمصر).

يقول في مفتتحه: «أما بعد فلما كان تأليف الكلام مما لا يوقف على غَوْره، ولا يُعْرَف كنه أمره، إلا بالاطّلاع على علم البيان، الذي هو لهذه الصناعة بمنزلة الميزان؛ احْتَجْتُ حين سَدَوْتُ نبذة من الكلام المنثور، إلى معرفة هذا العلم المذكور، لشرعت عند ذلك في تطلبه، والبحث عن تصانيفه وكتبه، فلم أترك في تحصيله سبيلاً إلا نهجته، ولا غادرت في إدراكه باباً إلا ولجته، حتى اتّضح عندي باديه وخافيه، وانكشفت لي أقوال الأئمة المشهورين فيه؛ كأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، وأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، وأبي عثمان الجاحظ، وقدامة بن جعفر الكاتب، وأبي هلال العسكري، وأبي العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي، وأبي محمد عبدالله بن سنان الخفاجي، وغيرهم ممن له كتاب يشار إليه، وقول تعقد الخناصر عليه؛ ثم لما مضى على ذلك مَلَاوَة من الدهر، وانقضى دونه برهة من العمر، لمحت في أثناء القرآن الكريم من هذا النحو أشياء ظريفة، ووجدت في مَطَاوِيه من هذا النوع نكتاً دقيقة لطيفة، فعرضتها عند ذلك على الأقسام التي ذكرها هؤلاء العلماء وشرحوها، والأصناف التي بينوها في تصانيفهم وأوضحوها؛ فألفيتهم قد غفلوا عنها، ولم ينبهوا على شيء منها، فكان ذلك باعثاً لي على تصفح آيات القرآن العزيز والكشف عن سره المكنون؛ فاستخرجت منه حينئذ ثلاثين ضرباً من علم البيان، لم يأتِ به أحد من أولئك العلماء الأعيان، وكان ما ظفرت به أصل هذا الفن وعمدته، وخلاصة هذا العلم وزبدته».

وفي دار الكتب المصرية نسختان خطيتان من هذا الكتاب: إحداهما: مكتوبة في عام ١٣١٤ من الهجرة، وهي تحت رقم (٣٧٠ بلاغة)، والثانية مكتوبة في عام ١٢٠٥ من الهجرة، وهي تحت رقم (١٦٦ مجاميع م)؛ وفي مكتبتي الخاصة قطعة من هذا الكتاب.

وفي دار الكتب نسخة من كتاب «البديع» منسوبة إلى المبارك أبي السعادات مجد الدين بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري؛ وهو أخو ضياء الدين نصر الله بن الأثير صاحب المثل السائر؛ وأبو السعادات المبارك هو مؤلف كتاب «النهاية، في غريب الحديث

والأثر» ومؤلف كتاب «جامع الأصول، في أحاديث الرسول» ولم يعرف عنه أن له في البلاغة كتاباً، فإذا صحّ أن هذا الكتاب لأحد أبناء الأثير فالغالب أنه لضياء الدين نصر الله الذي نترجمه.

نقد المثل السائر وشروحه:

ولم يكد كتاب «المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر» يظهر حتى تداوله الناس وكتبوه، وأخذوا في التقريظ له، والانتفاع بـه، وذاع أمره في البلاد، حتى نقله الناس إلى بغداد، وفيها الفقيه الأديب الشيخ عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين، المعروف بابن أبي الحديد، وهو شديد الاتصال بالوزير مؤيد الدين محمد أبي طالب بن أحمد بن محمد العلقمي، فلما رأى تقريظ الناس للكتاب واشتغالهم بدراستهِ وتهافتهم على انتساخه تصدّى لمؤاخذته والرد عليه، وعنته، وجمع هذه المؤاخذات في كتاب سماه: «الفلك الدائر، على المثل السائر»، وهو يقول في مفتتح هذا الكتاب: «وبعد؛ فقد وقفت على كتاب نصر الدين[١] بن محمد الموصلي المعروف بابن الأثير الجزري المسمّى كتاب «المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر»؛ فوجدت فيه المحمود والمقبول، والمردود والمرذول؛ أما المحمود منه فإنشاؤه وصناعته، فإنه لا بأس بذلك؛ إلا في الأقل النادر، وأما المردود منه فنظره وجدله واحتجاجه واعتراضه؛ فإنه لم يأت في ذلك في الأكثر الأغلب بما يلتفت إليه، ولا بما يعتمد عليه؛ فحداني على تتبعه ومناقضته في هذه المواضع النظرية أمور: منها إزراؤه[٢] على الفضلاء؛ وغضه منهم، وعيبه لهم، وطعنه عليهم؛ فإن في ذلك ما يدعو إلى الغيرة عليهم، والانتصار لهم ومنها إفراطه في الإعجاب بنفسه، والتبجح برأيه،

---

(١) كذا، وابن الأثير هو نصر الله، وليس هو نصر الدين، كما عرفت في نسبه الذي ذكرناه في أول الترجمة، وما نشك أنه تحريف.

(٢) لقد سلق ابن الأثير كثيراً من علماء هذه الأمة: منهم أبو الفتح بن جنيّ، ومنهم أبو العلاء المعري، ومنهم أبو حامد الغزالي؛ فجازاه الله بتسليط ابن أبي الحديد عليه.

والتقريظ لمعرفته وصناعته، وهذا عيب قبيح يُحْبِطُ عمل الإنسان، ويوجب المقت من الله والعباد؛ ومنها أنه قد أومأ مراراً في كتابه إلى عتاب دهره، إذ لم يعطه على قدر استحقاقه، فأردنا أن نعرّفه أن الأرزاق ليست على مقادير الاستحقاق، وأن الرزق مقسوم لا يجلبه الفضل، ولا يرده النقص؛ ومنها أن جماعة من أكابر الموصل قد حسن ظنهم في هذا الكتاب جداً، وتعصبوا له حتى فضلوه على أكثر الكتب المصنفة في هذا الفن، وأوصلوا منه نسخاً معدودة إلى مدينة السلام (بغداد) وأشاعوه، وتداوله كثير من أهلها؛ فاعترضت عليه بهذا الكتاب، وتقربت به إلى الخزانة الشريفة المقدسة النبوية الإمامية المستنصرية، عمر الله تعالى بعمارتها أندية الفضل ورِبَاعَه وأطال بطول بقاء مالكها يَدَ العلم وبَاعَه، وجعل ملائكة السماء أنصاره وأشياعه، كما جعل ملوك الأرض أعوانه وأتباعه؛ وكان أكثر قصدي في ذلك أن يعلم مصنفُ هذا الكتاب ورؤساء بلدته أن من أصاغر خدم هذه الدولة الشريفة - ولا أعني نفسي فالعجب مُبير، ولا أنبىء عني فمثلي كثير (ثم أخذ في مديح رجال مملكته بما يطول) - وهذا الكتاب وقع إليَّ في غرة ذي الحجة من سنة ثلاث وثلاثين وستمائة؛ فتصفحته أوّلاً أولاً في ضمن الأشغال الديوانية التي أنا بصَدَدها، وعلقت هذا الكتاب في أثناء تصفحه على المواضع المستدركة فيه إلى نصف الشهر المذكور فكان مجموع مطالعتي له واعتراضي عليه خمسة عشر يوماً، ولم أعاود النظر فيه دفعة ثانية، وربما يسنح لي عند المعاودة نكت أخرى، وإن وقع ذلك ألحقتها، وقد سميت هذا الكتاب «الفلك الدائر، على المثل السائر»؛ لأنه شاع في كلامهم وكثر في استعمالهم أن يقولوا لما باد ودثر: قد دار عليه الفَلَك، كأنهم يريدون أنه قد طحنه ومحا صورته، ومن ذلك قول أبي العتاهية:

إنْ كنت تَنْشدهم فإنَّهُمُ ... هَمدُوا وَدَار عَلَيْهِمُ الفَلَكُ

وأنا أسأل الله المعونة والتوفيق، وأستمنحه الهداية إلى سواء الطريق؛ بمنّه وكرمه» اهـ كلامه بحروفه.

ولا أحبُّ أن أعلّق على هذا الكلام، ولكني أقول: إني لما قرأت الكتاب ـ وكنت أفكر في نشره بأسفل صفحات هذا الكتاب عند مواطن النقد ـ لم أجد فيه ما يبعث على تحقيقه وبذل الجهد فيه.

ولم يكتف ابن أبي الحديد بهذا الكتاب، بل هو ينتهز الفرصة في شرحه على نهج البلاغة؛ فينقل كلام ابن الأثير ويعترض عليه، أسمع إليه يقول فيه (١ ـ ٤٤١): «وأنا أحكي هٰهنا كلام نصر الله بن محمد بن الأثير الجزري في كتابه المسمى بالمثل السائر في الكناية والتعريض، وأذكر ما عندي فيه» اهـ، ثم هو ينقل كلاماً طويلاً يقع في نسخة المثل السائر التي نقدمها لك اليوم في الجزء الثاني (من ١٨٠ إلى ٢٠٣) ثم يأخذ بعد ذلك في نقد كلامه نقداً يرجع إلى العبارة وإلى طريق عرضها، ولا يرجع إلى لبابها وحقيقتها، مثل أن يقول: «إنه (يعني ابن الأثير) اختار حد الكناية، وشرع يبرهن على التحديد، والحدود لا يبرهن عليها، ولا هي من باب الدعاوى التي تحتاج إلى الدولة؛ لأن مَنْ وَضَعَ لفظ الكناية لمفهوم مخصوص لا يحتاج إلى دليل، كمن وضع لفظ الجدار للحائط لا يحتاج إلى دليل» اهـ، وأنت ـ أيها القارىء ـ لو رجعت إلى كلام ابن الأثير وجدتَ كلامه يتلخص في أن القوم الذين صنفوا في علم البيان من قبله قد عرّفوا الكناية بتعريف، وأنه لا يرتضي هذا التعريف، وهو يرى تعريفها بتعريف آخر، ويرى تعريفه خيراً من تعريف السابقين؛ وهو يبين أولاً ما ينطبق عليه تعريف السابقين، وما ينطبق عليه تعريفه هو؛ ثم يبرهن في أثناء ذلك على دعواه أن تعريفه خير من تعريف غيره؛ فهذا البرهان ـ إن صحّ أن يكون برهاناً بالمعنى المعروف في علم الجدل ـ ليس على الحد كما زعم ابن أبي الحديد، ولكنه على دعوى ادَّعَاهَا، إنْ صَرَاحَةً وإنْ ضِمْناً، وهي أن ما ارتضاه من التعريف خير مما ذكره المتقدمون؛ والواقع أن كتاب «الفلك الدائر» يبدو لمن يتصفحه وهو منصف أن روح التحامل هي التي أملته على مؤلفه، وأنه كُتب مع رَغْبَة مُلِحَّةٍ في النَّيْل من ابن الأثير والغَضّ من عمله. وليس معنى هذا الكلام أن ابن الأثير قد أصاب في الكتاب كله، وأنه لا مطعن عليه، ولكن الذي نريد أن نقرره في

طمأنينة هو أن ابن أبي الحديد قد تعرض في الغالب لما لا ينبغي أن يتعرض له أديب يؤثر اللباب على القشور، وترك أشياء هي أوْلى بالنظر والرعاية، وعُذْرُه أنه قرأ الكتاب وكتب نقده عليه في خمسة عشر يوماً هو مشتغل في أثنائِها بعمله في الدولة؛ فهو - فيما نرى اليوم - أشبه بتقرير من تقريرات حضرات «الموظفين» في أمر من الأمور التي يكلفون مباشرة تنفيذها؛ إذ يكتبونه وهم يعلمون أنه لن يقرأ، وإن قرىء فلن يعمل بما فيه؛ ومن قرأ كتاب «الفلك الدائر» ثم قرأ عشرة أوراق من شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة في مكان أي مكان منه يتبين له الفرق بين الكتابين، ويدرك تمام الإدراك قيمة رأينا هذا في هذا الكتاب.

قال صاحب كشف الظنون (٢ - ٢٢٢ بولاق مصر): «وشرحه أبو منصور موهوب بن أبي طاهر الجواليقي[1] المتوفى في عام . . . هـ، وصنّف بعضهم كتاباً سماه «الروض الزاهر، في محاسن المثل السائر» وصنّف عز الدين بن أبي الحديد كتاباً سماه «الفلك الدائر، على المثل السائر» وصنف أبو القاسم محمود بن الحسين الركن السنجاري المتوفى في عام ٦٤٠ هـ كتاباً يرد فيه عليه وسماه «نشر المثل السائر، وطي الفلك الدائر» وصنّف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي المتوفى في عام ٧٦٤ هـ كتاباً سماه «نصرة الثائر، على المثل السائر»، وصنف عبد العزيز بن عيسى كتاباً سماه «قطع الدابر، عن الفلك الدائر» اهـ.

ربّ اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

ربّ ولا تُخْزِني يوم القيامة؛ واجعلني عندك من المقبولين؛ آمين.

كتبه المعتز بالله تعالى
أبو رجاء
محمد محيي الدين عبد الحميد

---

(١) كذا قال صاحب كشف الظنون، وهو غير معقول؛ لأن أبا منصور الجواليقي توفي في عام تسعة وثلاثين وخمسمائة، والمثل السائر صنف بعد الستمائة، بل مولد مؤلفه بعد وفاة الجواليقي بعشرين عاماً؛ وإنما شرح الجواليقي أدب الكاتب لابن قتيبة فاعرف ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله رَبَّنا أنْ يَبْلغَ بنا من الحمد ما هو أهْلُه، وأن يُعَلِّمنا من البيان ما يَقْصُر عنه مزيَّةُ الفضل[١] وأصْلُه، وحِكمة الخطاب وفَضْله؛ ونَرْغَبُ إليه أن يوفقنا للصلاة على نبينا ومولانا محمد رسوله الذي هو أفصح من نطق بالضاد، ونَسَخَ هَدْيه شريعة كل هاد، وعلى آله وصحبه الذي منهم من سَبَقَ وبَدَر، ومنهم من صابر وصَبَر، ومنهم من آوى ونَصر[٢].

وبعد؛ فإن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام؛ وقد ألّف الناس فيه كتباً، وجَلَبُوا ذَهَباً وحَطَباً، وما مِنْ تأليف إلّا وقد تَصَفَّحتُ شينه وسينه[٣]، وعلمت غَثَّه وسَمِينه؛ فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلّا كتاب المُوَازَنة لأبي القاسم الحسن بن بِشْرٍ الآمديّ، وكتاب سر الفصاحة لأبي محمد عبدالله بن سِنَانٍ الْخفاجِيّ، غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولاً، وأجدى

---

(١) هكذا في جميع نسخ الأصل، وهو أصول الوجهين، وذلك لأن الفاعل لما كان مضافاً إلى مذكر اكتسب منه التذكير، ولما كان معطوفاً على المذكر آثره بالاعتبار، لا جرم أنه أتى بالفعل مذكراً لهذين الوجهين.

(٢) بدر: سبق، ومثله بادر في نحو قولك: بادرت الأمر، وبادرت إليه، تريد أنك سبقت الناس إلى فعله، و «آوى ونصر» أراد به أهل المدينة من أنصار النبي ﷺ، ويشير إلى قوله تعالى في سورة الأنفال «آية ٧٤»: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

(٣) يريد جيده ورديئه، وعبر بالشين عن شريف القول وجيده، وعبر بالسين المهملة عن ساقط الكلام وسخيفه؛ فأخذ من كل واحد من اللفظين حرفاً، وذلك من عادة العرب في كلامهم، وإن كانوا لا يجرون في ذلك على قياس متلئب، انظر إلى قول الراجز:

قُلْنَا لَهَا قِفِي فَقَالَتْ قَافْ ... لَا تَحْسَبِي أَنَّا نَسِينَا ٱلإِيجَافْ

محصولاً، وكتاب سر الفصاحة ـ وإن نَبَّه فيه على نكت منيرة ـ فإنه قد أكثر، مما قَلَّ به مقدار كتابه، مِنْ ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها، ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لا حاجة إلى أكثره، ومن الكلام في مواضع شذَّ عنه الصوابُ فيها، وسيرد بيان ذلك كله في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. على أن كِلَا الكتابين قد أهملا(١) من هذا العلم أبواباً، ولربما ذكرا في بعض المواضع قشوراً وتركا لُبَاباً، وكنت عَثَرْتُ على ضروب كثيرة منه في غضون القرآن الكريم، ولم أجد أحداً ممن تَقَدَّمني تعرّض لذكر شيء منها، وهي إذا عُدَّتْ كانت في هذا العلم بمقدار شَطْره، وإذا نُظر إلى فوائدها وُجِدت محتوية عليه بأسْرِه، وقد أوردتها ههنا، وشفعتها بضروب أخر مُدَوَّنة في الكتب المتقدمة، بعد أن حذفت منها ما حذفته، وأضفت إليها ما أضفته، وهداني الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلي مُبْتَدَعة، ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعة وإنما هي مُتَّبَعَة، وكل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابي هذا وعلى غيره من الكتب.

وقد بنيته على مقدمة ومَقَالَتَيْن؛

فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان؛

ولا أدّعي فيما ألفته من ذلك فضيلة الإحسان، ولا السلامة من سلق(٢) اللسان؛ فإن الفاضل من تُعَدّ سَقَطاته، وتحصى غَلَطَاته.

وَيُسِيءُ بِالإِحْسَانِ ظَنًّا، لا كَمَنْ هُوَ بِابْنِهِ وَبِشِعْرِهِ مَفْتُونُ(٣)

---

(١) هذا استعمال قليل، والأكثر في الضمير الذي يعود على كلا وكلتا أن يكون مفرداً؛ نظراً إلى لفظ كلا، ومن الأكثر قوله تعالى في سورة الكهف «آية ٣٣»: ﴿**كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً**﴾ وقد جاء في كلام العرب تثنية الضمير العائد إليها نحو قول الفرزدق:

كِلَاهُمَا حِينَ جَدَّ الجَرْيُ بَيْنَهُمَا قَدْ أَقْلَعَا وَكِلَا أَنْفَيْهِمَا رَابِي

(٢) سلق اللسان: حدته.

(٣) هذا بيت من الشعر لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي من قصيدة له يمدح فيها الواثق بالله، وأولها:

=

وإذا تركت الهوى قلت: إن هذا الكتاب بديع في إغرابه، وليس له صاحب في الكتب فيقال: إنه من أخدانه أو من أتْرَابه، مُفْرَد بين أصحابه، ومع هذا فإني أتيت بظاهر هذا العلم دون خافيه، وحُمْتُ حول حماه ولم أقع فيه؛ إذ الغرض إنما هو الحصول على تعليم الكلم التي بها تُنْظَم العقود وتُرَصَّع، وتخلَب العقول فتُخْدَع، وذلك شيء تحيل عليه الخواطر، لا تنطق به الدفاتر.

واعلم ـ أيها الناظر في كتابي ـ أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم، الذي هو أنفع من ذوق التعليم، وهذا الكتاب ـ وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذاً، وإذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا ـ فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نَفْعاً، وأهدى بصراً وسمعاً، وهما يُرِيَانِكَ الخبر عياناً، ويجعلان عسرك من القول إمكاناً، وكلَّ جارحة منك قلباً ولساناً، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك، واستنبط بإدمانك ما أخطاك، وما مثلي فيما مَهَّدته لك من هذه الطريق إلا كَمَنْ طَبَعَ سيفاً ووضعه في يمينك لتقاتل به، وليس عليه أن يخلق لك قلباً، فإن حمل النصال، غَيْرُ مباشرة القتال.

وَإِنَّمَا يَبْلُغُ الإِنْسَانُ غَايَتَهُ مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلَالُ[1]

ولنرجع إلى ما نحن بصدده، فنقول: أما مقدمة الكتاب، فإنها تشتمل على عشرة فصول:

= وَأَبِي الْمَنَازِلُ إِنَّهَا لَشُجُونُ وَعَلَى الْعُجُومَةِ إِنَّهَا لَتُبِينُ

وقد وقع هذا البيت في جميع النسخ المطبوعة كأنه كلام منثور لا يتميز مما قبله ولا مما بعده.

(١) هذا البيت لأبي الطيب المتنبي، من قصيدته التي يمدح فيها أبا شجاع فاتكاً، والتي أولها:

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالُ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الحَالُ

والشملال ـ بكسر الشين وسكون الميم ـ الناقة القوية السريعة، وفي نسخ الديوان: «وإنما يبلغ الإنسان طاقته» و «بالرحل» هو بفتح الراء المهملة بعدها حاء مهملة أيضاً، وهذا موافق لما في نسخ الديوان، إلا التي شرح عليها العكبري، فإن فيها «بالرجل» بكسر الراء، وبالجيم ـ وعبارة العكبري تدل على أنه كذلك قرأها.

الفصل الأول

في موضوع علم البيان

موضوع كل علم: هو الشيء الذي يُسْأل فيه عن أحواله التي تعرض لذاته؛ فموضوع الفقه هو أفعال المكلفين، والفقيه يسأل عن أحوالها التي تعرض لها: من الْفَرْض والنَّفْل والحلال والحرام والندب والمباح، وغير ذلك، وموضوع الطبِّ هو بدن الإنسان، والطبيب يسأل عن أحواله التي تعرض له من صحته وسقمه، وموضوع الحساب هو الأعداد، والحاسب يُسْأل عن أحوالها التي تعرض لها من الضرب والقسمة والنسبة، وغير ذلك، وموضوع النحو هو الألفاظ والمعاني، والنحوي يسأل عن أحوالهما في الدلالة من جهة الأوضاع اللغوية، وكذلك يجري الحكم في كل علم من العلوم، وبهذا الضابط انفرد كل علم برأسه، ولم يختلط بغيره، وعلى هذا فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة، وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية، وهو والنحوي يشتركان في أن النحويّ ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي، وتلك دلالة عامة، وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة، وهي دلالة خاصة، والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن، وذلك أمر وراء النحو والإعراب، ألا ترى أن النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع إعرابه، ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة، ومن هٰهُنَا غلط مُفَسِّرو الأشعار في اقتصارهم على شرح المعنى وما فيها من الكلمات اللغوية، وتبيين مواضع الإعراب منها، دون شرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة.

الفصل الثاني

في آلات علم البيان وأدواته

اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة، وقد قيل: ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم، حتى قيل: كلُّ ذي علم يَسُوغ له أن يَنْسُبَ نفسَه إليه فيقول: فلان النحوي، وفلان الفقيه، وفلان المتكلم، ولا يسوغ له أن ينسب نفسه إلى الكتابة فيقول: فلان الكاتب، وذلك لما يفتقر إليه من الخوض في كل فَن.

ومِلَاكُ هذا كلِّه الطبعُ[١]؛ فإنه إذا لم يكن ثَمَّ طبع فإنه لا تغني تلك الآلات شيئاً؛ ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد والحديدة التي يقدح بها؛ ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئاً؟.

وكثيراً ما رأينا وسمعنا من غرائب الطباع في تعلّم العلوم، حتى إن بعض الناس يكون له نَفَاذ في تعلم علم مُشْكل المَسْلَك صَعْب المأخذ، فإذا كُلِّفَ تعلمَ ما هو دونه مِنْ سَهْل العلوم نَكَص على عَقِبَيْه، ولم يكن له فيه نَفَاذ.

وأغرب من ذلك أن صاحب الطبع في المنظوم يُجِيدُ في المديح دون الهجاء، أو في الهجاء دون المديح، أو يجيد في المراثي دون التهاني، أو في التهاني دون المراثي، وكذلك صاحب الطبع في المنثور؛ هذا ابْنُ الحريري صاحب المقامات؛ قد كان ـ على ما ظَهَرَ عنه من تَنْمِيق المقامات ـ واحداً في فَنّه، فلما حَضَرَ ببغداد ووقف على مقاماته قيل: هذا يستصلح لكتابة الإنشاء في ديوان الخلافة، ويَحْسُن أثره فيه، فأُحضر، وكُلِّف كتابة كتاب، فأُفحم، ولم يجر لسانه في طويلة ولا قصيرة، فقال فيه بعضهم:

---

(١) ملاك الشيء ـ بكسر الميم بزنة كتاب، وبفتح الميم أيضاً بزنة سحاب ـ: هو ما يقوم به الشيء، ومن هذا قولهم: القلب ملاك الجسد.

شَيْـخٌ لَنَـا مِنْ رَبِيعَـةِ الْفَـرَسِ ... يَـنْتِفُ عُثْنُـونَـهُ مِنَ الْـهَـوَسِ
أنْـطَقَـهُ ٱلـلَّهُ بِـالمِشَـانِ وَقَـدْ ... أَلْجَمَـهُ في بَغْـدَادَ بِـالْخَـرَسِ

وهذا مما يُعْجَبُ منه.

وسُئِلْتُ عن ذلك فقلت: لا عجب؛ لأن المقامات مدارها جميعها على حكاية تخرج إلى مخلص. وأما المكاتبات فإنها بحر لا ساحل له؛ لأن المعاني تتجدَّد فيها بتجدُّد حوادث الأيام، وهي متجددة على عدد الأنفاس، ألا ترى أنه إذا خطب الكاتبُ المُفْلِق عن دولة من الدُّوَل الواسعة التي يكون لسلطانها سيف مشهور، وسعي مذكور، ومَكَث على ذلك بُرْهة يسيرة لا تبلغ عشر سنين، فإنه يُدَوَّن عنه من المكاتبات مما يزيد على عشرة أجزاء، كل جزء منها أكبر من مقامات الحريري حجماً؛ لأنه إذا كتب في كل يوم كتاباً واحداً اجتمع من كتبه أكثر من هذه العدة المشار إليها، وإذا نُخِلت وغُرْبلت واختير الأجود منها إذ تكون كلها جيدة فيخلص منها النصف، وهو خمسة أجزاء، والله يعلم ما اشتملت عليه من الغرائب والعجائب، وما حصل في ضمنها من المعاني المبتدعة، على أن الحريري قد كتب في أثناء مقاماته رِقَاعاً في مواضع عدة، فجاء بها مُنْحَطّة عن كلامه في حكاية المقامات، لا، بل جاء بالغثّ البارد الذي لا نسبة له إلى باقي كلامه فيها، وله أيضاً كتابة أشياء خارجة عن المقامات، وإذا وقف عليها أقسم أن قائل هذه ليس قائل هذه؛ لما بينهما من التفاوت البعيد.

وبلغني عن الشيخ أبي محمد [عبدالله بن أحمد] بن الخشاب النحوي رحمه الله أنه كان يقول: ابن الحريريّ رجلُ مقاماتٍ: أي أنه لم يحسن من الكلام المنثور سواها، وإن أتى بغيرها لا يقول شيئاً.

فانظر أيها المتأمل إلى هذا التفاوت في الصناعة الواحدة من الكلام المنثور؛ ومن أجل ذلك قيل: شيئان لا نهاية لهما: البيان، والجمال.

وعلى هذا فإذا ركب الله تعالى في الإنسان طبعاً قابلاً لهذا الفن فيفتقر حينئذ إلى ثمانية أنواع من الآلات.

النوع الأول: معرفة علم العربية من النحو والتصريف.

النوع الثاني: معرفة ما يحتاج إليه من اللغة، وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوَحْشِيِّ الغريب ولا المستكره الْمَعِيب.

النوع الثالث: معرفة أمثال العرب وأيامهم، ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بأقوام؛ فإن ذلك جرى مجرى الأمثال أيضاً.

النوع الرابع: الاطِّلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منه والمنثورة، والتحفظ للكثير منه.

النوع الخامس: معرفة الأحكام السلطانية: الإمامة، والإمارة، والقضاء، والْحِسْبة، وغير ذلك.

النوع السادس: حفظ القرآن الكريم، والتدرُّب باستعماله وإدراجه في مَطاوي كلامه.

النوع السابع: حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي ﷺ، والسلوك بها مَسْلَكَ القرآن الكريم في الاستعمال.

النوع الثامن: وهو مختص بالناظم دون الناثر ـ وذلك علم العروض والقوافي الذي يقام به ميزان الشعر.

ولنذكر بعد ذلك فائدة كل نوع من هذه الأنواع؛ ليعلم أن معرفته مما تَمَسُّ الحاجة إليه، فنقول:

النوع الأول: أما علم النحو فإنه في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد في تعليم الخط وهو أول ما ينبغي إتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي، ليأمن مَعَرَّةَ اللحن، ومع هذا فإنه، وإن احتيج إليه في بعض الكلام دون بعض لضرورة الإفهام، فإن الواضع لم يخص منه شيئاً بالوضع، بل جعل الوضع عاماً، وإلا فإذا نظرنا إلى ضرورته وأقسامه المدوَّنة وجدنا أكثرها غير محتاج إليه في إفهام المعاني، ألا ترى أنك لو أمرت رجلاً بالقيام فقلت له: قُومْ، بإثبات الواو ولم

تجزم، لَمَا اختل من فهم ذُلك شيء، وكذلك الشرط لو قلت: إنْ تَقُوم أَقُوم، ولم تجزم، لكان المعنى مفهوماً، والفضلات كلها تجري هذا المجرى، كالحال والتمييز والاستثناء، فإذا قلت: جاء زيدٌ راكبْ، وما في السماء قَدْرُ راحةٍ سحابْ، وقام القوم إلا زيْد، فلزمت السكون في ذلك كله، ولم تبين إعراباً؛ لما توقّف الفهم على نصب الراكب والسحاب، ولا على نصب زيد، وهكذا يقال في المجرورات، وفي المفعول فيه، والمفعول له، والمفعول معه، وفي المبتدإ والخبر، وغير ذلك من أقسام أخر لا حاجة إلى ذكرها.

لكن قد خرج عن هذه الأمثلة ما لا يفهم إلا بقيود تُقَيِّده، وإنما يقع ذلك في الذي تدل صيغته الواحدة على معانٍ مختلفة، ولنضرب لذلك مثالاً يوضحه فنقول:

اعلم أن من أقسام الفاعل والمفعول ما لا يفهم إلا بعلامة كتقديم المفعول على الفاعل؛ فإنه إذا لم يكن ثم علامة تبين أحدهما من الآخر وإلا أشكل الأمر كقولك: ضَرَبَ زيْد عَمْرو، ويكون زيد هو المضروب؛ فإنك إذا لم تنصب زيداً وترفع عمراً، وإلا لا يفهم ما أردت؛ وعلى هذا ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وكذلك لو قال قائل: ما أَحْسَنَ زيْد، ولم يبين الإعراب في ذلك، لما علمنا غرضه منه؛ إذ يحتمل أن يريد به التعجب من حسنه، أو يريد به الاستفهام عن أي شيء منه أحسن، ويحتمل أن يريد به الإخبار بنفي الإحسان عنه، ولو بيَّن الإعراب في ذلك فقال: ما أَحْسَنَ زَيْداً، وَمَا أَحْسَنُ زَيْدٍ، وما أَحْسَنَ زَيْدٌ؛ علمنا غرضه، وفهمنا مَغْزَى كلامه؛ لانفراد كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة بما يعرف بـه من الإعراب؛ فوجب حينئذ بذلك معرفةُ النحو؛ إذ كان ضابطاً لمعاني الكلام، حافظاً لها من الاختلاف.

وأول من تكلم في النحو أبو الأسود الدُّؤَلي، وسبب ذلك أنه دخل على ابنة لـه بالبصـرة فقالت لـه: يا أَبَتِ مَا أَشَدُّ الحر، متعجبة، ورفعت أشـد، فظنهـا مستفهمة، فقال: شَهْر ناجر؛ فقالتْ: يا أبتِ إنما أَخْبـرتك وَلم أسـألك! فـأتى عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، ذهبت لغة العرب،

ويوشك إن تَطَاوَلَ عليها زمان أن تَضْمَحِلَّ، فقال له: وما ذاك؟ فأخبره خبر ابنته، فقال: هَلُمَّ صحيفةً، ثم أملى عليه «الكلام لا يخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى» ثم رسم له رسوماً فنقلها النحويون في كتبهم.

وقيل: «إن أبا الأسود دخل على زياد ابن أبيه بالبصرة فقال: إني أرى العرب قد خالطت العجم، وتغيرت ألسنتها، أفتأذن لي أن أصنع ما يُقيمُونَ به كلامهم؟ فقال: لا، فقام من عنده، ودخل عليه رجل فقال: أيها الأمير، مات أَبَانَا، وخَلَّف بنون، فقال زياد: مات أبانا وخلف بَنون!! مَهْ، رُدُّوا عليَّ أبا الأسود. فردُّوه، فقال له: اصنع ما كنتُ نَهَيْتُكَ عنه، فوضع شيئاً.

ثم جاء بعده مَيْمُونُ الأقران فزاد عليه، ثم جاء بعده عَنْبَسَة بن مَعْدَان المهري، فزاد عليه، ثم جاء بعده عَبْدُالله بن أبي إسحٰق الْحَضْرَمي، وأبو عَمْرو بن العلاء، فزادا عليه، ثم جاء بعدهما الخليل بن أحمد الأَزْدِيّ، وتتابع الناس، واختلف البصريون والكوفيون في بعض ذلك.

فهذا ما بلغني من أمر النحو في أول وضعه، وكذلك العلوم كلها: يوضع منها في مبادي أمرها شيء يسير، ثم يزاد بالتدريج إلى أن يستكمل آخراً.

فإن قيل: أما علم النحو فمسلَّم إليك أنه تجب معرفته، لكن التصريف لا حاجة إليه؛ لأن التصريف إنما هو معرفة أصل الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها، وهذا لا يضرُّ جهله، ولا تنفع معرفته، ولنضرب لذلك مثالاً كيف اتفق، فنقول: إذا قال القائل: رأيت سِرْدَاحاً[1]، لا يلزمه أن يعرف الألف في هذه الكلمة زائدة هي أم أصليه؛ لأن العرب لم تنطق بها إلا كذلك، ولو قالت سِرْدَحاً، بغير ألف، لما جاز لأحد أن يزيد الألف فيها من عنده فيقول سرداحاً، فعلم بهذا أنه إنما ينطق الألفاظ

(١) السرداح ـ بكسر السين المهملة وسكون الراء ـ الناقة الطويلة ـ والضخم من كل شيء، والأسد القوي الشديد، والألف التي قبل آخره مزيدة للإلحاق بقرطاس وللصرفيين فيها كلام طويل لا يسعنا أن نذكره في هذه العجالة (انظر الجزء الأول من شرح شافية ابن الحاجب: ص ٥٧).

كـما سمعت عن العرب، من غير زيادةٍ فيها ولا نقص، وليس يلزم بعد ذلك أن يعلم أصلها ولا زيادتها؛ لأن ذلك أمر خارج تقتضيه صناعة تأليف الكلام.

فالجواب عن ذلك أنّا نقول: اعلم أنا لم نجعل معرفة التصريف كمعـرفة النحو؛ لأن الكاتب أو الشاعر إذا كان عارفاً بالمعـاني، مختاراً لهـا، قادراً على الألفاظ، مُجِيداً فيها، ولم يكن عارفاً بعلم النحو؛ فإنه يفسد ما يصوغه من الكلام ويَخْتَلّ عليه ما يقصده من المعـاني، كما أرَيْنَـاكَ في ذلك المثـال المتقدم، وأما التصريف فإنه إذا لم يكن عارفاً به لم تَفْسُدْ عليه معاني كلامه، وإنما تفسد عليه الأوضاع، وإن كانت المعاني صحيحة، وسيأتي بيان ذلك في تحريـر الجواب، فنقول: أما قولك إن التصريف لا حاجة إليه، واستدلالك بمـا ذكرتـه من المثال المضروب؛ فإن ذلك لا يستمرُّ لك الكلامُ فيه، ألا ترى أنك مَثَّلْت كلامك في لفظة سِرْدَاحٍ، وقلت: إنه لا يحتاج إلى معرفة الألف زائدة هي أم أصلية لأنها إنما نقلت عن العرب على ما هي عليه من غير زيادة ولا نقص، وهذا لا يطرد إلا فيما هذا سبيله من نقل الألفاظ على هيئتها من غير تصرف فيها بحال، فأما إذا أريد تصغيرها أو جمعها والنسبة إليها فإنه إذا لم يعرف الأصل في حروف الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها يَضِلّ حينئذ عن السبيل، وينشأ من ذلك مَجَالٌ للعائب والطاعن، ألا ترى أنه إذا قيل للنحوي وكان جاهلاً بعلم التصريف كيف تصغير لفظة اضْطراب فإنه يقول: ضُطَيْرِب، ولا يلام على جهله بذلك، لأن الذي تقتضيه صناعة النحو قد أتى به، وذلك أن النحاة يقولون: إذا كانت الكلمة على خمسة أحرف وفيها حرف زائد أو لم يكن حذفته[1] نحو قولهم في منطلق: مطيلق، وفي جَحْمَـرِش: جُحَيْمر؛

---

(١) هذه عبارة لا تؤدي مقصود النحاة تماماً، والعبارة المستقيمة أن تقول: إذا كانت الكلمـة المراد تصغيرها على خمسة أحرف نظرت؛ فإن كان فيها حرف زائد حذفته، وإن لم يكن فيها حرف زائد حذفت الحرف الخامس، هذا، ويستثنى من قولنا: «إن كان فيها حرف زائد حذفته» الحرف الزائد إذا كان مـداً قبل الآخـر، سواء أكـان نحو ألفـاً قرطـاس وشملال وسرداح، أم ياء نحو قنديل وكبريت وإبريق؛ أم واواً نحو عصفور وسبروت وأملود؛ فإن هذا الحرف لا يحذف، بل يقلب ياء إن كان واواً أو ألفاً، ويبقى بحاله إن كان ياء. وإن كان الاسم الذي على خمسة أحرف يشتمل على حرفين زائدين نحو منطلق؛ فإن الميم والنون=

فلفظة منطلق على خمسة أحرف، وفيها حرفان زائدان هما الميم والنون إلا أن الميم زيدت فيها لمعنى؛ فلذلك لم تحذف، وحذفت النون، وأما لفظة جَحْمَرِش فخماسية لا زيادة فيها وحذف منها حرف أيضاً، ولم يعلم النحوي أن علماء النحو إنما قالوا ذلك مهملاً اتكالاً منهم على تحقيقه من علم الصرف؛ لأنه لا يلزمهم أن يقولوا في كتب النحو أكثر مما قالوا، وليس عليهم أن يذكروا في باب من أبواب النحو شيئاً من التصريف؛ لأن كلا من النحو والتصريف علم منفرد برأسه، غير أن أحدهما مرتبط بالآخر، ومحتاج إليه.

وإنما قلت: إن النحوي إذا سئل عن تصغير لفظة اضطراب يقول: ضطيرب؛ لأنه لا يخلو إما أن يحذف من لفظة اضطراب الألف أو الضاد أو الطاء أو الراء أو الباء، وهذه الحروف المذكورة غير الألف ليست من حروف الزيادة؛ فلا تحذف، بل الأَوْلى أن يحذف الحرف الزائد ويترك الحرف الذي ليس بزائد؛ فلذلك قلنا: إن النحوي يصغر لفظة اضطراب على ضطيرب؛ فيحذف الألف التي هي حرف زائد، دون غيرها مما ليس من حروف الزيادة، وأما أن يعلم أن الطاء في اضطراب مبدلة من تاء، وأنه إذا أريد تصغيرها تُعَاد إلى الأصل الذي كانت عليه، وهو التاء، فيقال: ضُتَيْرب؛ فإن هذا لا يعلمه إلا التصريفي، وتكليف النحوي الجاهل بعلم التصريف معرفة ذلك كتكليفه علم ما لا يعلمه؛ فثبت بما ذكرناه أنه يحتاج إلى علم التصريف؛ لئلا يغلط في مثل هذا.

ومن العجب أن يقال: إنه لا يحتاج إلى معرفة التصريف، ألم تعلم أن نافع ابن أبي نعيم، وهو من أكبر القراء السبعة قَدْراً، وأفخمهم شأناً، قال في مَعَايِشَ: مَعَائِشَ، بالهمز[1]، ولم يعلم الأصل في ذلك؛ فأُوخِذ عليه، وعِيبَ من أجله، ومن

= زائدان؛ نظرت؛ فإن كان لأحد الزائدين مزية على الآخر كالميم في منطلق فإن لها مزية وهي دلالتها على معنى الفاعل؛ أبقيت الحرف ذا المزية وحذفت الآخر.

(١) معايش: جمع معيشة، وهذه الياء هي عين الكلمة، وليست زائدة؛ وذلك لأن الميم في أول الكلمة حرف زائد، والياء إذا كانت مدّة ثالثة في المفرد ينظر فيها؛ فإن كانت زائدة كالياء في نحو صحيفة وكتيبة قلبت همزة في الجمع؛ فتقول: صحائف وكتائب؛ وإن كانت أصلية =

جملة من عابه أبو عثمان المازني؛ فقال في كتابه في التصريف: إن نافعاً لم يَدْرِ مَا الْعَرَبِيَّة، وكثيراً ما يقع أولو العلم في مثل هذه المواضع، فكيف الجهال الذين لا معرفة لهم بها ولا اطّلاع لهم عليها؟ وإذا علم حقيقة الأمر في ذلك لم يغلط فيما يوجب قدحاً ولا طعناً، وهذه لفظة معايش لا يجوز همزها بإجماع من علماء العربية، لأن الياء فيها ليست مبدلة من همزة، وإنما الياء التي تبدل من الهمزة في هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف ، ويكون بعدها حرف واحد، ولا تكون عيناً، نحو سَفَائِن، وفي هذا الموضع غلط نافع رحمة الله عليه، لأنه لا شك اعتقد أن مَعِيشة بوزن فَعِيلة وجمعُ فَعِيلة هو على فَعَائل، ولم ينظر إلى أن الأصل في مَعِيشة مَعْيِشَة على وزن مَفْعِلة، وذلك لأن أصل هذه الكلمة من عاش التي أصلها عَيَشَ على وزن فَعَلَ، ويلزم مضارع فَعَلَ المعتل العين يَفْعِلُ لتصح الياء، نحو يَعْيِشُ، ثم تنقل حركة العين إلى الفاء فتصير يَعِيش، ثم يبني من يَعِيش مفعول فيقال: مَعْيُوش به، كما يقال: مَسْيُورٌ به، ثم يخفف ذلك بحذف الواو؛ فيقال: مَعِيش به، كما يقال: مَسِير به، ثم تؤنث هذه اللفظة فتصير مَعِيشة.

ومع هذا فلا ينبغي لصاحب هذه الصناعة من النظم والنثر أن يهمل من علم العربية ما يخفى عليه بإهماله اللحن الخفي؛ فإن اللحن الظاهر قد كثرت مفاوضات الناس فيه حتى صار يعلمه غير النحوي، ولا شك أن قلة المُبَالاَة بالأمر واستشعار القدرة عليه توقع صاحبه فيما لا يشعر أنه وقع فيه؛ فيجهل بما يكون عالماً به.

ألا ترى أن أبا نُوَاسٍ كان معدوداً في طبقات العلماء مع تقدمه في طبقات الشعراء، وقد غلط فيما لا يغلط مثله فيه، فقال في صفة الخمر:

كَـأَنَّ صُغْـرَى وَكُبْـرَى مِنْ فَـوَاقِعِهَـا ... حَصْبَـاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الـذَّهَبِ

= كالياء في معيشة ومسيل ومصيبة، لم تقلب همزة في الجمع، بل تبقى على حالها أو تردّ إلى أصلها إن كان أصلها الواو كما في مصيبة؛ وقد قالوا: معائش، بالهمز؛ فعاملوا الياء الأصلية معاملة الياء الزائدة، وهذا شاذ في القياس، ونحن لا نوافق المؤلف وأبا عثمان المازني على ما رميا به نافعاً من الجهالة؛ بل نقرر أن العرب قد اعتادوا أن يعاملوا الشيء معاملة الشيء إذا أشبهه في الصورة، ولهذا نظائر كثيرة في العربية.

وهذا لا يخفى على مثل أبي نواس؛ فإنه من ظواهر علم العربية، وليس من غوامضه في شيء؛ لأنه أمر نقليّ يحمل ناقله فيه على النقل من غير تصرف، وقول أبي نواس «صُغْرَى وكُبْرَى» غيرُ جائِز، فإن فُعْلَى أفعل لا يجوز حذف الألف واللام منها، وإنما يجوز حذفها من فُعْلَى التي لا أفعل لها، نحو حُبْلَى؛ إلا أن تكون فُعْلَى أفعل مُضَافَةً، وههنا قد عريت عن الإضافة وعن الألف واللام، فانظر كيف وقع أبو نواس في مثل هذا الموضع مع قربه وسهولته؟.

وقد غلط أبو تمام في قوله:

بِالْقَائِمِ الثَّامِنِ الْمُسْتَخْلَفِ اطَّأَدَتْ قَوَاعِدُ الْمُلْكِ مُمْتَدًّا لَهَا الطُّولُ

ألا ترى أنه قال: اطّأَدَتْ، والصواب اتَّطَدَتْ؛ لأن التاء تبدل من الواو في موضعين: أحدهما مَقِيس عليه، كهذا الموضع، لأنك إذا بنيت افْتَعَلَ من الْوَعْد قلت: اتَّعَدَ، ومثله ما ورد في هذا البيت؛ فإنه من وَطَدَ يَطِد، كما يقال: وعد يعد؛ فإذا بني منه افتعل قيل: اتَّطَدَ، ولا يقال اطّأد، وأما غير المقيس فقولهم في وجاه: تُجَاه، وقالوا: تُكْلَان، وأصله الواو؛ لأنه من وَكَلَ يَكِل؛ فأبدلت الواو تاء للاستحسان، فهذه الأمثلة قد أشَرْتُ إليها ليعلم مكان الفائدة في أمثالها وتُتَوَقّى.

على أني لم أجد أحداً من الشعراء المفلقين سلم من مثل ذلك؛ فإما أن يكون لحن لحناً يدل على جهله مواقع الإعراب، وإما أن يكون أخطأ في تصريف الكلمة، ولا أعني بالشعراء من هو قريب عهد بزماننا، بل أعني بالشعراء من تقدم زمانه، كالمتنبي[١]، ومن كان قبله، كالبحتري[٢]، ومن تقدمه، كأبي تمام[٣]، ومن سبقه، كأبي نواس، والمعصوم من عَصَمَه الله تعالى.

---

(١) قد أخذ العلماء على المتنبي كثيراً من المآخذ، وبعض هذه المآخذ مما أخطأ فيه المتنبي، وبعضها ـ وهو الغالب ـ مما لا يعدّ خطأ عند المتصفين، والمكتبة العربية زاخرة بهذا المبحث، والرجوع إلى شروح ديوانه كاف لإدراك هذه البغية.

(٢) صنف أبو العلاء المعري رسالة أسماها «عبث الوليد» وقد نشرت منذ عامين، وفيها شيء ليس بالقليل مما أخذه على أبي عبادة البحتري.

(٣) ليس أبو تمام بأسعد حظاً من أخويه، فقد أخذ عليه العلماء شيئاً كثيراً، وارجع إلى الموازنة بين أبي تمام والبحتري، ثم ارجع إلى الموشح للمرزباني (ص ٣٠٣ وما بعدها).

على أن المخطىء في التصريف أنْدَرُ[١] وقوعاً من المخطىء في النحو؛ لأنه قلما يقع له كلمة يحتاج في استعمالها إلى الإبدال والنقل في حروفها، وأما النحو فإنه يقع الخطأ فيه كثيراً حتى إنه ليشذ في ظاهره في بعض الأحوال، فكيف خافيه؟ كقول أبي نواس في الأمين[٢] محمد رحمه الله:

يَــا خَـيْــرَ مَنْ كَــانَ وَمَـنْ يَكُــونُ   إلَّا الـنَّبِـيُّ الـطَّاهِــرُ المَـيْـمُــونُ

فرفع في الاستثناء من الموجب، وهذا من ظواهر النحو، وليس من خافيه في شيء، وكذلك قال أبو الطيب المتنبي:

أَرَأَيْتَ هِمَّــةَ نَــاقَـتِي فِـي نَــاقَــةٍ   نَقَلَتْ يَـدَاً سُرُحـاً وَخُفًّا مُجْمَـرا[٣]
تَـرَكَتْ دُخَانَ الـرِّمْثِ فِي أوْطَـانِهَـا   طَلَبـاً لِقَـوْمٍ يُـوقِـدُونَ الْعَنْبَــرَا[٤]
وَتَكَــرَّمَتْ رُكَبَــاتُهَــا عَـنْ مَبْــرَكٍ   تَقَعَـانِ فِيْـهِ وَلَيْسَ مِسْكــاً أذْفَـرَا[٥]

فجمع في حال التثنية؛ لأن الناقة ليس لها إلا ركبتان، فقال: رُكَبَات، وهذا من أظهر ظواهر النحو، وقد خفي على مثل المتنبي.

---

(١) في بعض النسخ «أنزر» والنزر (بفتح فسكون) كالنادر، كلاهما بمعنى القليل.
(٢) هذا مما أخذ على أبي نواس من قديم، وقد ذكره قدامة في نقد الشعر (ص ٧٣) وذكره المرزباني في الموشح (ص ٢٦٦ و ص ٢٧٢) وفي الموشح شيء من مآخذ العلماء على أبي نواس (من ص ٢٦٣ - ٢٨٩).
(٣) هذه الأبيات من قصيدة للمتنبي يمدح فيها أبا الفضل محمد بن العميد، وأولها قوله:

بَـادٍ هَـوَاكَ صَـبَـرْتَ أمْ لَـمْ تَـصْـبِـرَا   وَبُـكَـاكَ إنْ لَـمْ يَـجْـرِ دَمْـعُـكَ أوْ جَـرَى

والسرح - بضم السين والراء -: السهلة السير، والخف المجمر: الشديد الصلب الذي نكتته الحجارة وليس بواسع ولا ضيق.
(٤) الرمث: نبت يوقد به، وهو من مراعي الإبل، والمراد أنه ترك الأعراب الذين يوقدون هذا النبات، وانتجع قوماً وقودهم العنبر.
(٥) الأذفر: الشديد الرائحة.

ومع هذا فينبغي لك أن تعلم أن الجهل بالنحو لا يقدح في فصاحة ولا بلاغة، ولكنه يقدح في الجاهل به نفسه؛ لأنه رُسُومُ قومٍ تَوَاضَعُوا عليه، وهم الناطقون باللغة، فوجب اتّباعهم؛ والدليل على ذلك أن الشاعر لم ينظم شعره وغَرَضُهُ منه رفع الفاعل ونصب المفعول أو ما جرى مجراهما، وإنما غرضه إيرادُ المعنى الْحَسَن في اللفظ الحسن المتَّصِفَيْن بصفة الفصاحة والبلاغة، ولهذا لم يكن اللحن قادِحاً في حسن الكلام؛ لأنه إذا قيل: جاء زيد راكب، إن لم يكن حسناً إلا بأن يقال: جاء راكباً ـ بالنصب ـ لكان النحو شرطاً في حسن الكلام، وليس كذلك.

فتبين بهذا أنه ليس الغرض من نظم الشعر إقامة إعراب كلماته، وإنما الغرض أمْرٌ وراء ذلك، وهكذا يجري الحكم في الخطب والرسائل من الكلام المنثور.

وأما الإدغام فلا حاجة إليه لكاتب، لكن الشاعر ربما احتاج إليه؛ لأنه قد يضطر في بعض الأحوال إلى إدغام حرف، وإلى فك إدغام؛ من أجل إقامة الميزان الشعري.

النوع الثاني: وهو قولنا: «إنه يحتاج إلى معرفة اللغة مما تداول استعماله» فسيرد بيانه عند ذكر اللفظة الواحدة، والكلامِ على جيدها ورديئها في المقالة المختصة بالصناعة اللفظية.

ويفتقر أيضاً مؤلِّفُ الكلام إلى معرفة عدة أسماء لما يقع استعماله في النظم والنثر؛ ليجد إذا ضاق به موضع في كلامه بإيراد بعض الألفاظ [سَعَةً في] العدول عنه إلى غيره، مما هو في معناه، وهذه الأسماء تسمى المترادفة، وهي اتحاد المسمَّى واختلاف أسمائه، كقولنا: الخمر، والراح، والمدام؛ فإن المسمَّى بهذه الأسماء شيء واحد، وأسماؤه كثيرة.

وكذلك يحتاج إلى معرفة الأسماء المشتركة ليستعين بها على استعمال التجنيس في كلامه، وهي اتحاد الاسم واختلاف المسميات، كالعين؛ فإنها تطلق على العين الناظرة، وعلى يَنْبُوع الماء، وعلى المطر، وغيره، إلا أن المشتركة تفتقر

في الاستعمال إلى قرينة تخصِّصُها؛ كي لا تكون مبهمة، لأنا إذا قلنا: عين؛ ثم سكتنا، وقع ذلك على محتملات كثيرة من العين الناظرة والعين النابعة والمطر وغيره مما هو موضوع بإزاء هذا الاسم، وإذا قَرَنَّا إليه قرينةً تخصه زال ذلك الإبهام؛ بأن نقول: عين حسناء، أو عين نَضَّاخة[١]، أو مُلِثَّة[٢]، أو غير ذلك.

وهذا موضع للعلماء فيه مجاذبات جدلية:

فمنهم مَنْ ينكر أن يكون اللفظ المشترك حقيقةً في المعنيين جميعاً، ويقول: إن ذلك يُخِلُّ بفائدة وضع اللغة؛ لأن اللغة إنما هي وضع الألفاظ في دِلَالتها[٣] على المعاني: أي وضع الأسماء على المسميات لتكون مُنْبِئَةً عنها عند إطلاق اللفظ، والاشتراكُ لا بَيَانَ فيه، وإنما هو ضدُّ البيان، لكن طريق البيان أن يجعل أحد المعنيين في اللفظ المشترك حقيقةً والآخَر مجازاً؛ فإذا قلنا «هذه كلمة»، وأطلقنا القول؛ فهم منه اللفظة الواحدة، وإذا قيدنا اللفظ فقلنا «هذه كلمة شاعرة» فهم منه القصيدة المقصدة من الشعر، وهي مجموع كلمات كثيرة، ولو أطلقنا من غير تقييد وأردنا القصيدة من الشعر لما فهم مرادنا ألبتة.

هذا خلاصة ما ذهب إليه مَنْ ينكر وقوعَ اللفظ المشترك في المعنيين حقيقةً، وفي ذلك ما فيه، وسأبين ما يدخله من الخلل؛ فأقول في الجواب عن ذلك ما استخرجته بفكري، ولم يكن لأحد فيه قول من قبلي.

وهو أمَّا قولك «إن فائدة وضع اللغة إنما هو البيان عند إطلاق اللفظ، واللفظُ المشترك يخل بهذه الفائدة»، فهذا غير مُسَلَّم، بل فائدة وضع اللغة هو البيان والتحسين.

أما البيان فقد وفى [به] الأسماء المتباينة التي هي كل اسم واحد دلّ على

---

(١) عين نضاخة: كثيرة الماء أو فوّارة، وفي القرآن الكريم: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾.

(٢) عين ملثة: دائمة الانسكاب، والمراد المطر.

(٣) الأحسن أن يقول «لدلالتها».

مسمى واحد، فإذا أطلق اللفظ في هذه الأسماء كان بيناً مفهوماً لا يحتاج إلى قرينة، ولو لم يَضَع الواضع من الأسماء شيئاً غيرها لكان كافياً في البيان.

وأما التحسين فإن الواضع لهذه اللغة العربية التي هي أحسن اللغات نظر إلى ما يحتاج إليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيما يَصُوغونه من نظم ونثر، ورأى أنّ من مهمات ذلك التَّجْنِيسَ، ولا يقوم به إلا الأسماء المشتركة التي هي كل اسم واحد دلّ على مسميين فصاعداً، فوضعها من أجل ذلك، وهذا الموضع يتجاذبه جانبان يترجح أحدهما على الآخر، وبيانه أن التحسين يقضي بوضع الأسماء المشتركة، ووضْعُها يذهب بفائدة البيان عند إطلاق اللفظ، وعلى هذا فإن وضعها الواضع ذهب بفائدة البيان، وإن لم يضع ذهب بفائدة التحسين، لكنه إن وضع اسْتَدْرَكَ ما ذهب من فائدة البيان بالقرينة، وإن لم يضع لم يستدرك ما ذهب من فائدة التحسين، فترجّح حينئذ جانب الوضع؛ فوضع.

فإن قيل: فلم لا تنسب الأسماء المشتركة إلى اختلاف القبائل لا إلى واضع واحد؟.

قلت في الجواب[1]: هذا تعسف لا حاجة إليه، وهو مدفوع من وجهين: أحدهما: ما قدمت القول فيه من الترجيح الذي سَوَّغ للواضع أن يضع. الآخر: أنّا نرى أنه قد ورد من الجموع ما يقع على مُسَمَّيَيْن اثنيْن، كقولهم: كِعَاب، جمع كَعب الذي هو كعب الرجل، وجمع كَعْبَة وهي الْبَنِيَّة المعروفة، وإذا أطلقنا اللفظ فقلنا «كِعاب» من غير قرينة لا يُدْرَى ما المراد بذلك: أكعب الرجل أم الْبَنِيَّة المعروفة؟ وكذلك وَرَد واحدٌ وجمعٌ على وزن واحد، كقولهم: رَاح، اسم للخمر، وراح جمع راحة وهي الكف؛ وكقولهم: عِقَاب، وهو الجزاءُ على الذنب، وجمع عَقَبَة أيضاً؛ وفي اللغة من هذا شيء كثير، وهو بالإجماع من علماءِ العربية أنه لم يَجْرِ فيه خلاف بين القبائل، فاتضح بهذا أن الأسماء المشتركة من واضع واحد.

---

(١) نحن لا نوافق المؤلف على هذا الرأي، ولا نرى هذه الأدلة التي ذكرها ناهضة للدلالة على ما ذهب إليه، وعندنا أن أهم العوامل على وجود الترادف في اللغة العربية هو اختلاف القبائل مع تنائي ديارهم وقلة ارتباطهم، وليس هذا موضع الإفاضة والاستدلال.

فإن قلت: إن الواضع إنما وضع المفرد من الألفاظ والجمع وضعه غيره.

قلت في الجواب: إن الذي وضع المفرد هو الذي وضع الجمع؛ لأن من قواعد وضع اللغة أن يوضع المفرد، والجمع، والمذكر، والمؤنث، والمصغر، والمكبر، والمصادر، وأسماء الفاعلين، وما جرى هذا المجرى، وإذا أخلَّ بشيءٍ من ذلك كان قد أخلَّ بقاعدة من قواعد وضع اللغة، ثم لو سلمت إليك أن واضع الجمع غير واضع المفرد لكان ذلك قَدْحاً في الواضع الثاني؛ إذ جاءَ بالإبهام عند إطلاق اللفظ، لأنه جَمَعَ كعبة التي هي الْبَنِيَّة وكعب الرجل، على كِعَاب؛ وهذا لفظ مشترك مبهم عند الإطلاق، ولا فرق بين أن يضعه الواضع الأول أو واضع ثان؛ فإن الإبهام حاصل منه.

وكان فاوضني بعضُ الفقهاءِ في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ وقال: إن لون البقرة كان أسود، والأصفر هو الأسود، فأنكرت عليه هذا القول، فأخذ يجادل مجادلة غير عارف، ويَعْزُو ذلك إلى تفسير النقاش، وتفسير الْبَلاذُرِي، فقلت له: اعلم أن هذا الاسم الذي هو الأصفر لا يخلو في دلالته على الأسود من وجهين: إما أنه من الأسماء المتباينة التي يدل كل اسم منها على مُسَمًّى واحد كالإنسان والأسد والفرس وغير ذلك، وإما أنه من الأسماءِ المشتركة التي يدل الاسم منها على مُسَمَّيَيْن فصاعداً، ولا يجوز أن يكون من الأسماءِ المتباينة؛ لأنا نراه متجاذباً بين لَوْنَين: أحدهما: هذا اللون الزعفراني الشكل، والآخر: اللون المظلم الشكل، وعلى هذا فإنه يكون من الأسماء المشتركة، وإذا كان من الأسماء المشتركة فلا بُدّ له من قرينة تخصصه باللون الزعفراني دون اللون المظلم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ والفاقع من صفات اللون الزعفراني خاصة؛ لأنه قد ورد للألوان صفات متعددة لكل لون منها صفة، فقيل: أبيض يَقَق، وأسود حَالِك، وأحْمَرُ قَانٍ، وأصفر فاقع، ولم يُقَل أسود فاقع، ولا أصفر حالك، فعلم حينئذ أن لون البقرة لم يكن أسود، وإنما كان أصفر، فلما تحقَّقَ عند ذلك الفقيهُ ما أشرت إليه أذعن بالتسليم.

وأما **النوع الثالث**: فهو معرفة أمثال العرب وأيامهم، ومعرفة الوقائع التي

وردت في حوادث خاصة بأقوام، وقولي هذا لا يقتضي كل الأمثال الواردة عنهم؛ فإنَّ منها ما لا يحسن استعماله، كما أن من ألفاظهم أيضاً ما لا يحسن استعماله، وكنت جردت من كتاب الأمثال للميداني أوراقاً خفيفة تشتمل على ٱلْحَسَن من الأمثال الذي يدخل في باب الاستعمال؛ وسبيل المُتَصَدِّي لهذا الفن أن يَسْلُكَ ما سلكته، وليعلم أن الحاجة إليها شديدة، وذلك أن العرب لم تضع الأمثال إلا لأسباب أوجبتها، وحوادث ٱقْتَضَتْها، فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشيءُ، وليس في كلامهم أوجز منها، ولا أشد اختصاراً.

وسبب ذلك ما أذكره لك لتكون من معرفته على يقين، فأقول: قد جاءَ عن العرب من جملة أمثاله «إنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُك لَا يَبْغِ عَلَيْكَ الْقَمَر» وهو مثل يضرب للأمر الظاهر المشهور، والأصل فيه كما قال المفضل بن محمد[1]: أنه بلغنا أن بني ثعلبة بن سعد بن ضَبَّة في الجاهلية تراهَنُوا على الشمس والقمر ليلة أربع عشرة من الشهر؛ فقالت طائفة: تطلع الشمس والقمر يرى، وقالت طائفة: يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس، فتراضوا برجل جعلوه حكماً، فقال واحد منهم: إن قومي يَبْغُونَ علي، فقال الحكم: إنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ القمر. فذهبت مثلاً، ومن المعلوم أن قول القائل: «إنْ يَبْغِ عَليك قومك لا يبغ عليك القمر» إذا أخذ على حقيقته من غير نظر إلى القرائن المنوطة به والأسباب التي قيل من أجلها لا يعطي من المعنى ما قد أعطاه المثل، وذلك أن المثل له مقدمات وأسباب قد عرفت، وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم، وحيث كان الأمر كذلك جاز إيراد هذه اللفظات في التعبير عن المعنى المراد، ولولا تلك المقدمات المعلومة والأسباب المعروفة، لما فهم من قول القائل: «إنْ يَبْغِ عَليك قومك لا يبغ عليك القمر» ما ذكرناه من المعنى المقصود، بل ما كان يفهم من هذا القول معنى مفيد، لأن البغي هو الظلم، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحداً، فكان يصير معنى المثل: إن كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر، وهذا كلام مختل المعنى، ليس بمستقيم، فلما كانت الأمثال كالرموز والإشارات التي يُلَوّح بها على المعاني تلويحاً

(١) هو المفضل الضبيّ، وله كتاب «أمثال العرب».

صارت من أوجز الكلام، وأكثره اختصاراً، ومن أجل ذلك قيل في حَدِّ المثل: إنه القول الوجيز الْمُرْسَل ليعمل عليه، وحيث هي بهذه المثابة فلا ينبغي الإخلال بمعرفتها.

وأما أيام العرب فإنها تَتَنَوَّع وتتشعب، فمنها أيام فَخَار، ومنها أيام مُحَاربة، ومنها أيام منافرة، ومنها غير ذلك، ولا يخلو الناظم والناثر من الانتصاب لوصْفِ يومٍ يمر به في بعض الأحوال شبيهاً بيوم من تلك الأيام، ومماثلاً له؛ فإذا جاء بذكر بعض تلك الأيام المناسبة لمراده الموافقة له، وقاس عليه يومه؛ فإنه يكون في غاية الحسن والرَّوْنَق؛ هذا لا خفاء به.

وأما الوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام، فإنها كالأمثال في الاستشهاد بها، وسأبين لك نبذة منها حتى تعلم مقدار الفائدة بها:

فمن ذلك أنه وردَ عن النبي ﷺ حديث بَيْعَة الْحُدَيْبِيَة تحت الشَّجَرة، وكان أرسل عثمان رضي الله عنه إلى مكة في حاجة عَرَضَتْ له، ولم يحضر البيعة، فضرب رسولُ الله بيده الشمالِ على اليمين وقال: «هٰذِهِ عَنْ عُثْمَانَ، وَشِمَالِي خَيْرٌ مِنْ يَمِينِهِ».

وقد استعلمت أنا هذا في جملة كتاب فقلت: ولا يُعَدُّ البر برًّا حتى يلحق الغيث بالحصور، ويصل من لم يصله بجزاء ولا شكور؛ فزنة الغائب بالشاهد من كرم الإحسان، ولهذا نابت شِمَالُ رسول الله ﷺ عن يمين عثمان.

ومن ذلك أنه ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه استدعى أبا موسى الأشعري ومن يَلِيه من الْعُمّال، وكان منهم الرَّبيع بن زياد الحارثي، فمضى إلى يَرْفَأَ مَوْلَى عمر(١)، وسأله عما يَرُوجُ عنده، وينفق عليه، فأشار إلى خشونة العيش، فمضى ولبس جبة صوف، وعمامة دسماء، وخفاً مطابقاً، وحضر بين يديه في جملة

(١) قال السيد المرتضى في شرح القاموس: «ويرفأ كيمنع: مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقال: إنه أدرك الجاهلية؛ وحج مع عمر في خلافة أبي بكر رضي الله عنهما، وله ذكر في الصحيحين، وكان حاجباً على بابه» اهـ.

العمال، فصَوّبَ عمر نظره وصَعَّدَه، فلم يقع إلا عليه، فأدناه وسأله عن حاله، ثم أوصى أبا موسى الأشعري به.

وقد استعملت أنا هذا في جملة تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة، فقلت:

وإذا اسْتَعَنْتَ بأحدٍ على عملك فاضرب عليه بالأرصاد، ولا تَرْضَ بما عرفته من مبدأ حاله؛ فإن الأحوال تتنقل تَنَقُّلَ الأجساد، وإياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد.

فانظر كيف فعلت في هاتين القِصَّتَيْنِ؟ وكيف أوردتهما في الغرض الذي قصدته؟ وامض أنت على هذا النَّهج، فإنه من محاسن هذه الصنعة.

وعرض عليّ كتابٌ كتبه عبد الرحيم بن علي البيساني(١) رحمه الله عن الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله إلى ديوان الخلافة ببغداد في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وضَمَّنه ما أبلاه في خدمة الدولة من فتح الديار المصرية، ومحو الدولة العلوية، وإقامة الدعوى العباسية، وشَرَحَ فيه ما قاساه في الفتح من الأهوال، ولما تأملته وجدته كتاباً حَسَناً قد وفّى فيه الخطابة حَقَّهَا؛ إلا أنه أخل بشيء واحد، وهو أن مصر لم تفتح إلا بعد أن قصدت من الشام ثلاث مرات، وكان الفتح في المرة الثالثة، وهذا له نظير في فتح النبي ﷺ مكة، فإنه قصدها عام الحديبية، ثم سار إليها في عُمْرَةِ القضاء، ثم سار إليها عام الفتح ففتحها.

وقد سألني بعض الإخوان أن أنشىءَ في ذلك كتاباً إلى ديوان الخلافة معارضاً للكتاب الذي أنشأه عبد الرحيم بن علي رحمه الله، فأجبته إلى سؤاله، وعددت مساعي صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، فقلت:

ومن جملتها ما فعله الخادم في الدولة المصرية وقد قام بها مِنْبَر وسَرِير، وقالت: منا أمير ومنكم أمير، فرد الدعوة العباسية إلى مَعَادها، وأذكر المنابر ما نسيته بها من زَهْو أَعْوَادِها، وكانت أخرجت منها إخراج النبي ﷺ من قَرْيَتِهِ، وقذف

(٢) في نسخة «الشيباني».

الشيطان على حقها بباطله وعلى صدقها بغويته[١]، ثم طوتها الليالي طيَّ السجل للكتاب، وكثر عليها مرور الدهر حتى نسي لها عدد السنين والحساب، ولم يعدها إلى وطنها حتى تغربت لها الأرواح عن أوطانها، وسَهِرَت لها أجفان السيوف سَهَرَ العيون عن أجفانها، وتطاردت الآراء في تسهيل أمرها قبل مطاردة أقرانها، وحتى تقدمتها غُرُبَات ثلاث كلها ذوات غُرُوب[٢]، وكل خطب من خطوبها ذو خطوب، إلى أن تمخض ليلها عن صبحه، وأصبحت في الإسلام كعام حُدَيْبِيَتِهِ وعُمْرَة قضائه وعام فَتْحِه، وفي ذكر أخبارها ما يطبع الأسِنَّة في رءُوس الأقلام، ويرهب سامعها، ولم ينله شيء من مكروهها سوى الكلام، ويومها للدولة هو اليوم الذي أرّخَ فيه مَعَاد[٣] نصرها، وميعادبشرها، فإذا عُدَّت لياليها السالفة كانت كسائر الليالي وهذه ليلة قدرها.

فهذا فصل من فصول الكتاب؛ فانظر كيف ماثلت بين الفتح المصري وفتح مكة؟ وذكرت أيضاً حديث الْحُبَابِ بن الْمُنذر الأنصاري حيث قال بعد وفاة النبي ﷺ: مِنَّا أمِيرٌ ومنكم أمير؛ وذلك لما حضر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم في سقيفة بني ساعدة، والقصة مشهورة، فقال الحباب بن المنذر: منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر رضي الله عنه: بل نحن الأمراءُ وأنتم الوزراءُ، وهذا الذي ذكرته هو نكتة هذا الفتح التي عليها المعول، ومركزه الذي عليه يدور، وعجبت من عبد الرحيم بن علي البيساني ـ مع تقدمه في فن الكتابة ـ كيف فاته أن يأتي به في الكتاب الذي كتبه.

وكذلك وجدت لابن زياد البغدادي كتاباً كتبه إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف المقدم ذكره في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وضمنه فصولاً تشتمل على أمور أنكرت عليه من ديوان الخلافة، فمن تلك الأمور التي أنكرت عليه أنه تلقب بالملك الناصر، وذلك اللقب هو لأمير المؤمنين خاصة، فإنه الإمام الناصر

---

(١) كذا؛ ولعله «بِغَيِّتِهِ».

(٢) غروب: جمع غرب ـ بفتح فسكون ـ وغرب كل شيء: حده.

(٣) معاد: مصدر بمعنى الرجوع، مثل العود.

لدين الله، فلما وقفت على ذلك الكتاب وجدته كتاباً حسناً قد أجاد فيه كل الإجادة، ولم أجد فيه مغمزاً إلا في هذا الفصل الذي يتضمن حديث اللقب، فإنه لم يأت بكلام يناسب باقي الفصول المذكورة، بل أتى فيه بكلام فيه غَثَاثة، كقوله: ما يستصلحه المولى فهو على عبده حرام، وشيئاً من هذا النَّسَق، وكان الأليق والأحسن أن يحتجّ بحجة فيها روح، ويذكر كلاماً فيه ذلاقة ورشاقة.

وحضر عندي في بعض الأيام بعض إخواني، وجَرَى حديث ذلك، فسألني عما كان ينبغي أن يكتب في هذا الفصل، فذكرت ما عندي، وهو: قد علم أن للأنبياء والخلفاءِ خَصَائص يختصون بها على حكم الانفراد، وليس لأحد من الناس أن يشاركهم فيها مشاركة الأنداد، وقد أجرى رسول الله ﷺ ذلك في أشياء نَصَّ عليها بحكمه، ومن جملتها أنه نهى غيره أن يجتمع بين كنيته وبين اسمه، وهذا مسوغ لأمير المؤمنين أن يختص بأمر يكون به مشهوراً، وعلى غيره محظوراً، وقد وَسَمَ نفسه بسِمَةٍ نزلت عليه من السماء، وتميزت به من بين المسميات والأسماء، ثم استمرت عليها الأيام حتى خوطب بها من الحاضر والباد، ورفعها الخطباء على المنابر في أيام الجمع ومواسم الأعياد، وقد شاركته أنت فيها غير مراقب لمزية التعظيم، ولا فارق بين فُسْحَة التحليل[1] وحَرَج التحريم[2]، والشرع والأدب يحكمان عليك بأن تلقى ما فرط منك بالْمَتَاب، ولا تحوج فيه إلى التقريع الذي هو أشد العتاب، ومثلك من عرف الحق فأمسكه بيده، ونسخ إغفال أمسه باستئناف التيقظ في غده، والله قد رفع المؤاخذة عمن أتى الشيء خطأً لا عمداً، وقبل التوبة ممن أخذ على نفسه بالإخلاص عهداً.

فانظر أيها المتأمل كيف جئت بالخبر النبوي، وجعلته شاهداً على هذا الموضع؟ ولا يمكن أن يحتج في مثل ذلك إلا بمثل هذا الاحتجاج، وما أعلم كيف شذ عن ابن زياد أن يأتي به مع أنه كان كاتباً مفلقاً أرتضي كتابته، ولم أجد في متأخري العراقيين من يماثله في هذا الفن.

---

(١) الفسحة ـ بضم الفاء وسكون السين ـ السعة، وتقول: لك في هذا الأمر فسحة، وفسحة التحليل: السعة التي يقتضيها، ومراده سائر الألقاب سوى لقب أمير المؤمنين، وهي كثيرة.

(٢) الحرج ـ بفتح الحاء والراء ـ: الضيق والمشقة.

وأما **النوع الرابع**: - وهو الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور - فإن في ذلك فوائد جمة؛ لأنه يعلم منه أغراض الناس، ونتائج أفكارهم، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم، وإلى أين ترامت به صنعته في ذلك، فإن هذه الأشياء مما تَشْحَذ القريحة، وتُذْكي الفطنة، وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفاً بها تصير المعاني التي ذكرت وتعب في استخراجها كالشيء الْمُلْقَى بين يديه يأخذ منه ما أراد ويترك ما أراد، وأيضاً فإنه إذا كان مطلعاً على المعاني المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه، ومن المعلوم أن خواطر الناس وإن كانت متفاوتة في الجودة والرداءة فإن بعضها لا يكون عالياً على بعض أو منحطاً عنه إلا بشيء يسير، وكثيراً ما تتساوى القرائح والأفكار في الإتيان بالمعاني، حتى إن بعض الناس قد يأتي بمعنى موضوع بلفظ، ثم يأتي الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الأول، وهذا الذي يسميه أرباب هذه الصناعة وقوع الحافر على الحافر، وسيأتي لذلك باب مفرد في آخر كتابنا هذا؛ إن شاء الله تعالى.

وأما **النوع الخامس**: - وهو معرفة الأحكام السلطانية من الإمامة والإمارة والقضاءِ والحسبة وغير ذلك - فإنما أوجبنا معرفتها والإحاطة بها لما يحتاج إليه الكاتب في تقليدات الملوك والأمراءِ والقضاة والمحتسبين ومن يجري مجراهم، وأيضاً فإنه قد يحدث في الإمامة حادث في بعض الأوقات: بأن يموت الإمام القائم بأمر المسلمين، ثم يتولى من بعده من لم تكمل فيه شرائط الإمامة، أو يكون كامل الشرائط غير أن الإمام الذي كان قبله عهد بها إلى آخر غيره وهو ناقص الشرائط، أو يكون قد تنازع الإمامة اثنان، أو يكون أرباب الحل والعقد قد اختاروا إماماً وهم غير كاملي الشرائط التي تجب أن توجد فيهم، أو يكون أمر غير ما ذكرناه، فتختلف الأطراف في ذلك، وينتصب ملك من الملوك له عناية بالإمام الذي قد قام للمسلمين، فيأمر كاتبه أن يكتب كتاباً في أمره إلى الأطراف المخالفة له، وإذا لم يكن الكاتب عند ذلك عارفاً بالحكم في هذه الحوادث، واختلاف أقوال العلماء فيها، وما هو رخصة في ذلك وما ليس برخصة؛ لا يكتب كتاباً ينتفع به، ولسنا نعني بهذا القول أن يكون الكتاب مقصوراً على فقه مَحْضٍ فقط؛ لأنا لو أردنا ذلك لما

كنا نحتاج فيه إلى كُتْبِ كتاب بلاغي، بل كنا نقتصر على إرسال مصنف من مصنفات الفقه عوضاً عن الكتاب، وإنما قصدنا أن يكون الكاتب الذي يكتب في هذا المعنى مشتملاً على الترغيب والترهيب، والمسامحة في موضع والمحاقة[1] في موضع، مشحوناً ذلك بالنكت الشرعية المبرزة في قوالب البلاغة والفصاحة، كما فعل الكاتب الصابي في الكتاب الذي كتبه عن عز الدولة بختيار بن معز الدولة ابن بويه إلى الإمام الطائع لما خلع المطيع؛ فإنه من محاسن الكتب التي تكتب في هذا الفن.

وأما **النوع السادس**: ـ وهو حفظ القرآن الكريم ـ فإن صاحب هذه الصناعة ينبغي له أن يكون عارفاً بذلك؛ لأن فيه فوائد كثيرة، منها أنه يُضَمِّن كلامه بالآيات في أماكنها اللائقة بها ومواضعها المناسبة لها، ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرَّوْنَق؛ ومنها أنه إذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة الْمُودَعَة في تأليف القرآن اتّخذه بَحْراً يستخرج منه الدرر والجواهر ويودعها مَطَاوي كلامه، كما فعلته أنا فيما أنشأته من المكاتبات، وكفى بالقرآن الكريم وحده آلة وأداة في استعمال أفانين الكلام؛ فعليك أيها المتوشح لهذه الصناعة بحفظه والفحص عن سره وغامض رموزه وإشاراته؛ فإنه تجارة لن تبور، ومنبع لا يغور، وكنز يرجع إليه، وذخر يُعَوّل عليه.

وأما **النوع السابع**: ـ وهو حفظ الأخبار النبوية مما يحتاج إلى استعماله ـ فإن الأمر في ذلك يجري مجرى القرآن الكريم، وقد تقدم القول عليه، فاعرفه.

وأما **النوع الثامن**: ـ وهو ما يختص بالناظم دون الناثر، وذلك معرفة العروض وما يجوز فيه من الزحاف وما لا يجوز ـ فإن الشاعر محتاج إليه، ولسنا نوجب عليه المعرفة بذلك لينظم بعلمه؛ فإن النظم مبني على الذوق، ولو نظم بتقطيع الأفاعيل لجاء شعره متكلفاً غير مرضي، وإنما أريد للشاعر معرفة العروض لأن الذوق قد ينبو

---

(١) المحاقة: المخاصمة، وتقول: حاققت فلاناً، إذا خاصمته وناظرته، وادّعى كل واحد منكما الحق قبل الآخر، فإن غلب أحدكما قال: حققتك، وفي ب، ج «المحاققة» بإظهار التضعيف؛ وليس بشيء.

عن بعض الزحافات، ويكون ذلك جائزاً في العروض، وقد ورد للعرب مثله، فإذا كان الشاعر غير عالم به لم يفرق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز، وكذلك أيضاً يحتاج الشاعر إلى العلم بالقوافي والحركات؛ ليعلم الروي والردف وما يصح من ذلك وما لا يصح.

فإذا أكمل صاحب هذه الصناعة معرفة هذه الآلات، وكان ذا طبع مجيب وقريحة مُوَاتية، فعليه بالنظر في كتابنا هذا، والتصفح لما أودعناه من حقائق علم البيان، ونبهنا عليه من أصول ذلك وفروعه، على أن الذي ذكرناه من هذه الآلات الثمان هو كالأصل لما يحتاج إليه الخطيب والشاعر، ومعرفته ضرورية لا بد منها، وههنا أشياء أُخر هي كالتوابع والروادف.

وبالجملة فإن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التشبث بكل فن من الفنون؛ حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء، والماشطة عند جَلْوَة العروس، وإلى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة، فما ظنك بما فوق هذا، والسبب في ذلك أنه مؤهل لأن يهيم في كل واد؛ فيحتاج أن يتعلق بكل فن.

الفصل الثالث

في الحكم على المعاني

وفائدة هذا الفصل الإحاطة بأساليب المعاني على اختلافها وتباينها، وصاحب هذه الصناعة مفتقر إلى هذا الفصل والذي يليه، بخلاف غيرهما من هذه الفصول المذكورة، لا سيما مفسري الأشعار؛ فإنهم به أَعْنَى.

واعلم أن الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهره لفظه، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل، كقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فالظاهر من لفظ الثياب هو ما يلبس، ومن تأول ذهب إلى أن المراد هو القلب، لا الملبوس، وهذا لا بد له من دليل؛ لأنه عدول عن ظاهر اللفظ، وكذلك ورد عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال: إذا أردت أن تصلي فادخل بيتك وأغلق بابك، فالظاهر من هذا هو البيت والباب، ومن تأول ذهب إلى أنه أراد أنك تجمع عليك هَمَّ قلبك وتمنع أن يخطر به سوى أمر الصلاة، فعبّر عن القلب بالبيت، وعن منع الخواطر التي تخطر له بإغلاق الباب، وهذا يحتاج إلى دليل؛ لأنه عدول عن ظاهر اللفظ؛ فالمعنى المحمول على ظاهره لا يقع في تفسيره خلاف، والمعنى المعدول عن ظاهره إلى التأويل يقع فيه الخلاف؛ إذ باب التأويل غير محصور، والعلماء متفاوتون في هذا، فإنه قد يأخذ بعضهم وجهاً ضعيفاً من التأويل فيكسوه بعبارته قوة تميزه على غيره من الوجود القوية؛ فإن السيف بضاربه:

إنَّ السُّيُوفَ مَعَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ كَقُلُوبِهِنَّ إِذَا الْتَقَى الْجَمْعَانِ
تَلْقَى الْحُسَامَ عَلَى جَرَاءَةِ حَدِّهِ مِثْلَ الْجَبَانِ بِكَفِّ كُلِّ جَبَانِ

وذهب بعضهم في الفرق بين التفسير والتأويل إلى شيء غير مرضيّ، فقال: التفسير: بيان وضع اللفظ حقيقة، كتفسير الصراط بالطريق، والتأويل: إظهار باطن

اللفظ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ فتفسيره من الرَّصَد، يقال: رصدته؛ إذا رَقَبْته، وتأويله تحذير العباد من تَعَدّي حدود الله ومخالفة أوامره، والذي عندي في ذلك أنه أصاب في الآخر، ولم يصب في الأول؛ لأن قوله: «التفسير بيان وضع اللفظ حقيقة» لا مستند لجوازه، بل التفسير يطلق على بيان وضع اللفظ حقيقة ومجازاً؛ لأنه من الفَسْر، وهو الكَشْف، كتفسير الرصد في الآية المشار إليها بالرِّقْبَة وتفسيره بالتحذير من تعدّي حدود الله ومخالفة أوامره. وأما التأويل فإنه أحد قسمي التفسير، وذاك أنه رجوع عن ظاهر اللفظ، وهو مشتق من الأَوْلِ، وهو الرجوع، يقال: آل يؤُول، إذا رجع، وعلى هذا فإن التأويل خاص والتفسير عام؛ فكل تأويل تفسير، وليس كل تفسير تأويلاً، ولهذا يقال: تفسير القرآن، ومن تفسيره ظاهر وباطن، وهذا الفصل الذي نحن بصدد ذكره ههنا يرجع أكثره إلى التأويل؛ لأنه أدق.

ولا يخلو تأويل المعنى من ثلاثة أقسام: إما أن يفهم منه شيء واحد لا يحتمل غيره، وإما أن يفهم منه الشيء وغيره، وتلك الغيرية: إما أن تكون ضداً، أو لا تكون ضداً، وليس لنا قسم رابع.

فالأوّل: يقع عليه أكثر الأشعار، ولا يجري في الدقة واللطافة مجرى القسمين الآخرين.

وأما القسم الثاني: فإنه قليل الوقوع جداً، وهو من أظرف التأويلات المعنوية؛ لأن دلالة اللفظ على المعنى وضده أغرب من دلالته على المعنى وغيره مما ليس بضده، فمما جاء منه قول النبي ﷺ: «صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هٰذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلَّا الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»؛ فهذا الحديث يستخرج منه معنيان ضدان: أحدهما: أن المسجد الحرام أفضل من مسجد رسول الله ﷺ، والآخر: أن مسجد رسول الله ﷺ أفضل من المسجد الحرام: أي أن صلاة واحدة فيه لا تفضل ألف صلاة في المسجد الحرام، بل تفضل ما دونها، بخلاف المساجد الباقية فإن ألف صلاة فيها تقصر عن صلاة واحدة فيه.

وكذلك جاء قول النبي ﷺ أيضاً: «من كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ» وهذا يشتمل على معنيين ضدين: أحدهما: أن المراد به إذا لم تفعل فعلاً تَسْتَحي منه فافعل ما شئت، والآخر: أن المراد به إذا لم يكن لك حياء يَزَعُك[1] عن فعل ما يُسْتَحَى منه فافعل ما شئت، وهذان معنيان ضدان أحدهما مدح والآخر ذم.

ومثله ورد في الحديث النبوي أيضاً، وذلك أنه ذكر شُرَيْح الحضرمي عند النبي ﷺ فقال: «لَا يَتَوَسَّدُ الْقُرْآن» وهذا يحتمل مدحاً وذماً؛ أما المدح فالمراد به أنه لا ينام الليل عن القرآن فيكون القرآن متوسداً معه لم يتهجد به، وأما الذم فالمراد به أنه لا يحفظ من القرآن شيئاً، فإذا نام لم يتوسد معه القرآن، وهذان التأويلان من الأضداد.

وكثيراً ما يرد أمثال ذلك في الأحاديث النبوية.

ويجري على هذا النهج من الشعر قول أبي الطيب في قصيدة يمدح بها كافوراً:

وأظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

وهذا البيت يستخرج منه معنيان ضدان: أحدهما: أن المنعَمَ عليه يحسُدُ المنعِمَ، والآخر: أن المنعِمَ يحسد المنعَمَ عليه.

وكذلك ورد قوله أيضاً من قصيدة يمدحه:

فَإِنْ نِلْتُ مَا أَمَّلْتُ مِنْكَ فَرُبَّمَا ... شَرِبْتُ بِمَاءٍ يُعْجِزُ الطَّيْرَ وِرْدُهُ

فإن هذا البيت يحتمل مدحاً وذماً، وإذا أخذ بمفرده من غير نظر إلى ما قبله فإنه يكون بالذم أولى منه بالمدح؛ لأنه يتضمن وصف نواله بالبعد والشذوذ، وصدر البيت مفتتح بإن الشرطية، وقد أجيب بلفظة رب التي معناها التقليل: أي لست من

(١) يزعك: يكفك ويزجرك وينهاك.

نوالك على يقين، فإن نلته فربما وصلت إلى مَوْرِدٍ لا يصل إليه الطير لبعده، وإذا نظر إلى ما قبل هذا البيت دلّ على المدح خاصة؛ لارتباطه بالمعنى الذي قبله.

وكثيراً ما كان يقصد المتنبيّ هذا القسم في شعره، كقوله من قصيدة أولها:

عَـدُوُّكَ مَـذْمُـومٌ بِكُـلِ لِسَـانِ وَلَـوْ كَـانَ مِنْ أعْـدَائِـكَ الْقَمَـرَانِ
ولِـلَّهِ سِـرٌّ فِي عُـلَاكَ وَإنَّـمـا كَـلَامُ الْعِـدَا ضَـرْبٌ مِنَ الْهَـذَيَـانِ

ثـم قـال:

فَمَـا لَـكَ تُعْنَىَ بِـالأَسِنَّـةِ وَالقَنَـا وَجَـدُّكَ طَعَّـانٌ بِغَيْـرِ سِنَـانِ!؟

فإن هذا بالذم أشبه منه بالمدح؛ لأنه يقول: لم تبلغ ما بلغته بسعيك واهتمامك، بل بِجَد وسعادة، وهذا لا فضل فيه؛ لأن السعادة تنال الخامل والجاهد، ومن لا يستحقها، وأكثر ما كان المتنبي يستعمل هذا القسم في قصائده الكافوريات.

وحكى أبو الفتح بن جني قال: قرأت على أبي الطيب ديوانه، إلى أن وصلت إلى قصيدته التي أولها:

أُغـالِبُ فِيـكَ الشَّـوْقَ وَالشَّـوْقُ أغْـلَبُ

فأتيت منها على هذا البيت، وهو:

وَمَـا طَـرَبِي لَمَّـا رَأَيْتُـكَ بِـدْعَـةً لَقَـدْ كُنْتُ أَرْجُـو أَنْ أَرَاكَ فَـأَطْـرَبُ

فقلت له: يا أبا الطيب، لم تزد على أن جعلته أبا رنة، فضحك لقولي.

وهذا القسم من الكلام يسمى الموجّه: أي له وجهان، وهو مما يدل على براعة الشاعر وحسن تأتّيه.

وأما القسم الثالث: فإنه يكون أكثر وقوعاً من القسم الثاني، وهو واسطة بين طرفين؛ لأن القسم الأول كثير الوقوع، والقسم الثاني قليل الوقوع، وهذا القسم الثالث وسط بينهما.

فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم﴾ فإن هذا له وجهان من التأويل: أحدهما: القتل الحقيقي الذي هو معروف، والآخر: هو القتل المجازي، وهو الإكباب على المعاصي، فإن الإنسان إذا أكَبَّ على المعاصي قتل نفسه في الآخرة.

ومن ذلك ما ورد في قصة إبراهيم وذبح ولده عليهما السلام، فقال الله تعالى حكاية عنه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قد يكون بشارة بنبوته بعد البشارة بميلاده، وقد يكون استئنافاً بذكره بعد ذكر إسمعيل عليه السلام وذبحه، والتأويل متجاذب بين هذين الأمرين، ولا دليل على الاختصاص بأحدهما، ولم يرد في القرآن ما يدل على أن الذبيح إسمعيل ولا إسحٰق عليهما السلام، وكذلك لم يرد في الأخبار التي صَحَّتْ عن رسول الله ﷺ. وأمّا ما يروى عنه أنه قال: «أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ» فخارج عن الأخبار الصحيحة، وفي التوراة أن إسحٰق عليه السلام هو الذبيح.

ومن ذلك قول النبي ﷺ لأزواجه: «أَطْوَلُكُنَّ يَداً أَسْرَعُكُنَّ لُحُوقاً بي» فلما مات صلوات الله عليه جعلن يطاولن بين أيديهن حتى ينظرن أيتهن أطول يداً، ثم كانت زينب أسرعهن لحوقاً به، وكانت كثيرة الصدقة، فعلمن حينئذ أنه لم يرد الجارحة، وإنما أراد الصدقة؛ فهذا القول يدل على المعنيين المشار إليهما.

ومن ذلك ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: خدمت

رسول الله عَشْرَ سنين فلم يقل لشيءٍ فعلتُهُ لِمَ فَعَلْتَـهُ ولا لشيءٍ لم أفعله لِمَ لا فَعَلْتَهُ، وهذا القول يحتمل وجهين من التأويل: أحدهما: وصف رسول الله ﷺ بالصبر على خلق من يصحبه، والآخر: أنه وصف نفسه بالفطنة والذكاء فيما يقصده من الأعمال، كأنه متفطن لما في نفس رسول الله ﷺ؛ فيفعله من غير حاجة إلى استئذانه.

ومن ذلك ما ورد في الأدعية النبويَّة؛ فإنه ﷺ دعا على رجل من المشركين فقال: «اللَّهُمَّ اقْطَعْ أَثَرَهُ» وهذا يحتمل ثلاثة أوجه من التأويل: الأول: أنه دعا عليه بالزمانة، لأنه إذا زمن لا يستطيع أن يمشي على الأرض، فينقطع حينئذ أثره؛ الوجه الثاني: أنه دعا عليه بأن لا يكون له نسل من بعده ولا عقب؛ الوجه الثالث: أنه دعا عليه بأن لا يكون له أثر من الآثار مطلقاً وهو أن لا يفعل فعلاً يبقى أثره من بعده كائناً ما كان من عقب أو بناء أو غِرَاس أو غير ذلك.

وظَفِرَت الْحَرُورِيَّةُ برجل فقالوا له: ابْرَأْ من علي وعثمان، فقال: أنا من علي ومن عثمان أبرأُ، فهذا يدل على معنيين: أحدهما: أنه بريء من عثمان وحده، والآخر: أنه بريء منهما جميعاً، والرجل لم يرد إلا الوجه الأول.

ومن ذلك ما يحكي عن عبد المسيح بن بُقَيْلَةَ لما نزل بهم خالد بن الوليد على الحيرة، وذاك أنه خرج إليه عبد المسيح بن بُقَيلة، فلما مثل بين يديه قال: أنْعِمْ صباحاً أيها الملك، فقال له خالد: قد أغنانا الله عن تحيتـك هذه بسلام عليكم، ثم قال له: من أين أقصي أثـرك؟ قال: من ظهـر أبي، قال: فمن أين خرجت؟ قالت: من بطن أمي، قال: فعلام أنت؟ قال: على الأرض، قال: ففيمَ أنت؟ قال: في ثيابي، قال: ابن كم أنت؟ قال: ابن رجل واحد، قال خالد: ما رأيت كاليوم قط، أنا أسأله عن الشيء وهو ينحو في غيره، وهذا من توجيه الكلام على نمط حسن، وهو يصلح أن يكون جواباً لخالد عما سأل، ويصلح أن يكون جواباً لغيره مما ذكره عبد المسيح بن بُقَيْلة.

وقد ورد في التوراة أن لا يؤكل الجدي بلبن أمه، وهذا يحتمل التحريم في

وجهين: أحدهما: ما دل عليه ظاهر لفظه، وهو تحريم لحم الجدي بلبن أمه خاصة، وإذا أكل بلبن غير لبن أمه جاز ذلك، ولم يكن حراماً، وهذا لا يأخذ به أحد من اليهود، والوجه الآخر ـ وهو الذي يؤخذ به عند اليهود جميعهم ـ: أن أكل اللحم باللبن حرام، كائناً ما كان من اللحوم، إلا طائفة منهم يسمون القرائين؛ فإنهم تأولوا فأكلوا لحم الطير باللبن، وقالوا: إنما حرم اللحم باللبن من اللحوم ذوات الألبان، والطير من ذوات البيض لا من ذوات الألبان.

ومما يجري على هذا النهج ما يحكى عن أفلاطون أنه قال: ترك الدواء دواء؛ فذهب بعض الأطباء أنه أراد: إنْ لطف المزاج، وانتهى إلى غاية لا يحتمل الدواء، فتركه حينئذ والإضراب عنه دواء، وذهب آخرون إلى أنه أراد بالترك الوضع: أي وضع الدواء على الداء دواء، يشير بذلك إلى حذق الطبيب في أوقات علاجه.

ومثله في الشعر قول الفرزدق:

إِذَا جَعْفَرٌ مَرَّتْ عَلَى هَضْبَةِ الْحِمَى ... فَقَدْ أَخْزَتِ الأَحْيَاءَ مِنْهَا قُبُورُهَا

وهذا يدل على معنيين: أحدهما: ذم الأحياء، والآخر: ذم الأموات؛ أما ذم الأحياء فهو أنهم خذلوا الأموات، يريد أنهم تلاقوا في قتالهم وقوماً آخرين ففر الأحياء عنهم وأسلموهم، أو أنهم استنجدوهم فلم يُنْجدوهم، وأما ذم الأموات فهو أن لهم مخازي وفضائح توجب عاراً وشناراً، فهم يعيرون بها الأحياء ويلصقونها بهم.

وعلى هذا ورد قول أبي تمام:

بالشِّعْرِ طُولٌ إِذَا اصْطَكَّتْ قَصَائِدُهُ ... فِي مَعْشَرٍ، وَبِهِ عَنْ مَعْشَرٍ قِصَرُ

فهذا البيت يحتمل تأولين: أحدهما: أن الشعر يتسع مجاله بمدحك ويضيق بمدح غيرك، يريد بذلك أن مآثره كثيرة، ومآثر غيره قليلة؛ والآخر: أنّ الشعر يكون ذا فخر ونباهة بمدحك، وذا خمول بمدح غيرك. فلفظة الطول يفهم منها ضد القصر، ويفهم منها الفخر، من قولنا: «طال فلان على فلان» أي فخر عليه.

ومما ينتظم بهذا السلك قول أبي كبير الهذلي:

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الـدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَـا فَلَمَّـا انْقَضَى مَا بَيْنَنَـا سَكَنَ الدَّهْـرُ

وهذا يحتمل وجهين من التأويل: أحدهما: أنه أراد بسعي الدهر سرعة تقضّي الأوقات مُدَّة الوصال، فلما انقضى الوصل عاد الدهر إلى حالته في السكون والبطء؛ والآخر: أنه أراد بسعي الدهر سعي أهل الدهر بالنمائم والوشايات، فلما انقضى ما كان بينهما من الوصل سكنوا وتركوا السعاية، وهذا من باب وضع المضاف إليه مكان المضاف، كقوله تعالى: ﴿وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي أهل القرية.

ومن الدقيق المعني في هذا الباب قول أبي الطيب المتنبي في عضد الدولة من جملة قصيدته التي أولها:

أَوْهِ بَـدِيلٌ مِنْ قَـوْلَتِي وَاهَـا

فقال:

لَـوْ فَـطِنَـتْ خَيْـلُهُ لِنَـائِلِهِ لَمْ يُـرْضِهَـا أَنْ تَـرَاهُ يَـرْضَـاهَـا

وهذا يستنبط منه معنيان غيران: أحدهما: أن خيله لو علمت مقدار عطاياه؛ لأن عطاياه أنفس منها، والآخر: أن خيله لو علمت أنه يهبها من جملة عطاياه لما رضيت ذلك؛ إذ تكره خروجها عن ملكه، وهذان الوجهان أنا ذكرتهما وإنما المذكور منهما أحدهما.

وهذا الذي أشرت إليه من الكلام على المعاني وتأويلاتها كافٍ لمن عنده ذوق وله قوة على حملها على أشباهها ونظائرها.

الفصل الرابع

في الترجيح بين المعاني

وهذا الفصل هو ميزان الخواطر الذي يوزن به نقد درهمها ودينارها، بل المِحَكّ الذي يعلم منه مقدار عيارها، ولا يَـزِن به إلا ذو فكـرة مُتّقدة، ولمحـة منتقدة، فليس كل من حمل ميزاناً سُمِّيَ صَرَّافاً، ولا كل من وزن به سُمِّيَ عَرَّافاً، والفرق بين هذا الترجيح الفقهي أن هناك يرجّح بين دليلي الخصمين في حكم شرعي، وههنا يرجح بين جانبي فصاحة وبلاغة في ألفاظ ومعان خطابية؛ وبيان ذلك أن صاحب الترجيح الفقهي يرجع بين خبر التواتر مثلاً وبين خبر الآحاد، أو بين المسند والمرسل، أو ما جرى هذا المجرى، وهذا لا يعرض إليه صاحب علم البيان؛ لأنه ليس من شأنه، ولكن الذي هو من شأنه أن يرجح بين حقيقة ومجاز، أو بين حقيقتين، أو بين مجازين، ويكون ناظراً في ذلك كله إلى الصناعة الخطابية، ولربما اتفق هو وصاحب الترجيح الفقهي في بعض المواضع؛ كالترجيح بين عام وخاص، أو ما شابه ذلك.

وكنا قد قدمنا القول في الحكم على المعاني وانقسامها، ولنبين في هـذا الفصل مواضع الترجيح بين وجوه تأويلاتها؛ فنقول:

أما القسم الأول من المعاني فلا تعلق للترجيح به، إذا ما دلّ عليه ظاهر لفظه ولا يحتمل إلا وجهاً واحداً فليس من هذا الباب في شيء، والترجيح إنما يقع بين معنيين يدل عليهما لفظ واحد.

ولا يخلو الترجيح بينهما من ثلاثة أقسام: إمـا أن يكون اللفظ حقيقـة في أحـدهما مجـازاً في الآخر، أو حقيقـة فيهما جميعـاً، أو مجازاً فيهمـا جميعاً، وليس لنا قسم رابع، والترجيح بين الحقيقتين أو بين المجازين يحتاج إلى نظر، وأما الترجيح بين

الحقيقة والمجاز، فإنه يعلم ببديهة النظر؛ لمكان الاختلاف بينهما، والشيئان المختلفان يظهر الفرق بينهما، بخلاف ما يظهر بين الشيئين المشتبهين.

فمثال الحقيقة والمجاز قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ .حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فالجلود هٰهنا تفسَّر حقيقة ومجازاً: أما الحقيقة فيراد بها الجلود مطلقاً، وأما المجاز فيراد بها الفروج خاصة، وهذا هو الجانب البلاغي الذي يرجح جانب المجاز على الحقيقة؛ لما فيه من لطف الكناية عن المكنّى عنه، وقد يسأل ههنا في الترجيح بين الحقيقة والمجاز عن غير الجانب البلاغي، ويقال: ما بيان هذا الترجيح؟ فيقال: طريقه لفظ الجلود عام فلا يخلو إما أن يراد به الجلود مطلقاً أو يراد به الجوارح التي هي أدوات الأعمال خاصة، ولا يجوز أن يراد به الجلود على الإطلاق؛ لأن شهادة غير الجوارح التي هي الفاعلة شهادة باطلة؛ إذ هي شهادة غير شاهد، والشهادة غير شاهد، والشهادة هنا يراد بها الإقرار، فتقول اليد: أنا فعلت كذا وكذا، وتقول الرِّجْلُ: أنا مشيت إلى كذا وكذا، وكذلك الجوارح الباقية تنطق مُقِرَّةً بأعمالها، فترجح بهذا أن يكون المراد به شهادة الجوارح، وإذا أريد به الجوارح فلا يخلو إما أن يراد به الكل أو البعض؛ فإن أريد به الكل دخل تحته السمع والبصر، ولم يكن لتخصيصهما بالذكر فائدة، وإن أريد به البعض فهو بالفرج أخص منه بغيره من الجوارح؛ لأمرين: أحدهما: أن الجوارح كلها قد ذكرت في القرآن الكريم شاهدة على صاحبها بالمعصية ما عدا الفرج، فكان حمل الجلد عليه أولى؛ ليستكمل ذكر الجميع؛ الآخر: أنه ليس في الجوارح ما يكره التصريح بذكره إلّا الفرج، فكني عنه بالجلد؛ لأنه موضع يكره التصريح فيه بالمسمّى على حقيقته.

فإن قيل: إن تخصيص السمع والبصر بالذكر من باب التفصيل، كقوله تعالى: ﴿فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ والنخل والرمان من الفاكهة.

قلت في الجواب: هذا القول عليك لا لك؛ لأن النخل والرمان إنما ذكر التفضيل لهما في الشكل أو في الطعم، والفضيلة هٰهنا في ذكر الشهادة إنما هي

تعظيم لأمر المعصية، وغير السمع والبصر أعظم في المعصية؛ لأن معصية السمع إنما تكون في سماع غيبة، أو في سماع صوت مزمار أو وتر، أو ما جرى هذا المجرى، ومعصية البصر إنما تكون في النظر إلى محرم، وكلتا المعصيتين لا حَدَّ فيهما، وأما المعاصي التي توجد من غير السمع والبصر فأعظم؛ لأن معصية اليد توجب القطع، ومعصية الفرج توجب جلد مائة أو الرجم، وهذا أعظم، فكان ينبغي أن تخصّ بالذكر دون السمع والبصر، وإذا ثبت فساد ما ذهبت إليه فلم يكن المراد بالجلود إلا الفروج خاصة.

وأما مثال المعنيين إذا كانا حقيقيين فقول النبي ﷺ: «الْتَمِسُوا الرِّزْقَ فِي خَبَايَا الأَرْضِ» والخبايا: جمع خَبِيئة، وهو كل ما يخبأ كائناً ما كان، وهذا يدل على معنيين حقيقيين: أحدهما: الكنوز المخبوأة في بطون الأرض، والآخر: الْحَرْثُ والغِرَاس؛ وجانب الحرث والغراس أرجح؛ لأن مواضع الكنوز لا تعلم حتى تلتمس، والنبي ﷺ لا يأمر بذلك؛ لأنه شيء مجهول غير معلوم، فبقي المراد بخبايا الأرض ما يحرث ويغرس.

وكذلك ورد قوله ﷺ: «إذا ابْتَلّتِ النِّعَالُ فَالصَّلاَةُ فِي الرِّحَالِ» وهذا الحديث مرخِّص في ترك صلاة الجماعة بسبب المطر، وله تأويلان: أحدهما: أنه أراد نعال الأرض، وهو ما غلظ منها، والآخر: أنه أراد الأحذية، والوجه-هو الثاني؛ لظهوره في الدلالة على المعنى، وأكثر العلماء عليه، ولو كان المراد به غلظ من الأرض لخرج عن هذا الحكم كل بلد تكون أرضه سهلة لا غلظ فيها.

وأما مثال المعنيين المجازيين فقول أبي تمام:

قَدْ بَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ حَدِيثاً ... وَبَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ قَدِيمَا
وَوَرَدْنَاهُ سَاحِلاً وَقَلِيباً ... وَرَعَيْنَاهُ بَارِضاً وَجَمِيمَا[1]

---

(١) البارض: أوّل ما تخرج الأرض من النبت قبل أن تتبين أجناسه. والجميم - بالجيم - النبت إذا عمّ وطال وانتشر.

فـعَلِمْـنَـا أن لَـيْسَ إِلَّا بـشِـقِّ النَّـ ـ ـفْس ِ صَـارَ الْكَرِيمُ يُـدْعَى كَرِيمَـا

فالساحل والقليب يستخرج منهما تأويلان مجازيان: أحدهما: أنه أراد بهما الكثير والقليل بالنسبة إلى الساحل والقليب، والآخر: أنه أراد بهما السبب وغير السبب؛ فإن الساحل لا يحتاج في ورده إلى سبب، والقليب يحتاج في ورده إلى سبب، وكلا هذين المعنيين مجاز؛ فإن حقيقة الساحل والقليب غيرهما، والوجه هو الثاني؛ لأنه أدل على بلاغه القائل ومدح المقول فيه، أما بلاغة القائل فالسلامة من هُجْنَة التكرير بالمخـالفة بين صـدر البيت وعجزه، فـإن عجزه يـدلّ على القليل والكثير، لأن البارض هو أول النبت حين يبدو، فإذا كثر وتكاثف سمي جميماً[1]، فكأنه قال: أخذنا منه تبرعاً ومَسْأَلة، وقليلاً وكثيراً، وأما مدح المقول فيه فلتعداد حالاته الأربع في تبرعه وسؤاله وإكثاره وإقلاله، وما في معاناة هـذه الأحوال من المشاقّ.

فهـذا ما يتعلق بـالترجيـح البلاغي بين الحقيقـة والحقيقـة، وبين المجـاز والمجاز، وبين الحقيقة والمجاز.

وههنا ترجيح آخر لا يتعلق بما أشرنا إليه؛ إذ هو خارج عما تقتضيه المعاني الخطابية من جهة الفصاحة أو البلاغة، وذلك أن يرجح بين معنيين: أحدهما: تام، والآخر: مقدّر، أو يكون أحدهما: مناسباً لمعنى تقدَّمَه أو تأخر عنه، والآخر: غير مناسب، أو بأن ينظر في الترجيح بينهما إلى شيء خارج عن اللفظ؛ فمثال المعنيين المشار إليهما أن المعنى التام هو الذي يدل عليه لفظه ولا يتعداه، وأما المقدر فهو الذي لا يدل عليهِ لفظه بل يستدل عليه بقرينة أخرى، وتلك القرينة قد تكون من توابعه وقد لا تكون.

(١) في الأصول كلها «سمي حميماً» بالحاء المهملة، وكذا وقع في رواية بيت أبي تمام هنا، وليس ذلك بشيء، وإنما هو «جميماً» بالجيم.

فمما جاء من ذلك قول النبي ﷺ: «فِي سَائِمَةِ[١] الْغَنَمِ زَكَاة»؛ فهذا اللفظ يستخرج منه معنيان: أحدهما: تام، والآخر: مقدر، فالتام دلالته على وجوب الزكاة في السائمة لا غير، والمقدّر دلالته على سقوط الزكاة عن المعلوفة، إلا أنه ليس مفهوماً من نفس اللفظ، بل من قرينة أخرى هي كالتابعة له، وهي أنه لما خصت السائمة بالذكر دون المعلوفة علم من مفهوم ذلك أن المعلوفة لا زكاة فيها، وللفقهاء في ذلك مُجَاذَبات جَدَلية يطول الكلام فيها، وليس هذا موضعها، والذي يترجح عندي هو القول بفَحْوَى المعنى المقدر، وهو الذي يسميه الفقهاء مفهوم الخطاب.

وله في الشعر أشباه ونظائر:

فمما ورد من ذلك شعراً قول جَـزْء بن كليب الْفَقْعَسي[٢] من شعراء الحماسة، وقد خطب إليه ابن كوز ابنته فرده:

تَبَغَّى ابْنُ كُوزٍ وَالسَّفَاهَةُ كَاسْمِهَا ... لِيَسْتَادَ مِنَّا أنْ سَنَوْنَا لَيَالِيَا[٣]

فَلاَ تَطْلُبَنْهَا يَا آبْنَ كُوزٍ فَإنَّهُ ... غَذَا النَّاسُ مُذْ قَامَ النَّبِيُّ الْجَوَارِيَا[٤]

(١) السائمة: التي ترعى، وتقول: سامت الماشية تسوم، إذا رعت، وتقول: أسامها صاحبها، وفي التنزيل: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي تخرجون ماشيتكم لترعاه، وجمع السائمة سوائم.

(٢) في الأصول «جرى بين كلب الفقعسي»، والذي في ديوان الحماسة «جرير بن كليب الفقعسي»، وقد صوب الشارح نقلاً عن أبي محمد الأعرابي أن اسمه «جزء بن كليب الفقعسي».

(٣) «ليستاد منا» أي يتقرب إلى السادات منا، وذلك كناية عن رغبته في التزوج منهم، و «سنونا» كذلك هو في الأصول بالسين المهملة والنون الموحدة، ومعناه دخلنا في السنة، وهي الجدب والقحط، وفي الحماسة وشرحه «شتونا» بالشين المعجمة والتاء المثناة، ومعناه دخلنا في الشتاء، والشتاء عندهم زمان القحط والمجدبة وهم يكنون به عن الجدب، و «أن شتونا» تعليل: أي لأن نزل بنا الجدب جاء هذا الرجل خاطباً منا.

(٤) في الحماسة بين هذا البيت والذي قبله بيتان آخران، وهما قوله:

فَمَا أكْبَرُ الأشْيَاءِ عِنْدِي حَزَازَةً ... بِأنْ أُبْتَ مَزْرِيًّا عَلَيْكَ وَزَارِيَا

وَإنَّا عَلَى عَضِّ آلزَّمَانِ آلَّذِي تَرَى ... نُعَالِجُ مِنْ كَرْهِ لِلْمَخَازِي آلدَّوَاهِيَا

وانظر شرح التبريزي على ديوان الحماسة (ج ١ ص ٢٣٦).

وهذا البيت الثاني يشتمل على المعنيين التام والمقدر، أما التام فإن ابن كوز سأل أبا هذه الجارية أن يزوجه إياها في سَنَة، والسنة: الجدب؛ فرده وقال: قد غذا الناس البناتِ مذ قام النبي ﷺ، وأنا أيضاً أغذو هذه، ولولا ذلك لَوَأَدْتُها كما كانت الجاهلية تفعل، وفيه وجه آخر، وهو أنهم كانوا يَئِدُون البنات قبل الإسلام، فلما جاء النبي ﷺ نهى عن ذلك، فقوله: «غذا الناس مذ قام النبي الجواريا» أي في النساء كثرة، فتزوج بعضَهُنَّ وخَلِّ ابنتي، وهذان المعنيان هما اللذان دلّ عليهما ظاهر اللفظ، وأما المعنى المقدر الذي يعلم من مفهوم الكلام، فإنه يقول: إن النبي ﷺ أمر بإحياء البنات، ونهى عن الوأد، ولو أنكحتكها لكنت قد وأدتها؛ إذ لا فرق بين إنكاحك إياها وبين وأدها، وهذا ذم للمخاطب، وهو معنى دقيق، ومجيء المعاني المستخرجة من المفهومة قليل من الشعر.

وأما ما يستدل عليه بقرينة ليست من توابعه فإن ذلك أدق من الأول، وألطف مأخذاً.

فمما ورد منه قول النبي ﷺ: «مَنْ جُعِلَ قَاضِياً بَيْنَ النَّاسِ فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ» فهذا يستخرج منه المعنيان المشار إليهما، فالتام منهما يدل على أنه من جعل قاضياً فقد عرض نفسه لخطر عظيم كالذبح بغير سكين، وأما المقدر فإنه يدل على أنه من جعل قاضياً فقد أمر بمفارقة هواه، وهذا لا يدل عليه اللفظ بنفسه، بل يستدل عليه بقرينة أخرى، ولكنها ليست من توابعه، ووجه ذلك أن لفظ الحديث عام يشمل القضاة على الإطلاق، ولا يخلو إما أن يراد به عذاب الآخرة أو عذاب الدنيا، ولا يجوز أن يكون المراد به عذاب الآخرة؛ لأنه ليس كل قاض معذباً في الآخرة، بل المعذب منهم قضاة السوء، فوضح بهذا أن المراد بالحديث عذاب الدنيا، وعلى هذا فلا يخلو إما أن يكون العذاب صورةً أو معنى، ولا يجوز أن يكون صورة؛ لأنا نرى الإنسان إذا جعل قاضياً لا يذبح ولا يناله شيءٌ من ذلك، فبقي أن يكون المرادِ به عذاباً معنوياً، وهو الذبح المجازي غير الحقيقي، وفحوى ذلك أن نفس الإنسان مركبة على حُبِّ هواها، فإذا جعل قاضياً فقد أمر بترك ما جُبِل على حبه: من الامتناع عن الرِّشْوَة، والحكم لصديقه على عدوّه، ورفع

الحجاب بينه وبين الناس، والجلوس للحكم في أوقات راحتـه، وغير ذلـك من الأشياء المكروهة التي تشق على النفس وتجدد لها ألماً مُبَرِّحاً، والذبح هو قطع الحُلْقُوم، والألم حاصل به، وهو كالذبح الحقيقي، بل أشد منه؛ لأن ألم الذبح الحقيقي يكون لحظة واحدة ثم ينقضي ويزول، وألم قطع النفس عن هواها يدوم ولا ينقضي، وهو أشد العذاب. قال الله في عذاب أهل النار: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وقال في نعيم أهل الجنة: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾.

وكثيراً ما رأينا وسمعنا من حمله حب الشيء على إتلاف نفسه في طلبه، وركوب الأهوال من أجله، فإذا امتنع عنه مع حبه إياه فقد ذبح نفسه: أي قطعها عنه كما يقطع الذابح حلق الذبيحة؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «انْتَقَلْنَا عَنِ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى ٱلْجِهَادِ الأَكْبَرِ» فَسَمَّى جهاد الكفار الجهاد الأصغر وجهادَ النفس الجهاد الأكبر، فكما أن مجاهدة النفس عن هواها قتال بغير سيف فكذلك قطعها عن هواها ذبح بغير سكين، وهذا موضع غامض، والترجيح فيه مختص بالوجه الآخر؛ لاشتماله على المعنى المقصود، وهو المراد من القضاة على الإطلاق.

وأما مثال المعنيين إذا كان أحدهما مناسباً لمعنى تقدمه أو لمعنى تأخر عنه والآخر غير مناسب: فالأول: هو ما كان مناسباً لمعنى تقدمه كقولـه تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ فالدعاء ههنا يدل على معنيين: أحدهما: النهي أن يدعى الرسول باسمه؛ فيقال: يا محمد، كما يدعـو بعضهم بعضاً بأسمائهم، وإنما يقال له: يا رسول الله، أو يا نبي الله؛ الآخر: النهي أن يجعلوا حضورهم عنده إذا دعاهم لأمر من الأمور كحضور بعضهم عند بعض، بل يتأدبون معه؛ بأن لا يفارقوا مجلسه إلا بإذنه، وهذا الوجه هو المراد؛ لمناسبة معنى الآية التي قبله وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِـهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهِ﴾ وأما الثاني: وهو ما كان مناسباً لمعنى تأخر عنه فكقوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ﴾ فالتين والزيتون هما هذا الشجر المعروف، وهما اسما جبلين أيضـاً، وتأويلهمـا بالجبلين أولى؛

للمناسبة بينهما وبين ما أتى بعدهما من ذكر الجبل الذي هو الطور.

وعلى هذا ورد قول الشاعر في أبيات الحماسة[1]:

وَلَوْ كُنْتُ مَوْلَى قَيْسِ عَيْلَانَ لَمْ تَجِدْ   عَلَيَّ لإِنْسَانٍ مِنَ النَّاسِ دِرْهَمَا
وَلٰكِنَّنِي مَوْلَى قُضَاعَةَ كُلِّهَا   فَلَسْتُ أُبَالِي أَنْ أَدِينَ وَتَغْرَمَا

فإذا نظرنا إلى البيت الأول وجدناه يحتمل مدحاً وذماً: أي أنهم كانوا يُغْنُونه بعطائهم أن يدين، أو أنه كان يخاف الدَّيْنَ حَذَرَ أن لا يقوموا عنه بوفائه، لكن البيت الثاني حقق أن الأول ذم وليس بمدح[2]؛ فهذا المعنى لا يتحقق فهمه إلا بآخره.

وأما الذي يكون الترجيح فيه بسبب شيء خارج عن مفهوم اللفظ فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾؛ فهذا مستنبط منه معنيان: أحدهما: أن الله يعلم السر والجهر في السموات والأرض، وفي ذلك تقديم وتأخير: أي يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض؛ والآخر: أنه في السموات، وأنه يعلم السر والجهر في الأرض من بني آدم؛ لأن الوقف يكون على السموات ثم يستأنف الكلام، فيقول: يعلم سركم وجهركم في الأرض، إلا أن هذا يمنع منه اعتقاد التجسيم، وذلك شيء خارج عن مفهوم اللفظ.

---

(١) هو شقران - بضم فسكون - مولى بني سلامان - بفتح السين واللام مخففة - وهم من قضاعة، وانظر (ص ١٥٢ ج ٤ من شرح التبريزي).

(٢) أخطأ المؤلف في ذلك خطأً شنيعاً، لأن الشاعر يقول بعد هذين البيتين:

أُولٰئِكَ قَوْمِي بَارَكَ اللَّهُ فِيهِمُ   عَلَى كُلِّ حَالٍ، مَا أَعَفَّ وَأَكْرَمَا
ثِقَالُ الْجِفَانِ وَالْحُلُومِ رَحَاهُمُ   رَحَا الْمَاءِ يَكْتَالُونَ كَيْلاً غَذَمْذَمَا

وقد فسر التبريزي البيتين اللذين ذكرهما المؤلف بقوله: «يقول: لو كان ولائي في قيس عيلان لاقتديت بهم في الكف عن الإنفاق لئلا يركبني دين، ولكن ولائي في قضاعة، ومهما أخذت عليّ من الدين غرمت عني؛ فلا أبالي في أي وجه أنفق من وجوه البر» اهـ، ولا تظن أن قوله «على كل حال» في البيت الأوّل مما أنشدناه لك يشير إلى أنهم بخلاء وأنه راض عنهم مع ذلك؛ لأن معناه ليس كما يسبق إلى ذهنك، بل معناه بارك الله فيهم متحوّلين ومتنقلين في أحوال الدهر وتصاريفه. والغذمذم: الكثيرالذي لا حساب له، بل يكون جزافاً.

الفصل الخامس

في جوامع الكلم

قال النبيّ ﷺ: «أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ» فالكَلِم: جمع كَلِمة، والجوامع: جمع جَامعة، والجامعة: اسم فاعلة من جَمَعَتْ فهي جامعة، كما يقال في المذكر: جَمَعَ فهو جامع، والمراد بذلك أنه ﷺ أوتي الكلم الجوامع للمعاني، وهو عندي ينقسم قسمين: القسم الأول منهما هو ما استخرجته ونبهت عليه، ولم يكن لأحد فيه قول سابق، وهو أن لنا ألفاظاً تتضمن من المعنى ما لا تتضمنه أخواتها مما يجوز أن يستعمل في مكانها؛ فمن ذلك ما يأتي على حكم المجاز، ومنه ما يأتي على حكم الحقيقة:

أما ما يأتي على حكم المجاز فقوله ﷺ يوم حنين: «الآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ»؛ وهذا لم يسمع من أحد قبل رسول الله ﷺ، ولو أتينا بمجاز غير ذلك في معناه فقلنا: «اسْتَعَرَتِ الحربُ» لما كان مؤدياً من المعنى ما يؤديه «حَمِيَ الْوَطِيسُ» والفرق بينهما أن الوطيس هو التَّنُّور، وهو موطن الْوَقُود ومجتمع النار، وذلك يخيل إلى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتوقّدها، وهذا لا يوجد في قولنا: «استعرت الحرب» أو ما جرى مجراه.

وكذلك قال ﷺ: «بُعِثْتُ فِي نَفَسِ السَّاعَةِ» فقوله: «نفس الساعة» من العبارة العجيبة التي لا يقوم غيرها مقامها؛ لأن المراد بذلك أنه بعث والساعة قريبة منه، لكن قربها منه لا يدل على ما دل عليه النَّفَسُ، وذاك أن النفس يدل على أن الساعة منه بحيث يحس بها كما يحس الإنسان بنَفَسِ مَنْ هو إلى جانبه، وقد قال ﷺ في موضع آخر: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ» وجمع بين أصبعيه السَّبَّابة والوسطى، ولو قال بعثت على قرب من الساعة أو والساعة قريبة مني لما دلّ ذلك على ما دلّ عليه نَفَسُ الساعة، وهذا لا يحتاج إلى الإطالة في بيانه؛ لأنه بَيِّنٌ واضح.

وقد ورد شيء من ذلك في أقوال الشعراء الْمُفْلِقِين، ولقد تصفحت الأشعار

قديمها وحديثها، وحفظت ما حفظت منها، وكنت إذا مررت بنظري في ديوان من الدواوين ويلوح لي فيه مثل هذه الألفاظ أجد لها نَشْوَةً كنشوة الخمر، وطَرَباً كطرب الألحان، وكثير من الناظمين والناثرين يمر على ذلـك ولا يتفطن لـه، سوى أنـه يستحسنه من غير نظر فيما نظرت أنا فيه، ويظنه كغيره من الألفاظ المستحسنة.

فمما جاء من ذلك قول أبي تمام[1]:

كَمْ صَارِمٍ عَضْبٍ أَنَافَ عَلَى فَتًى ... مِنْهُمْ لأعْبَاءِ الْوَغَى حَمَّالِ[2]
سَبَق المشِيبُ إلَيْهِ حَتَّى ابْتَزَّهُ ... وَطَنَ النّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقَذَالِ[3]

فَقوله: «وَطَنَ النّهى» من الكلمات الجامعة، وهي عبارة عن الرأس، ولا يجاء بمثلها في معناها مما يسدُّ[4] مسدّها:

وكذلك ورد قول البحتري:

قَلبٌ يُطِلُّ عَلَى أفْكَارِهِ، وَيَدٌ ... تَمْضِي الأُمُورَ، وَنَفْسٌ لَهْوُهَا التَّعَبُ

فقوله: «قلب يُطِلّ على أفكاره» من الكلمات الجوامع، ومراده بذلك أن قلبه لا تملؤه الأفكار، ولا تحيط به، وإنما هو عالٍ عليها، يصف بذلك عدمَ احتفاله

---

(١) هذان البيتان من قصيدة لأبي تمام يمدح فيها المعتصم ويذكر أخذ بابك، وأولها قوله:

آلَتْ أمُورُ الشِّرْكِ شَرَّ مَآلِ ... وَأقَرَّ بَعْدَ تَخَمُّطٍ وَصِيَالِ

آلت: رجعت، والمآل: المرجع، والتخمط: التكبر، والصيال: التسلط وانظر الديوان (ص ٢٥٩).

(٢) وقع هذا البيت محرفاً في أصول هذا الكتاب؛ فجاء فيها «على قفا» وجاء فيها «منهم لأعبا الوغى» والتصحيح عن الديوان (ص ٢٦٣).

(٣) ضبط في الديوان «وطن النهي» بالرفع، وهو خطأ، وصوابه نصب «وطن النهي» على أنه مفعول ثان لابتز. والمفرق: وسط الرأس، والقذال: مؤخره.

(٤) لا، بل جاء بمثله كناية عن القلب ذلك الذي يقول:

الضَّارِبِينَ بكُلِّ أبْيَضَ مِخْذَمٍ ... وَالطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ الأضْغَانِ

بالقوادح، وقلَّةَ مبالاته بالخطوب التي تحدث أفكاراً تستغرق القلوب، وهذه عبارة عجيبة لا يؤمن بمثلها مما يسدُّ مسدها.

وأما ما يأتي على حكم الحقيقة فكقول ابن الرومي:

سَقَى اللَّهُ أَوْطَاراً لَنَا وَمَآرباً ... تَقَطَّعَ مِنْ أَقْرَانِهَا مَا تَقَطَّعَا

لَيَالٍ تُنَسِّينِي اللَّيَالِي حِسَابَهَا ... بلَهْنِيَة أقْضِي بِهَا الْحَوْلَ أَجْمَعَا

سِوَى غِرَّة لاَ أَعْرِفُ الْيَوْمَ بِاسْمِهِ ... وَأعْملُ فِيهِ اللَّهْوَ مَرْأًى وَمَسْمَعَا[1]

فقوله: «لا أعرف اليوم باسمه» من الكلمات الجامعة: أي أني قد شغلت باللذات عن معرفة الليالي والأيام، ولو وصف اشتغاله باللذات مهما وصف لم يأت بمثل قوله: «لا أعرف اليوم باسمه».

وأما القسم الثاني من جوامع الكلم، فالمراد به الإيجاز الذي يُدَلُّ به بالألفاظ[2] القليلة على المعاني الكثيرة: أي أن ألفاظه صلوات الله عليه جامعة للمعاني المقصودة على إيجازها واختصارها، وجُلّ كلامه جارٍ هذا المجرى؛ فلا يحتاج إلى ضرب الأمثلة به، وسيأتي في باب الإيجاز منه ما فيه كفاية ومَقْنَع.

فإن قيل: فما الفرق بين هذين القسمين اللذين ذكرتهما؛ فإنهما في النظر سواء؟.

قلت في الجواب: إن الإيجاز هو أن يؤتى بألفاظ دالة على معنى من غير أن تزيد على ذلك المعنى، ولا يشترط في تلك الألفاظ أنها لا نظير لها؛ فإنها تكون قد اتَّصفت بوصف آخر خارج عن وصف الإيجاز، وحينئذ يكون إيجازاً وزيادة. وأما

---

(١) في الأصول «سوى عزة» وهو تحريف.

(٢) الباء في قوله «يدل به» دالة على معنى غير المعنى الذي تدل عليه الباء في قوله «بالألفاظ»، وهذا أمر حتم؛ لأنه لا يجوز أن يتعدى الفعل مرتين بحرف جر ومعناه واحد في المرتين؛ والباء الأولى للاستعانة والثانية للتعدية، والمعنى يدل بالألفاظ القليلة على المعنى الكثير بواسطة الإيجاز.

هذا القسم الآخر فإنه ألفاظ أَفْرَادٌ في حسنها لا نظير لها[١]، فتارة تكون موجزة، وتارة لا تكون موجزة، وليس الغرض منها الإيجاز، وإنما الغرض مكانُهَا من الحسن الذي لا نظير لها فيه، ألا ترى إلى قول أبي تمام «وَطَن النهي» فإن ذلك عبارة عن الرأس، ولا شك أن الرأس أوجز؛ لأن الرأس لفظة واحدة، و «وطن النهي» لفظتان، إلا أن «وطن النهي» أحسن في التعبير عن الرأس من الرأس، فبان بهذا أن أحد هذين القسمين غير الآخر.

(١) أفراد: جمع فرد، والمراد به المتفرد في حسنه؛ وقوله: «لا نظير لها» هو تفسير لمعنى الأفراد.

الفصل السادس

في الحكمة التي هي ضالة المؤمن

قال النبي ﷺ: «الْحِكْمَةُ[1] ضالَّة الْمُؤْمِنِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا إِذَا وَجَدَهَا»؛ والمراد بذلك أن الحكمة قد يستفيدها أهلها من غير أهلها، كما يقال: ربَّ رَمْيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ، وهذا لا يخص علماً واحداً من العلوم، بل يقع في كل علم، والمطلوب منه هُهنا هو ما يخص علم البيان من الفصاحة والبلاغة، دون غيره، ومذ سمعت هذا الخبر النبوي جعلت كدِّي في تتبع أقوال الناس في مفاوضاتهم ومحاوراتهم، فإنه قد تصدر الأقوال البليغة والحكم والأمثال ممن لا يعلم مقدار ما يقوله، فاستفدت بذلك فوائد كثيرة لا أحصرها عدداً، وأنا أذكر منها طَرَفاً يستدل به على أشباهه ونظائره.

فمن ذلك أني سرت في بعض الطرق وفي صحبتي رجل بَدَوِيّ من الأنباط لا يُعْتَدّ بقوله، فكان يقول: غداً ندخل البلد وتشتغل عني، وكان الأمر كما قال، فدخلت مدينة حلب وشغلت عنه أياماً، ثم لقيني فقال لي: مَنْ تَرَوَّى فَتَرَتْ عِظَامُهُ، وهذا القول من الأقوال البليغة، وهي من الحكمة التي هي الضالة المطلوبة عند مؤمني الفصاحة والبلاغة.

ثم إني سمعت منه بعد ذلك شيئاً يناسب قوله الأول، فإني سَفَرْت له إلى صاحب في حلب في شيء أخذته منه، فاستقله، وقال: الماءُ أَرْوَى لِشُدُوق النِّيب[2] وهذا أيضاً من الحكمة في بابها.

وسافرت مرة أخرى على طريق المناظر، وكان في صحبتي رجل بدوي،

---

(١) في الأصول «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن» وهو زيادة عما ورد في الحديث.

(٢) الشدوق: جمع شدق، والشدق ـ بكسر فسكون ـ جانب الفم، والنيب: جمع ناب، والناب: الناقة المسنة، وتجمع أيضاً على أنياب ونيوب.

فسألته عن مسافة ما بين تَدْمُر وأراك، فقال: إذا خرج سَرْحَاهُمَا تَلاَقَيا[1]، فعبر عن قرب المسافة بينهما بأوجز عبارة وأبلغها.

ثم سألته ليلة من الليالي عن الصبح لنرتحل من موضعنا، فقال: قد ظهر الصبح إلا أنه لم يملك الإنسان بصره، وهذا القول من الحكمة أيضاً.

وكان تزوج غلام من غلماني بدمشق، فوقعت المرأة منه بموقع، وشُغِفَ بها، ثم إني سافرت عن دمشق لمهم عرض لي، وسافر ذلك الغلام في صحبتي، فلما عدنا من السفر شغل بامرأته والمقام عندها، فسألته عن حاله، فقال: إنها قد طالت وحَسُنَت، وهي كذا وكذا، وأخذ يصفها؛ فقال أخ له كان حاضراً: يا مولاي، هي تلك لم تزد شيئاً، وإنما هي في عينه جَبَّار من الجبابرة[2]، وهذا القول قد ورد في بعض أبيات الحماسة، وهو معدود من أبيات المعاني:

أَهَابُكِ إجْلاَلاً وَمَا بِكِ قُدْرَةٌ عَلَيَّ وَلٰكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا

فكثيراً ما يصدر مثل هذه الأقوال عن ألسنة الجهال.

وسمعت ما يجري هذا المجرى من بعض العبيد الأحابيش الذين لا يستطيعون تقويم صيغ الألفاظ، فضلاً عما وراء ذلك، وذاك أنه رأى صبياً في يده طاقة رَيْحَان، فقال: هذه طاقة آسٍ تحمل طاقة رَيْحَان، فلما سمعت ذلك منه أخذتني هزة التعجب، وذكرت شعر أبي نُوَاسٍ الذي تواصفه الناس في هذا المعنى، وهو قوله:

وَوَرْدَةٍ جَاءَ بِهَا شَادِنٌ فِي كَفِّهِ الْيُمْنَى فَحَيَّانَا
سَبَّحْتُ رَبِّي حِينَ أبْصَرْتُهَا رَيْحَانَةٌ تَحْمِلُ رَيْحَانَا

وحضر عندي في بعض الأيام رجل نصراني مَوْسُوم بالطبِّ، وكان لا يحسن

---

(١) السرح ـ بفتح السين وسكون الراء ـ المال السائم من إبل وغنم ونحوهما.

(٢) في ج «من الجبارة»، وهو تحريف، والتصويب عن ب.

أن يقول كلمة واحدة، وهو أقلف اللسان[١]، يسيء العبارة، فسألته عن زيارة شخص وهل يتردد إليه أم لا، فقال: ظَلَامُ الليل يَهْدِيني إلى باب من أَوَدُّه، وضوءُ النهار يَضِلُّ بي عن باب من لا أوده، وهذا من ألطف المعاني وأحسنها، وهو من الحكمة المطلوبة.

وكنت قصدت زيارة بعض الإخوان من الأجناد وهو من الأغتام[٢] الأعجام، فسألته عن حاله، وكان توالت عليه نكبات طالت أيامها، وعظمت آلامها، فقال لي في الجواب ما معناه: إنه لم يبق عندي ارتياع لوقوع نائبة من النوائب؛ وهذا معنى لو أتى به شاعر مفلق، أو كاتب بليغ؛ لاستحسن منه غاية الاستحسان.

وكنت في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة بأرض فِلَسْطين في الجيش الذي كان قُبالة العدو الكافر من الفرنج لعنهم الله، وتقابل الفريقان على مدينة يافا، وكان إلى جانبي ثلاثة فرسان من المسلمين، فتعاقدوا على الحملة إلى نحو العدو، فلما حملوا صَدَقَ منهم اثنان وتلكأ واحد، فقيل له في ذلك، فقال: الموتُ طَعامٌ لَا تَجُشُّه المَعِدَة[٣] فلما سمعت هذه الكلمة استحسنتها، وإذا هي صادرة عن رجل من أهل بُصْرَى فدم من الأفدام[٤].

ولو أخذت في ذكر ما سمعته من هذا لأطلت، وإنما دللت بيسير ما ذكرته على المراد، وهو أنه يجب على المتصدِّي للشعر والخطابة أن يتتبع أقوال الناس

---

(١) كذا بالأصول: وهذه العبارة تحتمل معنيين متضادين: أولهما: أنه طويل اللسان، وأصل الأقلف الذي لم يختتن، ويقال: عام أقلف، وسنة قلفاء، إذا كان فيهما الخصب. وثاني: المعنيين أنه قصير اللسان من قولهم: قلف الشجرة، إذا نحى عنها قشرها، والأول أقرب لقوله بعد «يسيء العبارة».

(٢) الأغتام: جمع غتم ـ بضم فسكون ـ والغتم: جمع أغتم؛ وهو الذي لا يبين شيئاً، وجمع الجمع مما لا يقاس، ولكن المؤلف أخذ هذه الكلمة من قول المتنبي:

لِـلَّهِ مَـا فَـعَـلَ الـصَّـوَارِمُ والْـقَـنَـا ... فِي عَمْـرِو حَـابِ وَضَبَّـةَ الأَغْتَـامِ

(٣) جش الشيء يجشه ـ مثل ردّه يرده ـ إذا دقه وكسره، ويقال للسويق: جشيش.

(٤) الأفدام: جمع فدم؛ والفدم ـ بفتح فسكون ـ العييّ الثقيل.

في محاوراتهم؛ فإنه لا يعدم مما يسمعه منهم حكماً كثيرة، ولو أراد استخراج ذلك بفكره لأعجزه.

ويحكى عن أبي تمام أنه لما نظم قصيدته البائية التي أولها:

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ[1]

انتهى منها إلى قوله:

يَرَى أَقْبَحَ الأَشْيَاءِ أَوْبَةَ آمِلٍ   كَسَتْهُ يَدُ المَأْمُولِ حُلَّةَ خائِبِ

ثم قال:

وَأَحْسَنُ مِنْ نَوْرٍ يُفَتِّحُهُ الصَّبَا

ووقف عند صدر هذا البيت يُرَدِّدُهُ، وإذا سائل يسأل على الباب، وهو يقول: من بياض عطاياكم في سواد مطالبنا، فقال أبو تمام:

بَيَاضُ العَطَايَا فِي سَوَادِ المَطَالِبِ

فأتمَّ صدر البيت الذي كان يردده من كلام السائل.

وسمعت امرأة قد توفي لها ولد، وهو بكرها الذي هو أول أولادها، فقالت: كيف لا أحزن لذهابه وهو أَوَّلُ دِرْهَمٍ وَقَعَ في الكيس، فأخذت أنا هذا المعنى وأودعته كتاباً من كتبي في التعازي، وهو كتاب كتبته إلى بعض الإخوان وقد توفي بكره من الأولاد؛ فقلت: وَهُوَ أَوَّلُ دِرْهَمٍ ادَّخَرْتَهُ فِي كيس الادِّخَارِ، وأَعْدَدْتَهُ لحوادث الليل والنهار.

---

(١) هذا صدر بيت هو مطلع قصيدة يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي، وعجزه قوله:

تُذَالُ مَصُونَاتُ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ

وانظر الديوان (ص ٤٠).

وبلغني عن الشيخ أبي محمد بن أحمد المعروف[١] بابن الخشاب البغدادي، وكان إماماً في علم العربية وغيره؛ فقيل: إنه كان كثيراً ما يقف على حلق القصاص والمشعبذين، فإذا أتاه طلبة العلم لا يجدونه في أكثر أوقاته إلا هناك، فليم على ذلك، وقيل له: أنت إمام الناس في العلم، وما الذي يبعثك على الوقوف بهذه المواقف الرذيلة؛ فقال: لو علمتم ما أعلم لما لُمْتُمْ، ولطالما استفدت من هؤلاء الجهال فوائد كثيرة [فإنه][٢] تجري في ضمن هَذَيَانهم معانٍ غريبة لطيفة، ولو أردت أنا وغيري أن نأتي بمثلها لما استطعنا ذلك، ولا شك أن هذا الرجل رأى ما رأيته، ونظر إلى ما نظرت إليه.

(١) في الأصول «أبي محمد أحمد بن أحمد» وابن الخشاب النحوي هو أبو محمد عبدالله بن أحمد.

(٢) زيادة يدعو إليها حسن نظام الكلام.

الفصل السابع

في الحقيقة والمجاز

وهذا الفصل مهم كبير من مهمات علم البيان، لا، بل هو علم البيان بأجمعه؛ فإن في تصريف العبارات على الأسلوب المجازي فوائد كثيرة، وسيرد بيانها في مواضعها من هذا الكتاب، إن شاء الله تعالى، وقد نبهنا في هذا الموضع على جملتها دون تفصيلها.

فأما الحقيقة فهي: اللفظ الدالّ على موضوعه الأصلي.

وأما المجاز فهو ما أريد به غَيْرُ المعنى الموضوع له في أصل اللغة، وهو مأخوذ من جَازَ من هذا الموضع إلى هذا الموضع؛ إذا تخطَّاه إليه؛ فالمجاز إذاً آسْمٌ للمكان الذي يُجَاز فيه كالْمَعَاج والْمَزَار وأشباههما، وحقيقته هي الانتقال من مكان إلى مكان، فجعل ذلك لنقل الألفاظ من محلّ إلى محل، كقولنا: زيدٌ أسدٌ؛ فإن زيداً إنسان، والأسد هو هذا الحيوان المعروف، وقد جُزْنا من الإنسانية إلى الأسدية: أي عَبَرْنَا من هذه إلى هذه لوُصْلَة بينهما، وتلك الوصلة هي صفة الشجاعة، وقد يكون العبور لغير وُصْلة، وذلك هو الاتّساع، كقولهم في كتاب كليلة ودمنة: قال الأسد، وقال الثعلب؛ فإن القول لا وُصْلة بينه وبين هذين بحال من الأحوال، وإنما أجرى عليهما اتّساعاً محضاً لا غير، ولهذا مثال في المجاز الحقيقي الذي هو المكان المجاز فيه، فإنه لا يخلو إما أن يجاز من سَهْل إلى سَهْل، أو من وَعْر إلى وَعْر، أو من سهل إلى وَعْر؛ فالجواز من سهل إلى سهل أو من وعر إلى وعر هو كقولنا: زيد أسد؛ فالمشابهة الحاصلة[1] في ذات بَيْنِهِمَا كالمشابهة الحاصلة في المكان، والجواز من سهل إلى وعر كقولهم: قال الأسد، وقال

(١) في الأصول «فالمشابهة حاصلة ـ إلخ» وهو تحريف سببه ظن الناسخين أن قوله «حاصلة» خبر، والصواب ما أثبتناه؛ والخبر هو قوله «كالمشابهة ـ إلخ».

الثعلب، فكما أنه لا مشابهة بين القول وبين هذين، فكذلك لا مشابهة بين السهل والوعر، وسيأتي كَشْفُ الغطاء عن ذلك وإشباعُ القول في تحقيقه في باب الاستعارة، فليؤخذ من هناك.

وقد ذهب قوم إلى أن الكلام كله حقيقة لا مجاز فيه، وذهب آخرون إلى أنه كله مجاز لا حقيقة فيه، وكلا هذين المذهبين فاسد عندي.

وسأجيب الخصم عما ادّعاه فيهما، فأقول:

محل النزاع هو أن اللغة كلها حقيقة أو أنها كلها مجاز، ولا فرق عندي بين قولك إنها كلها حقيقة أو إنها كلها مجاز، فإن كلا الطرفين عندي سواء؛ لأن منكرهما غير مسلّم لهما، وأنا بصدد أن أبين أن في اللغة حقيقة ومجازاً، والحقيقة اللغوية هي حقيقة الألفاظ في دلالتها على المعاني، وليست بالحقيقة التي هي ذات الشيء أي نفسه وعينه؛ فالحقيقة اللفظية إذاً هي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في أصل اللغة، والمجاز هو نقل المعنى عن اللفظ الموضوع له إلى لفظ آخر غيره.

وتقرير ذلك بأن أقول:

المخلوقات كلها تفتقر إلى أسماء يستدل بها عليها؛ ليعرف كل منها باسمه، من أجل التفاهم بين الناس، وهذا يقع ضرورة لا بدّ منها؛ فالاسم الموضوع بإزاء المسمى هو حقيقة له، فإذا نقل إلى غيره صار مجازاً، ومثال ذلك: أنا إذا قلنا شمس أردنا به هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء، وهذا الاسم له حقيقة؛ لأنه وضع بإزائه، وكذلك إذا قلنا بحر أردنا به هذا الماء العظيم المجتمع الذي طعمه ملح، وهذا الاسم له حقيقة؛ لأنه وضع بإزائه، فإذا نقلنا الشمس إلى الوجه المليح استعارةً كان ذلك له مجازاً لا حقيقة، وكذلك إذا نقلنا البحر إلى الرجل الجواد استعارةً كان ذلك له مجازاً لا حقيقة.

فإن قيل: إن الوجه المليح يقال له شمس، وهو حقيقة فيه، وكذلك البحر يقال للرجل الجواد، وهو حقيقة فيه.

فالجواب عن ذلك من وجهين: أحدهما: نظريّ، والآخر: وضعيّ.

أما النظري: فهو أن الألفاظ إنما جعلت أدلة على إفهام المعاني» ولو كان ما ذهبت إليه صحيحاً لكان البحر يطلق على هذا الماء العظيم الملح، وعلى الرجل الجواد، بالاشتراك، وكذلك الشمس أيضاً؛ فإنها كانت تطلق على هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء، وعلى الوجه المليح، بالاشتراك، وحينئذ فإذا ورد أحد هٰذين اللفظين مطلقاً بغير قرينة تخصّصه فلا يفهم المراد به ما هو من أحد المعنيين المشتركين المندرجين تحته، ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك؛ فإنا إذا قلنا شمس أو بحر وأطلقنا القول لا يفهم من ذلك وجه مليح ولا رجل جواد، وإنما يفهم منه ذلك الكوكب المعلوم وذلك الماء المعلوم، لا غير، فبطل إذاً ما ذهبت إليه بما بيّناه وأوضحناه.

فإن قلت: إن الْعُرْفَ يخالف ما ذهبت إليه؛ فإن من الألفاظ ما إذا أطلق لم يذهب الفهم منه إلا إلى المجاز دون الحقيقة، كقولهم الغائط، فإن العرب خصّص ذلك بقضاء الحاجة دون غيره من المطمئن من الأرض.

قلت في الجواب: هذا شيء ذهب إليه الفقهاء، وليس الأمر كما ذهبوا إليه؛ لأنه إن كان إطلاق اللفظ فيه بين عامة الناس من إسكاف وحَدَّاد ونجار وخباز ومن جرى مجراهم فهؤلاء لا يفهمون من الغائط إلا قضاء الحاجة؛ لأنهم لم يعلموا أصل وضع هذه الكلمة وأنها مطمئن من الأرض، وأما خاصة الناس الذين يعلمون أصل الوضع فإنهم لا يفهمون عند إطلاق اللفظ إلى الحقيقة لا غير، ألا ترى أن هذه اللفظة لما وردت في القرآن الكريم وأريد بها قضاء الحاجة قُرِنَت بألفاظ تدل على ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ﴾ فإن قوله: ﴿أو جَاءَ أحدٌ مِنْكم من الغَائطِ﴾ دليل على أنه أراد قضاء الحاجة دون المطمئن من الأرض، فالكلام في هذا وأمثاله إنما هو مع علم أصل الوضع حقيقة والنقل عنه مجازاً، وأما الجهال فلا اعتبار بهم، ولا اعتداد بأقوالهم.

والعجب عندي من الفقهاء الذين دوّنوا ذلك على ما دوّنوه، وذهبوا إلى ما ذهبوا إليه.

وأما الوجه الوضعي: فهو أن المرجع في هذا وما يجري مجراه إلى أصل اللغة التي هي وضع الأسماء على المسميات، ولم يوجد فيها أن الوجه المليح يسمى شمساً، ولا أن الرجل الجواد يسمى بحراً، وإنما أهل الخطابة والشعر توسعوا في الأساليب المعنوية، فنقلوا الحقيقة إلى المجاز، ولم يكن ذلك من واضع اللغة في أصل الوضع، ولهذا اختص كل منهم بشيء اخترعه في التوسعات المجازية.

هذا امرؤ القيس قد اخترع شيئاً لم يكن قبله؛ فمن ذلك أنه أول من عبّر عن الفرس بقوله: «قَيْدِ الأَوَابِدِ»(١) ولم يسمع ذلك لأحد من قبله.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال يوم حنين: «الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ» وأراد بذلك شدة الحرب؛ فإن الوطيس في أصل الوضع هو التَّنُّور، فنقل إلى الحرب استعارةً، ولم يسمع هذا اللفظ على هذا الوجه من غير النبي ﷺ.

وواضع اللغة ما ذكر شيئاً من ذلك؛ فعلمنا حينئذ أن من اللغة حقيقة بوضعه، ومجازاً بتوسعات أهل الخطابة والشعر.

وفي زماننا هذا قد يخترعون أشياء من المجاز على حكم الاستعارة لم تكن من قبل، ولو كان هذا موقوفاً من جهة واضع اللغة لما اخترعه أحد من بعده، ولا زيد فيه، ولا نقص منه.

وأما الفرق بينه وبين الحقيقة فهو أن الحقيقة جارية على العموم في نظائر؛ ألا ترى أنا إذا قلنا: «فلان عالم» صدق على كل ذي علم، بخلاف ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ لأنه لا يصح إلا في بعض الجمادات دون بعض؛ إذ المراد أهل القرية،

---

(١) من ذلك قوله:

وَقَدْ أغتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا ... بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ

والأوابد: الوحوش، ومعنى كونه قيدها أنه لسرعته لا يمكنها الهرب منه، وهيكل: جسيم.

لأنهم ممن يصح السؤال لهم، ولا يجوز أن يقال: واسأل الحجر والتراب، وقد يحسن أن يقال: واسأل الربع والطلل[1].

واعلم أن كل مجاز فله حقيقة؛ لأنه لم يصح أن يطلق عليه اسم المجاز إلا لنقله عن حقيقة موضوعة له؛ إذ المجاز هو اسم للموضع الذي ينتقل فيه من مكان إلى مكان، فجعل ذلك لنقل الألفاظ من الحقيقة إلى غيرها.

وإذا كان كل مجاز لا بد له من حقيقة نقل عنها إلى حالته المجازية فكذلك ليس من ضرورة كل حقيقة أن يكون لها مجاز، فإن من الأسماء ما لا مجاز له، كأسماء الأعلام؛ لأنها وضعت للفرق بين الذوات لا للفرق بين الصفات.

وكذلك فاعلم أن المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة في باب الفصاحة والبلاغة؛ لأنه لو لم يكن كذلك لكانت الحقيقة التي هي الأصل أولى منه حيث هو فرع عليها، وليس الأمر كذلك؛ لأنه قد ثبت وتحقق أن فائدة الكلام الخطابي هو إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر إليه عِيَاناً، ألا ترى أن حقيقة قولنا: «زيد أسد» هي قولنا: «زيد شجاع» لكن فرق بين القولين في التصوير والتخييل وإثبات الغرض المقصود في نفس السماع؛ لأن قولنا:

---

(١) من ذلك قول الأعشى:

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبْعَ الْقَوَاءَ فَيَنْطِقُ ... وَهَلْ تُخْبِرَنْكَ الْيَوْمَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ

وقول عنترة:

طَالَ الثَّوَاءُ عَلَى رُسُومِ الْمَنْزِلِ ... بَيْنَ اللَّكِيكِ وَبَيْنَ ذَاتِ الْحَرْمَلِ
فَوَقَفْتُ فِي عَرَصَاتِهَا مُتَحَيِّراً ... أَسَلُ الدِّيَارَ كَفِعْلِ مَنْ لَمْ يُذْهَلِ

وقوله أيضاً:

لِمَنْ طَلَلٌ بِوَادِي الرَّمْلِ بَالِ ... مَحَتْ آثَارَهُ رِيحُ الشَّمَالِ
وَقَفْتُ بِهِ وَدَمْعِي مِنْ جُفُونِي ... يَفِيضُ عَلَى مَغَانِيهِ الْخَوَالِي
أُسَائِلُ عَنْ فَتَاةِ بَنِي قُرَادٍ ... وَعَنْ أَتْرَابِهَا ذَاتِ الْجَمَالِ
وَكَيْفَ يُجِيبُنِي رَسْمٌ مُحِيلٌ ... بَعِيدٌ لَا يَعِنُّ عَلَى سُؤَالِي

«زيد شجاع» لا يتخيل منه السامع سوى أنه رجل جريء مقدام، فإذا قلنا: «زيد أسد» يُخَيَّل عند ذلك صورة الأسد وهيئته وما عنده من البطش والقوة، ودق الفرائس، وهذا لا نزاع فيه.

وأعجب ما في العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعي في بعض الأحوال؛ حتى إنها لَيَسْمَح بها البخيل، ويَشْجُع بها الجبان، ويحكم بها الطائش المتسرع، ويَجِدُ المخاطب بها عند سماعها نَشْوَةً كنشوة الخمر، حتى إذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك عقوبة أو إقدام على أمر مهول، وهذا هو فَحْوَى السحر الحلال، المستغني عن إلقاء العصا والحبال.

واعلم أنه إذا ورد عليك كلام يجوز أن يحمل معناه على طريق الحقيقة وعلى طريق المجاز باختلاف لفظه؛ فانظر: فإن كان لا مزية لمعناه في حمله على طريق المجاز فلا ينبغي أن يحمل إلا على طريق الحقيقة؛ لأنها هي الأصل والمجاز هو الفرع، ولا يعدل عن الأصل إلى الفرع إلا لفائدة.

مثال ذلك قول البحتري:

مَهِيبٌ كَحَدِّ السَّيْفِ لَوْ ضُرِبَتْ بِهِ ... ذُرَى أَجَإٍ ظَلَّتْ وَأَعْلَامُهَا وُهْدُ[1]

ويروى أيضاً: «لو ضُرِبَتْ به طُلَى أَجَإٍ» جمع طلية، وهي العنق، فهذا البيت لا يجوز حمله على المجاز؛ لأن الحقيقة أولى به، ألا ترى أن الذرَى جمع ذِرْوَة، وهو أعلى الشيء، يقال: ذروة الجبل، أعلاه، والطُّلَى: جمع طلية، وهي العنق، والعنق: أعلى الجسد، ولا فرق بينهما في صفة العلو هنا، فلا يعدل إذاً إلى المجاز؛ إذ لا مزية له على الحقيقة.

وهكذا كل ما يجيء من الكلام الجاري هذا المجرى؛ فإنه إن لم يكن في المجاز زيادة فائدة على الحقيقة لا يعدل إليه.

---

(١) هو من قصيدة له يصف فيها الذئب وكان قد لقيه، وأولها قوله:

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا وَفَاءُ وَلَا عَهْدُ ... أَمَا لَكُمْ مِنْ هَجْرِ أَحْبَابِكُمْ بُدُّ

ورواية الديوان «مهيباً» بالنصب، والخطب سهل، وانظر الديوان (١ - ١٨٥ مصر).

الفصل الثامن

في الفصاحة والبلاغة

اعلم أن هذا باب متعذر على الوالج، ومسلك متوعر على الناهج، ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه والبحث عنه، ولم أجد من ذلك ما يعول عليه إلا القليل.

وغاية ما يقال في هذا الباب: إن الفصاحةَ هي الظهور والبيان في أصل الوضع اللغوي، يقال: أَفْصَحَ الصُّبح، إذا ظهر، ثم إنهم يقفون عند ذلك، ولا يكشفون عن السر فيه.

وبهذا القول لا تتبين حقيقة الفصاحة؛ لأنه يعترض عليه بوجوه من الاعتراضات:

أحدها: أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهراً بيّناً لم يكن فصيحاً، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحاً.

الوجه الآخر: أنه إذا كان اللفظ الفصيح هو الظاهر البين فقد صار ذلك بالنِّسَبِ والإضافات إلى الأشخاص؛ فإن اللفظ قد يكون ظاهراً لزيد، ولا يكون ظاهراً لعمرو، فهو إذاً فصيح عند هذا وغير فصيح عند هذا، وليس كذلك، بل الفصيح هو فصيح عند الجميع، لا خلاف فيه بحال من الأحوال؛ لأنه إذا تحقق حد الفصاحة وعُرِفَ ما هِيَ لم يبق في اللفظ الذي يختص به خلاف.

الوجه الآخر: أنه إذا جيء بلفظ قبيح ينبو عنه السمع، وهو مع ذلك ظاهر بين، ينبغي أن يكون فصيحاً، وليس كذلك؛ لأن الفصاحة وصف حسن اللفظ، لا وصف قبح.

فهذه الاعتراضات الثلاثة واردة على قول القائل: «إن اللفظ الفصيح هو الظاهر البين» من غير تفصيل.

ولما وقفت على أقوال الناس في هذا الباب ملكتني الخيرة فيها، ولم يثبت عندي منها ما أعَوِّل عليه، ولكثرة ملابستي هذا الفن ومعاركتي إياه انكشف لي السر فيه، وسأوضحه في كتابي هذا، وأحقق القول فيه؛ فأقول: إن الكلام الفصيح هو الظاهر البين، وأعني بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة، وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائِرةً في كلامهم، وإنما كانت مألوفة الاستعمال دائِرة في الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حسنها، وذلك أن أرباب النظم والنثر غَرْبَلوا اللغة باعتبار ألفاظها، وسَبَروا وقسموا، فاختاروا الحسَنَ من الألفاظ فاستعملوه، ونَفَوُا القبيح منها فلم يستعملوه، فحسن الألفاظ[1] سبب استعمالها دون غيرها، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها؛ فالفصيح إذاً من الألفاظ هو الحسن.

فإن قيل: من أي وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الألفاظ حتى استعملوه، وعلموا القبيح منها حتى نفوه ولم يستعملوه؟.

قلت في الجواب: إن هذا من الأمور المحسوسة التي شاهِدُهَا من نفسها؛ لأن الألفاظ داخلة في حَيِّز الأصوات؛ فالذي يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الْحَسَن، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح؛ ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشّحْرُور، ويميل إليهما، ويكره صوت الغراب، وينفر عنه، وكذلك يكره نَهيقَ الحمار، ولا يجد ذلك في صَهيل الفرس، والألفاظ جارية هذا المجرى؛ فإنه لا خلاف في أن لفظة الْمُزْنَة والدِّيمَة حسنة يستلذها السمع، وأن لفظة الْبُعَاق[2] قبيحة يكرهها السمع، وهذه اللَّفَظَات الثلاثة من صفة المطر، وهي تدل على معنى واحد، ومع هذا فإنك ترى لفظتي الْمُزْنَة وَالدِّيمَة وما جرى مجراهما مألوفة الاستعمال، وترى لفظ الْبُعَاق وما جرى مجراه مَتْرُوكاً لا يستعمل؛ وإن اسْتُعْمِل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو مَنْ ذَوْقُه غير ذوق سليم، لا جَرَمَ

---

(١) في ب، ج «فحسن الاستعمال» وهو تحريف لا يستقيم معه اتساق الاستنتاج.

(٢) البعاق ـ بضم الباء الموحدة بزنة غراب، وبكسرها بزنة كتاب، وبفتحها بزنة سحاب ـ هو السيل الدفاع، وهو من المطر: الذي يفاجئك بوابل.

أنه ذم وقدح فيه، ولم يلتفت إليه، وإن كان عربيًّا محضاً من الجاهلية الأقدمين؛ فإن حقيقة الشيء إذا علمت وجب الوقوف عندها، ولم يُعَرَّجْ على ما خرج عنها.

وإذن ثبت أن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين، وإنما كان ظاهراً بيّناً لأنه مألوف الاستعمال، وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه، وحسنه مُدْرَك بالسمع، والذي يُدْرَك بالسمع إنما هو اللفظ؛ لأنه صوت يأتلف عن مخارج الحروف، فما استلذه السمع منه فهو الحسن، وما كرهه فهو القبيح، والحسن هو الموصوف بالفصاحة، والقبيح غير موصوف بفصاحة؛ لأنه ضدها لمكان قبحه، وقد مثلت ذلك في المثال المتقدم بلفظة الْمُزْنَة والدِّيمَة ولفظة الْبُعَاق، ولو كانت الفصاحة لأمر يرجع إلى المعنى لكانت هذه الألفاظ في الدلالة عليه سواء: ليس منها حسن ومنها قبيح، ولما لم يكن كذلك علمنا أنها تخص اللفظ دون المعنى.

وليس لقائل هٰهنا أن يقول: لا لَفْظَ إلا بمعنى، فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى؟ فإن لم أفصل بينهما، وإنما خصصت اللفظ بصفة هي له، والمعنى يجيء فيه ضِمْناً وتَبَعاً.

الوجه الثاني: أن وزن فَعِيل هو اسم فاعل من فعُلَ - بفتح الفاء وضم العين - نحو كَرُمَ فهو كريمٌ، وَشرُف فهو شريف، ولَطُف فهو لطيف، وهذا مُطَّرد في بابه، وعلى هذا فإن اللفظ الفَصيح هو اسم فاعل من فَصُحَ فهو فصيح، واللفظ هو الفاعل للإبانة عن المعنى، فكانت الفصاحة مختصة به.

فإن قيل: إنك قلت: «إن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البيّن، أي المفهوم»، ونرى من آيات القرآن ما لا يفهم ما تضمنهُ من المعنى إلا باستنباط وتفسير، وتلك الآيات فصيحة لا محالة، وهذا بخلاف ما ذكرته.

قلت: لأن الآيات التي تستنبط وتحتاج إلى تفسير ليس شيء منها إلا ومفردات ألفاظه كلها ظاهرة واضحة؛ وإنما التفسير يقع في غموض المعنى من جهة التركيب، لا من جهة ألفاظه المفردة؛ لأن معنى المفردة يتداخل بالتركيب، ويصير له هيئة تخصه، وهذا ليس قَدْحاً في فصاحة تلك الألفاظ؛ لأنها إذا اعتبرت لفظةً لفظةً وجدت كلها فصيحة: أي ظاهرة واضحة.

وأعجب ما في ذلك أن تكون الألفاظ المفردة التي تركبت منها المركبة واضحة كلها، وإذا نظر إليها مع التركيب احتاجت إلى استنباط وتفسير، وهذا لا يختص به القرآن وحده، بل في الأخبار النبوية والأشعار والخطب والمكاتبات كثير من ذلك.

وسأورد هٰهنا منه شيئاً؛ فأقول: قد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «صَوْمُكُمْ يَوْمَ تَصُومُونَ، وَفِطْرُكُمْ يَوْمَ تُفْطِرُونَ، وَأَضْحَاكُمْ يَوْمَ تَضَحُّونَ» وهذا الكلام مفهومةٌ مفرداتُ ألفاظِهِ، لأن الصوم والفطر والأضحى مفهوم كله، وإذا سمع هذا الخبر من غير فكرة قيل: علمنا أن صومنا يوم نصوم، وفطرنا يوم نفطر، وأضحانا يوم نضحّي، فما الذي أعلمنا به مما لم نعلمه؟ وإذا أمعن الناظر نظره فيه علم أن معناه يحتاج إلى استنباط، والمراد به أن إذا اجتمع الناس على أن أول شهر رمضان يوم كذا، ولم يكن ذلك اليوم أوله، فإن الصوم صحيح، وأوله هو ذلك اليوم الذي اجتمع الناس إليه، وكذا يقال في يوم الفطر، ويوم الأضحى.

ولهذا الخبر المشار إليه أشباه كثيرة تفهم معاني ألفاظها المفردة، وإذا تركبت تحتاج في فهمها إلى استنباط.

وأما ما ورد من ذلك شعراً فكقول أبي تمام:

وَلِهَتْ فَأَظْلَمَ كُلُّ شَيْءٍ دُونَهَا ... وَأَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ مُظْلِمِ (١)

فإن الوله والظلمة والإضاءة كل ذلك مفهوم المعنى، لكن البيت بجملته يحتاج في فهمه إلى استنباط، والمراد به أنها ولهت فأظلم ما بيني وبينها، لما نالني من الجزع لولهها؛ كما يقول الجازع: أظلمت الأرض علي: أي أني صرت كالأعمى الذي لا يبصر، وأما قوله: «وأضاء منها كل شيء مظلم» أي وضح لي منها ما كان مستتراً عني من حبها إياي.

---

(١) هو من قصيدة له يمدح فيها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة، وأولها:

نَشَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ تُنْظَمِ ... وَٱلدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ شَجْوِ المُغْرَمِ

وانظر الديوان (ص ٣١٢).

وكذلك ورد قول أبي عبادة البحتري في منهزم:

إِذَا سَارَ سُهْبَاً عَادَ ظُهْراً عَدُوَّهُ   وَكَانَ الصَّدِيقُ بُكْرَةً ذٰلِكَ السَّهْبُ[(١)]

فإن السَّيْر والسَّهْب والظهر والعَدُو والصَّديق كل ذلك مفهوم المعنى، لكن البيت بمجموعه يحتاج معناه إلى استنباط، والمراد أن هذا المنهزم يرى ما بين يديه محبوباً إليه، وما خلفه مكروهاً عنده؛ لأنه يطلب النجاة فيؤثر البعد مما خلفه والقرب مما أمامه، فإذا قطع سهباً وخلَّفه وراءه صار عنده كالعدو، وقَبْلَ أن يقطعه كان له صديقاً: أي يطلب لقاءه ويحبُّ الدنو منه.

فانظر أيها المتأمل إلى ما ذكرته من هذه الأمثلة حتى يثبت عندك ما أردت بيانه.

وأما البلاغة فإن أصلها في وضع اللغة من الوصول والانتهاء، يقال: بَلَغْتُ المكان، إذا انتهيت إليه، ومَبْلَغُ الشيء: منتهاه، وسمي الكلام بليغاً من ذلك؛ أي أنه قد بَلَغَ الأوصاف اللفظية والمعنوية.

والبلاغة شاملة للألفاظ والمعاني، وهي أخص من الفصاحة، كالإنسان من الحيوان، فكل إنسانٍ حيوانٌ، وليس كل حيوان إنساناً، وكذلك يقال: كل كلام بليغ فصيح، وليس كل كلام فصيح بليغاً.

ويفرق بينها وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام، وهو أنها لا تكون

---

(١) هو من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن طولون، ويذكر هرب لؤلؤ، ودخوله بغداد، وأولها:

قَلِيلٌ لَهَا أَنِّي بِهَا مُغْرَمٌ صَبُّ   وَإِنْ لَمْ يُقَارِفْ غَيْرَ وَجْدٍ بِهَا الْقَلْبُ

وانظر الديوان (ص ٣١ مصر). والسهب ـ بفتح السين ـ الفلاة، والسهب ـ بضم السين ـ المستوي من الأرض في سهولة، أو الناحية من الفلاة التي لا مسلك فيها. و «ظهراً» ظرف، و «عدوه» إما خبر عاد التي معناها صار، وإما حال من فاعلها الذي هو ضمير مستتر يعود إلى السهب، و «الصديق» خبر كان مقدم، و «ذلك السهب» اسم كان، و «بكرة» ظرف قابل به «ظهراً»، وفي الديوان «عذرة» وأظنه محرفاً عن «غدوة».

إلا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب؛ فإن اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة، ويطلق عليها اسم الفصاحة؛ إذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة، وهو الحسن. وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها؛ لخلوها من المعنى المفيد الذي ينتظم كلاماً.

مسألة تتعلق بهذا الفصل:

هل أخذ علم البيان من ضروب الفصاحة والبلاغة بالاستقراء من أشعار العرب أم بالنظر وقضية العقل؟.

الجواب عن ذلك أنا نقول؛ لم يؤخذ علم البيان بالاستقراء، فإن العرب الذين ألفوا الشعر والخطب لا يخلو أمرهم من حالين: إما أنهم ابتدعوا ما أتوا به من ضروب الفصاحة والبلاغة بالنظر وقضية العقل، أو أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم.

فإن كانوا ابتدعوه عند وقوفهم على أسرار اللغة، ومعرفة جيدها من رديئها، وحسنها من قبيحها، فذلك هو الذي أذهب إليه.

وإن كانوا أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم، فهذا يتسلسل إلى أول من ابتدعه ولم يَسْتَقْرِه، فإن كل لغة من اللغات لا تخلو من وصفي الفصاحة والبلاغة المختصين بالألفاظ والمعاني، إلا أن للغة العربية مزية على غيرها؛ لما فيها من التوسعات التي لا توجد في لغة أخرى سواها.

مسألة أخرى تتعلق بهذا الفصل أيضاً:

هل علم البيان من الفصاحة والبلاغة جارٍ مجرى علم النحو أم لا؟.

الجواب عن ذلك أنا نقول: الفرق بينهما ظاهر، وذاك أن أقسام النحو أخذت من واضعها بالتقليد، حتى لو عكس القضية فيها لجاز له ذلك، ولما كان العقل يأباه ولا ينكره؛ فإنه لو جعل الفاعل منصوباً والمفعول مرفوعاً قُلّد في ذلك كما قلد في رفع الفاعل ونصب المفعول؛ وأما علم البيان من الفصاحة والبلاغة فليس كذلك؛ لأنه استنبط بالنظر وقضية العقل، من غير واضع اللغة، ولم يفتقر فيه إلى التوقيف

منه، بل أخذت ألفاظ ومعانٍ على هيئة مخصوصة، وحكم لها العقل بمزية من الحسن لا يشاركها فيها غيرها، فإن كل عارف بأسرار الكلام من أي لغة كانت من اللغات يعلم أن إخراج المعاني في ألفاظ حسنة رائقة يلذها السمع ولا يَنْبُو عنها الطبع، خَيْرٌ من إخراجها في ألفاظ قبيحة مستكرهة ينبو عنها السمع، ولو أراد واضع اللغة خلاف ذلك لما قلدناه.

فإن قيل: لو أخذت أقسام النحو بالتقليد من واضعها لما أقيمت الأدلة عليها وعلم بقضية النظر أن الفاعل يكون مرفوعاً والمفعول منصوباً؟.

فالجواب عن ذلك أنا نقول: هذه الأدلة واهية[1] لا تثبت على مَحَكّ الجدل؛ فإن هؤلاء الذين تَصَدَّوْا لإقامتها سمعوا عن واضع اللغة رفع الفاعل ونصب المفعول من غير دليل أبداه لهم، فاستخرجوا لذلك أدلة وعللاً، وإلا فمن أين علم هؤلاء أن الحكمة التي دعت الواضع إلى رفع الفاعل ونصب المفعول هي التي ذكروها.

(١) اشتهرت هذه الكلمة عن أدلة النحو وعلله، وهذه كلمة من لم يمارس هذا العلم الجليل ممارسة الباحث المنقب، ولم يؤت سعة صدر تسهل عليه احتمال المكاره وركوب الصعاب؛ فإن آتاه الله نفاذ بصر وقوة عارضة وسعة اطلاع، وكان مع ذلك عالماً باستعمالات العرب خبيراً بما يكثر في كلامها وما يقل وما يأتي على جهة الندرة والشذوذ، إذا اجتمعت هذه الأمور لامرىء أدرك تماماً أن هذه الأدلة التي يذكرها النحاة أدلة مستقيمة على أحسن وجوه البحث؛ وإنما الذي دعا المؤلف إلى هذه المقالة ودعا كثيراً غيره إلى مثلها كثرة الترديدات والمجادلات في الدليل الواحد؛ ولهذا البحث موضع غير هذا.

الفصل التاسع

في أركان الكتابة

اعلم أن للكتابة شرائط وأركاناً:

أما شرائطها فكثيرة، وهذا التأليف موضوع لمجموعها، وللقسم الآخر من الكلام المنظوم، وليس يلزم الكاتب أن يأتي بالجميع في كتاب واحد، بل يأتي بكل نوع من أنواعها في موضعه الذي يليق به، كما أريناه فيما يأتي من هذا التأليف.

وأما الأركان التي لا بدّ من إيداعها في كل كتاب بلاغي ذي شأن فخمسة:

الأول: أن يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة؛ فإن الكاتب من أجاد المطلع والمقطع، أو يكون مبنياً على مقصد الكتاب، ولهذا باب يسمى باب المبادي والافتتاحات فَلْيُحْذ حَذْوه، وهذا الركن يشترك فيه الكاتب والشاعر.

الركن الثاني: أن يكون الدعاء المودَعُ في صدر الكتاب مشتقاً من المعنى الذي بني عليه الكتاب.

وقد نبّهنا على طرف من ذلك في باب يخصه أيضاً، فليطلب من هناك، وهو مما يدل على حذاقة الكاتب وفطانته، وكثيراً ما تجده في مكاتباتي التي أنشأتها؛ فإني قَصَدْته فيها وتوخَّيْتُه، بخلاف غيري من الكتاب؛ لأنه ربما يوجد في كتابة غيري قليلاً، وتجده في كتابتي كثيراً.

الركن الثالث: أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة؛ لتكون رقابُ المعاني آخذةً بعضُها ببعض، ولا تكون مُقْتَضَبَة، ولذلك باب مفرد أيضاً يسمى باب التخلص والاقتضاب، وهذا الركن أيضاً يشترك فيه الكاتب والشاعر.

الركن الرابع: أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلولقة بكثرة الاستعمال، ولا

أريد بذلك أن تكون ألفاظاً غريبة؛ فإن ذلك عيب فاحش، بل أريد أن تكون الألفاظ المستعملة مَسْبُوكة سبكاً غريباً، يظن السامع أنها غير ما في أيدي الناس، وهي مما في أيدي الناس، وهناك مُعْتَرَك الفصاحة التي تظهر فيه الخواطر براعتها، والأقلام شجاعتها، كما قال البحتري:

بـاللَّفْظِ يَقْـرُبُ فَهْمُـهُ فِي بُعْـدِهِ عَنَّـا وَيَبْعُـدُ نَيْـلُهُ فِي قُـرْبِـهِ[1]

وهذا الموضع بعيد المنال، كثير الإشكال، يحتاج إلى لطف ذوق وشهامة خاطر، وهو شبيه بالشيءِ الذي يقال: إنه لا داخل العالم ولا خارج العالم، فلفظه هو الذي يستعمل، وليس بالذي يستعمل: أي أن مفردات ألفاظه هي المستعملة المألوفة، ولكن سبكه وتركيبه هو الغريب العجيب.

وإذا سموت أيها الكاتب إلى هذه الدرجة، واستطعمت طعم هذا الكلام المشار إليه؛ علمت حينئذ أنه كالروح الساكنة في بدنك التي قال الله فيها: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وليس كل خاطر بِرَاقٍ إلى هذه الدرجة، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ومع هذا فلا تظن أيها الناظر في كتابي أني أردت بهذا القول إهمال جانب المعاني، بحيث يؤتى باللفظ الموصوف بصفات الحسن والملاحة ولا تكون تحته من المعنى ما يماثله ويساويه، فإنه إذا كان كذلك كان كصورة حسنة بديعة في حسنها إلا أن صاحبها بليد أبله، والمراد أن تكون هذه الألفاظ المشار إليها جسماً لمعنى شريف، على أن تحصيل المعاني الشريفة على الوجه الذي أشرت إليه أيسر من تحصيل الألفاظ المشار إليها.

ويحكى عن المبرد رحمه الله تعالى أنه قال: ليس أحد في زماني إلا وهو يسألني عن مشكل من معاني القرآن، أو مشكل من معاني الحديث النبوي، أو غير

(١) هو من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن وهب، وأولها قوله:

مَنْ سَـائِـلٌ لِمُعَـذِّلٍ عَنْ خَـطْبِـهِ أَوْ صَـافِـحٌ لِمُـقَـصِّـرٍ عَنْ ذَنْبِـهِ

ذلك من مشكلات علم العربية، فأنا إمام الناس في زماني هذا، وإذا عَرَضت لي حاجة إلى بعض إخواني وأردت أن أكتب إليه شيئاً في أمرها أُحْجِم عن ذلك؛ لأني أرتّب المعنى ثم أحاول أن أصوغه بألفاظ مرضية فلا أستطيع ذلك.

ولقد صدق في قوله هذا، وأنصف غاية الإنصاف.

ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السوقة أرباب الحرف والصنائع، وما منهم إلا مَنْ يقع له المعنى الشريف، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق، ولكنه لا يحسن أن يزاوج بين لفظتين.

فالعبارة عن المعاني هي التي تخلب بها العقول، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون في استخراج المعاني؛ فإنه لا يمنع الجاهل الذي لا يعرف علماً من العلوم أن يكون ذكياً بالفطرة، واستخراج المعاني إنما هو بالذكاء لا بتعلُّم العلم.

وبلغني أن قوماً ببغداد من رعاع العامة يطوفون بالليل في شهر رمضان على الحارات، وينادون بالسحور، ويخرجون ذلك في كلام موزون على هيئة الشعر وإن لم يكن من بحار الشعر المنقولة عن العرب، وسمعت شيئاً منه فوجدت فيه معاني حسنة مليحة، ومعاني غريبة، وإن لم تكن الألفاظ التي صيغت به فصيحة(١).

وهذا الركن أيضاً يشترك فيه الكاتب والشاعر.

الركن الخامس: أن لا يخلو الكتاب من معنى من معاني القرآن الكريم والأخبار النبوية؛ فإنها معدن الفصاحة والبلاغة، وإيراد ذلك على الوجه الذي أشرت إليه في الفصل الذي يلي هذا الفصل من حلّ معاني القرآن الكريم والأخبار النبوية أحْسَنُ من إيراده على وجه التضمين، وتوخّي ذلك في كل كتاب عَسِرٌ جداً، وأنا انفردت بذلك دون غيري من الكتاب، فإني استعملته في كل كتاب، حتى إنه ليأتي في الكتاب الواحد في عدة مواضع منه، ولقد أنشأت تقليداً لبعض الملوك مما يكتب من ديوان الخلافة، ثم إني اعتبرت ما ورد فيه من معاني الآيات والأخبار

---

(١) في ب، ج «وإن لم تكن الألفاظ التي صيغت به صيغة» ولا يظهر لنا فيه وجه.

النبوية، فكان ما يزيد على الخمسين، وهذا لا أتكلفه تكلفاً، وإنما يـأتي على حسب ما يقتضيه الموضع الذي يذكر فيه، وقد عرفتك أيها الكاتب كيف تستعمل ما تستعمله من ذلك في الفصل الذي يأتي بعد هذا الفصل، فخذه من هناك.

وهذا الركن يختص بالكاتب دون الشاعر؛ لأن الشـاعر لا يلزمـه ذلك؛ إذ الشعر أكثره مدائح، وأيضاً فإنـه لا يتمكن من صوغ معـاني القرآن والأخبـار في المنظوم كما يتمكن منه في المنثور، ولربما أمكن ذلك في الشيء اليسير في بعض الأحيان.

وإذا استكملتَ معرفة هذه الأركان الخمسة وأتيت بها في كل كتاب بلاغي ذي شأن فقد استحققت حينئذ فضيلة التقدم، ووجب لك أن تسمي نفسك كاتباً.

الفصل العاشر

في الطريق إلى تعلم الكتابة

هذا الفصل هو كنز الكتابة ومنبعها، وما رأيت أحداً تكلم فيه بشيء، ولما حُبِّبَتْ إليّ هذه الفضيلة، وبَلَّغني الله منها ما بَلَّغني؛ وجدت الطريق ينقسم فيها إلى ثلاث شعب:

الأولى: أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين، ويطلع على أوضاعهم في استعمال الألفاظ والمعاني، ثم يحذو حذوهم، وهذه أدنى الطبقات عندي.

الثانية: أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة: إما في تحسين ألفاظ، أو في تحسين معانٍ، وهذه هي الطبقة الوسطى، وهي أعلى من التي قبلها.

الثالثة: أن لا يتصفح كتابة المتقدمين، ولا يطلع على شيء منها، بل يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم وكثير من الأخبار النبوية وعدة من دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعره الإجادة في المعاني والألفاظ، ثم يأخذ في الاقتباس من هذه الثلاثة، أعني القرآن والأخبار النبوية والأشعار، فيقوم ويقع، ويخطىء ويصيب، ويضل ويهتدي، حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه، وأخْلِقْ بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة لا شركة لأحد من المتقدمين فيها، وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد، وصاحبها يعد إماماً في فنّ الكتابة، كما يعد الشافعيّ وأبو حنيفة ومالك رضي الله تعالى عنهم وغيرهم من الأئمة المجتهدين في علم الفقه، إلا أنها مستوعرة جداً، ولا يستطيعها إلا من رزقه الله تعالى لساناً هجاماً، وخاطراً رقاماً، وقد سَهَّلْتُ لك صعابها، وذَلَّلْتُ مَحَاجَّها(١)، وكنت أشحّ(٢) بإظهار ذلك لما عانيت

(١) المحاج ـ بتشديد الجيم ـ جمع محجة، والمحجة: المقصد والطريق الذي يسلك.

(٢) أشح: أضن، والشح: البخل، أو أشده.

في نيله من العناء؛ فإني سلكت إليه كل طريق حتى بلغته آخراً، وإنما تكون نفاسة الأشياء لعزة حصولها ومشقة وصولها:

لَيْسَ حُلْواً وُجُودُكَ الشَّيْءَ تَبْغِيـ ـهِ طِلَاباً حَتَّى يَعِزَّ طِلَابُهْ[1]

ولقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لي عن أسرارها، وأظفرتني بكنوز جواهرها؛ إذ لم يظفر غيري بأحجارها؛ فما وجدت أعون الأشياء عليها إلا حل آيات القرآن الكريم والأخبار النبوية، وحل الأبيات الشعرية، وقد قصرت هذا الفصل على ذكر وجوهها، وتقسيمها، وتمهيد الطريق إلى تعليمها، فمن وقف على ما ذكرته علم أنّي لم آتِ شيئاً فَرِيّاً، وأن الله قد جعل تحت خواطري من بنات الأفكار سَرِيّاً، وهذه الطريق يجهلها كثير من متعاطي هذه الصناعة، والّذي يعلمها منهم يرضى بالحواشي والأطراف، ويقنع من لآلئها بمعرفة ما في الأصداف، ولو استخرج منها ما استخرجت، واستنتج ما استنتجت؛ لَهَامَ بها في كل واد، وتزوّد إلى سلوك طريقها كل زاد:

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وَسُجُودَا[2]

ولا أريد بهذه الطريق أن يكون الكاتب مرتبطاً في كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم، والأخبار النبوية، والشعر، بحيث إنه لا ينشىء كتاباً إلا من ذلك، بل أريد أنه إذا حفظ القرآن الكريم وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار، ثم نَقَّبَ عن ذلك تنقيب مُطَّلع على معانيه، مُفَتّش عن دفائنه، وقَلَّبه ظَهْراً لبطن؛ عرف

---

(١) هذا بيت للبحتري من قصيدة له يمدح فيها إسماعيل بن بلبل، وأولها قوله:

عَادَ لِلصَّبِّ شَجْوُهُ وَاكْتِئَابُهْ بِبِعَادِ الَّذِي يُرَادُ اقْتِرَابُهْ

ورواية البيت الذي ذكره المؤلف في الديوان هكذا:

لَيْسَ يَحْلُو وُجُودُكَ الشَّيْءَ تَبْغِيـ ـهِ آلْتِمَاساً حَتَّى يَعِزَّ طِلَابُهْ

(٢) هذا البيت لكثير عزة، وقبله قوله:

رُهْبَانُ مَدْيَنَ وَالَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ يَبْكُونَ مِنْ حَذَرِ الْعَذَابِ قُعُودَا

حينئذ من أين تُؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه، واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية، ألا ترى أن صاحب الاجتهاد من الفقهاء يفتقر إلى معرفة آيات الأحكام، وأخبار الأحكام، وإلى معرفة الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنّة، وإلى معرفة علم العربية، وإلى معرفة الفرائض والحساب من المعلوم والمجهول من أجل مسائل الدور والوصايا وغيرها، وإلى معرفة إجماع الصحابة، فهذه أدوات الاجتهاد، فإذا عرفها استخرج بفكرته حينئذ ما يؤديه إليه اجتهاده، كما فعل أبو حنيفة والشافعي ومالك وغيرهم من أئمة الاجتهاد، وكذلك يجري الحكم في الكتاب إذا أحب الترقي إلى درجة الاجتهاد في الكتابة؛ فإنه يحتاج إلى أشياء كثيرة قد ذكرتها في صدر كتابي هذا، إلا أن رأسها وعمودها وذِرْوَة سَنامِها ثلاثة أشياء: هي حفظ القرآن الكريم، والإكثار من حفظ الأخبار النبوية، والأشعار.

وحيث انتهى بنا القول إلى هذا الموضع فأول ما أبدأ به على عقب ذلك أن أقول:

حل الأبيات الشعرية ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: منها، وهو أدناها مرتبة، أن يأخذ الناثر بيتاً من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة؛ وهذا عيب فاحش، ومثاله كمن أخذ عِقْداً قد أتقن نظمه وأحسن تأليفه فأوْهَاهُ وبَدَّده، وكان يقوم عذره في ذلك أن لو نقله عن كونه عقداً إلى صورة أخرى مثله أو أحسن منه وأيضاً فإنه إذا نثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السرقة، فيقال: هذا شعر فلان بعينه، لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء، وقد سلك هذا المسلك بعض العراقيين فجاء مستهجناً لا مستحسناً. كقوله في بعض أبيات الحماسة:

وَأَلَدَّ ذِي حَنَقٍ عَلَيَّ كَأَنَّمَا ... تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ
أَرْجَيْتُهُ عَنِّي فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ ... وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ النَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ

فقال في نثر هذين البيتين: فكم لقي ألدَّ ذِي حَنَق كأنه ينظر إلى الكواكب من عَل، وتغلي عداوة صدره في مرجل، فكواه فوق ناظريه، وأكَبَّه لفمه ويديه. فلم يزد هذا الناثر على أن أزال رونق الوزن وطلاوة النظم لا غير.

ومن هذا القسم ضرب محمود لا عَيْبَ فيه، وهو أن يكون البيت من الشعر قد تضمن شيئاً لا يمكن تغيير لفظه، فحينئذ يعذر ناثره إذا أتى بذلك اللفظ، ومثاله قول الشاعر في أول الحماسة:

لَــوْ كُنْتُ مِنْ مَــازِنٍ لَمْ تَسْتَبِــحْ إِبِلِي   بَنُــو اللَّقِيـطَةِ مِنْ ذُهْــلِ بْنِ شَيْبَـانَـا

وقد نثرت ذلك فقلت: لست ممن تستبيح إبِلَهُ بنو اللقيطة، ولا الذي إذا هَمَّ بأمر كانت الآمال إليه وسيطة، ولكني أحمل الهمل، وأقرب الأمل، وأقول: سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذَل؛ فذكر بني اللقيطة هٰهنا لا بد منه على حسب ما ذكره الشاعر، وكذلك الأمثال السائرة؛ فإنه لا بد من ذكرها على ما جاءت في الشعر.

وأما **القسم الثاني**: وهو وسط بين الأول والثالث في المرتبة، وهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه، ويعزم[١] عن البعض بألفاظ أخر، وهناك تظهر الصنعة في المماثلة والمشابهة ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المرتجلة؛ فإنه إذا أخذ لفظاً لشاعر مجيد قد نقحه وصححه فقرنه بما لا يلائمه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة، ولا خفاء بما في ذلك من الانتصاب للقدح، والاستهداف للطعن.

والطريق المسلوك إلى هذا القسم أن تأخذ بعض بيت من الأبيات الشعرية هو أحسن ما فيه ثم تماثله.

وسأورد هٰهنا مثالاً واحداً ليكون قدوة للمتعلم، فأقول:

قد ورد هذا البيت من شعر أبي تمام في وصف قصيدة له:

حَــذَّاءَ تَمــلأُ كُــلَّ أذْنٍ حِكْـمَــةً   وَبَــلاَغَــةً وَتُــدِرُّ كُــلَّ وَرِيــدِ[٢]

---

(١) كذا في ب، ج؛ ولعله «ويعزف»، ومعناه ينصرف.

(٢) هذا بيت من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن أبي داود، وأولها قوله:

أَرَأَيْــتَ أَيُّ سَــوَالِــفٍ وَخُــدُودِ   عَــنَّــتْ لَــنَــا بَــيْــنَ الــلِّوَى فَــزَرُودِ

وانظر الديوان (ص ٨٢). و «حذاء» هكذا في الديوان، ووقع في ب، ج «وحداء» ولها وجه أيضاً.

فقوله: «تملأ كل أذن حكمة» من الكلام الحسن، وهو أحسن ما في البيت، فإذا أردت أن تنثر هذا المعنى فلا بد من استعمال لفظه بعينه؛ لأنه في الغاية القُصْوَى من الفصاحة والبلاغة، فعليك حينئذ أن تؤاخذه بمثله، وهذا عَسرٌ جداً وهو عندي أصعب منالاً من ناثر الشعر بغير لفظه؛ لأنه مسلك مضيق؛ لما فيه من التعرض لمماثلة ما هو في غاية الحسن والجودة، وأما نثر الشعر بغير لفظه؛ فذلك يتصرف فيه ناثره على حسب ما يراه، ولا يكون مقيداً فيه بمثال يضطر إلى مؤاخاته.

وقد نثرت هذه الكلمات المشار إليها وأتيت بها في جملة كتاب فقلت: وكلامي قد عُرِف بين الناس واشتهر، وفاق مَسِيرَ الشمس والقمر، وإذا عوف الكلام صارت المعرفة له علامة، وأمن من سرقته إذ لو سرق لدلت عليه الْوَسَامة، ومن خصائص صفاته أن يملأ كل أذن حكمة، ويجعل فصاحة كل لسان عجمة، وإذا جرت نَفَثَاتُه في الأفهام قالت: أهذه بنت فكرة أم بنت كَرْمَة.

فانظر كيف فعلت في هذا الموضع؟ فإني لما أخذت تلك الكلمات من البيت الشعري التزمت بأن أؤاخيها بما هو مثلها أو أحسن منها، فجئت بهذا الفصل كما تراه، وكذلك ينبغي أن يفعل فيما هذا سبيله.

وأما **القسم الثالث**: وهو أعلى من القسمين الأولين، فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بألفاظ غير ألفاظه، وثَمَّ يتبين حذق الصائغ في صياغته، ويعلم مقدار تصرفه في صناعته؛ فإن استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدرجة العالية، وإلا أحسن التصرف، وأتقن التأليف؛ ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الأول.

واعلم أن من أبيات الشعر ما يتسع المجال لناثره، فيورده بضروب من العبارات، وذلك عندي شبيه بالمسائل السيالة في الحساب التي يجاب عنها بعدة من الأجوبة، ومن الأبيات ما يضيق فيه المجال حتى يكاد الماهر في هذه الصناعة ألَّا يخرج عن ذلك اللفظ، وإنما يكون هذا لعدم النظير.

فأما ما يتسع المجال في نثره فكقول أبي الطيب المتنبي:

لَا تَعْـذِلِ الْمُشْتَاقَ فِي أَشْـوَاقِـهِ   حَتَّى يَكُـونَ حَشَاكَ فِي أَحْشَـائِهِ[١]

وقد نثرت هذا المعنى؛ فمن ذلك قولي: لا تَعْذِلِ المحبَّ فيما يَهْوَاه، حتى تَطْوِيَ القلبَ على ما طَوَاه؛ ومن ذلك وجه آخر، وهو: إذا اخْتَلَفَتِ العينان في النظر، فالعَذْلُ ضَرْبٌ من الْهَذَر.

ومن هذا الباب قول أبي الطيب المتنبي أيضاً:

إِنَّ الْقَتِيـلَ مُضَـرَّجـاً بِـدُمُـوعِـهِ   مِثْـلُ الْقَتِيلِ مُضَـرَّجـاً بِـدِمَـائِـهِ[٢]

أخذت هذا المعنى فنثرته؛ فمن ذلك قولي: القتيلُ بسيف العيون، كالقتيل بسيف الْمَنُون، غَيْرَ أن ذلك لا يُجَرَّدُ من غِمْدِهِ، ولا يقاد صاحِبُهُ بعَمْدِهِ؛ فزدت على المعنى الذي تضمَّنه البيت، وغيرت اللفظ؛ ومن ذلك وجه آخر، وهو: دَمْعُ المحبِّ ودم القتيل، مُتَّفِقان في التشبيه والتمثيل، ولا تجد بينهما بَوْنَاً، إلا أنهما يختلفان لَوْنَاً. وهذا أحسن من الأول.

وأما ما يضيق فيه المجال فيعسر على الناثر تبديل ألفاظه؛ فكقول أبي تمام:

تَـرَدَّى ثِيَـابَ ٱلْمَـوْتِ حُمْـراً فَمَـا أَتَى   لَهَا ٱللَّيْلُ إِلَّا وَهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرِ[٣]

---

(١) هذا البيت من قصيدة له أولها:

الْـقَـلْبُ أعـلم يـا عَـذُولُ بِـدَائِـهِ   وَأَحَـقُّ مِـنْـكَ بِـجَـفْـنِـهِ وَبِـمَـائِـهِ

وقد أخذ أبو الطيب هذا المعنى من قول البحتري:

إذا شِئْتَ أَلَّا تَعْـذِلَ ٱلـدَّهْـرَ عَـاشِقـاً   عَلَى كَمَـدٍ مِنْ لَـوْعَـةِ الْبَيْنِ فـاعْشَقِ

(٢) هذا البيت من نفس القصيدة التي منها البيت السابق.

(٣) هذا بيت من قصيدة له مشهورة، وأولها قوله:

كَـذَا فَلْيَجِـلِ الخَـطْبُ وَلْيَفْـدَحِ الأَمْـرُ   فَـلَيْسَ لِـعَيْـنٍ لَـمْ يَـفِضْ مَـاؤُهَـا عُـذْرُ

وانظر الديوان (ص ٣٦٨).

وقول أبي الطيب المتنبي:

وكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ وَمِنْ جُثَثِ الْقَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمُ

وأمثال هذا لا تأتي إلا قليلاً؛ وسببه أن المعنى ينحصر في مقصد من المقاصد حتى لا يكاد يأتي إلا قداً، كهٰذين البيتين، ألا ترى أن أبا تمام قصد المؤاخاة في ذكر لَوْني الثياب من الأحمر والأخضر وجاء ذلك واقعاً على المعنى الذي أراده من لون ثياب القتلى وثياب الجنة، فإذا فك نظم هذا البيت وأريد صوغه بغير لفظه لا يمكن ذلك، وبيت أبي الطيب جارٍ هذا المجرى؛ فإنه بناهُ على واقعة من الوقائع، وذاك أن حصناً من حصون سيف الدولة قَصَدَه الروم وانتزعوه وأخربوه فَنَهَدَ[1] سيف الدولة إليه واسترجعه، وجَدَّد بناءه، وهزم الروم، ونصب من جُثَث القتلى على السور، فنظم المتنبي في هذا قصيداً أوله:

عَلَى قَدْرِ أهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ[2]

فلما انتهى إلى ذكر الحصن جاء بهذا البيت في جملة أبيات؛ فشرح صورة الحال في إزعاج الحصن بالقتال، وتعليق القتلى عليه، وأبرز ذلك في معنى التمثيل بالجنون والتمائم، وهذا لا يمكن تبديل لفظه؛ وهو وأمثاله مما يجب على الناثر أن يحسن الصنعة في فكّ نظامه؛ لأنه يتصدى لنثره بألفاظه؛ فإن كان عنده قُوَّةُ تصرف وبَسْطَة عبارة فإنه يأتي به حسناً رائقاً.

وقد نثرت هٰذين البيتين: أما بيت أبي تمام فإني قلت في نثره: لم تَكْسُهُ المنايا نَسْجَ شِفَارها، حتى كسته الجنة نسج شعارها؛ فَبُدِّلَ أحْمَرَ ثوبه بأخضره، وكأسَ حِمَامه بكأس كَوْثَره؛ وهذا من الحسن على غاية يكون كَمَدُ حسودها، من جملة شهودها؛ وأما بيت أبي الطيب المتنبي فإني قلت في نثره: سَرَى إلى حصن

(١) تقول: نهد فلان إلى العدو؛ إذا نهض لقتاله، وتقول: ناهد فلان عدوه، إذا ناهضه، وتقول: تناهدوا في الحرب، إذا نهض بعضهم إلى بعض للمحاربة.

(٢) هذا صدر البيت، وعجزه قوله:

وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

كذا مُسْتَعِيداً منه سَبِيَّةً نزعها العدو اخْتِلَاساً، وأخذها مُخَادعة لا افتراساً، فما نزلها حتى استقادها، ولا نزلها حتى استعادها، وكأنما كان بها جُنُون فبعث لها من عزائمه عزائم، وعَلَّقَ عليها من رءوس القتلى تمائم.

وفي هذا من الحسن ما لا خفاء به؛ فمن شاء أن ينثر شعراً فلينثر هكذا، وإلاَّ فليترك.

وقد جئت بهذا المعنى على وجه آخر، وأبرزته في صورة أخرى، وذاك أني أضفت إلى هذا البيت البيتَ الذي قبله، وهو:

بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوْلَهَا مُتَلَاطِمُ

ولما نثرت هٰذين البيتين قلت في نثرهما ما أذكره، وهو:

بَنَاهَا والأَسِنَّةُ في بنائها مُتَخَاصمة، وأمواجُ المنايا فوق أيدي البانين مُتَلَاطمة، وما أحلت الحرب عنها[1] حتى زلزلت أقطارها بركض الجياد، وأصيبت بمثل الجنون فعُلِّقَتْ عليها تمائم من الرءوس والأجساد، ولا شك أن الحرب تُعَرِّدُ[2] عمن عَزَّ جانبه، وتقول: ألا هكذا فَلْيَكْسِبِ المَجدَ كاسبه.

وهذا أحسن من الأول وأتم مَعْنًى.

وقد تصرفت في هذا الموضع بزيادة في معناه، ونثرته على أسلوب أحسن من هذا الأسلوب، فقلت: بَنَاهَا ودون ذلك البناء شَوْكُ الأَسَل، وطُوفَانُ المنَايَا الذي لا يقال سَآوِي مِنْهُ إلى جَبَل، ولم يكن بناؤها إلا بعد أن هدِّمت رءوس عن أعناق، وكأنما أصيبت بجنون فعلقت القتلى عليها مكان التمائم أو شينَتْ بعَطَلٍ فعلِّقت مكانَ الأَطْوَاق.

---

(١) كذا؛ ولعله «وما أجلت الحرب فيها».

(٢) تعرد ـ بالعين المهملة ـ تنكل وتتأخر، ومنه قول الشاعر:

ظَنَنْتُكَ إنْ شُبَّتْ لَظَى ٱلحَرْبِ صَالِياً فَعَرَّدْتَ فِيمَنْ كَانَ عَنْهَا مُعَرِّداً

ووقع في ب، ج «تغرد» بالغين معجمة.

وهذا الفصل فيه زيادة على الفصل الذي قبله.

وإذا انتهى بنا الكلام إلى هٰهنا في التنبيه على نثر الشعر، وكيفية نثره، وذكر ما يَسْهُل منه وما يعسر؛ فلْنُتْبِعْ ذلك بقول كُلِّيٍّ في هذا الباب؛ فنقول:

مَنْ أحبَّ أن يكون كاتباً، أو كان عنده طبع مُجيب؛ فعليه بحِفْظِ الدواوين ذوات العدد، ولا يقنع بالقليل من ذلك، ثم يأخذ في نثر الشعر من محفوظاته، وطريقه أن يبتدىء فيأخذ قصيداً من القصائد؛ فينثره بيتاً بيتاً على التوالي، ولا يستنكف في الابتداء أن ينثر الشعر بألفاظه أو بأكثرها؛ فإنه لا يستطيع إلا ذلك، وإذا مَرَنت نفسه، وتَدَرَّب خاطره؛ ارتفع عن هذه الدرجة، وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده، ثم يرتفع عن ذلك حتى يكسوه ضروباً من العبارات المختلفة، وحينئذ يَحْصُل لخاطره بمباشرة المعاني لِقَاحٌ فيستنتج منها معاني غير تلك المعاني، وسبيله أن يكثر الإدْمَان ليلاً ونهاراً، ولا يزال على ذلك مدة طويلة، حتى يصير له ملكة، فإذا كتب كتاباً أو خَطَب خطبة تدفَّقَت المعاني في أثناء كلامه، وجاءت ألفاظه مَغْسُولة لا مَغْسُولة، وكان عليها حدَّة حتى تكاد ترقص رقْصاً، وهذا شيءُ خَبَرْتُه بالتجربة، ولا ينبئك مثل خبير.

فإن قيل: الكلام قسمان: منظوم، ومنثور؛ فلم حَضَضْتَ على حفظ المنظوم وجعلته مادة للمنثور، وهلا كان الأمر بالعكس؟.

قلت في الجواب: إن الأشعار أكثر، والمعاني فيها أغزر، وسبب ذلك أن العرب الذين هم أصل الفصاحة جل كلامهم شعر، ولا نجد الكلام المنثور في كلامهم إلا يسيراً، ولو كثر فإنه لم ينقل عنهم، بل المنقول عنهم هو الشعر، فأودعوا أشعارهم كل المعاني، كما قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ**﴾ ثم جاء الطراز الأول من الْمُخَضْرَمِين فلم يكن لهم إلا الشعر، ثم استمرت الحال على ذلك، فكان الشعر هو الأكثر، والكلام المنثور بالنسبة إليه قَطْرَة من بحر، ولهذا صارت المعاني كلها مودعة في الأشعار، وحيث كانت بهذه الصورة، فكان حَثِّي على حفظها واستعمال معانيها في الخطب والمكاتبات لهذا السبب.

وقد نثرت في هذا الموضع أبياتاً تكون قدوة للمتعلم:

فمن ذلك قولي في فصل من فصول الكلام يتضمن ذكر السيادة، وهو: الشريف من شَرُفَ بنفسه، لا بما دفن مع أبيه في رَمْسِهِ؛ فإن تلك مكارم أتت فتجَمّل الزمان بمأتاها، ثم مات أربابها فدفنت مع موتاها، ولو ساد الناس بآبائهم لكانت السيادة للطينة الأولى، ولقد خلق الأبناء من الآباء مجبولاً، وهذا المعنى مأخوذ من قول الشاعر:

وَمَا الْفَخْرُ بالْعَظْمِ الـرَّمِيمِ ، وَإِنَّمَا فَخَـارُ الَّذِي يَبْغِي الْفَخَـارَ بِنَفْسِـهِ

غير أن الفصل الذي ذكرته يتضمن من المعنى زيادة على ما تضمنه هذا البيت.

ومن ذلك ما كتبته في فصل من كتاب يتضمن معاتبة أخ لإخْوَته وتنصّله إليهم، فقلت: جَرَحُوا قلبي وحبهم يذهب بألم الجراحة، وطَرَفُوا عَيْني وهم يزيدون في نظرها ملاحة، وإذا صَدَرَت الإساءة عن الأحباب لم يكن وَقْرُهَا وَقْراً، وأصبحت وهي مَنْسِيَّة إذا تجدَّدت الإساءة بالذكرى، وما منهم إلا من سِيط دمي بدمه ولحمي بلحمه، ولو أن الأسماء معارف الأشخاص لكان آسمي وارداً على اسمه، وكيف أخْشُنُ عليهم وقد جبلني الله لهم على اللين، أم كيف أذُودُ النفس عنهم وهي مشتقة منهم وآدم بين الماء والطين، ومتى أؤمل من شَجَرَتي أغصاناً كهٰذه الأغصان، وقد أصيبت جرثومتها بالْجدَاد، ولهذا قيل: إن الإخوة يتعذر الاعتياض عنهم ولا يتعذر الاعتياض عن الأولاد.

آخر هذا الفصل مأخوذ من شعر ابن الرومي، وهو قوله:

تَعَـزَّيْتَ عَمَّن أثْمَرَتْـكَ حَيَاتُـهُ وَوَشْـكُ التَّعَزِّي عَنْ ثِمَـارِكَ أجْـدَرُ
تَعَـذَّرَ أن نَعْتَـاضَ عَنْ أُمَّهَـاتِنَـا وَأبْنَـائِنَـا وَالنَّسْلِ لاَ يَتَعَـذَّرُ

غير أن ابن الرومي ذكر ذلك في تعزية إنسان بابنه، فتصرفت أنا في هذا المعنى ونقلته إلى هذا الفصل في تضمنه معاتبه أخ لإخوته.

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن ذم المشيب، فقلت: والعيشُ كل العيش في سن الحداثة، وما يأتي بعدها فلا يدعى إلا بسن الْغَثَاثَة، وليس بعد الأربعين من مَصِيفٍ للذة ولا مَرْبَع، وهي نهاية القوة الصالحة من الطبائع الأربع، فإذا تجاوزها المرء أشْفَتْ ثمار عمره على خَرْصِها، وصارت زيادته كزيادة التصغير التي هي زيادة تدل على نقصها، وأصبح بعد ذلك يدعى أباً بعد أن كان يدعى ابناً، وتَقَمَّصَ ثوباً من المشيب لا يجر ثوبه خُيَلَاء ولا يُزْهَى به حسناً، وإن قيل إن أحسن الثياب شِعَار الْبَيَاض قيل إلا هذا الثوب فإنه مُسْتَثنى، ويكفيه من الفظاظة أن ينظر الأحباب إليه نظر الْقِتَال، ولولا أن الخمود بعده لما استعير له لفظة الاشتمال، ومن الناس من يُدَلِّس لونه بصِبغة الخضاب، وليس ذلك إلا حداداً على فقد الشباب، وهو في فعله هذا كاذب ولا يخفى أُنْسُ الصادق من وَحْشَة الكذاب، وخداعُ النفس أن تسلو عن بئره الْمُعَطَّلة وقَصْرِهِ الْمَشِيد، ويُحَسَّن لها الخروجَ في ثوب مُرَقَّع وهي تراه بعين الثوب الجديد.

وبعض هذا مأخوذ من شعر ابن الرومي، وهو قوله:

رَأَيْتُ خِضَابَ الْمَرْءِ بَعْدَ مَشِيبِهِ ... حِدَاداً عَلَى شَرْخِ الشَّبِيبَةِ يُلْبَسُ

غير أن في هذا الفصل معاني كثيرة لطيفة لا توجد في كلام آخر.

ومن ذلك قولي في وصف الجود والسخاء، وهذا الفصل يشتمل على معان متعددة؛ فمنها قولي في العطاء، وهو: شافَهَتْنِي أسبابُ الغنى برؤيته حتى كادت تنطق، واخْضَرَّتْ أكنان منزلي بعَطَائِه حتى كادت تُورِقُ، ومن فضيلة بره أنه لا يأتي به على أعْيُن الناس، وإذا غَرَسَه عند إنسان رَبَّ ذلك الغراس؛ فلا يستكثر ما جادت به سحابُ يده، ولا يمنعه عطاءُ يومه عن عطاء غدِهْ.

وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبي نُوَاس:

كَانوا إذَا غَرَسُوا سَقَوْا وَإِذَا بَنَوْا ... لَمْ يَهْدِمُوا لِبِنَائِهِمْ أُسُسَا

ومن هذا المعنى أيضاً قولي، وهو: أخذ المكارمَ من سمائِها وأرضها، وقام بنَفْلها في الناس وفَرْضِها، وتحلى ببعض أسماء الشهور حتى أصبح بعضها حاسداً

لبعضها، فالمحرَّم للعائذ بحَرَمِهِ، وصفر للطامع في سعادة قَدَمِهِ، وربيع لرائِدِ نَوَالِهِ، وَرَجَب لأقوال عُذَّاله.

وهذا مأخوذ من قول الفرزدق:

يَـدَاكَ يَـدٌ رَبِيـعُ النَّـاسِ فِيهَـا   وَفِي الأُخْرَى الشهور من المحـرم

وقد قال الشعراء في ذلك كثيراً، إلا أني أنا تَصَرَّفت في هذا المعنى تصرفاً لم يتصرف فيه أحد غيري.

ومن هذا المعنى ماذكرته في فصل من كتاب، وهو: وَلَقَدْ سَوَّى بين أعدائه في البغض وبين أمْوَاله؛ فهٰذه مَعْنِيَّة بوقع نِصَاله، وهذه مَعْنِيَّة[١] بصَنَائع نَوَاله، ولو أحَبَّ المال لكان أحَبَّه إليه ما يبذله، كما أن أحبَّ الناس إليه مَنح يسأله، ومِنْ أحْسَنِ ما سَنَّه من الكرم أنه جَادَ حتى بَدَّل رَغَبَ الْعَافِينَ[٢] زُهْدَاً، ورأى الحمد عِوَضاً من الصنيعة فأبى أن يعتاض من صنائعه حَمْدَاً.

وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبي نواس، وهو:

لَـيْتَ أعْـدَائِـي كَـانُـوا   لأبـي إِسْـحٰـقَ مَـالاَ

ومن ذلك قولي في وصف القتال وموطن الحرب ووصف الشجاعة والأنجاد، وما يتعلق بذلك ويجري معه، وهذا الفصل يشتمل على معاني مختلفة:

فمن ذلك ما ذكرته في وصف العسكر، وهو: فسرنا في غَمَامَةٍ من الكتائب، تُظِلُّها غَمَامَةٌ من الطيور الأشائب، فهٰذه يَضُمُّهَا بَحْرٌ من حَـدِيد، وهذه يضمها بر من صعيد[٣] وما مَرَّتْ ببلد إلا أزالت أرضه من سمائه، وَألبسَتْ نهارَهُ ثوب ظلْمائِهِ،

(١) «معنية» بالعين المهملة في هذه الفقرة والتي قبلها ـ وهو اسم مفعول من عناه يعنيه؛ إذا قصده، وكأنه قال: إن أعداءه مقصودة بوقع نصاله، وأمواله مقصودة بصنائع نواله، والصنائع: جمع صنيعة، والنوال: العطاء. ووقع في ب، ج «مغنية» بالغين المعجمة.

(٢) الرغب ـ بفتح الراء والغين المعجمة ـ الرغبة. ووقع في ب، ج «رغب العارفين» وهو تحريف بزيادة الراء ـ والعافين: جمع عاف، والعافي: طالب المعروف.

(٣) قال ابن أبي الحديد «إن الصعيد وجه الأرض، والطيور التي تظل الجيش إنما يضمها بحر من الجوّ والهواء، لا من الأرض» اهـ.

وبَدَّلت أحراره بعبيده وحرائره بإمائه، وكذلك فعلت بمدينة فلانة وقد ضرب الأمْنُ عليها أسواراً، وبَعُدَ عهدها بالنوائب فلم تدخل لها دِياراً، فهي تخبر عن بلهنية الخَفْض ولم تُـرَعْ عنه بـالانتقـال، ولا رأت السيف وقـد ألقى لـونـه في ذوائب الأطفال(١)، فما شعر أهلها إلا وقد رَجَمَها الجيش بكاهله، ورماها بوابله قبل طلّه وطَلُّ السحاب قبل وابله، وبرزَت خيلُ القوم ولها زِيُّ فُرْسانها، وهي مستبقة إلى طِرَادِها كاستباقها إلى مَيْدَانها، إلا مَنْ تتأوَّدُ القناة من يده بين لهـذمين، وتستقلّ السرج منه ومن جواده بين مُطَهَّمَيْن، فجرت المغاوير إلى المغاوير، وتلاقت الرياح بالأعاصير، وكان الطعن بينهم عناقاً، واللبث وفاقاً، وسبق ألم الموت ألم الجراح، ونَفَذَت غيرَ مُخَضَّبةٍ لسرعتها أسِنَّةُ الرماح، وحَصَل القوم [في] القَبْضَة، وذمُّوا عُقْبَى النَّهضة، وجيء بالأسرى مُقَرنين في الأصفاد، موقنين أن رءوسهم عَوَارِيُّ على تلك الأجساد، ولوْ استطاع رأس أحدهم أن ينكر عنقه لأنكره، ولا يود وهو المعظم أن يقال ما أعظمه بل يقال ما أحقره، وتصرفت أيدي المسلمين في القتل والنهاب، وكان للسيف رقاب وللسبي رقاب.

في هذا الفصل معان كثيرة مستحسنة، ومنها ماأخذ من شعر المتنبي، كقوله:

سَحَـابٌ مِنَ العقْبَانِ تـرْجُفُ تحتها ... سَحَابٌ إذااسْتُسْقَتْ سَقَتْها صَوارِمُهْ(٢)

وكقـولـه:

واسْتَعَـارَ الْحَـدِيـدُ لَـوْنـاً وَأَلْقَى ... لَـوْنَـهُ فـي ذَوَائِبِ الأطْـفَـالِ(٣)

---

(١) لون السيف: البياض، والذوائب: جمع ذؤابة، وهي شعر الرأس، يريد أنه أشاب الأطفال، وهذا ينظر إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَاً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً﴾.

(٢) من قصيدة له مطلعها:

وَفَـاؤكُمَـا كَـالـرَّبْـعِ أشجَاهُ طَـاسِمُـهُ ... بـأنْ تَسْعِـدَا والـدَّمْـعُ أشْفَـاهُ سَـاجِمُـهْ

(٣) هذا البيت من قصيدة له مطلعها:

صِلَةُ الْهَجْـرِ لِي وَهَجْـرُ الْـوِصَـالِ ... نَكَسَـانِي فِي السُّقْمِ نُكْسَ الْهِـلاَلِ

ومن ذلك ما ذكرته في وصف المسلوبين في فصل من جملة كتاب يتضمن الْبُشْرَى بهزيمة الكفار، وهو: فَسُلِبوا وعاضتهم الدماء عن اللباس، فهم في صورة عارٍ وزِيُّهُمْ زيُّ كاس، وما أسرع ما خيط لهم لباسها المحمر، غير أنه لم يُجَبْ عليهم ولم يُزَرّْ، وما لبسوه حتى لبس الإسلام شعار النصر، الباقي على الدهر، وهو شعار نَسَجَه السِّنَان الخارق، لا الصَّنَع الحاذق، ولم يغب عن لابسه إلا ريثما غابت البيض في الطُّلَى والهام، وألَّفَ الطعن بين ألف الخط واللام.

وهذه معان حسنة رائقة، ومنها معنى واحد مأخوذ من شعر البحتري؛ وهو:

سُلِبـوا وَأَشْرَقَتِ الـدِّمَـاءُ عَلَيْهِمُ مُحْمَـرَّةً فَكَـأَنَّهُمْ لَمْ يُسْلَبُـوا[1]

ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب يتضمن فتحاً، وهو: أُصْدِرُ هذا الكتاب والفتح غَضٌّ طريٌّ لم تنصل حمرة يومه، ولا أغمدت سيوف قومه، فسطوره مُتَرَّبة بمُثارِ عَجَاجه، ممتلئة بخط ضربه وإعجام زجاجه.

وهذا المعنى ينظر إلى قول أبي تمام:

كتَّبْتَ أَوْجُهَهُمْ مَشْقَاً وَنَمْنَمَةً ضَرْباً وَطَعْناً يُقاتُ الْهَامَ والصُّلُفا[2]

كِتَـابَةً مـا تَنِي مَقْـرُوءَةً أَبَـداً وَمَـا خَطَطْتَ بِهَـا لَامـاً وَلَا أَلِفَـا[3]

إن أن أبا تمام مَثَّلَ آثار الضرب والطعان في الوجوه بالكتابة، وأنا مثلت الكتابة

(١) من قصيدة له مطلعها:

عَـارَضْنَنَـا أُصُـلاً فَقُلْنَـا الـرَّبْـرَبُ حَتَّى أَضَـاءَ الأُقْحُـوَانُ الأَشْنَبُ

وانظر الديوان (ص ٦٢ مصر).

(٢) من قصيدة يمدح فيها أبا دلف، ومطلعها:

أَمَّـا الـرُّسُومُ فَقَدْ أَذْكَـرْنَ مَا سَلَفَـا فَـلَا تكُفنَّ عَنْ شَـأْنَيْـكَ أَوْ يَكِـفَـا

(٣) المشق: مد الحروف، والهام: جمع هامة، وهي الرأس، والصلف: جمع صليف، وهو عرض العنق، وانظر الديوان (٢٠٠ ـ ٢٠٣ بيروت).

وإعجامه بالضرب والطعن، فكأنني عكست المعنى الذي ذكره أبو تمام، وهذا مقصد في حل الأبيات الشعرية حسن، فإن استخراج المعنى من عكسه أدقّ من استخراجه من نفسه، وقد نبهت على ذلك في مواضع أخر من هذا الباب.

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن فتحاً من فتوح الكفار، وهو: وأقْبَلتْ أحزاب الكفر وهي معتصمة بصليبها، ورفعته على أعواد عالية كهيئة خطيبها، ولم تعلم أن الله كتب عليه الهوان بعد تلك الكرامة، وأنه ذو شُعَبٍ أرْبَع والتربيعُ نحسٌ في حكم النِّجامة[1] وكيف ترجو بكفرها ظهوراً ولَهَا منه معنى الاختفاء وللإسلام معنى السلامة؛ ولما التقى الجمعان اصْطَفَقَتْ يمين وشمال، وزحفت جبال إلى جبال، وكثرت النفوس على المنايا حتى كادت لا تفي بالآجال، وأقدمت الخيل إقدام فُرْسانِها، وأظلم النقع فلا تُبْصر إلا بآذانها، ونالت النحور ثأرها من كعوب الرماح، واشتكت الأسِنَّة فلا طريق بينها لمهبِّ الرياح، واسْتُؤْصِلت شجرة الكافرين بالقطع لا بالْجِدَاد، وحال حَدُّ السيف دون حديد الأصفاد، ونقلوا إلى جهنم يَصْلَوْنَها وبئس المِهاد، وانقلب المسلمون وقد مَلَئُوا الأغماد نصراً، والصحائف أجراً، والأيدي وقْراً، والقلوب جَذَلاً والألسنة شكراً، وكان ذلك اليوم في الأيام عَلَماً، وفي الأقسام قسماً، ولم يره الزمان منسوباً إليه إلا راجع شباباً بعد أن ناهز هَرَماً.

في هذا الفصل شيء من معاني الشعر، وذلك من قول أبي الطيب المتنبي[2]:

---

(١) قال ابن أبي الحديد: «لفظة النجامة لفظة رديئة مستفلة، على أنا لا نعرف صحتها وجوازها، ولا سمعناها اسماً للتنجيم، ولا مصدراً» اهـ.

(٢) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة، وكان سيف الدولة قد كتب إليه يستدعيه، وأولها قوله:

فَهِمْتُ الْكِتَابَ أبَرَّ الْكُتُبْ ... فَسَمْعاً لأمْرِ أمِيرِ الْعَرَبْ
وَطَوْعاً لَهُ وَابْتِهَاجاً بِهِ ... وَإنْ قَصَّرَ الْفِعْلُ عَمَّا وَجَبْ

أتَـاهُـمْ بـأوْسَـعَ مِـنْ أرْضِـهِـمْ طِـوَالَ السَّبِيبَ قِصَـارَ الْعُسُبْ[١]
تَـغِـيبُ الشَّـوَاهِـقُ فِـي جَـيْشِـهِ وَتَـبْـدُو صِغَـاراً إِذَا لَـمْ تَـغِـبْ[٢]
وَلَا تَـعْـبُـرُ الـرِّيـحُ فِـي جَـوِّهِ إِذَا لَـمْ تَـخَطَّ الْـقَـنَـا أَوْ تَـثِـبْ[٣]

ومن قوله أيضاً[٤]:

فِي جَحْفَـلٍ سَتَرَ الْعُيُـونَ غُبَـارُهُ فَـكَـأَنَّـمَـا يُـبْصِـرْنَ بِـالآذَانِ[٥]

ومن ذلك ما ذكرته في الإنْجَادِ وإجابة الصَّرِيخ، وهو: إذا اسْتَصْرَخَ بـعـزمٍ غذته صحبة الجيش، عن لذة العيش، فهو يستعذب حَرَّ الثُّغُور، على بـرد[٦] الثغـور، ويلهو بـالبيض الذكُـور، عن بيض الخدور[٧]، ولا طيب عنده إلا ريح

---

(١) «أتاهم» الضمير يعود إلى الدمستق المذكور في قوله:

وَغَـرَّ الـدُّمُـسْـتُـقَ قَـوْلُ الْـعُـدَا ةِ إِنَّ عَـلِيًّـا ثَـقِـيـلٌ وَصِـبْ

والسبيب: شعر الناصية والعرف والذنب. والعسب ـ بضم العين والسين المهملتين ـ جمع عسيب، وهو منبت الذنب من الجلد والعظم. ويستحب في الخيل أن يطول شعر ذنبها ويقصر عظمه.

(٢) الشواهق: جمع شاهق، وهو الجبل العالي؛ وتبدو: تظهر.

(٣) الجو: الهواء، وتخط: مضارع أصله من الخطو، تقول: تخطيته أتخطاه، وتثب: ترتفع.

(٤) من قصيدة له يقولها عند منصرفه من بلاد الروم سنة خمس وأربعين وثلثمائة، وأولها:

الـرَّأْيُ قَبْـلُ شَجَـاعَـةِ الشُّجْعَـانِ هُـوَ أَوَّلٌ وَهِـيَ الْـمَـحَـلُّ الـثَّـانِي

(٥) الجحفل: الجيش العظيم، وأصله من قولهم: تجحفل القوم؛ إذا اجتمعوا. ويقولون: هذا رجل جحفل، يريدون أنه عظيم القدر.

(٦) الثغور الأولى: جمع ثغر، وهو موضع المخافة من العدوّ أن يبادره. والثغور الثانية: جمع ثغر، وهو الفم.

(٧) البيض الذكور: جمع أبيض، وهو السيف. وبيض الخدور: جمع بيضاء، ويكنى عن الحسان بذلك، وأوله من قول امرىء القيس.

وَبَـيْضَـةِ خِـدْرٍ لا يُـرَامُ خِـبَـاؤُهَـا تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْـوٍ بِهَـا غَيْـرَ مُعْجَـلِ

الْعَجَاج[١]. ولا عِنَاق إلا أطراف الزِّجَاج[٢]، ولا أَرَبَ له في الرقاد إلا على صَهَوَات الجياد، فعسكر قلبه أمضَى في الوَغَى من عسكر، ونجدة بأسه تأبى لقاء الأقران في دِرْع أو مِغْفَر.

وهذه المعاني مأخوذة من أبيات الحماسة، ومن شعر مسلم بن الوليد.

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الْمَخْبَر دون الْمَنْظَر، وهو: إذا سَمَوْتَ لأمر فكن واحداً في مكانك، ولا تَرْضَ بكثرة الشركاءِ فيقال فُلَانٌ من أقرانك، ألم تر إلى الْحِرْبَاء الذي هو دويبة حقيرة الشأن، ضعيفة الأركان، فإنه ارتفع في هَـوَاه عن الأرض وأنسها، إلى السماء وشمسها، وقال: لا أحبُّ من تُفْسِدُ الأيامُ من حسنه، ولا من أحد بسمة خِلِّه ولا خدنه، والهمم ليست منوطة بجَهَارَة المناظر، والتعويل على الخبر المستتر في الأفئدة الباطنة لا على الظواهر، ومن ههنا قيل: إنَّ وضاءة النفوس أنضر من وضاءة الأجساد، ورقم الشِّيَمِ أحسن من رقم الأبراد.

وآخر هذا الفصل ينظر إلى قوم سُحَيْم عبد بني الْحَسْحَاس.

إنْ كُنْتُ عَبْـداً فَنَفْسِي حُـرَّةٌ كَـرَمـاً ... أوْ أسْـوَدَ الـلَّوْنِ إنِّي أبْـيَضُ الْـخُـلُقِ

إلا أن الفصل يتضمَّن معنى غريباً لم يسبقني إليه أحد.

ومن ذلك ما ذكرته في الحسد في فصل من كتاب، وهو: حاسدُ سَيِّدِنَا ينظر إلى زهرة دنيَاه ولا ينظر إلى استحقاقه، وهو كالناظر إلى الأطواق الموضوعة في الجِيدِ ولا يدري أن الجيدَ أحسن من أطْوَاقه، ولو قاس الدنيا بالاستحقاق لذهب الحسدُ من صدره، وقال: مالي أحْسُدُ مَنْ لم يَنْتَهِ قدرُ دنياه إلى معشار قَدْرِهِ.

ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب يتضمن الأعذار عن تواتر المكاتبات، وهو: إذا اعْتَذَر من انقطاع الكتب اعتذار الخادم من اتصالها، ولو كانت واردة على

(١) العجاج ـ بفتح العين المهملة، بزنة سحاب ـ هو الغبار، وهو الدخان أيضاً. والمراد هنا الأولى.

(٢) الزجاج ـ بكسر الزاي وفتح الجيم ـ جمع زج ـ بضم الزاي وتشديد الجيم ـ وهو الحديدة التي تكون في أسفل الرمح.

غير ذلك الباب الكريم لخاف من إملالها، وقد عد احتمال تثقيلها من جملة الأيادي التي أثقلته، وأراد أن يجري معها بسوابق شكره فأعجلته وما أَمْهَلَتْه، وهو الآن مُرْتَهَنٌ بين قديم وجديد، وأصبح كخِرَاشٍ إذ تكاثرت عليه الظباء فلم يدر لكثرتها ما يصيد، فإن أمسك سيدُنا من أياديه وإلا فليتفضل على الشكر بالإنظار، وليعلم أن ذمة وفائه كذمة ديوان المال في الإعسار.

هذا فصل في هذا المعنى قَلَّمَا يؤتى بمثله، وفيه معنى واحد من قول الشاعر:

تَكَاثَرَتِ الظِّبَاءُ عَلَى خِرَاشٍ فَمَا يَدْرِي خِرَاشٌ مَا يَصِيدُ

ومن ذلك ما ذكرته في استصلاح مودة، فقلت: كنتُ عنده بالمنزلة التي آمَنُ بها ما أجنيه فصرت أخاف ما لم أجْنِه، وكان لا يقبل عَلَيَّ شهادة عَيْنِهِ فأصبح الآن يقبل على شهادة أذنه، لكن لم يجعل الله القلوب بين أُصْبُعَين من أصابعه إلا ليذهب بها كُلَّ وادٍ، ومن ههنا كانت تنتقل من وِدَاد إلى قِلًى ومن قِلًى إلى وداد، ولا شك أن لها بين الحالتين عُمُراً تنتهي إليه كما تنتهي أعمار الأجساد، والصبر خير ما استعمل في جفاء الإخوان، والماء إذا جرى في مكان ثم انحرف عنه فلا بد أن يعود إلى ذلك المكان.

وبعض هذا مأخوذ من شعر ابن الرومي [وهو قوله]:

عَهِدْتُكَ لاَ تَعْتَدُّ بِالعَيْنِ شَاهِداً عَلَيَّ فَلِمْ أَصْبَحْتَ تَعْتَدُّ بِالأُذْنِ

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الملوك على يد بعض الْعُفَاة، وهو: الشِّيمُ الكريمة للإنسان بمنزلة المسك في سُرَرِ الغزلان، غير أن طيب هذه يَعْبق بالأنوف وطيبَ هذه يَعْبق بالآذان، وقد جعل تفاوت المزية بين هذين الطيبين فَرقاً، فأحدهما يبقى دائماً ولا يذهب والآخر يذهب ولا يبقى، ونصيب مولانا من الطيب الباقي نصيب زكت مَعَادنه، وكثرت خزائنه، وسارت في الأرض محاسنه، ورفعه الله به إلى محل يبعد شأْوُه على الطالب، ولا يرى إلا في لسان شاعر أو لسان خاطب، وهو مما استثني من خلق الناس الذي هو من طين لازب،

ومن أجل ذلك يرون أشباهاً ما عداه، وما منهم إلا من يقر بفضله ولو كان من حساده أو عِدَاه، وقد أصبحوا وهم يقلون لديه حين يكثرون، ويقول كل منهم لصاحبه ﴿أفَسِحْرٌ هٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبصِرُونَ﴾.

هذا الفصل وإن تضمن شيئاً من القرآن الكريم فليس المراد ههنا القرآن الكريم، بل منه شيء مأخوذ من الشعر، وهو قول المتنبي:

النَّاسُ مَا لَمْ يَرَوْكَ أشبَاهُ وَالدَّهْرُ لَفْظٌ وَأَنْتَ مَعْنَاهُ

ومن ذلك ما ذكر في وصف الخمر، وهو: الخمر لا تفي لذة إسكارها، بتنغيص خُمَارها، فهي خَرقاء البيان، بَذِيَّةُ اللسان، وتأنيثها يدلك أنها من ناقصات العقول والأديان، وقد عرف منها سُنّة الجور في أحكامها، ولولا ذلك لما استأثرت من الرءوس بجناية أقدامها.

وهذا أحسن من قول الشاعر وأغرب وألطف، لأنه قال:

ذَكَرَتْ حَقَائِدَها القَديمةَ إذ غَدَت وَهْناً تُدَاسُ بِأَرْجُلِ العَصّارِ
لَانَتْ لَهُمْ حَتّى انْتَشَوْا فَتَحَكَّمَتْ فِيهِمْ فَنادَتْ فِيهِمُ بالثّارِ

وكذلك قلت في وصفها أيضاً، وهو: مدامة تَنْفي خواطر الهموم، وتَسْرِي مَسْرَى الأرواحِ في الجسوم، وتشهد بأن الكرم مستمد من ماء الكروم، ويتمثل حَبَبُها[1] نجوماً إلا أنها مُضِلّة والهداية للنجوم.

وبعض هذا مأخوذ من قول أبي نَوَاسٍ:

إِذَا هِيَ حَلَّتْ في ٱللَّهَاةِ مِنَ الْفَتَى دَعا هَمُّهُ مِنْ صَدْرِهِ بِرَحِيلِ

وما زال الشعراء يتواردون على هذا المعنى حتى سمج، لكن الذي ذكرته بعد هذا المعنى من محاسن المعاني في وصفها، وكذلك ما ذكرته في وصفها، وهو: الخمر كالعذراء في نُفُورها، وملازمة خُدُورِها، ولهذا تشمئز من نكاح المِزَاج،

(١) الذي في ب، ج «حبها» وتنقص باء.

وتَصْخَبُ لمسِّ الماء صَخَبَ الأبكار لمس الأزواج، ومن شأنها أن تلبس عند الزفاف إكليلاً على رأسها، وكذلك شأن العرائس عند زفافها إلى أعراسها.

وهذه المماثلة بين الخمر وبين البكر على هذا النسق لم يأت بها أحد غيري، وإنما وصفت بأنها بكر، كقول أبي نواس:

فَقُلْتُ لِشَيْخٍ مِنْهُمُ مُتَكَلِّمٍ ... لَهُ دِينُ قِسِّيسٍ وَفِي نُطْقِهِ كُفْرُ
أَعِنْدَكَ بِكْرٌ مُرَّةُ الطَّعْمِ قَرْقَفٌ ... صَنِيعَةُ دِهْقَانٍ تَرَاخَى له ٱلْعُمْرُ
فَقَالَ عَرُوسٌ كَانَ كِسْرَى رَبِيبَهَا ... مُعَتَّقَةٌ مِنْ دُونِهَا الْبَابُ وَالسِّتْرُ

ووصفت بالنكاح والزواج، كقوله أيضاً:

وَقَهْوَةٍ كَالْعَقِيقِ صَافِيَةٌ ... يَطِيرُ مِنْ كَأْسِهَا لَهَا شَرَرُ
زَوَّجْتُهَا المَاءَ كَيْ تَذِلَّ لَهُ ... فَامْتَعضتْ حِينَ مَسَّهَا الذَّكَرُ

ومن ذلك ما ذكرته في الحزم، وهو: لا ينبغي للحازم أن يُسَاور المورد المؤذن بمضيقه وإن أفضى الصَّدَرُ إلى رحيبه، فإنّ تَوَقِّيَ الداء خير من التعرض له مع وجود طبيبه، ولْنَدَعْ قولَ من يقعد على تَلِّ السلامة ثم يلبس الكتائبَ بالكتائب، ويقول: ليس للعزم إلا تمام الصدور وليس عليه تمام العواقب.

بعض هذا مأخوذ من شعر أبي تمام(١):

وَرَكْبٍ كَأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ عَرَّسُوا ... عَلَى مِثْلِهَا وَاللَّيْلُ تَسْطُو غَيَاهِبُهْ
لأَمْرٍ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتِمَّ صُدُورُهُ ... وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتِمَّ عَوَاقِبُهْ

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الرأي والكيد، وهو: أَخْفَى على العدوِّ كَيْدَهُ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا العباس عبدالله بن طاهر بن الحسين بن مصعب، وأولها:

أَهُنَّ عَوَادِي يُوسُفٍ وَصَوَاحِبُهْ ... فَعَزْماً فَقِدْماً أَدْرَكَ السُّؤْلَ طَالِبُهْ

وانظر الديوان (ص ٤٣ بيروت).

حتى لم يدع كائداً، وأعمى عليه سلوكَ الطريق حتى ظنه حائداً، فَسُيُوفه تسطو على بعدها، ولا تقطع إلا وهي في غمدها.

وبعض هذا المعنى أخذته من شعر أبي تمام(١)، وهو:

سَكَنَ الْكَيْدُ فِيهِمْ إنَّ مِنْ أعْـ ـ ـظَمِ كَيْدٍ أنْ لاَ يُسَمَّى أَرِيبَا

وكذلك قولي في هذا المعنى، وهو: أخذ بسَمْعِ العدو وبَصَرِهِ، وسدَّ مَطْلع وِرْدِهِ وصَدَرِه، فَيَدَاه مغلولة مع أنها مطلقة السَّرَاح، ومَقَاتله بادية على أنها شاكية السِّلاح.

وهذا المعنى ينظر إلى المعنى الذي قبله.

وكذلك قولي أيضاً، وهو: يُبَيِّتُ برأيه العدو قبل جيشه، وتلقاه يطيشُ قلمه الذي كُلُّ الحلم في طيشه، فإذا أطلَّتْ وجوه الآراء كان رأيه لها صباحاً، وإذا جهزت الجحافل لحرب كان قلمه لها سلاحاً.

وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر البحتري(٢):

وَهُوَ المَرْءُ مَا غَزَا بَلَداً بِالـ ـ ـرأيِ إلَّا كَفَاهُ غَزْوَ ٱلْجُنُودِ

ومن ذلك ما ذكرته في وصف السير والركاب والخيل والقفار وما يتعلق بها.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري، وأولها قوله:

مِنْ سَجَايَا الطُّلولِ ألَّا تُجِيبَا فَصَوَابٌ مِنْ مُقْلَتِي أنْ تَصُوبَا

(٢) لم أجد هذا البيت في شعر البحتري، وقد تكرر هذا المعنى فيه؛ فمن ذلك قوله:

مُسْتَشَارٌ في المُعْضِلاتِ إذَا مَا آرْ تَفَعَ الخَطْبُ عَنْ دُعَاءِ وَلِيدِهْ

وَمُصِيبٌ مَفَاصِلَ الرَّأْيِ إنْ حَا رَبَ كَانَتْ آرَاؤُهُ مِنْ جُنُودِهْ

ومن ذلك قوله في قصيدة يمدح فيها محمد بن عبدالملك الزيات:

فَهْيَ مِنْ عَزْمِ رَأْيِهِ في جُنُودٍ قُمْنَ مِنْ حَوْلِهَا مَقَامَ الجُنُودِ

فمنه ما يتعلق بالسير، وهو: ركب ظَهْرَ الليل يُباري مسير شُهْبه بمسير أشْهَبِه[١]، ويستقرب بُعْدَ المَدَى في نيل مَطْلبه، غير أن تلك تفري أديم الغياهب، وهذا يفري أديم السَّبَاسِب[٢]:

وهذا مأخوذ من قول المتنبي[٣]:

يُبَارِي نُجُومَ الْقَذْفِ في كلِّ لَيْلَةٍ نُجُومٌ لَهُ مِنْهُنّ وَرْدٌ وَأَدْهَمُ

ومن هذا المعنى أيضاً قولي، وهو: اتَّخَذَ اللَّيْلَ ظهراً، واستلان خشونة الْمَسْرَى، فلم يزل يقذف صبغة سواده، بصبغة جواده، حتى بدت في أديم الليل شِيَاتُ صباحه، وَشَابَهَ الأدهم في غُرّته وأوضاحه، فعند ذلك أخذ أحدهما في رحيله، وأخذ الآخر في نزوله.

وهذا المعنى ينظر إلى الذي قبله، وفيه من شرف الصنعة ما لا خفاء به.

ومن ذلك ما ذكرته أيضاً في فصل من كتاب، وهو: سِرْتُ وتحتي بنت قَفْرَةٍ لا يذهب السُّرَى بجماحها، ولا تستزيد الحادي من مراحها، فهي طَمُوح بأثناء الزِّمام، وإذا سارت بين الآكاد قيل هذه واحدة من الآكام، ولم تُسَمَّ جَسْرَةً إلا لأنها تقطع عرض الفلاة كما يقطع الجسر عرض الماء، ولا سميت حَرْفاً إلا لأنها جاءت لمعنى في العزائم لا لمعنى في الأفعال والأسماء، وخَلْفَهَا جَنيبٌ من الخيل يُقْبِل بجِذْعٍ ويدبر بصخره، وينظر من عين جنحظة ويسمع بأذن حشره، ويجري مع

---

(١) يريد بالأشهب: جواداً لونه الشهبة.

(٢) السباسب: جمع سبسب ـ بوزن جعفر ـ وهو الأرض القفر.

(٣) من قصيدة له أولها قوله:

إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِيبُ المُقَدَّمُ أَكُلُّ فَصِيحٍ قَالَ شِعْراً مُتَيَّمُ

وأراد بنجوم القذف: الشهب التي تقذف بها الشياطين والتي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ﴾ وذكر رجم الشياطين بها في قوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً﴾ والورد ـ بفتح فسكون ـ الفرس الأحمر.

الريح الزَّعْزَع فيَذْرُها وقد ظهر فيها أثر القَتَره، وما قِيدَ خلفها إلا وهو يهتدي بها في المسالك المضلّة، ويطأ على أثرها فيرقم وجوهَ البدور بأشكال الأهلة، هذا والليل قد ألقى جِرَانَهُ فلم يَبْرَح، والكواكب قد رَكَدَت فيه فلم تسبح، وأنا أودُّ لـو زاد طوله، ولم تظهر غرة أدهمه ولا حُجُوله، فقد قيل: إنه أدنى للبعد وأكتم للأسرار، ودل عليه القول النبويّ بأن الأرض تُطْوَى فيه ما لا تطوى في النهار، وما زلت أسير بريدها تنوء به حتى كاد يَنْضُو لون السواد، وظهر لون السرحان فأغـار على سَرْح السماء كما يغير السرحان على سرح النقاد، فعند ذلك نَهَلَت العين من الكرى نهلة الطائر، ولم يكن ذلك على ظهر الأرض المطمئنة وإنما كان على الظهر السائر.

في هذا الفصل كل مليحة من المعاني، ولو لم يكن في هذا الكتاب سواه لكان كافياً، وبعضه مأخوذ من الشعر، كقول أبي تمام(١):

طَمُـوحُ بـأَثْنَـاءِ الـزِّمَـامِ كـأَنَّمـا يُخالُ بها مِن عَـدْوِها طَيْفُ جِنَّـةِ(٢)

وكقـولـه(٣):

بِـالشَّـذْقَمِيَّـاتِ الْعِتَـاقِ كـأَنَّمـا أشْبـاحُهـا بَيْنَ الأَكَـامِ أَكـامِ(٤)

ومن ذلك ما ذكرته في النسب في فصل من كتاب، وهو: لهم نَسَبٌ لا تدخله لام التعريف، وهو موضوع لا يجري على سنن التوقيف، فإذا ذكر أوله وقفت من عرفانه على طلل، ووجدته مهملاً في جملة الهمل، وإن قيل إنه من نجوم السماء قلت لكنه لا يخرج عن الثور أو الحمل، فما أرهف لوصفه لسان إلا نَبَا، ولا اقتدح له زناد خاطر إلا كبا، وهم منه كـآوَى الذي يرى الناس له ابناً ولا يرون لابنه أباً.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها حبيش بن المعافي قاضي نصيبين، وأولها قوله:

نُسَـائِلُهـا أيَّ الـمَـواطِنِ حَـلَّتِ وَأَيَّ بِـلَادٍ أوطَـنَـتْـهَـا وَأَيَّـتِ

(٢) وقع في ج «بأثناء الزمان» وهو تحريف شنيع، والتصويب عن ب، وعن الديوان (٦٠).

(٣) من قصيدة له يمدح فيها المأمون، وأولها قوله:

دِمَـنٌ أَلَـمَّ بِـهَـا فَـقَـالَ سَـلامُ كَـمْ حَـلَّ عُقْـدَةَ صَبْـرِهِ الإلْـمَـامُ

(٤) الشذقميات: النوق الكرام. والأكام: التلال، يريد أنهنّ جسيمات عاليات.

وهذا من أغرب ما يؤتى به في ذم النسب، وهو من باب توليد المعاني الذي يسمى الكيمياء، وبعضه مستولد من قول أبي نواس في هجاء الخصيب[١]:

وَمَـا خُـبْـزُهُ إلاَّ كـآوَى يُـرَى ابْنُـهُ   وَلَمْ يُـرَ آوَى في حُـزُونٍ وَلاَ سَهْـلِ[٢]

فأبو نواس ذم خُبْز الخصيب في عدم رؤيته، وأنا نقلت ذلك إلى النسب، فجاء ألطف وأحسن وأليق وأدخل في باب الصنعة، وإذا حقق النظر فيما ذكره أبو نواس في هذا المعنى لم يوجد مناسباً، فإن الخبز في عدم رؤيته لا يحمل على ابن آوى، وإنما المناسبة تقع في النسب من أجل ذكر الابن والأب.

ومن ذلك ما ذكرته في ذم قوم، وهو فصل من كتاب، فقلت: تركت قوماً لم ينقعوا صَدًى، ولم يجروا إلى مَدًى، فأعراضهم نكرة العارف، وأموالهم حنظلة الناقف، لا تمطر سحبهم على كثرة مائها، ولا تزكو الذريعة بأرضهم على نمائها.

وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر الشريف الرضي[٣]:

تَـرَكْتُ أنَـاسـاً لَمْ يَـهَشُّـوا لِـمِنَّـةٍ   وَلَمْ يَنْقَعُـوا غُـلَّ الـظِّمـاءِ الْخَـوَامِسِ

عَلَى الْقُـرْبِ فيهم إنَّني غَيْـرُ طَـامِـعٍ   وَمِنْـكَ عَلَى بُعْدِ المَـدَى غَيْرُ آيِسِ[٤]

---

(١) البيت ثاني أبيات قصيدة يهجو بها أبو نواس إسماعيل بن أبي سهل بن نيبخت، والذي قبله قوله:

عَلَى خُبْـزِ إسْمَـاعِيـلَ وَاقِيَـةُ الْبُخْـلِ   فَقَـدْ حَـلَّ في دَارِ الأَمـانِ مِنَ الأَكـلِ

(٢) وقع في ب، ج «وما خبره» بالراء المهملة، وهو تصحيف، وصوابه «خبز» بالزاي، وكذلك هو في الديوان (ص ١٧١).

(٣) من أبيات له يمدح فيها الملك بهاء الدولة، وأولها:

أقُـولُ لِـرَكْبٍ خَـابِـطِينَ إلَى النَّـدَى   رَمَـوْا غَرَضـاً واللَّيْلُ دَاجِي الْحَنَـادِسِ

(٤) في الديوان «على القرب إني فيهم غير طامع»، وانظره (١ ـ ٤٢٣). وقريب من معنى هذين البيتين مع توافقهما في أكثر الألفاظ قول الشريف أيضاً:

نُـذَادُ وَيُـرْوَى الأَبْعَـدُونَ بِمَـائِكُمْ   وَنَحْنُ عَلَى الْـوِرْدِ الظِّمـاءُ الْخَـوَامِسُ

وَتَنْـدَى لِقَـومٍ آخَرِينَ سَحَـابُكُمْ   وَنَحْنُ مَنَـاشِي أرْضِكُمْ وَالْغَـرَائِسُ

ومن هذا الباب أيضاً قولي، وهو: تركت قوماً يَسْلَون الحبيب، ويَمَلّون القريب، ولا يرعون من يرعاهم، ولا يدرُّ اللبن على مَرْعاهم، فَنَوالهم تحايا، وأعراضهم ضحايا، ومن أحسن صفاتهم أنهم يعاقبون على الظنة، ولا يرتاحون لمنة، فالذرائع لديهم مدفونة، والصنائع غير مسنونة.

وبعض هذه المعاني مأخوذ من شعر أبي الطيب[1] المتنبي:

رَأَيْتُكُمْ لَا يَصُونُ العِرْضَ جَارُكُمُ وَلَا يَدِرُّ عَلَى مَرْعَاكُمُ اللَّبَنُ
جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمُ مَلَلٌ وَحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنْكُمُ ضَغَنُ

ومن ذلك ما ذكرته على الحث على الاغتراب، وهو: لولا التغرب لما ارْتَقَتْ بنات الأصداف إلى شرف الأعناق، ولا ارتقى تراب الأحجار إلى نور الأحداق.

وكذلك قولي في هذا المعنى، وهو: في الانتقال تنويهٌ لخامل الأقدار، ولولا ذلك لم يكس الهلال حلة الأبدار، والمَنْدَل الرطب حَطَب في أوطانه، والمسك دم في سُرَرِ غزلانه، ولولا فراق السهم وتره لم يَحْظَ بفضل الإصابة، ولولا فراق الوَشيج منبته لم يَتَحَلَّ بعز السِّنان ولا شرف الذّؤابة.

وهذا الفصل فصل من القول في معناه، ومما لم ينبش للخواطر ابتناء مبناه؛ فمنه ما هو مأخوذ من الشعر، ومنه ما منح به الخاطر على غير مثال، وهو يشهد لنفسه.

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الأيام، وهو: أيام تُعَدُّ بأعوام[2] لقصر أعمارها، وشهور لا يشعر بأنصافها ولا سِرارها؛ فالأوقات بها أصائل، والمحاسن فيها

---

(١) من قصيدة له أرسلها إلى سيف الدولة من مصر، وقد بلغه أنه ذكر بمجلسه بسوء، وأول هذه القصيدة قوله:

بِمَ التَّعَلُّلُ؟ لَا أَهْلٌ، وَلَا وَطَنُ، وَلَا نَدِيمٌ، وَلَا كَأْسٌ، وَلَا سَكَنُ

(٢) كذا؛ ولعله «أعوام تعد بأيام».

شمائل، والمآرب في ساعاتها رياض في خمائل؛ فما أدري أهي خيالات أحلام غرت، أم أحاديث أمانٍ مرت.

وبعض هذا المعنى مأخوذ من أبيات الحماسة(١):

شُهُـورٌ يَنْقَضِين وَمـا شَعَـرْنَـا ... بِـأَنْصَـافٍ لَهُنّ وَلَا سِـرَارِ(٢)

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الإخوان، وهو: ليس الصَّدِيقُ مَنْ عَدَّ سَقَطاتِ قرينه، وجازاه بَغثِّه وسمينه، بل الصديق مَنْ ماشى أخاه على عَرَجه، واستقام له على عِوَجِهِ، فذلك الذي إنْ رَأى سيئة وطئها بالقدم، وإن رأى حسنة رفعها على عَلَم.

وبعض هذا المعنى مأخوذ من أبيات الحماسة(٣):

---

(١) من كلمة رواها أبو تمام، ولم ينسبها لقائل معين، وأولها:

أَقُـولُ لِصَـاحِبِي وَالْعِيْسُ تَهْـوِي ... بِنَـا بَيْـنَ الْمُنِيفَـةِ فَـالضِّمَـارِ

تَـمَتَّـعْ مِـنْ شَمِيـمِ عَـرَارِ نَـجْـدٍ ... فَمَـا بَعْـدَ الْعَشِيَّـةِ مِنْ عَـرَارِ

وانظر (شرح التبريزي على الحماسة: ٣ ـ ٢١٤).

(٢) قال التبريزي في شرح هذا البيت: «ارتفع شهور على أنه مبتدأ، وهو تفسير الزمان الذي حمده وتلهف على انقضائه، وينقضين خبره، ويجوز أن يرتفع شهور على أنه خبر مبتدأ محذوف، وينقضين حينئذ يكون صفة له، وما شعرنا: أي ما علمنا، يقال: شعرت به شِعْرَةً وشِعْراً وشُعُوراً، ومنه الشعر، ويقال: شعر الرجل؛ إذا قال الشعر؛ فشعر، بكسر العين، أي صار شاعراً؛ وسرار الشهر: آخره؛ لأن القمر يستسر فيه» اهـ، والسرار: بكسر السين بزنة كتاب.

(٣) أول كلمة اختارها أبو تمام لقعنب بن ضمرة، وهو قعنب ابن أم صاحب، وأم صاحب: هي أمه، وهو أحد بني عبدالله بن غطفان، وانظر (شرح التبريزي على الحماسة: ٤ ـ ٢٤) وكلمة قعنب ابن أم صاحب قد رواها له ابن الشجري في مختاراته (ص ٦) وأولها قوله:

بَـانَتْ سُلَيْـى فَـأَمْسَتْ دُونَهَـا عَـدَنُ ... وَغَـلِقَتْ عِنْـدَهَـا مِنْ قَلْبِـكَ الرُّهُنُ

إنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحاً عَنّي، وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالحٍ دَفَنُوا[1]

إلا أن الذي ذكرته ضدُّ هذا المعنى، وقد يستخرج المعنى من ضده. وهو أحسن مما يستخرج من نفسه.

ومن هذا قولي أيضاً، وهو: لَيْسَ الصديقُ من صَرّى أخْلَافَ وُدِّه[2] وغشّ في صَفْقَة عهده بل الصديق من لا ترد سلعة وده بإقالةٍ وَلَا عَيْب، ولا تخص محافظة إخائه بشهادةٍ دون غَيْب[3] فذلك أخي من غير نسب، وكنزي من غير نَشَب.

وهذا مأخوذ من الفقه في تَصْرِية ضرع الشاة عند البيع، وذلك يوجب الرد.

ومما ينتظم بهذا السلك قولي، وهو: الانتقال عن خلة الوداد، كالانتقال عن نسب الميلاد، وكما يحرم هذا في نص الحكم المشروع، فكذا يحرم هذا في خلق الكرم المطبوع، على أن نسب الخلة الذي يَنْمِيه القلب إلى القلب، أوْصَلُ من نسب الرحم الذي يَنْميه الابن إلى الأب، ولهذا كانت مودة سَلمَانُ قُرْبَى، ونسب أبي لَهَبٍ سبًّا وتبًّا.

وبعض هذا مأخوذ من شعر أبي نواس، وهو:

كَانَتْ مَوَدَّةُ سَلْمَانَ لَهُ نَسَباً وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ نُوحٍ وَٱبنِهِ رَحِمُ

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الديار، وهو: دَارٌ كانت مقاصر جنة، فأصبحت وهي مَلَاعِبُ جِنَّة، ولقد عميت أخبار قُطَّانها، وأنشاز أوطانها، حتى شابهت إحداهما في الخفاء، الأخرى في العَفاء، وكنت أظن أنها لا تسقى بعدهم بغمام، ولا يرفع عنها جلباب ظلام، غير أن السحاب بكاهم فَجَرت بها سَوَافِح دموعه، والليل شق عليهم ثوبه فظهر الصباح من خلال صُدُوعه.

---

(١) في الحماسة «طاروا بها فرحاً مني»، وفي رواية ابن الشجري «طاروا لها فرحاً مني».

(٢) صرى الرجل شاته تصرية: لم يحلبها أياماً ليجتمع اللبن في ضرعها؛ فيرى حافلاً، يقصد بهذا الغش في البيع؛ والأخلاف للناقة كالثدي للمرأة.

(٣) الشهادة: الحضور، تقول: شهدنا فلان يوم كذا، تريد حضرنا، والغيب: ضده.

وهذه معان لطيفة جداً، وبعضها مأخوذ من شعر الشريف الرضي رحمه الله تعالى[(1)]:

أَمَـرَابِـعَ الْغِـزْلَانِ غَيَّـرَكِ الْبِلَى حَتَّى غَـدَوْتِ مَـرَاتِعـع الْغِـزْلَانِ[(2)]

ومما يلتئم بهذا المعنى قولي أيضاً، وهو: دار أَصْبَحَت مراتع أذواد، بعد أن كانت مَنَاجع رُوّاد، فلو تصورت الآمال التي مثلت بفنائها، كما تصورت الآثار المماثلة من بنائِها؛ لرأيت رسومها مع رسوم القباب. وعلمت كم غَارَ بِهَا مِنْ بَحْرٍ ونَضَب من سحاب.

وهذا معنى حسن له من نفسه مُثْنٍ وحامد، ومن سامعه يمين وشاهد، وهو من معانيَّ المستخرجة.

ومن ذلك قولي أيضاً، وهو: النقص مُوَكَّل بكمال النعماء، ولذلك كان الْوَخَم مقترناً بالمرعى والماء وقَلَّمَا ترى ثمرة إلا ومعها زُنبُور، ولا لذة إلا وإلى جانبها شيء محذور.

وكذلك قولي أيضاً، وهو: لا يظفر الرجل بمطالبه شَفْعاً، ولا تؤتيه من كل جهة نفعاً، بل يرى مَرْعًى بلا ماء وماء بلا مرعى، ولذلك كانت النحلة مع الشهْدَة، والشوكة مع الْوَرْدَة.

---

(١) من كلمة له يقولها وقد خرج إلى الكوفة لزيارة قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأول هذه الكلمة قوله:

مَـا زِلْتُ أَطَّـرِقُ المَنَـازِلَ بِـالنَّـوَى حَتَّـى نَـزَلْـتُ مَنَـازِلَ النُّـعْـمَـانِ

وانظر الديوان (٢ ـ ٨٨٥).

(٢) رواية الديوان هكذا:

أَمَقَـاصِـرَ الْغِـزْلَانِ غَيَّـرَكِ الْبِلَى حَتَّـى غَـدَوْتِ مَـرَابِضَ الْغِـزْلَانِ

والمراد بالغزلان في صدر البيت: الحسان ربات الخدور، والمراد بها في عجز البيت الظباء الدقاق الأسواق.

وبعض هذه المعاني مأخوذ من قول أبي تمام[١]:

أَرْضٌ بِـهَـا عُشْـبٌ زَاكٍ وَلَـيْسَ بِـهَـا   مَـاءٌ وَأُخْـرَى بِهَـا مَـاءٌ وَلاَ عُشْبُ[٢]

إلا أن في الكلام المنثور زيادة على ما تضمنه الشعر، وكأنه ينظر إليه نظراً بعيداً.

ومن سبيل الْمُتَصَدِّي لهذا الفن أن يأخذ المعنى من الشعر فيجعله مثل الإكسير في صناعة الكيمياء، ثم يخرج منه ألواناً مختلفة من جوهر وذهب وفضة، كما فعلت في هذا الموضع؛ فإني أخذت معنى هذا البيت من الشعر فاستخرجت منه ما ليس منه، وهذا أعلى الدرجات في نثر المعاني الشعرية.

وقد بسطت القول في هذا الموضع، وكشفت عن دفائنه، في الكتاب الذي وَسَمْته بـ «الْوَشْيِ الْمَرْقُوم في حَلِّ المنظوم» وهو كتاب مفرد [في] هذا الفن خاصة.

ومن هذا الضرب الذي هو الكيمياء في توليد المعاني ما ذكرته في وصف الربيع فقلت: فصل الربيع هو أَحَدُ ميزانِي عامه، والمستقيد لسَامِهِ من حَامه، وقد وصف بأنه ميعاد نطق الأطيار، وميلاد أجِنَّة الأزهار، والذي تستوفي به حولها سلافة العقار، فإذا سَلَّتِ السحبُ فيه سيوفها كان ذلك للرضا لا للغضب، وإذا خلعت على الأرض غُلَالتها الدَّكْنَاء لبست منها ديباجة منسوجة بالذهب.

وهذا المعنى مستولد من قول أبي تمام في وصف السحاب[٣]:

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا جعفر محمد بن عبد الملك بن أبي مروان الزيات، وأولها:

قَـدْ نَـابَت الْجِـزْعَ مِـنْ أَرْوِيَّـةَ النُّـوَبُ   وَاسْتَحْقَبَـتْ جِـدَّةً مِنْ دَارِهَـا الْحِقَـبُ

وانظر الديوان (ص ٤٦).

(٢) رواية الديوان «أرض بها عشب جرف» والجرف: ما جرفته السيول وأكلته الأرض، والذي هنا أفضل من رواية الديوان؛ لتمام التقابل.

(٣) من قصيدة له يمدح أبا الحسن محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي، وأولها قوله:

إِنَّ بُكَـاءً فِي الـرَّبْـعِ مِـنْ أَرَبِـهْ   فَـشَـايِعَـا مُـغْـرَمـاً عَـلَى طَـرَبِـهْ

سَلَبْتَـه الْجَنُـوبُ وَالـدِّينُ وَالـدُّنْـــيَـا وَصَـافِي الْحَيَــاةِ فِي سَلَبِـهْ[١]

إلا أن في الذي ذكرته معنيين غريبين إذا أمعن الناظر نظره فهمهما.

ومن ذلك ما ذكرته في لين القول وإعادته، وما يجري مجراه، كقولي في فصل من كتاب، وهو: لم أُعِدْ عليه القولَ لأنه لا يبلغ مَدَى ميدانه، إلا بتحريك سوطه وعنانه، بل أخْذاً بأدب الله في أذكار القرآن، واتباعاً لسنة نبيه ﷺ في تثويب الأذان.

وبعض هذا مأخوذ من شعر أبي تمام[٢]:

لَـوْ رَأَيْنَـا التَّـأْكِيـدَ خُـطَّةَ عَجْـزٍ مَـا شَفَعْنَـا الأَذَانَ بِـالتَّثْـوِيبِ[٣]

وكذلك قولي أيضاً، وهو: وقد علم أن لين القول أنجع قبولاً، وهو من أدَبِ كليم الله إذ بعثه إلى فرعون رَسُولاً، ألا ترى أن الْحُدَاء يبلغ من المطايا بلُطْفه، ما لا يبلغه السوط على عُنْفه.

وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر أبي تمام[٤]:

---

(١) هكذا ورد هذا البيت في جميع نسخ الأصل، وهو غير مستقيم، وصوابه:

قَـدْ جَلَبَتْـهُ الْجَنُـوبُ؛ فـالـدِّين وَالـدُّ نْيـا وَصَــافِي الـحيـاةِ مِـنْ جَـلَبِـهْ

وانظر الديوان (ص ٥٢).

(٢) آخر قصيدة له يمدح فيها سليمان بن وهب، وأولها قوله:

أَيُّ مَــرْعَـى عَـيْــنٍ وَوَادِي نَـسِـيـبِ لَـحَـبَـتْـهُ الأَيَّـامُ فـي مَـلْحُـوبِ

لحبته: وطئته. وملحوب: اسم موضع.

(٣) رواية الديوان «لو رأينا التوكيد» وهما سواء، وفي الديوان «ما شفعنا الآذان» وهو تحريف سببه قلة إدراك معنى التثويب الذي يذكر في الشريعة.

(٤) من قصيدة له يعاتب فيها علي بن الجهم ويطلب إليه استنجاز وعد من عثمان بن إدريس بن بدر، وأولها قوله:

بِـأَيِّ نُـجُـوم وَجْهِـكَ يُـسْتَـضَـاءُ أَبَـا حَـسَـنٍ، وَشِـيـمَـتُـكَ الإِبَـاءُ

وَخُـذْهُمْ بِـالـرُّقَى إنَّ الْمَهَـارَى يُهَيِّجُهَـا عَلَى السَّيْرِ الْحُـدَاءُ[١]

ومن ذلك ما ذكرته في ذم الدنيا، وهو: أنْكَادُ الدنيا مَشُوبة بـالأشياء التي جُبِلَتِ النفوس على حُبِّها، وكل ما تستلذه الأبدان من مأكلها فإنه يضرها من جهة طبها، ولهذا يذمم من منفعة الهليلج، ومضرة اللوزينج. وأعجب من ذلك أنه لا ينتفع الإنسان بشيء من لذاتها إلا ضره من جهة ثوابه، وهو كالذي ينتفع باصْطِلاَء النار وهي مُحْرِقة لأثوابه، وقد ضرب لذلك مثل من الأمثال، وقيل: إن كل ما ينفع الكبدَ مضرٌّ بالطحال.

وهذا مأخوذ من الأمثال العربية والمولدة.

ومن ذلك ما ذكرته في الزهد، وهو: الناس في الدنيا أبناء الساعة الراهنة، وكما أن النفوس ليست فيها بقاطنة فكذلك الأحوال ليست بقاطنة، ولهـذا كانت المآتم بها كالأعراس يتفرق نديُّ جمعها، فهذه تُنْسِي ما مضى من لذة سـرورها وهذه تُنْسي ما مضى من ألم فَجْعِها، ولا شبيه لهـا على ذلك إلا الأحـلام التي يتلاشى خيالها عاجلاً، وتجعل اليقظة حقها باطلاً، وما ينبغي حينئذ أن يفرح بها مقبلة ولا يؤسى عليها مدبرة، وكل ما تراه العين منها ثم يذهب فكأنها لم تَرَه، وغاية مطلوب الإنسان منها أن يُمَدَّ له في مدة عمره، ويُمْلَى له في امتداد كُثْره، أما تعميره فيعترضه المشيب الذي هو عدم في وجود، وهو أخو الموت في كل شيء إلا في سكنى اللحود، فالجوارح التي يدرك بها الشهوات ترى وكل منها قد تحول، وأصبح كالطلل الدارس الذي ليس عنده من[٢] مُعَوَّل، فلا لَيْلَى بلَيْلَى ولا النَّوَار بالنوار، ولا الأسماع أسماع ولا الأبصار أبصار، وأما ماله فإن أمسكه فهو عُرْضَة لوارث يأكله، أو

---

(١) الرقى: جمع رقية، وهي تعويذة، المهارى: جمع مهرية، بفتح الميم وسكون الهاء، والإبل المهرية: منسوبة إلى مهرة، ومهرة: بلد، ويقال: اسم رجل، يهيجها: يثيرها، الحداء ـ بضم الحاء ـ الغناء:

(٢) هذا من قول امرئ القيس بن حجر الكندي:

وَإِنَّ شِـفَـائِـي عَبْـرَةٌ مُـهَـرَاقَـةٌ وَهَـلْ عِنْـدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَـوَّلِ

لحادث يستأصله، وإن أنفقه كان عليه في الحلال حساباً، وفي الحرام عقاباً، فهذه زهرة الدنيا الناضرة، وهذه عقباها الخاسرة.

وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر صالح بن عبد الْقُدُّوس:

وَإِذَا الجنازَةُ وَالْعَرُوسُ تَلاَقَيَا ... أَلْفَيْتَ جَمْعاً كُلَّهُ يَتَفَرَّق

ومن قول أبي الْعَتَاهية:

أَنَّمَا أَنْتَ طُولَ عُمْرِكَ مَا عُمِّرْتَ في السَّاعَةِ الَّتي أَنْتَ فيهَا

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن تعزية، وهو: كيف يُظلم ذلك اللَّحْدُ وبه من أعمال ساكنه أنوار؟ أم كيف يُجْدِبُ وبه من فَيْض يمينه سحاب مِدْرَار؟ أم كيف تُوحِشُ أقطاره والملائكة داخلة عليه من تلك الأقطار؟ أم كيف يُخْفِيه طولُ العهد على زُوَّاره وطيبُ ترابه هادٍ للزوار، وما أعلم ما أقوله في هذا الخطب الجليل، الذي دَقَّ فيه الحزن الجليل، وسمحت له النفوس بالفدية على حب الحياة وذلك من الفداء القليل، وقد قيل: إنه لم يُخْلَقِ الدمع إلا إنذاراً بأن نوائب الزمان ستنوب، وقد جعله الله ذخراً للقائها وإنما يدخر السلاح للقاء الحروب، والذي ذَخَرْتَه منه لم يغن عني في هذه النائبة، وأيُّ جُنَّةٍ تقوم في وجه سهامها الصائبة، لا جَرَمَ أني أصبحت بين يديها هَدَفاً للرماء، ولم يبق مني إلا ذَمَاءُ الْحُشَاشة ومن العجب بقاء الذَّماء.

وشيء من هذا الفصل مأخوذ من شعر ابن الرومي:

لَمْ يُخْلَقِ الدَّمْعُ لِامْرِىءٍ عَبَثاً ... اللَّهُ أَدْرَى بِلَوْعَةِ الحَزَنِ

وكذلك ذكرت فصلاً في كتاب آخر يتضمن تعزية، وهو: فيا وَيْحَ أيدٍ أسلمته إلى الثرى وما كان يسلمها إلى الإعدام، وألبسته ظلمة اللحد وطالما جلا عنها غيابة الظُّلم والإظلام، وغادرته بِوَحْدَته مستوحشاً وقد كان يؤنسها بنوافل الإنعام، ومثله لا يوارى القبر منه إلا صورة يدركها النفاد، وتبلى كما يبلى غيرها من الأجساد، ولكنه لا يستطيع مُوَاراة الذكر الخالد الذي يذهب بشماتة الحساد، ويتمثل في السماء بصورة الكواكب وفي الأرض بصورة الأَطْوَاد.

وبعض هذا مأخوذ من قول بعض شعراء الحماسة(١):

فَـإِنْ تَدْفِنُـوا الْبَكْرِيَّ لَا تَـدْفِنُوا آسْمَـهُ وَلَا تَـدْفِنُـوا مَعْـرُوفَـهُ فِي الْقَبَـائِـلِ(٢)

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كلام بالفصاحة، وهو فصل من كتاب؛ فقلت: وله الْبَيَانُ الذي يغض من نَسَق الفريد، ولا يخلق نضرة لباسه الجديد، وهو فوق كلام الْمُجِيد ودون القرآن الْمَجيد، وإذا اختصروا صفته قيل: إنه يستميل سمع الطروب، ويستحق وقار القلوب، ويتمثل آيات بيضاء من غير ضَمٍّ إلى الجيوب، ويرى في الأرض غير لاغِبٍ إذا مَسَّ غَيْرَهُ فترة اللُّغُوب، ولا تزال الناس في عشق معانيه ضرباً واحداً والعاشقون ضروب، ولما وقفت عليه قلت: سبحان من أعطى سيدنا فلم يَبْخَل، وخَصَّه بنُبُوّة البيان إلا أنه لم يُرْسَل، ولولا أن الوحي قد سُدَّ بابه لقيل: هذا كتاب منزل، ولقد خار الله لأولي الفصاحة إذ لم يَحْيَوْا إلى عصره، ولم يُبْتَلُوا فيه بداء الحسد الذي يُصْليهم بتوقُّد جَمْره، ولئن سلموا من ذلك فما سلمت أقوالهم من أقواله التي مَحَتْهَا مَحْو المداد، وقد كانت باقيةً بعدهم فلما أتى صارت كما صاروا إلى الألْحَاد.

وفي هذا الفصل شيء من المعاني الشعرية كقول البحتري(٣):

---

(١) هو من كلمة اختارها أبو تمام لأبي الشغب العبسي، يقولها في خالد بن عبدالله القسري، وأولها قوله:

أَلَا إِنَّ خَيْـرَ النَّـاسِ حَيًّـا وَهَـالِكـاً أَسِيـرُ ثَقِيفٍ عِنْـدَهُمْ فِي السَّـلَاسِـلِ

وكان يوسف بن عمر الثقفي قد أسر خالد بن عبدالله القسري، وانظر التبريزي (٢ ٣٧٨).

(٢) رواية الحماسة:

فَـإِنْ تَسْجُنُوا الْقَسْرِيَّ لَا تَسْجُنُـوا اسمَـهُ وَلَا تَسْجُنُـوا مَعْـرُوفَـهُ فِي الْقَبَـائِـلِ

(٣) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات، وأولها قوله:

بَـعْضَ هَـذَا الْعِتَـابِ وَالتَّـفْـنِيـدِ لَـيْسَ ذَمُّ الْـوَفَـاءِ بِـالْـمَـحْـمُـودِ

مُسْتَمِيلُ سَمْعَ الطُّرُوبِ المُعَنَّى عَنْ أغـــانِيِّ مَعْبَـــد وَعَقيـــدِ[١]

وقول الشريف الرضي رحمه الله[٢]:

عَشِقْتُ وَمَـــالِي يَعْلَمُ اللَّهُ حَـاجَـــةٌ سِوَى نَظَرِي، وَالْعَاشِقُونَ ضُرُوبُ

وفيه أيضاً شيء من معاني القرآن الكـريم، إلا أنها جـاءت ضمناً وتبعـاً، وموضعها يأتي بعد الأبيات الشعرية.

وكذلك ذكرت فصلاً آخر من هذا الأسلوب، وهو: إن للكلمة طعماً يُعْرَفُ مَذَاقُه من بين الكلام، وخفَّة الأرواح معلومة من بين ثقل الأجسام، فلو لم نعرفه بطعمه، عرفناه بوسمه، والصباح لا يُتَمارى في إسْفَاره، ولا يفتقر إلى دليل على إشراق أنواره، وقد علم أن العرف يعرف بغصنه، وأن القول يعرف بلَحْنِه، ونفائس هذه العقود لا يبرزها إلا أنفاسه، فَدُرَرُها لفظه وسلوكها قِرْطَاسه.

ومن هذا الباب قولي أيضاً، وهو: ألفاظ كخَفْقِ البُنُود، أو زأر الأسود، ومعان تدل بإرهافها أنها هي السيوف وأن قلوباً نَمَتْها هي العمود، فيخالها المتأمل حَوْمَة طِعَان، أو حَلْبَة رِهان.

وبعض هذا مأخوذ من شعر البحتري[٣]:

يَقْـــظَانَ يَنْتَخِـبُ الكَـــلامَ كَـــأَنَّـــهُ جَيْشٌ لَــدَيْـهِ يُــريـدُ أنْ يَلْقَى بِــهِ

---

(١) رواية الديوان في عجز هذا البيت:

عَــنْ أَغَــانِــي مُــخَــارِقٍ وَعَــقِــيــدِ

وانظر الديوان (١ ـ ٢٠٦ مصر).

(٢) من قصيدة له في الغزل، وأولها قوله:

يَــقَــرُّ بِعَــيْـنِــي أَنْ أَرَى لَــكِ مَنْــزِلاً بِنَـعْـمَــانَ يَــزْكُــو تُــرْبُــهُ وَيَــطِيبُ

(٣) من كلمة له يعاقب فيها إسماعيل بن شهاب، وأولها قوله:

هَــلْ لِلنَّـــدَى عَـــدْلٌ فَيَغْـــدُو مُنْصِفـــاً مِـنْ قَبْـلِ إِسـمــاعِيلِهِ ابْنِ شِهَــابِــهْ

انظر الديوان (١ ـ ٧٢ مصر).

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الإخوان من أهل الكتابة كان اعتدى عليه شخص يدّعي الكتابة وليس من أهلها، فقلت: وقد نِيطَ بسيدنا قَلَمَا الْخَطِّ اللذان ينسب أحدهما إلى المداد وينسب الآخر إلى الصِّعَاد[1]، فهو يدير هذا في معركة المقال وهذا في معركة الطِّرَاد، ولربما صَهَلَ أحد قلميه من فوق صَفَحَات الدروج، كما تَصْهَل الجيادُ من تحت أعْوَاد السُّروج، فله احتفال المواطن والمجالس، وإليه غِنَاء أصحاب العمائم والْقَلاَنس، لا كمن لا يجاوز هَمُّه طرفي ردائه، وإذا نودي لفضيلة قيل: إنما يسمع الحيّ بندائه، وكم في الناس من صُوَر لا تجد لمعناها أثراً، وإذا رأيتها قلت أرى خَالاً ولا أرى مطراً، وأيُّ جمال عند من ليس له إلا جمال ثيابه، وهل يَنْفَعُ السيفَ الكَهَامَ أن تُجْعَلَ من الذهب حليةُ قِرابه، وكل من هؤلاء ذَنَبٌ يسعى بغير رأس، ولا له هَمٌّ إلا في عيشة الطاعم الكاس[2] وإذا اعتبر حاله وجد من البهائم وإن كان منسوباً إلى الناس، والسيادة ليست في وَشْي الثياب، ولا في طيب الطعام والشراب، وإنما هي في شيئين: إما شهامة قلم تَفْرَق لها قلوب الغمود، أو شهامة رمح تَفْرَق لها قلوب الأسود، وكأني بقوم يسمعون هـذا وكلهم يمتعض امتعاض الْمُغْضَب، وَتَتَابَع نفسه تتابع المتعب، ويعترض الشَّجَى في حلقه حتى يَغَصَّ من غير أن يشرب، ولم يزل بالحساد من سيدنا دَاءٌ يورثهم أرَقاً، ويوسعهم شَرَقاً، وكثيراً مَا تَعْرَق له جباههم وكذا الميت يَنْدَى جبينه عرقاً، وما أرى لهؤلاء دواء إلا أن يطرحوا عن مناكبهم ثقل المساجلة، والحسد إنما يكون ممن يجري مع صاحبه في مِضْمَار المماثلة، وكنت أحبُّ أن يقام على الكتابة

---

(١) الصعاد ـ بكسر الصاد ـ: جمع صعدة ـ بفتح فسكون ـ وهي القناة المستوية التي نبتت كذلك فهي لا تحتاج إلى تثقيف.

(٢) يشير إلى قول الحطيئة:

دَعِ الْـمَكَـارِمَ لاَ تَـرْحَـلْ لِبِغْـيَـتِـهَـا ... وَاقْعُـدْ فـإِنَّـكَ أَنْتَ الـطَّاعِمُ الْكَـاسِي

ويراد بالطاعم الكاسي الذي يؤتى له بالطعام والكسوة من غير أن يتجشم لهما؛ فهما بمعنى المطعوم المكسو، وهذا هو الذي حمل النحاة على أن قالوا: الطاعم الكاسي في هذا ونحوه بمعنى المنسوب إلى الطعام والكسوة.

محتسب حتى يتفلس منها خلق كثير، وتستريح جياد كثيرة من ركوب حمير، وفي مثل هذا السوق يظهر أهل الْخَلاَبة والنجش، وما منهم إلا مَنْ هو في الحضيض الأسفل وقد أجلس نفسه قائمة العرش، ونار الآلة العمرية تميز خالص النقود من زَيْفِهَا، ولا حيف في هذا المقام على من أسرفت دعواه الكاذبة في حَتْفها.

وبعض هذا الفصل مأخوذ من شعر عبد السلام بن رَغْبان عُرِف بدِيكِ الجن[1]:

يُـزْهَـى بِـهِ الْـقَـلَـمَـانِ إلاَّ أَنَّ ذَا لَـدْنُ الْمَجَسِّ وَأَنَّ ذَا بِكُعُـوبِ[2]
عُودَانِ: يَقْضُبُ ذَا الطُّلَى بِلُعَـابِهِ، وَيَجُـوبُ ذَا الْمَهَجَاتِ بِـالتَّـرْكِيبِ

ويكفيك أيها المتوشح لنثر الشعر أن تنظر إلى هذا الفصل، وتتأمل الموضع الذي أخذت معنى هذين البيتين ووضعته فيه؛ فإن فيه غناء وَمَقْنَعاً.

وأما حَلُّ آيات القرآن العزيز فليس كنثر المعاني الشعرية؛ لأن ألفاظه ينبغي أن يحافظ عليها، لمكان فصاحتها، إلا أنه لا ينبغي أن يؤخذ لفظ الآية بجملته؛ فإن ذلك من باب التضمين، وإنما يؤخذ بعضه، فإما أن يجعل أولاً لكلام أو آخراً، على حسب ما يقتضيه موضعه، وكذلك تفعل بالأخبار النبوية.

على أنه قد يؤخذ معنى الآية والخبر فيكسى لفظاً غير لفظه، وليس لذلك من الحسن ما للقسم الأول؛ للفائدة التي أشرنا إليها.

وقد سلكت في ذلك طريقاً اخْتَرَعْتُها، وكنت أبا ابن عُذْرَتها، وعند تأمل ما أوردته منها في هذا الكتاب يظهر للمتأمل صحة دعاويَّ، ولئن كان مَنْ تَقَدَّمني أتى بشيء من ذلك فإني ركبت فيه جواداً وركب جملاً، ونال من مورده نهلة واحدة ونلت منه نَهَلاً وَعَلَلاً، ومن آتاهُ الله في القرآن بصيرةً فإنه يسبك ألفاظه ومعانيه في كلامه، ويستغني به عن غيره، إلا أنه ينبغي أن يكون فيه صَوَّاغاً يخرج منه ضروب

---

(١) في ب، ج «عبد السلام بن رعبان» بالعين مهملة في اسم أبيه، وهو تصحيف، وانظر ابن خلكان.

(٢) في ج «لدن المجلس» وهو تصحيف شنيع، وورد في ب على وجه الصواب.

المصوغات، أو صَرَّافاً يَتَجَهْبَذُ في نقوده المختلفة من الذهب المختلف الألوان، ولا أقول من الفضة؛ فإنه ليس فيه من الفضة شيء، وهو أعلى من ذلك، أو يكون فيه تاجراً يديره على يده، ويتصرّف في أرباحه، ويخرج من الأمتعة المجلوبة من مناسجه كُلَّ غريبة عجيبة، وكل هذا يفهمه من عرف فلزم، وحكم بما علم.

وَمَا كُلُّ مَنْ قَالَ الْقَرِيضَ بِشَاعِرٍ وَلاَ كُلُّ مَنْ عَانَى الْهَوَى بِمُتَيَّمِ

واعلم أن المتصدِّيَ لحل معاني القرآن يحتاج إلى كثرة الدرس؛ فإنه كلما دِيمَ على درسه ظهر من معانيه ما لم يظهر من قبل، وهذا شيءٌ جَرَّبْتُه وخَبَرْتُه؛ فإني كنت آخذ سورة من السور وأتلوها، وكلما مر بي معنى أثبتُّه في ورقة مفردة، حتى أنتهي إلى آخرها؛ ثم آخذ في حل تلك المعاني التي أثبَتُّها واحداً بعد واحد، ولا أقنع بذلك حتى أعاود تلاوة تلك السورة، وأفعل مثل ما فعلته أولاً، وكلما صَقَلْتها التلاوة مَرَّةً بعد مرة، ظهر في كل مرة من المعاني ما لم يظهر لي في المرة التي قبلها.

وسأورد في هذا الموضع سورة من السور، ثم أردفها بآيات أخرى من سُور متفرقةٍ، حتى يتبين لك أيها المتعلم ما فعلته فتَحْذُوَ حَذْوَه، وقد بدأت بالسورة أولاً، وهي سورة يوسف عليه السلام؛ لأنها قصة مفردة برأسها، وفيها معان كثيرة:

فالأول: ما ذكرته في دعاء كتاب من الكتب، وهو: وَصَلَ كتابُ الحضرةِ السامية أحْسَنَ الله أثرها، وأعْلَى خَطَرَها، وَقضى من العلياء وَطَرَها، وأظهر على يدها آيات المكارم وسُوَرَها، وأسجد لها كواكبَ السيادة وشمسها وقمرها.

وهذا أول معنى في السورة، وقد نقلته عن قصة المنام إلى الدعاء.

ثم أبرزت هذا المعنى في صورة أخرى، وهو: أكْرَمُ النِّعَمِ ما كان فيها ذكرى للعابدين، وتقدمه **﴿إني رَأيتُ أحدَ عشرَ كَوْكباً والشمسَ والقمرَ رَأيتهمْ لي ساجدين﴾**، فهذه النعمة هي التي تأتي بتيسير العسير، وتجلو ظُلْمَةَ الْخَطْبِ بالصباح المنير؛ فانظر إلى أثَر رَحمة الله كيفَ يحيي الأرْض بعدَ مَوْتها، إنَّ ذلكَ لمحيي المَوْتى وهوَ على كلِّ شيء قدِير.

ثم تصرّفت في هذا المعنى فأخرجته في معرض آخر، وهو فصل من جملة تقليد يكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء، فقلت: وقد علمه أمير المؤمنين فأدنى مجلسه من سمائه، وآنسه على وحدة الانفراد بحفل نعمائه، وذلك مقام لا تستطيع الجُدُود أن ترقى إلى رتبته، ولا الآمال أن تطوف حول كعبته، ولا الشفاه أن تتشرف بتقبيل تربته، فليزد إعجاباً بما نالته مواطىء أقدامه، ولينظر إلى سجود الكواكب له في يقظته لا في منامه.

ومن ذلك ما ذكرته في ذم بخيل، وهو: لم أرَ كَمواهب فلان مَلأَتْ أَمَلِي بطمع وعودها، وفرغت يدي من نيل جودها، فلم أحظ إلا بلامع سرابها، وكانت كدم القميص في كذابها.

ومن ذلك ما ذكرته في تزكية إنسان مما رُمِيَ به، وهو: لم تُرْمَ بذنب إلا نابت البراءة له مناب الشهود، وجيء من أهلها بشهادة القميص المقدود.

ومن ذلك ما ذكرته في عذر الهوى، وهو: لم يَهْوَ حبيباً إلا كان لأهل التقى فيه أسوة، ولا ليم من أجله إلا اعتذر عذر امرأة العزيز إلى النسوة.

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من جواب كتاب إلى بعض الإخوان، وهو: إن كان الكلام كما قيل ذَكَراً والجواب أنثى فجوابي هذا عروس تجلى في حُلَلِها المحَبَّرَة، وعقودها المشذرة، وتُزهي بما آتاها الله من الحسن الذي ليس بالمجلوب، ولا ترضى بتقطيع الأيدي دون تقطيع القلوب، وها قد أرسلتها إلى سيدنا حتى يعلم أن نتائج خاطري على الفطرة، وأنها معشوقة الصور فكل الناس في هواها بنو عُذْرَة.

وفي هذا الفصل معنى الآية والخبر النبوي والبيت من الشعر.

ومن ذلك ما ذكرت في تقلب الأيام، وهو: لقينا أياماً ضاحكات، وليتها أيام عابسات، فكانت كَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ.

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كريم، وهو: ليس ممن يرقب عَجَفَ الزمان

فَيَذَر الحب في سُنْبُله، ولكنه يستأنف الصبر في آخره ويستهلك المال في أوله، فلا يبقي من يومه لغده، ولا يَتّهِمُ ربه فيما بِيَدِهِ.

ومن ذلك ما ذكرته في حب الرشوة، وهو: الرِّشْوَة تحلّ عُقَدَ القلوب، وتهوّن فراق المحبوب، ألا ترى أن ردّ البضاعة، حكم على أخي يوسف بالإضاعة.

ومن ذلك ما ذكرته في الاستسلام لحكم الأقدار، وهو: لا تحترس من جنود الأقدار بالآراء المتعمقة، وسواء عندها البابُ الواحدُ والأبواب المتفرقة.

ومن ذلك ما ذكرته في تتابع الإساءة، وهو: لم يزل يَرْشُقُنِي بقَوارصه حتى تكاثر النَّبْل واستحكم التَّبْل، ولم يكفه الإلقاء في غَيَابة الجبّ حتى قال: إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ.

ومن ذلك ما ذكرته في التوكل، وهو: إذا طلب أمراً أجمل في المطلوب، ووكَلَه إلى الذي بيده مفاتيح الغيوب، وتأسى في حاجته منه بالحاجة التي كانت في نفس يعقوب.

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الكيد، وهو: لم يَأْتِ أمراً إلا أخفى أسباب أوَاخيه، وبدأ فيه بالأوعية قبل وِعاء أخيه.

وهذه ثلاثة عشر معنى من سورة يوسف عليه السلام.

وأما الآيات التي هي من سور متفرقة فأولها ما كتبته في صدر كتاب إلى بعض الإخوان جواباً عن كتابه، وهو: وَرَدَ كِتَابُهُ عشيةَ يوم كذا فَعُرِض علي عَرْضَ الجياد على سليمان، وتساوينا في الاشتغال منه ومنها بالاستحسان، غير أن الجياد وإن حسنت فإنها لا تبلغ في الحسن مبلغ الكتاب، لكن قلت كما قال إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبي حتّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ، ولئن قضي الاشتغال هناك بمسح سُوقٍ وأعناق، فإنه لم يقض هٰهنا بمسح سطور ولا أوراق، وإنما اشتغلت عن عبادة بعبادة، ولو شئت لقلت عن إفادة بإفادة.

وهذا مأخوذ من قصة سليمان عليه السلام في سورة صٓ، وهي قوله تعالى:
﴿وَوَهَبْنا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ۝إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيادُ۝

فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ.رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾، فانظر كيف أخذت هذه القصة وقابلت بينها وبين الكتاب، ثم إني تصرفت فيها بالموافقة بينهما تارة والمخالفة بينهما أخرى، وهكذا ينبغي أن يفعل فيما هذا سبيله.

ومن ذلك ما كتبته عن الملك الأفضل علي بن يوسف إلى الديوان العزيز النبوي ببغداد في فصل من كتاب، وهو: وقد علم أن المال الذي يُخْتزَن، كالماء الذي يُحْتَقَن، فكما أن هذا يَأْجِن بتعطيل الأيدي عن امتياح مشاربه، فكذلك يأْجُنُ هذا بتعطيل الأيدي عن امتياح مواهبه، وأيُّ فرقٍ بين وجوده وعدمه لولا أن تُمْلَكَ به القلوب، وتقلَّ به الخطوب، ويُرْكَبَ به ظهرُ العزم الذي ليس برَكُوب، ومَنْ بَسَطَ الله يده فيه ثم قبضها بحله فإنه يقف دون الرجال مغموراً، ويقعد عن نيل المعالي مَلُوماً مَحْسُوراً، وإذا أدركته منية مضى وكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً، ومذ ناط الله بيد الخادم ما ناطه من أمر بلاده لم يدخر منها إلا مَرْبِط أشقره، ومركز أسمره، وما عداهما فإنه مصروف إلى قوة الإسلام في سد ثُغُوره وتكثير جنوده، وإيقاد حرب عدوه بعد خمودها واستباحة جمرها عند وقوده، وما يَفْضُل عن ذلك فإنه للناس يشتركون في وَشَله وغَمْرِه، والمُسْلم أخو المسلم يساويه في حقه من بيت المال وإن خَالَفَهُ في مزية قَدْرِه، ولا سبيل على الخادم وهو يفعل ما يفعله أن يُدلس من هذا المال بتبعة المطلوب، أو يلتحق بالقوم الذين يكنزونه فيجزي عليه بكيِّ الجباه والظهور والجنوب، ولم يأتِ به الله على فَتْرَة من مثله إلا ليمحو به سيئات الدين ويعيد به الإسلام إلى وطنه بعد أن طال عهده بمفارقة الوطن، ولا يكون حسنة من حسنات أمير المؤمنين، ترقمها الدنيا في ديوانه، وتثقل بها في الآخرة كِفَّة ميزانه.

وفي هذا الفصل معنى آيتين: إحداهما: في سورة هل أتى، والأخرى: في سورة براءة.

ومن ذلك ما كتبته عنه إلىّ عمه الملك العادل أبي بكر بن أيوب من كتاب يتضمن استعطافه والتنصُّل إليه، وهو من شيمة الأقدار أن تذهب ببصائر ذوي الألباب، ويمثل لهم الخطأ في مثال الصواب، ولولا ذلك لَمَا زَلَّ الحكيم واعْوَجَّ

المستقيم، والمملوك يُقَبِّلُ اليد الكريمة المولوية الملكية العادلية لا زال عُرْفُها مأمولاً، وَإحسانها عند الله مقبولاً، وفعلها في المكرمات مبتدعاً إذا كان فِعْل الأيادي مفعولاً، ونستغيث إلى عفوها الذي يكفي فيه لفظة الاعتذار، ولا يَنْفَدُ بمواظبة الآصار، ولو عرف ذنبه بادياً لَقَرَعَ له سن الندامة، وعاد على نفسه بالملامة. ولما كان عجيباً أن يكون مُليماً، وأن يكون مولانا كريماً، لكنه حمل آصرة الذنب وهو بريء من حملها، وخاف أن تكون هذه كأخواتها التي سلفت من قبلها، والأمور المتشابهة يُقَاس البعض منها على البعض، والملسوع لا يستطيع أن يرى مَجَرّ حَبْلٍ على الأرض، ولم يجترم المملوك الآن جريمةً سوى أن فر إلى الاعتصام، وألقى بيده إلى أقوام لم يكونوا له بأقوام، وإذا ضاق على المرء أقربه كان الأبعد له من ذوي الأرحام.

وليس بأوّل مَنْ ذهب هذا المذهب، ولا بأول من حمل نفسه على ركوب هذا المركب، ولئِن قال بعض الناس إنه عَجَّل في اعتصامه وفراره، وإنه لو صبر ابْتُلِيَ بما ابتلي به من قوارص مولانا مرة بعد أخرى، ولقد تكاثرت عليه هذه الأقوال المؤنبة حتى ملأت طرفه كحل السُّهَاد، وجنبه شَوْكَ الْقَتَاد، وأصبح وهو يرى أنه زلق في خطيئته زلقاً، وغص بندمه من أجلها شَرَقاً، وبدت له سوأته حتى طفق يخصف عليها ورقاً، ومع هذا فإنه واثق أن حِلْمَ مولانا لا يؤتى من الزلل، وأن حَصَاة الذنوب لا تخف بوزن ذلك الجبل، وها هو قد جاء نازعاً وللنازع الْعُتْبَى، وعاد مستشفعاً ولا شفيع أكرم من القربى.

ثم مضيت على هذا النهج إلى آخر الكتاب.

وفي الذي أوردته من هذا الفصل معنى آية من القرآن في سورة الأعراف، وهي قوله تعالى: **﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾**.

ومن ذلك ما كتبته عن الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان بن مسعود صاحب الموصل إلى الديوان العزيز ببغداد بعد وفاة والده يسأل في التقليد، وكان عمره إذ ذاك ستَّ عَشْرَةَ سَنَةً؛ فمما جاء في صدر الكتاب بعد الدعاء قولي، وهو: إذَا تُوفِّيَ وليٌّ من أولياء الدولة فمن السُّنَّة أن يعزى بفقده، ويستخرج إذنها في سليله

القائم من بعده، حتى لا تخلو أرضها من رواسي الجبال، ولا سماؤها من مطالع الكواكب التي تجلو ظلمة الليال، وقد مضى والد العبد إلى رحمة الله وهو متزود من الطاعة خير زاد، غير خائف من إحصاء الرقيب العتيد إذ جعلها له من الْعَتَاد، وما عليه وقد ثَقُلَتْ كِفَّة ميزانه ما كان في الكفة الأخرى من السجلات الكثيرة الأعداد، ومضمون وصيته التي عهدتها أن نمشي في الطاعة على أثَرِه، ونهتدي بالأوامر الشريفة في مَوْرِد الأمر ومصْدَره، وقد جعلها العبد نَجِيَّ فكره إذا قام وإذا قعد، وسُبْحَة صلاته إذا ركع وإذا سجد، وهو يرى أنه لم يَمْضِ والده حتى أبقى للدولة من يثبت قدمه موضع قَدَمِه، وعند ذلك يقال: إن غُصْنَ الشجرة كالشجرة في ثبات أصله وقوة مَعْجَمِه، وهذا مقام لا تمتاز فيه الآباء عن الأبناء، وليست المزية لاكْتِهَالِ السن إنما هي لشبيبة الغناء، وقد أُوتي يَحْيَى الحكم قبل أن يجري القلم في كتابه، وشهد له بالتزكية قبل أن ينتصب في مِحْرَابه، وكذلك قد أمَّر رسول الله ﷺ أُسَامة على فَتَاء عُمْرِه، وشهد أنه خليق بما أَسْنَدَ إليه من أمره، والعبد وإن بسط الاستحقاقُ لسانَه فإن الأدب يَحْكم بانقباضه، ويريه أن التفويض إلى إنعام الديوان العزيز أسرع في نُجْح أغراضه، ولا شك أن منتهى الآمال لا يبلغ أدنى تلك المواهب، ولو جمعت في صعيدٍ واحد ثم سألت مطالبها لما نقصت خزائن العطايا من تلك المطالب.

وهذا الفصل من أول الكتاب، وفيه معنى آيتين من سورة مريم عليها السلام: أما الأول: فقوله تعالى عند ذكر يحيى عليه السلام: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ وأما الثانية: فقوله تعالى: ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وكَانَ تَقِيًّا﴾ وفي هذا الفصل أيضاً معاني ثلاثة من الأخبار النبوية، وليس هذا موضعها، وإنما جاءت ضمناً وتبعاً.

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الغبار في الحرب، وهو: وَعَقَدَ العجاج شفقاً فانعقد، وأرانا كيف رَفْعُ السماء بغير عَمَد، غير أنها سماء بُنِيَتْ بسنابك الجياد، وزُيِّنَتْ بنجوم الصِّعاد، ففيها مما يوعد من المنايا لا ما يوعد من الأرزاق، ومنها تقذف شياطين الحرب لا شياطين الاستراق.

وهذه المعاني مأخوذة من سورة الرعد، وسورة الصافات، وسورة الذاريات.

ومن ذلك ما ذكرته في وصف طعام، وهو فصل من كتاب، فقلت: طعام لا يُمَلّ إذا شينت الأطعمة بمللها، وكأنما تَوَلَّته يد الخلقة ولم تباشره الأيدي بعملها، فهو من بقايا المائدة التي نزلت من السماء، وقد طاب حتى لا يُحْتَاج من بعده إلى استعمال الماء، وما رآه ذو شِبَعٍ إلا رأى تَرْكَه غَبْناً، وودّ لو زيد إلى بطنه بطناً.

وبعض هذا مأخوذ من سورة المائدة.

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة، وهو: قد تكاثرت وَسَائل الخادم حتى لا يدري ما يجعله لطلابه سفيراً، وما منها إلا ما يقال: إنه أول وليس فيها ما يجعل أخيراً، غير أنه لا يذكر منها إلا ما هو تَوْأم إيمانه، والذي لا ينظر الله من ابن آدم إلا إلى مكانه، وفي ذلك كاف عن الوسائل التليدة والطريفة، وقول لا إله إلاّ الله لا يعدله شيء من الحسنات المودعة في الصحيفة، وقد تجدَّد الآن للخادم مطلب هو بالنسبة إلى مواهب الديوان العزيز يسير، ولو قامت مَطَالبُ الناس في صعيد واحد لأعطي كلاً منها مَرَامه ولم يقل ذلك كثير، وكتابه هذا سائر إلى تلك المواهب التي يضيق عنها صدر الأرض باتساعه، وليس الذي يسأله مُمَنَّعاً فَيُحَال على النظر إلى الجبل في امتناعه، وكما أن عبيد الديوان العزيز أطوار فكذلك مطالبهم أطوار، وقد جعل الله الأشياء متفاوتةً في مراتبها وكلُّ شيء عنده بمقدار.

وهذا الفصل من أحسن ما يكتب في استنجاز مطلوب، وفيه معاني ثلاثة: أخبار نبوية، ومعنى آيتين من القرآن الكريم، وليس هذا موضع الأخبار، وإنما جاء ضمناً وتبعاً؛ فالآية الأولى في سورة الأعراف، والآية الثانية في سورة الرعد.

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كاتب، وهو: إذا دَجَا ليلُ قلمه، وطَلَعَتْ فيه نجوم كَلِمِه، لم يقعد له شيطان بلاغة مَقْعَداً، إلا وَجَدَ له شهاباً مُرْصَداً، فأسرارها مَصُونة عن كل خاطف، مَطْوِيَّة عن كل قَائف.

وهذا المعنى مأخوذ من سورة الجن.

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كاتب أيضاً، فقلت: له بنت فِكْرٍ ما تَمَخَّضَتْ

بمعنى إلا أنتجته من غير ما تهمله، وأتت به قومها تَحْمِله، ولم يعرض على مَلأٍ من البلغاء إلا أَلْقَوْا أقلامهم أَيُّهم يَسْتعيره لا أيهم يَكْفُله.

وفي هـذين السطرين آيتـان من القرآن الكـريم: الأولى في سورة مـريم، وقصتها وقصة ولدها عليهما السلام، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ والثانية في سورة آل عمران في قوله: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن وصف القلم، فقلت: وقد أوحى الله تعالى إلى قلمه ما أوحاه إلى النحل، غير أنها تأوي إلى المكان الْوَعْر وهو يأوي إلى البيان السَّهْل، ومن شأنه أن يجتني من ثمراتٍ ذاتِ أرواح لا ذات أكمام، ويَخْرُجَ من نَفَثَاته شرابٌ مختلفٌ طعمه فيه شفاء للأفهام، وأين ما تنبته كثافة الخشب مما تنبته لطافة المعنى، ولا تَسْتَوِي نَضَارة هذا الثمر وهذا الثمر ولا طيب هذا المجنى وهذا المجنى، وقد أرخص الله ما يكثر وجوده فيـذهب في لهوات الأفواه، وأغلى ما يعز وجوده فيبقى خالداً على ألسنة الرّواه، وكل هذه الأوصاف لا تصح إلا في قلم سيدنا الذي إذا خلا بخاطره امتلأت بحديثه المحافل، وإذا حلا كتابُهُ وُجِدَت الكتب الحالية من قبله وهي عَوَاطل، فله حينئذ أن ينظر إلى غيره بعين الاحتقار، ولواصفه أن يسهب وهو قائم مقام الاختصار.

هذا الفصل غريب عجيب، وقد جمع بين الأضداد، فمناله بعيـد، وفهمه قريب، وهو مأخوذ من سورة النحل.

ومن ذلك ما ذكرته في ذم بخيل، وهو: له شِيمَةٌ في الجود لا يُشَام نائلها، وإذا هَزَّها سائلها قال: إنها كلمة هو قائلها.

وهذا مأخوذ من سورة المؤمنين.

ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب، وهو: وَصَلَ كتابه فوقف منه على اللفظ الرخيم، والمعنى الذي هو في كل وادٍ يَهيم، وقال: يا أَيُّها المَلأُ إنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ، ثم أخذ في إعلاء قدره، وتَنْويه ذكره، ولم يستفت الملأ في الإذعان لأمره، ولا أهدى في قبالته سوى هدية لسانه وصدره، لا جَرَم أنها تقبل ولا ترد،

ويعتد بها ولا تعدّ، فإنها مال لا يُنْفِده الإنفاق، وجوهر تتحلَّى به الأخلاق لا الأعناق.

وهذا مأخوذ من قصة سليمان عليه السلام في كتابه إلى بَلْقِيسّ، وهي مذكورة في سورة النمل، وفي هذا من شرف الصنعة أنه خولف بين معانيه ومعاني ما أتى به القرآن الكريم.

ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب يتضمن ذكر معركة حرب بين المسلمين والكفار، وهو: إذا خطب القلم عن الرمح الذي هو نَدِيدُه قام محتفلاً، وأُسْهَبَ مُتَرَوِّياً ومرتجلاً، حتى يأتي في خطابته بالمعاني الأخائِر، وأصدق القول ما صدر عن شهادة الضرائر للضرائِر، وكتابنا هذا يصف معركةً احْمَرَّت ضبابتها، وضاقت بالأسود غابتها، فالطعن بها محتضر، والموت محتقر، والنصر من كلا الفريقين مقتسر، وكان الإسلام هناك زجر السنيح، وفوز القِدْح المَنِيح، وليس الذي يرقب المعونة من الله الذي هو رب المسيح كمن يرقبها من المسيح، ولقد نفذت الرماح في أعداء الله تعالى حتى اعتدلت من جانبي الصدور والظهور، وتركت الناجي منهم وهو لا ينظر إلى الصليب إلا نَظَر الخائف المذعور، فليس لهم من بعدها جيش يجمع، ولا لواء يرفع، وقد كانت بلادهم من قبل مانعة وهي الآن لا تذب عنها ولا تمنع، وهذه معركة قَلّت بها الرقاب المأسورة، وكثرت النفوس المقتولة، وقربت بها القرابين التي تأكلها النار لا لأنها مقبولة.

ومعنى الآية في هذا الفصل مأخوذ من سورة آل عمران، إلا أنها تخالفه، وذاك أن القُرْبان كان يقبل فتنزل النار تأكله وأجساد هؤلاء الكفار قربان تأكله النار لكنها لا تأكله لأنه مقبول، وباقي الفصل يتضمن معنى حسناً رقيقاً.

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن الشكوى من خُلُق بعض الإخوان، وهو: وَلَقَدْ صبرت على أخلاقه العائثة، وعاملته بالخليقة الرائثة، وعالجته بضروب المعالجات فلم تنفع فيه رُقى الراقية ولا نَفْثُ النافثة، ولما أعيا عليَّ إصلاحه أخذت بمقالة الخضر لموسى في المرة الثالثة.

وهذا مأخوذ من قصة موسى عليه السلام وقصة الخضر في سورة الكهف.

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب، وهو: تجمعوا في نار الندم يُعْرَضُون عَليها غُدُوًّا وَعَشِيًّا، وصار الأمر الذي كانوا يرجونه مَخْشِيًّا، وَأَضْحَوْا كأهل النار الذين صاروا أعداء وكانوا شيعاً، وقال ضعفاؤهم للذين استكبروا: إنّا كنا لكم تَبَعاً.

وهذا مأخوذ من سورة حم المؤمن، ومن سورة سبأ.

ومن ذلك ما ذكرته في ذم غلام أَبْلَه كنت أقاسي من بَلَهه نَكَداً فكتبت يوماً من الأيام إلى بعض إخواني كتاباً وعرضت فيه بذكره، فقلت: ولقد ملكه النسيان حتى كأنه يَقِظٌ في صورة نائم، وحتى حَقَّق قول التناسخ في نقل أرواح الأناسيِّ إلى البهائم، فما أُرْسل في حاجة إلا ذهبت عن قلبه يَمْنَةً وَيَسْرَة، ولا طلب منه ما استحفظه إلا قال: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ.

وهذا فصل يشتمل على عدة معان؛ منها ما هو مأخوذ من القرآن الكريم من سورة الكهف.

ومن ذلك ما ذكرته في تقليد قاض، وهو فصل منه، فقلت: والفضائلُ ما بَقِيتَ موجودةٌ ولم تفقد، وهي حية وإن أَوْدَى أربابها، ولا يموت من لم يولد، ومِنْ أكرم ما أُوتِيه منها فضيلةُ التقوى التي الكرم من شعارها، والعاقبة والحسنى كلاهما من آثارها، وما نقول إلا أنه اتخذها حارساً يمنع الخصم من تَسَوُّر محرابه، ويؤمن قلبه من الفتنة الداعية إلى استغفاره ومَتَابه، وقد قَرَن الله له هذه الفضيلة بالعلم الذي أعلمه بعلامته، وَوَسَمه بوسامته، وقذف في روعه ما لا يسأل معه عن السفينة وخرقها والغلام وقتله والجدار وإقامته، وعلى ما بلغه منه فإنه فيه أحد المَنْهُومَيْن اللَّذين لا يشبعان، وإذا كان لغيره فيه نظر واحد ومَسْمَع فله فيه نظران ومَسْمَعان.

وفي هذا الفصل المختصر معاني عدة آيات، وخبر من الأخبار النبوية؛ أما الآية الأولى: فقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وأما الآية الثانية: فقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ وأما الثالثة: فقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ وأما الآية الرابعة: فقوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ وكذلك إلى آخر القصة، وهذا من أحسن ما يأتي في هذا الباب.

ومن ذلك ما ذكرته في جملة كتاب يتضمن عناية ببعض الفقراء، فقلت بعد الابتداء بصدر الكتاب: وقد علم منه أنه يعد لطالب فضله فضلاً، ويرى التبرّع بمعروفه فرضاً إذا رآه غيره مع المُسَاءَلة نفلاً، وما ذاك إلا لمزية خلق توجد بطيب التربة، وشرف الرتبة، وأوتي من كنوز الكرم مَا إنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ، ولهذا خرج على قومه من الأخلاق في زينته، وفَضَلَ الخلْقَ بطينة غير طينته، ومن فضله أنه يسأل عن السائلين، ويحتال في استنباط أمل الآملين.

ثم مضيت على هذا النهج حتى أنهيت الكتاب.

والغرضُ أن تعلم أيها المتعلم كيف تَضَعُ يدك في أخذ ما تأخذه من بعض الآية، ثم تضيف إليه كلاماً من عندك، وتجعله مسجوعاً كما قد فعلت أنا في هذا الموضع، ألا ترى أني أخذت بعض هذه الآية في قصة من سورة الْقَصَص، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ فهذه الآية أخذت بعضها وأضفت إليه كلاماً من عندي حتى جاء كما تراه مسجوعاً، وكذلك فعلت بالآية الأخرى من هذه السورة أيضاً، وهي قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوْتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظ عَظِيمٍ﴾ وهكذا ينبغي لك إذا أردت أن تسلك هذه الطريق، وَقَدرت على سلوكها، وهي من محاسن الصناعة البلاغية، وليس فوقها من الكلام ما هو أعلى درجة منها؛ لأنها ممزوجة بالقرآن لا على وجه التضمين بل على وجه الانتظام به، والله يختص بها من يشاء من عباده.

وفيما ذكرته من نثر هذه الآيات كفاية للمتعلم.

وأما الأخبار النبوية فكالقرآن العزيز في حل معانيها.

فإن قلت: إن الأخبار النبوية لا يجري فيها الأمر مَجْرَى القرآن؛ إذ القرآن له حاصِرٌ وضابط، وكل آياته تدخل في الاستعمال، كما قال بعضهم: لَوْ ضَاعَ مني عِقَال لوجدته في القرآن الكريم، وأما الأخبار فليست كذلك؛ لأنها كثيرة لا

تنحصر، ولو انحصرت لكان منها ما يدخل في الاستعمال ومنها ما لا يدخل، ولا بد من بيان يمكن الإحاطة به، والوقوف عنده.

قلت في الجواب عن هذا: إنك أول ما تحفظه من الأخبار هو كتاب الشهاب؛ فإنه كتاب مختصر، وجميعُ ما فيه يستعمل؛ لأنه يتضمن حكماً وآداباً؛ فإذا حفظته وتَدَرَّبْتَ باستعماله كما أَرَيْتُكَ ههنا حصل عندك قوة على التصرف والمعرفة بما يدخل في الاستعمال وما لا يدخله، وعند ذلك تتصفح كتاب صحيح البخاري ومسلم والموطأ والترمذي وسنن أبي داود وسنن النسائي وغيرها من كتب الحديث، وتأخذ ما يُحْتَاج إليه، وَأَهْلُ مكة أَخْبَر بشعابها، والذي تأخذه إن أمكنك حِفْظه والدرس عليه فهو المراد؛ لأن ما لا تحفظه فلست منه على ثقة، وإن كان لك محفوظات كثيرة كالقرآن الكريم ودواوين كثيرة من الشعر وما ورد من الأمثال السائرة وغير ذلك مما أشرنا إليه فعليك بمداومة المطالعة للأخبار والإكثار من استعمالها في كلامك حتّى تُرْقَم على خاطرك، فتكون إذا احتجت منها إلى شيء وجدته، وسَهُل عليك أن تأتي به ارتجالاً، فتأمَّلْ ما أوردته عليك وآعْمَلْ به.

وكنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر كلها تدخل في الاستعمال، وما زلت أواظب [على] مطالعته مدة تزيد على عشر سنين فكنت أُنْهِي مطالعته في كل أسبوع مرة، حتى دار على ناظري وخاطري ما يزيد على خمسمائة مرة، وصار محفوظاً لا يشذ عني منه شيء، وهذا الذي أوردته ههنا في حل معاني الأخبار هو من هناك.

وسأذكر ما دار بيني وبين بعض علماء الأدب في هذا الأسلوب الذي أنا بصَدَدِه ههنا، وذاك أنه اسْتَوْعَرَه وأنكره، وقال: هذا لا يتهيأ إلا في الشيء اليسير من الأخبار النبوية، فقلت: لا، بل يتهيأ في الأكثر منها؛ فقال: قد ورد عن النبي ﷺ أنه اختصم إليه في جَنِين فَقَضَى على من أسقطه بغُرَّةٍ عَبْدٍ أو أَمَةٍ، فأين يُسْتَعْمَل هذا؟ فأفكرت فيما ذكره، ثم أنشأت هذا الفصل من الكلام، وأودعته فيه: قد كثر الجهل حتى لا يقال فلان عالم وفلان جاهل، وضرب المثل بباقل وكم في هذه الصورة الممثلة من باقل، ولو عرف كل إنسان قَدْرَه لما مشى بدن إلا تحت رأسه ولا انتصب رأس إلا على بَدَنه، ولكان صاحب العمامة [أَحَقَّ] بعمامته وصاحب

الرَّسَن أحقَّ برَسَنِه، وكنت سمعت بكاتب من الكتاب كَلِمُه إلى غَثَاثة، وقَلَمُه بَغَاثة لا يَسْتَنْسِرُ[1] وَأيُّ بطش لبَغاثة، وإذا وجب الوضوء على غيره بالخارج من السبيلين وجب عليه من سُبُل ثلاثة، هذا وهو يدَّعي أنه في الفصاحة أُمَّة وَحْدَه[2]، ومَنْ قُسُّ إيادٍ وَسَحْبَانُ وائل عنده؟ وإذا كُشِف عنِ خاطره وُجد بليداً لا يخرج عن العمه والكمه، وإن رام أن يستنتجه في حين من الأحيان قضى عليه بغرةٍ عبدٍ أو أَمَهْ، وكثيراً ما يتقدم ونقيصته هذه على الأفاضل من العلماء، وقد صار الناس إلى زمان يعلو فيه حضيضُ الأرض على هام السماء.

فلما أوردته عليه ظهرت أمارة الحسد على صفحات وجهه وفَلَتَاتِ لسانه، مع إعجابه به، واستغرابه إياه، ثم قال: وقد ورد عن النبي ﷺ هذا الحديث، وهو: «لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتاً فِيهِ صُورَةٌ وَلا تِمْثَال» فهذا أين يستعمل من المكاتبات؟.

فتَرَوَّيْتُ في قوله ترَوِّياً يسيراً، ثم قلت: هذا يستعمل في كتاب إلى ديوان الخلافة، وأمليت عليه الكتاب، فجاء هذا الحديث في فصل منه، وهو: إذا أفاض الخادمُ في وصف ولائه نَكَصَتْ هممُ الأولياء عن مقامه، وعلموا أنه أخذ الأمر بزمامه، فقد أصبحَ وليس بقلبه سوء الولاء والإيمان؛ فهذا يظهر أثره في طاعة السر وهذا في طاعة الإعلان، وما عداهما فإن دخوله إلى قلبه من الأشياء المحظورة، والملائكة لا تدخل بيتاً فيه تمثالٍ ولا صورة، فليعول الديوان العزيز على سَيْفٍ من سيوف الله يَفْرِي بلا ضارب ويسري بلا حامل، ولا يُسَلُّ إلا بيد حق ولا يغمد إلا في ظهر باطل، وليعلم أنه كَرِشُه وعَيْبَته في تضمن الأسرار، وأنه أحد سَعْدَيه إذا عدت مواقف الأنصار.

---

(١) يشير إلى المثل «إنَّ الْبِغَاث بأرْضِنَا تَسْتَنْسِرُ» والبغاث ـ بتثليث الباء ـ من أجبن الطير وفيه يقول الشاعر:

بُغَاثُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاخاً وَأمُّ الصَّقْرِ مِقْلاَةٌ نَزُورُ

(٢) في ج «أمة واحدة» وهو تحريف صيره غير ملائم للقرينة الثانية في السجعة، وقد جاء في ب على الصواب الذي أثبتناه.

فلما رأى هذا الفصل بُهِتَ له، وأعجب منه، ثم إني لم أقنع بإيراد ذلك الحديث حتى قرنت به حديثاً آخر، وهو قول النبي ﷺ: «الأَنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي».

وحيث عرفتك أيها المتعلم ما تقتدي به في هذا الموضع فقد ذكرت لك أمثلة كثيرة تتدرب بها.

فمن ذلك ما ذكرته في دعاء كتاب من الكتب، وهو: أعاذ الله أيامه من الغِيَر، وبَيَّنَ بِخَطَر مجده نقصَ كل خَطَر، وجعل ذكره زاداً لكل ركب وأنساً لكل سمر، ومنحه من فضله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وهذا المعنى مأخوذ من الحديث في وصف نعيم الجنة فنقلته إلى الدعاء.

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الحلم، وهو: تركته حتى جال في المَيْدَان، وامتد في الأَشْطَان، ولم أنتصر خَوْفاً من قيام الملك وقعود الشيطان، والحليم لا يظهر أثر حلمه إلا عند تَلَدُّده، والكظيم هو أشد ما يخاف من تبدده.

وهذا المعنى أخذته من قصة أبي بكر رضي الله عنه في خصامه، فإنه بغي عليه ثلاث مرات وهو ساكت، ففي الثالثة انتصر، فقال النبي ﷺ: «كَانَ المَلَكُ جَالِساً إلى جانِبِ أَبِي بَكْرٍ يُكْذِبُ خَصْمَهُ بِمَا يَقُولُ فَلَمَا انْتَصَرَ قَـامَ المَلَكُ وَقَعَدَ الشَّيْطَانُ».

ومن ذلك ما ذكرته في النصرة على العدو في موطن القتال، وهو: أخذنا بسُنَّة رسول الله ﷺ في النصر الذي نرجوه، ونبذنا في وجه العدو كَفًّا من التراب وقلنا: شَاهَت الْوُجُوه، فَثَبَّتَ الله ما تَزَلْزَلَ من أقدامنا، وأَقْدَمَ حَيْزُومُ فأغنى عن إقدامنا.

وهـذان المعنيـان أحـدهمـا: مـأخـوذ من حـديث غـزوة حُنَيْن، ومـا فعله رسول الله ﷺ في أخذ قبضة من التراب وألقاها في وجوه الكفار وقوله: «شَاهَتِ الْـوُجُوه»؛ والمعنى الآخـر: مأخـوذ من حديث غـزوة بـدر، وذاك أن رجـلاً من المسلمين لاقى رجلاً من الكفار وأراد أن يضربه فخر على الأرض ميتاً قبل أن يَصِل إليه، وسمع الرجل المسلم صوتاً من فوقه، وهو يقول: «أَقْدِم حَيْزُومُ» فجاء إلى النبي ﷺ وأخبره، فقال: «ذَاكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاء الثَّالِثَةِ».

ومن ذلك ما ذكرته في ضيق مجال الحرب، وهو: وَضَاقَ الضربُ بين الفريقين حتى اتصلت مواقع البيض الذكور، وتصافحت الفور بالفور والصدور بالصدور، واستظل حينئذ بالسيوف لاشتباك مجالها، وتُبُوِّئَتْ مقاعدُ الجنة التي هي تحت ظلالها.

وهو مأخوذ من الحديث النبوي، وهو قول النبيّ ﷺ: «الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ».

ومن ذلك ما ذكرته في جملة كتاب أَذُمُّ فيه الزمان؛ فقلت: ولكنها الأيام تُبْدِي لنا من جَوْهَرها كل غريبة، وتَسُوسُنا سياسة العبد المجدَّعِ الذي كأَنَّ رأسَه زَبِيبة، وليس للمرء فيما يلقاه من أحداثها نعمى كانت أو بوسى، إلا أن يَكِل الأُمور إلى وليها فيقول: حاجَّ آدمُ مُوسَى.

وهذا مأخوذ من الخبر النبوي في قوله ﷺ: «حاجَّ آدَمُ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنْتَ أَخْرَجْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ مِنَ الْجَنَّةِ وَأَشْقَيْتَهُمْ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ ٱللَّه تَعَالَى بِرِسَالَتِهِ وَكَلَامِهِ؟ أَتَلُومُنِي عَلَى أَمرٍ كَتَبَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟» قال رسول الله ﷺ: «فحجَّ آدَمُ مُوسَى».

ومن ذلك ما ذكرته في وصف بعض الكتاب؛ وهو فصل من كتاب كتبته إليه؛ فقلت: ولقد سَرَدْت عليه أحاديث البلاغة فاستغنى عن بسط ردائه، وهُدِي إلى جوامع كلها فاقتدى الناس باهتدائه، فإذا اشتبهت عنده مسالك طرقها لم يملكه سلطان الحيرة، وإن أغرب في أساليبها لم يُقَلْ فيه ما قيل في رواية أبي هريرة.

وهذا الفصل من أحسن ما يؤتى به في صناعة نثر المعاني، وهو مأخوذ من حديث أبي هريرة؛ قال: قلت: يا رسول الله، أسمع منك أشياء فلا أحفظها، فقال: «ابْسُطْ رِدَاءَكَ» فَبَسَطْتُهُ فحدَّث حَدِيثاً كثيراً فما نسيت شيئاً حدثني به؛ وأما رواية أبي هريرة فشكَّ فيها قوم لكثرتها.

وقد اجتمع في هذا الفصل معنى الحديث النبوي وغيره، ومثل هذا لا يتفطن

له عند الوقوف إلا من تَبَحَّر في الوقوف على الأخبار النبوية؛ ومن أجل ذلك جعلته ركناً من أركان الكتاب في الفصل التاسع.

ومن ذلك ما ذكرته في ذم بعض البلاد الوخمة، فقلت: وَمِنْ صفاتها أنها مدرة مستوبلة الطينة، مجموع لها بين حَرِّ مكة ولأوَاء المدينة، إلا أنهـا لم يأمن حرمها في الخطفة، ولا نقلت حُمَّاها إلى الجُحْفَة.

في هذه الكلمات القصار آية من القرآن الكريم، وخبران من الأخبار النبوية؛ فالآية من سورة العنكبوت، وهي قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ وهذا موضع يختص بالأخبار لا بالآيات، غير أن الآية جاءت ضمناً وتبعاً، وأما الخبران فالأول منهما قول النبي ﷺ: «مَنْ صَبَرَ عَلَى حَرِّ مَكَّةَ وَلأَوَاءِ المَدِينَةِ ضَمِنْتُ لَهُ عَلَى ٱللَّهِ الجنَّة» وأما الثاني فقوله ﷺ في دعائـه للمدينة: «اللَّهُمَّ حَبِّبْها إلَيْنَا كَمَا حَبَّبْتَ إلَيْنَا مَكَةَ وَانْقُلْ حُمَّاها إلَى الجُحْفَة».

فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكلمات حتى تعلم أن عدتها مصوغة من الآية والخبرين سواء بسواء، وهذا طريق لو ادَّعَيْتُ الانفراد بسلوكه لما اختلف عليَّ في الاعتراف به اثنان.

ومن ذلك ما كتبته في كتاب إلى بعض الإخوان جواباً عن كتاب ورد، وكان كتابه تأخر عني زماناً طويلاً، فقلت: ولما تأملته ضَمَمْتُه إليَّ والتزمْتُه، ثم استلمته والتثمته، وعلمت أن المعارف وإن قدمت أيامها أنسَاب وَشِيجة، وتأَسَّيْتُ[1] بالخلق النبوي في العجوز التي كانت تأتي في زمن خديجة.

وهذا مأخوذ من الخبر المنقول عن عائشة رضي الله عنها، وهو أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يذبح الشاة فيُعَضِّيها[2] أعْضَاءً ويقسمها في أصدقاء خديجة، وكانت تأتيه عجوز فيكرمها ويبسط لها ر اءه، فسألته عن ذلك، فقال: «هٰذِهِ كَانَتْ تَأْتِينَا في زَمَنِ خَدِيْجَةَ وَحُسْنُ الْعَهْدِ مِنَ الإيمان».

---

(١) تأسيت به: جعلته أسوة وقدوة لي ففعلت مثل فعله.

(٢) يعضيها: يجزئها ويقطعها.

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كتاب، وهو: كل سَطْرٍ منه رَوْضة غير أنها ليل في صباح، وكل معنًى منه دُمْيَة غير أن ليس على مُصورِّها من جُنَاح.

وهذا مأخوذ من الحديث في تحريم الصور(١).

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كريم، وهو: فأغنى بجوده إغناء المطَر، وسَمَا إلى المعالي سُمُوَّ الشمس وسار في منازلها مَسيرَ القمر، ونتج من أبكار فضائله ما إذا ادَّعاه غيره قيل: لِلْعَاهِرِ الحَجَر.

وهذا المعنى من قول النبي ﷺ: «الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحجَرُ».

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الفصاحة، فقلت: أفكار الخواطر لا تستولد على انفرادها، وغايتها أن يتناكح في استنتاج أولادها، وأنا أنكح فكري لفكر نكاح الأنساب، ولا أخاف أن أُضْوِيَ فأميل إلى الاغتراب.

وهذا مأخوذ من قول النبي ﷺ في الأمر بنكاح البعيدة النسب فقال: «غَرِّبُوا لَا تُضْوُوا» يريد بذلك أن الإنسان إذا نكح المرأة القريبة إليه حصل بينهما حَيَاء يمنع من قضاء الشهوة كما ينبغي فيجيء الولد ضاوياً: أي هزيلاً، وهذا معنى غريب لي استخرجته من الحديث النبوي.

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الإخوان، جواباً عن كتاب ورد منه يتضمن الشكوى من شخص جَرَتْ بينه وبينه مخاصمة، فقلت: وَصَل كتابه وهو كتابُ مَنْ أكثر الشكوى، وطلب العدوى، ونزل من التظلم بالْعُدْوَة الدُّنْيا وَأنزل خَصْمَهُ القُصْوى، والقاضي لا يحكم لأحد الخصمين حتى يحضر صاحبه، وإن فُقِئَتْ عين أحدهما فربما فُقِئت عين الآخر وهُشِم جانبه، على أنه قد اعترف أن كليهما كان للحم أخيه آكلاً، وعليه في حال مَحْضَره جاهلاً، وسبابُ المؤمن معدود من فُسُوقه، وإطراقه عن تورد هذا المقام أولى من طُرُوقه، ولولا تغليظ النكير لما

(١) روي أنه ﷺ قال: «إنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرِينَ» وذلك أنه عليه السلام كان يخشى أن يعود التصوير بالناس إلى عبادة الأوثان، وهي أخوف ما كان يخافه على أمته بعد أن أنقذهم الله به وبرسالته من الشرك والوثنية.

جعل اللسان واليد سواء فيما جَرَحا، ولما أخر الله المغفرة عن الخائضين فيها حتى يصطلحا؛ فكن أنت ممن أطاع تَقْوَاه لا هواه، واتَّبع مَنْ علم الحق فرآه أو سمعه فرواه، واعلم أن تَهاجُرَ الأخوينِ فوق الثلاثة من مَنْهيَّات الحرام، وأن الفائز بالأجر منهما هو البادىء بالسلام، وَدَفْعُ السيئة بالحسنة يجعل العدو وَلِيًّا حميماً، وقد جعل الله المتخلق بهذا الخلق صابراً وجعل له حظاً عظيماً، والشيطان إنما يحوم على آثاره مواقع الشَّنآن، ولا يحمد من أعمال بنيه شيئاً إلا ما زَيَّلَ بين الإخوان.

في هذا الفصل معاني آيات وأخبار، وهذا الموضع مختص بذكر الأخبار دون الآيات؛ فأول المعاني المأخوذة من الأخبار قول النبي ﷺ: «إِذَا أَتَاكَ أَحَدُ الْخَصْمَيْنِ وَقَدْ فُقِئَتْ عَيْنُهُ فَلاَ تَحْكُمْ لَهُ، فَرُبَّمَا أَتَى خَصْمُهُ وَقَدْ فُقِئَتْ عَيْنَاهُ»؛ وأما المعنى الثاني فقوله ﷺ: «سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»؛ وأما المعنى الثالث فقوله ﷺ: «إِنَّ الأَعْمَالَ تُعْرَضُ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيَغْفِرُ لِكُلِّ امْرِىءٍ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً إِلاَّ آمْرَأً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ؛ فَيَقُولُ: اتْرُكُوا هٰذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»؛ وأما المعنى الرابع فقوله ﷺ: «لاَ يَحِلُّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ»؛ وأما المعنى الخامس فقول النبي ﷺ: «إِذَا الْتَقَى الْمُتَهَاجِرَانِ فَأَعْرَضَ هٰذَا وَأَعْرَضَ هٰذَا فَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ»؛ وأما المعنى السادس فقوله ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ لَهُ عَرْشٌ عَلَى الْبَحْرِ فَيَبُثُّ بَنِيهِ فِي آفَاقِ الأَرْضِ، فَيَأْتِي أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَفَعَلْتُ كَذَا؛ فَيَقُولُ: مَا فَعَلْتَ شَيْئاً، وَيَأْتِي أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: زَيَّنْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ أَوْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ؛ فَيَقُولُ: نِعْمَ ٱلْوَلَدُ أَنْتَ».

فانظر كم في هذه الأسطر اليسيرة من معنى خبر نبوي، هذا سوى ما فيها من معاني الآيات، وإذا عددت هذه الكلمات المذكورة في هذه الأسطر وجدتها جميعاً منتظمة من الآية والخبر، وهذا مما يدلك على الإكثار من المحفوظ واستحضاره عند الحاجة إليه على الفَوْر.

ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب، وهو جواب عن كتاب يتضمَّنُ تهديداً وتخويفاً، فقلت: وَرَدَ الكتاب مُضَمَّناً من الْوَعْدَ والْوَعِيد ما آنَسَ نَفْسَ المملوك

وأوْحَشَها، ونَقَعَ ضُلوعَه وأعْطَشَها، وأقام له من الظنون السيئة جنوداً تقاتله، وتأخذ عليه شُعَبَ الأفكار فلا تزاوِله، وكانت كلماته طوالاً وأوراقه ثقالاً، وما أفلت سطر من سطوره إلا كان الآخر له عقالاً، ولما استكمل الوقوف عليه ثقلت أطوار الخوف والرجاء من أطواره، وعرضت عليه الجنة والنار في قرطاسه كما عرضت على رسول الله ﷺ في عرض جداره، ولولا وثوقه بأناةِ مَوْلانا لذهبت نفسه فَرَقاً، وابتغى في السماء سلماً وفي الأرض نَفَقاً، لكنه قد توسَّم في كرمه مَخَابِلَ الصنع الوسيم، وغره منه ما غره من ربه الكريم، وعلم أن خلق حلمه يغلب خلق غضبه إذ هذا حادث وذاك قديم

وفي هذا الفصل معنى خبر من الأخبار النبوية، وهو أنه كان صلوات الله عليه يخطب فمال بيده إلى الجدار، وقال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الجنَّةُ وَالنَّارُ فِي عُرُضِ هٰذَا الْجِدَارِ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ في الْخَيْرِ وَالشَّرِّ».

ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب إلى بعض الإخوان، وهو: الخادم يُوَاصل بالدعاء الذي لا يزال لقلبه زميلاً، وللسانه رَسِيلاً، وإذا رفع أدْنَتْه الملائكة قرباً إذا تباعدت من غيره ميلاً، ولا اعتداد بالدعاء إلا إذا صدر عن أكرم مصدر، ووجد له فوق السماء مَظْهَراً وإن لم يكن هناك من مظهر، ووصف باطنه بأنه الأبيض الناصع الذي هو خير من ظاهر الأشعث الأغبر، ولا يعامل الخادم أهل وُدِّه إلا بهذه المعاملة، ومن خلقه المجازفة في بذل المودة إذا أخذ الناس نسبة المكايلة.

في هذا معنى خبرين: أحدهما: قول النبي ﷺ: «إِنَّهُ إِذَا كَذَبَ الْكَاذِبُ تَبَاعَدَ الْمَلَكُ عَنْهُ مِيلاً لِنَتَنِ كَذِبِهِ»، والآخر: قوله ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللّهِ لأَبَرَّه».

ومن هذا الباب ما ذكرته في كتاب يتضمن خطبة مودة، فابتدأت الكلام فيه بعد تصدره بالدعاء، فقلت: لولا العادة لرَفَع الخادم كتابه هذا أن يسطر في وَرَقَة، وليس ذلك إلا لإرساله في خطبة مودة رأى صورتها في سَرَقَة، ولما تأملها قال: إنْ يكن ذلك من عند الله يُمْضِه، وأبدى لها صفحة الرضا وإن كانت كل مودة لم تُرْضِه، وخير المودات ما ليس لها ضرة تشاركها في وَسَامتها، ولا تُضاهِيها في درجة

كرامتها؛ فتلك التي تزدهي ذا الهمة أبوة وجمالاً، ولم يُغْله مهرها ولو بذل فيه نفساً لا مالاً، وما يظنها الخادم إلا هذه المودة التي خطبها، وقد عَلَتْ أن تكون راغبة ولكن هو الذي أرغبها، على أنه لم يترشح لها إلا مَنْ هو من أكفائها، وليست الكفاءة هٰهنا إلا ما تبذله الضمائر من صفائها، وقد أتاح الله لها كُفْئاً يكثر من إيناسها، ويَضَعُها من البِرِّ في محلة ناسها، ويجعل كل يوم من أيامها عُرْساً حتى تتصل مواسم أعراسها.

ثم مضيت على هذا النهج إلى آخر الكتاب، والمعنى المأخوذ فيه من الخبر النبوي في موضعين: الأول: أن النبيّ ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها: «إنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام عَرَضَ عَلَيَّ صُورَتَكِ فِي سَرَقَةٍ» والسرقة: حريرة بيضاء «وَقَالَ: هٰذِهِ زَوْجَتُكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَقُلْتُ: إنْ يَكُنْ ذٰلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمْضِهِ» فأخذت أنا هذا المعنى ونقلته إلى خطبة مودة، ولا يأتي في خطبة المودات شيء أحسن منه، ولا ألطف، ولا أشد مقصداً؛ الخبر النبوي الثاني: قول النبي ﷺ: «إِنَّمَا تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ لِحَسَبِهَا أَوْ لِدِينِهَا أَوْ لِمَالِهَا أَوْ لِجَمَالِهَا» فقلت أنا: فتلك التي تزدهي ذا الهمة أبوة وجمالاً: أي قد جمعت الحسب والجمال.

ومن ذلك ما ذكرته في سبب حب المال، وهو: بين المال علاقَةٌ وَكيدة وبين القلوب، وهي له بمنزلة المحب وهو لها بمنزلة المحبوب، وليس ذلك إلا لأن الله قَبَضَ قَبْضَةً من جميع الأرض فخلق آدم من تلك القبضة، ويوشك حينئذ أن صورة قلبه تكونت من معدن الذهب والفضة، ولولا أن يكون منهما عنصراً بدائه، لما جعلهما الأطباء دواءه من دائه، فلا تستغرب إذن أن تكون على حبهما مطبوعاً، إذ كان منهما مصنوعاً.

وهذا المعنى من قول النبي ﷺ: «إِنَّ آللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ: مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذٰلِكَ، وَالحَزْنُ وَالسَّهْلُ، وَآلخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ» غير أني استنبطت أنا حبَّ المال من هذا الحديث، وهو معنى غريب لم أسبق إليه.

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كلام، وهو: ليس السِّحْر ما أودع في جف

طَلْعة، بل ما أودع في صَوْغ معنى أو نَظْم سَجْعة، ولذلك لبيد في شعره، أسْحَر من لبيد في سحره[1] وكلا صُنْعِهِمَا من الغريب العجيب، غير أن ما يستنبط من القلب أعجب مما يدفن في القليب.

وهذا المعنى مأخوذ من قصة لبيد بن الأعصم في سحره النبي ﷺ، ومن عرف القصة وصورتها علم ما قد ذكرته في نثر هذه الكلمات البديعة.

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الْمَنْجَنِيق في جملة كتاب، فقلت: ونُصِبَ المنجنيق فجثم بين يدي السور مُنَاصياً، وبسط كفه إليه مواتياً، ثم تولى عقوبته بعَصَاه التي تفتك بأحجاره، وإذا عصى عليها بلد أخذت في تأديب أسواره، فما كان إلا أن استمرت عقوبتها عليه حتى صار قائمه حصيداً وعاصيه مستقيداً، وقال: ألم يكن نهى عن المد والتجريد فمالي لا أرى إلا مداً وتجريداً، وعند ذلك أذْعَنَ لفتح الأبواب، وتلا قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أجَلٍ كِتَاب﴾، وكذلك لم نأت صعباً إلا استسهل، ولا حَثَثْنَا مطيًّا إلا استعجل، ولطالما وقف غيرنا على هذا البلد فشقه طول الانتظار، ولم يحظ منه إلا بمُسَاءلة المنصب أحجار الديار.

في هذا الفصل معنى خبر من الأخبار النبوية، وهو قول النبي ﷺ في النهي عن ضرب المحدود: «لَا مَدَّ ولَا تَجْرِيدَ»: أي لا يمد على الأرض ولا يُجَرَّد عنه ثوبه.

(١) لبيد الأول: هو لبيد بن ربيعة العامري الشاعر المشهور، وهو ممن أدرك الإسلام فأسلم، وترك قول الشعر، وقال: إن الله أبدله من الشعر سورتين من الكتاب الكريم. وينسب للإمام الشافعي قوله:

وَلَوْلَا الشِّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِي ... لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدِ

ولبيد الثاني: هو لبيد بن الأعصم اليهودي. ويروى أنه سحر النبي ﷺ ووضع سحره في بئر، ويروى أنه ﷺ تأثر بهذا السحر حتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء وهو لم يفعله، حتى أتاه جبريل فأخبره بالسحر وبموضعه، فلما استخرج من البئر، وقرئت له المعوذتان قام من مرضه كأنما نشط من عقال. وقد رددنا هذه المقالة واستبعدنا حصول هذه الحادثة وبرهنا على صحة ما ادعيناه في تفسيرنا لجزء ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ الذي أخرجناه منذ عامين، فارجع إلى تفسير المعوذتين منه.

ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب إلى الديوان العزيز النبوي، وهو: خَلَّدَ الله دولة الديوان العزيز النبوي، ولا زالت أكنافها وادعة، وعلياؤها جامعة، وجُدُودها كالنجوم التي تُرَى في كل حين طالعة، وأيامها كالليالي ساكنة ولياليها كالأيام ناصعة، وأبوابها كأبواب الجنة التي يقال فيها ثامن وثامنة إذا قيل في أبواب غيرها سابع وسابعة، وهذا الدعاء قد استجابه الله قبل أن ترفع إليه يَدٌ أو ينطق به ضمير، فإذا دعا به الخادم وجد صنع الله قد سبقه أولاً وجاء هو في الزمن الأخير، فليس له حينئذ إلا أن يدعو لما خُوِّله الدِّيوَانُ العزيز بالدوام، وأن يُعيذه من النقص من التمام، ثم يستهدي ما يؤهل له من الخدم التي يعتدها من لطائف الإحسان، وإذا ندب لتكليف أوامرها قال: والحمد والشكر يسجدان، ولا شك أنَّ درجات الأولياء تتفاوت في الصفات والأسماء؛ فمنها ما يكون ببطن الأرض ومنها ما يرى كالكوكب في أُفقِ السماء، ولولا النَّهْيُ عن تزكية المرءِ نَفْسَه لادَّعَى الخادم أن له أعلاها، وجاء بالأولياء من بعده فقال: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾، لكنه لا يمن بما يعتده عند الله من ذُخْرِهِ، وسِرُّ الولاء في هذا المقام أكرم من جهره، وليس الذي يَمُنُّ بصلاته وصيامه كالذي يَمُنُّ بِسِرٍّ وَقَرَ في صدره، والله لا ينظر إلى الأعمال وإنما ينظر إلى القلوب، وفَرْقٌ بين المطيع بمحضر الشهادة وبين المطيع بظهر الغيوب، ولو اطّلع الديوان العزيز على ضمير الخادم في الطاعة لَسَرَّه، وعلم أنه الأشعث الأغبر الذي لو أقسم على الله لأبرَّه.

في هذا الفصل من الآيات والأخبار عدة مواضع؛ وهذا الموضع مختص بالأخبار فلنذكرها دون الآيات: أما الأول منها فقوله النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الجَنَّةِ كَمَا تَرَوْنَ الْمَوَاكِبَ فِي أُفُقِ السَّماءِ»؛ وأما الخبر الثاني: فقوله ﷺ: «ما فَضَلَّكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِصَلاةٍ وَلا صِيامٍ وَلٰكِنْ فَضَلَكُمْ بِسِرٍّ وَقَرَ فِي صَدْرِهِ»؛ وأما الخبر الثالث: فقوله ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى ٱللَّهِ لأَبَرَّهُ».

وفيما أوردته من حل المعاني الشعرية وحل آيات القرآن والأخبار النبوية طريقٌ واضح لمن يَقْوَى على سلوكه، والله الموفق للصواب.

المقالة الأولى
في الصناعة اللفظية

وهي تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: في اللفظة المفردة:

إعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء: الأول منها: اختيار الألفاظ المفردة، وحكم ذلك حكم اللآلىء المُبَدَّدَة؛ فإنها تتخير وتنتقي قبل النظم؛ الثاني: نَظْم كل كلمة مع أختها المُشَاكِلة[1] لها ـ لئلا يجيء الكلام قلقاً نافراً عن مواضعه؛ وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منها بأختها المشاكلة لها[1]؛ الثالث: الغَرَضُ المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه، وحكم ذلك حكم الموضع الذي يُوضَع فيه العقد المنظوم، فتارةً يُجْعَل إكليلاً على الرأس، وتارةً يجعل قِلَادَة في العنق، وتارةً يجعل شَنْفاً في الأذن[2]، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه.

فهذه ثلاثة أشياء لا بدّ للخطيب والشاعر من العناية بها، وهي الأصل المعتمد عليه في تأليف الكلام من النظم والنثر؛ فالأول والثاني من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة، والثلاثة بجُمْلَتها هي المراد بالبلاغة.

وهذا الموضع يَضِلُّ في سلوك طريقه العلماء بصناعة صَوْغ الكلام من النظم

---

(١) في ب، ج «مع أختها في المشاكلة لها» وهو تحريف بزيادة «في» والمشاكلة ـ بكسر الكاف ـ اسم فاعل من قولك: شاكلت فلاناً؛ إذا شابهته. وقد اجتمعت النسختان على حذف «في» من العبارة الآتية، والمقصود بالعبارتين واحد.

(٢) الشنف ـ بفتح الشين وسكون النون ـ ما يجعل في الأذن من أعلى، أما ما يجعل في أسفل الأذن فهو القرط ـ بضم القاف وسكون الراء ـ وجمع الشنف: شنوف، مثل فلس وفلوس. وتقول: شنف المرأة فتشنفت، وقرطها فتقرطت، ومن المجاز: شنف آذاننا بعذب ألفاظه.

والنشر، فكيف الجهال الذين لم تنفحهم رائحة؟ ومَن الذي يؤتيه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضيء ولم لم تمسهُ نار حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها في موضعها.

ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن في الاستعمال، وهما على وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلا من دَقَّ فهمه وَجَلَّ نَظَرُه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً﴾ فاستعمل الجوف في الأولى والبطن في الثانية، ولم يستعمل الجوف موضع البطن، ولا البطن موضع الجوف، واللفظتان سواء في الدلالة، وهما ثلاثيتان في عَدَدٍ واحد، ووزنهما واحد أيضاً، فانظر إلى سَبْك الألفاظ كيف تفعل؟.

ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ فالقلب والفؤاد سواء في الدلالة، وإن كانا مختلفين في الوزن؛ ولم يستعمل في القرآن أحدهما في موضع الآخر.

وعلى هذا ورد قول الأعرج من أبيات الحماسة:

نَحْنُ بَنُو المَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلْ لَا عَارَ بِالْمَوْتِ إِذَا حُمَّ الأَجَلْ
المَوْتُ أَحْلَى عِنْدَنَا مِنَ الْعَسَلْ(١)

(١) هذه الأبيات للأعرج المعنيّ، ويقال: إنها لعمرو بن يثربي، وقد اختارها أبو تمام في ديوان الحماسة (وانظر شرح التبريزي: ١ - ٢٨٠)، وترتيب الأبيات في الحماسة ليست على ما ذكره المؤلف، وهاك القطعة بكمالها كما وردت هناك:

أَنَا أَبُو بَرْزَةَ إِذْ جَدَّ الْوَهَلْ خُلِقْتُ غَيْرَ زُمَّلٍ وَلَا وَكَلْ

وقال أبو الطيب المتنبي[١]:

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِحٍ رِجَالٌ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَمِهَا شُهْدُ[٢]

فهاتان لفظتان هما العسل والشهد، وكلاهما حسن مستعمل لا يُشَكُّ في حسنه واستعماله، وقد وردت لفظة العسل في القرآن، دون لفظة الشهد؛ لأنها أحسن منها، ومع هذا فإن لفظة الشهد وردت في بيت أبي الطيب فجاءت أحسن من لفظة العسل في بيت الأعرج.

وكثيراً ما نجد أمثال ذلك في أقوال الشعراء المُفْلِقِين وغيرهم، ومن بلغاء الكتاب ومِصْقَعِي الخطباء.

وتحته دقائق ورموز إذا عُلمت وقِيس عليها أشباهُها ونظائرها كان صاحب الكلام في النظم والنثر قد انتهى إلى الغاية القُصْوَى في اختيار الألفاظ ووَضْعِهَا في مواضعها اللائقة بها.

واعلم أن تفاوت التفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها؛ لأن التركيب أعسر وأشق، ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها قد استعملها العرب ومَنْ بعدهم، ومع ذلك فإنه يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب.

= ذَا قُوَّةٍ وَذَا شَبَابٍ مُقْتَبَلْ لَا جَزَعَ الْيَوْمَ عَلَى قُرْبِ الْأَجَلْ
الْمَوْتُ أَحْلَى عِنْدَنَا مِنَ الْعَسَلْ نَحْنُ بَنِي ضَبَّةَ أَصْحَابُ الْجَمَلْ
نَحْنُ بَنُو الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلْ نَنْعَى ابْنَ عَفَّانَ بِأَطْرَافِ الْأَسَلْ

ويروى في أول هذه الأبيات «أنا أبو بردة».

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن سيار بن مكرم التميمي، وأولها قوله:

أَقَلُّ فَعَالِي، بَلْهَ أَكْثَرَهُ، مَجْدُ وَذَا الْجِدُّ فِيهِ، نِلْتُ أَمْ لَمْ أَنَلْ، جَدُّ

(٢) وقع في ب، ج صدر هذا البيت هكذا «إذا بي مشت حفت على كل سابح» وهو تحريف، وتصويبه عن جملة مراجع أولها الديوان. والسابح: الفرس السريع الجريء كأنه يسبح في الماء عند مشيه. والشهد: العسل، وهو بضم الشين أو فتحها، والهاء ساكنة.

وهل تشك أيها المتأمل لكتابنا هذا إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿**وَقِيلَ يا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ أنك لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها، وأنه لم يعرض لها هذا الحسن إلا من حَيْث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وكذلك إلى آخرها، فإن ارْتَبْتَ في ذلك فتأمل هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها وأفردت من بين أخواتها كانت لابسةً من الحسن ما لبسته في موضعها من الآية.

ومما يشهد لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروقك في كلام، ثم تراها في كلام آخر فتكرهها؛ فهذا ينكره من لم يَذُقْ طَعْمَ الفصاحة، ولا عرف أسرار الألفاظ في تركيبها وانفرادها.

وسأضرب لك مثالاً يشهد بصحة ما ذكرته، وهو أنه قد جاءت لفظة واحدة في آية من القرآن وبيت من الشعر؛ فجاءت في القرآن جَزْلَةً متينة، وفي الشعر ركيكة ضعيفة، فأَثَّرَ التركيبُ فيها هٰذين الوصفين الضدين؛ أما الآية فهي قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحِيي مِنْكُمْ واللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ**﴾.

وأما بيت الشعر فهو قول أبي الطيب المتنبي[١]:

تَلَذُّ لَـهُ الْمُرُوءَةُ وَهْيَ تُـؤْذِي ... وَمَنْ يَعْشَقْ يَلَذّ لَـهُ الْغَرَامُ[٢]

وهذا البيت من أبيات المعاني الشريفة، إلا أن لفظة «تؤذي» قد جاءت فيه

(١) من قصيدة له يمدح فيها المغيث بن علي العجلي، أولها قوله:

فُـؤَادٌ مَـا تُـسَـلِّيـهِ الْـمُـدَامُ ... وَعُـمْـرٌ مِـثْـلُ مَـا تَـهَـبُ الـلِّئَـامُ

(٢) ورد في الديوان «المروّة» بتشديد الواو، وهو تخفيف المروأة بقلب الهمزة واواً وإدغامها في الواو، والمروأة: الكرم. والغرام في هذا البيت: العذاب، وتقول: لذلي كذا يلذ، من باب طرب يطرب، مثل ظل يظل.

وفي الآية من القرآن فَحَطَّتْ من قدر البيت لضعف تركيبها وحسن موقعها في تركيب الآية.

فأنصف أيها المتأمل لما ذكرناه، واعْرِضْه على طبعك السليم حتى تعلم صحته، وهذا موضع غامض يحتاج إلى فضل فكرة، وإمعان نظر، وما تعرّض للتنبيه عليه أحد قبلي، وهذه اللفظة التي هي «تؤذي» إذا جاءت في الكلام فينبغي أن تكون مندرجة مع ما يأتي بعدها متعلقة به كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ وقد جاءت في قول المتنبي منقطعة، ألا ترى أنه قال: «تلذ له المروءة وهي تؤذي» ثم قال: «ومن يعشق يلذ له الغرام» فجاء بكلام مستأنف، وقد جاءت هذه اللفظة بعينها في الحديث النبوي، وأضيف إليها كاف الخطاب؛ فأزال ما بها من الضعف والركة، وذاك أنه اشتكى النبي ﷺ، فجاءه جبريل عليه السلام ورَقَاه، فقال: بسم الله أَرْقيك، من كل داء يُؤْذِيك؛ فانظر إلى السر في استعمال اللفظة الواحدة، فإنه لما زيد على هذه اللفظة حرف واحد أصلحها وحسنها، ومن هٰهنا تزاد الهاء في بعض المواضع، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ.إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ ثم قال: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ.هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ فإن الأصل في هذه الألفاظ كتابي وحسابي ومالي وسلطاني، فلما أضيفت الهاء إليها ـ وتسمى هاء السكت ـ أضافت إليها حسناً زائداً على حسنها، وكَسَتْها لطافةً ولَبَاقة.

وكذلك ورد في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فلفظة «لي» أيضاً مثل لفظة «يؤذي» وقد جاءت في الآية مندرجة متعلقة بما بعدها، وإذا جاءت منقطعة لا تجيء لائقة، كقول أبي الطيب أيضاً[1]:

تُمْسِي الأَمَانِيُّ صَرْعَى دُونَ مَبْلَغِهِ ... فَمَا يَقُولُ لِشَيْءٍ لَيْتَ ذٰلِكَ لِي

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة، وأولها قوله:

أَجَابَ دَمْعِي وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلِ ... دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ وَالإِبِلِ

وربما وقع بعض الجهال في هذا الموضع فأدخل فيه ما ليس منه، كقول أبي الطيب[1]:

مَـا أَجْـدَرَ الأَيَّـامَ وَاللَّيَـالِي   بِـأَنْ تَقُـولَ مَـا لَـهُ وَمَـا لِي

فإن لفظة «لي» هٰهنا قد وردت بعد «ما» وقبلها «مَا لَهُ» ثم قال «وَمَا لِي» فجاء الكلام على نَسَقٍ واحد، ولو جاءَت لفظة «لي» هٰهنا كما جاءت في البيت الأول لكانت منقطعة عن النظير والشبيه، فكان يعلوها الضعف والركة، وبين ورودها هٰهنا وورودها في البيت الأول فرق يحكم فيه الذوق السليم.

وهٰهنا من هذا النوع لفظة أخرى قد وردت في آية من القرآن الكريم، وفي بيت من شعر الفرزدق؛ فجاءت في القرآن حسنة، وفي البيت الشعر غير حسنة، وتلك اللفظة هي لفظة «القمل» أما الآية فقوله تعالى: **﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾**؛ وأما البيت الشعر فقول الفرزدق:

من عـزه احتجرت كليب عنـده   زربـاً كـأَنَّهُمْ لَـدَيْـهِ الْقُمَّـلُ[2]

وإنما حسنت هذه اللفظة في الآية دون هذا البيت من الشعر لأنها جاءت في الآية مندرجة في ضمن الكلام، ولم ينقطع الكلام عندها، وجاءت في الشعر قافية: أي آخراً انقطع الكلام عندها.

وإذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة في القرآن الكريم غُصْنَا منه في بحر عميق لا قرار له.

---

(١) هو مطلع كلمة يقولها لأبي شجاع، ويصف فيها خروجه للصيد، وبعده قوله:

لَا أَنْ يَـكُـونَ هٰـكَـذَا مَـقَـالِـي   فَـتًى بِـنِـيـرَانِ الـحُـرُوبِ صَـالِـي

(٢) كذا ورد هذا البيت في أصول الكتاب، وروايته في الديوان:

مِنْ عِـزِّهِمْ جَحَـرَتْ كُلَيْبٌ بَيْتَهُـمْ   زَرْبـاً كَـأَنَّـهُـمُ لَـدَيْـهِ الْـقُـمَّـلُ

فمن ذلك هذه الآية المشار إليها؛ فإنها قد تضمنت خمسة ألفاظ، هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وأحسن هذه الألفاظ الخمسة هي الطوفان والجراد والدم؛ فلما وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها قدم منها لفظة الطوفان والجراد، وأخّرت لفظة الدم آخراً، وجعلت لفظة القمل والضفادع في الوسط؛ ليطرق السمع أولاً الْحَسَنُ من الألفاظ الخمسة، وينتهي إليه آخراً؛ ثم إن لفظة الدم أحسن من لفظتي الطوفان والجراد، وأخف في الاستعمال، ومن أجل ذلك جيء بها آخراً، ومراعاةُ مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية.

وقد ذكر مَنْ تَقَدَّمني من علماء البيان للألفاظ المفردة خصائص وهيآت تتصف بها، واختلفوا في ذلك، واستحسن أحدهم شيئاً فخولف فيه، وكذلك استقبح الآخر شيئاً فخولف فيه، ولو حققوا النظر ووقفوا على السر في اتصاف بعض الألفاظ بالحسن وبعضها بالقبح لما كان بينهم خلاف في شيء منها، وقد أشرت إلى ذلك في الفصل الثامن من مقدمة كتابي هذا الذي يشتمل على ذكر الفصاحة، وفي الوقوف عليه والإحاطة به غِنىً عن غيره، لكن لا بد أن نذكر هٰهنا تفصيلاً لما أجملناه هناك؛ لأنا ذكرنا في ذلك الفصل أن الألفاظ داخلة في حيّز الأصوات؛ لأنها مركبة من مخارج الحروف؛ فما استلذه السمع منها فهو الحسن، وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح، وإذا ثبت ذلك فلا حاجة إلى ما ذكر من تلك الخصائص والهيآت التي أوردها علماء البيان في كتبهم؛ لأنه إذا كان اللفظ لذيذاً في السمع كان حسناً، وإذا كان حسناً دخلت تلك الخصائص والهيآت في ضمن حسنه.

وقد رأيت جماعةً من الجهال إذا قيل لأحدهم إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة أنكر ذلك، وقال: كل الألفاظ حسن، والواضع لم يضع إلا حسناً، ومَنْ يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة الْغُصْن ولفظة العُسْلوج وبين لفظة المُدَامة ولفظة الإسْفِنْط وبين لفظة السيف ولفظة الخَنْشَلِيل وبين لفظة الأسد ولفظة الْفَدَوْكَس فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب، ولا يجاوب بجواب، بل يُتْرَك وشأنه، كما قيل: اتركوا الجاهل بجهله ولو ألقى الجعر في رحله، وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يُسَوِّي بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد شَوْهَاءَ الْخَلْقِ ذات عين مُحْمَّرة وشَفَة غليظة

كأنها كلوة، وشَعْر قَطَط[١] كأنه زبيبة، وبين صورة رومية بيضاء مُشْرَبَة بحمرة، ذات خَد أَسيل، وطرف كَحِيل، ومَبْسِم كأنما نـظم من أَقاحٍ، وطُـرَّة كأنهـا ليل على صباح، فإذا كان بإنسان من سَقَم النظر أن يُسَوِّي بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوي بين هذه الألفاظ وهـذه، ولا فرق بين النـظر والسمع في هذا المقام؛ فإن هذا حاسة وهذا حاسة، وقياس حاسة على حاسـة مناسب.

فإن عاند معاند في هذا، وقال: أغراض الناس مختلفة فيما يختارونه من هذه الأشياء، وقد يعشق الإنسانُ صورة الزنجية التي ذممتها ويفضلها على صورة الرومية التي وصفتها

قلت في الجواب: نحن لا نحكم على الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال، بل نحكم على الكثير الغالب، وكذلك إذا رأينا شخصاً يُحِبُّ أَكْل الْفَحَم مثلاً أو أكل الجِصِّ والتراب ويختار ذلك على مَلاَذِّ الأطعمة، فهل نستجيد هذه الشهوة أو نحكم عليه بأنه مريض قد فسدت معدته وهو يختار إلى علاج ومداواة؟.

ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيـذة كنغمة أوتـار، وصوتاً منكراً كصوت حمار، وأن لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحَنْظَل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم.

ولا يسبق وهمك أيها المتأمل إلى قول القائل الذي غلب عليه غلظ الطبع، وفجاجَة الذهن[٢] بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا، فهذا دليل على أنه حسن، بل ينبغي أن تعلم أن الذي نستحسنه نحن في زماننا هذا هو الذي كان عند العرب مستحسناً، والذي نستقبحه هو الذي كان عندهم مستقبحاً؛ والاستعمال

(١) تقول: هذا شعر قطط ـ بزنة سبب ـ وهذا شعر قط ـ بفتح القاف وتشديد الطاء ـ إذا كان قصيراً جعداً، وتقول: قطط شعره ـ بزنة فرح ـ.

(٢) الفجاجة ـ بفتح الفاء ـ الفاكهة التي لم تنضج، هذا ظاهر عبارة القاموس، والذي نراه أن هذا مصدر، والفج ـ بكسر الفاء ـ الفاكهة قبل نضجهـا، والكلام هھنـا مجاز، والمـراد بفجاجة الذهن: الذهن الذي لم تنضجه الدربة ولم تكمله معاودة الشيء مرة بعد أخرى.

ليس بدليل على الحسن، فإنا نحن نستعمل الآن من الكلام ما ليس بحسن، وإنما نستعمله لضرورة، فليس استعمال الحسن بممكن في كل الأحوال، وهذا طريق يضل فيه غير العارف بمسالكه، ومن لم يعرف صناعة النظم والنثر وما يجده صاحبها من الكلمة في صوغ الألفاظ واختيارها فإنه معذور في أن يقول ما قال:

لَا يَعْـرِفُ الشَّـوْقَ إِلَّا مَنْ يُكَـابِـدُهُ ... وَلَا الصَّبَـابَـةَ إِلَّا مَنْ يُعَـانِـيهَـا

ومع هذا فإن قول القائل: «بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا وهذا دليل على أنه حسن» قولٌ فاسد لا يصدر إلا عن جاهل؛ فإن استحسان الألفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب؛ لأنه شيء ليس للتقليد فيه مجال، وإنما هو شيء له خصائص وهيآت وعلامات إذا وجدت علم حسنه من قبحه، وقد تقدم الكلام على ذلك في باب الفصاحة والبلاغة، وأما الذي نقلد العرب فيه من الألفاظ فإنما هو الاستشهاد بأشعارها على ما يُنْقَل من لغتها، والأخذ بأقوالها في الأوضاع النحوية في رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف إليه وجزم الشرط وأشباه ذلك، وما عداه فلا.

وحسن الألفاظ وقبحها ليس إضافياً إلى زيد دون عمرو أو إلى عمرو دون زيد؛ لأنه وصف ذَوِيّ لا يتغير بالإضافة؛ ألا ترى أنّ لفظة المُزْنة مثلاً حسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم، وهلم جرّاً، لا يختلف أحد في حسنها، وكذلك لفظة الْبُعَاق[1] فإنها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم؛ فإذا استعملتها العرب لا يكون استعمالهم إياها مُخْرجاً لها عن القبح، ولا يلتفت إذن إلى استعمالهم إياها، بل يعاب مستعملها، ويغلظ له النكير حيث استعملها.

وقد ذكر ابن سنان الخفاجي[2] ما يتعلق باللفظة الواحدة من الأوصاف، وقسمها إلى عدة أقسام: كتباعد مخارج الحروف، وأن تكون الكلمة جارية على الْعُرْف العربي غير شاذة، وأن تكون مُصَغَّرة في موضع يعبر به عن شيء لطيف أو خفيّ أو ما جرى مجراه، وألَّا تكون مبتذلة بين العامة، وغير ذلك من الأوصاف.

---

(١) البعاق ـ مثلث الباء ـ السيل الدفاع، وانظر (ص ٨١ من هذا الجزء).

(٢) انظر كتاب «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي (ص ٦٠).

وفي الذي ذكره ما لا حاجة إليه: أما تباعد المخارج فإن معظم اللغة العربية دائر عليه؛ لأن الواضع قسمها في وضعه ثلاثة أقسام: ثلاثياً، ورباعياً، وخماسياً، والثلاثي من الألفاظ هو الأكثر، ولا يوجد فيه ما يكره استعماله إلا الشاذ النادر، وأما الرباعي فإنه وسط بين الثلاثي والخماسي في الكثرة عدداً واستعمالاً؛ وأما الخماسي فإنه الأقل، ولا يوجد فيه ما يستعمل إلا الشاذ النادر، وعلى هذا التقدير فإن أكثر اللغة مستعمل على غير مكروه، ولا تقتضي حكمة هذه اللغة الشريفة التي هي سيدة اللغات إلا ذلك، ولهذا أسقط الواضع حروفاً كثيرة في تأليف بعضها مع بعض استثقال واستكراه[1]، فلم يؤلف بين حروف الحلق كالحاء والخاء والعين، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف، ولا بين اللام والراء، ولا بين الزاء والسين، وكل هذا دليل على عنايته بتأليف المتباعد المخارج، دون المتقارب، ومن العجب أنه كان يخل بمثل هذا الأصل الكلي في تحسين اللغة، وقد اعتنى بأمور أخرى جزئية: كمماثلته بين حركات الفعل في الوجود وبين حركات المصدر في النطق، كالْغَلَيان والضَّرَبَان والنَّقَدَان والنَّزَوَان، وغير ذلك مما جرى مجراه، فإن حروفه جميعها متحركات، وليس فيها حرف ساكن، وهي مماثلة لحركات الفعل في الوجود، ومن نظر في حكمة وضع هذه اللغة إلى هذه الدقائق التي هي كالأطراف والحواشي فكيف كان يُخِلّ بالأصل المعوَّل عليه في تأليف الحروف بعضها إلى بعض؟ على أنه لو أراد الناظم أو الناظر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ وهل هي متباعدة أو متقاربة لطال الخطب في ذلك وعَسُرَ، ولما كان الشاعر ينظم قصيداً ولا الكاتب ينشىء كتاباً إلا في مدة طويلة تمضي عليها أيام وليال ذوات عدد كثير، ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك؛ فإن حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام بحسن ما يحسن من الألفاظ وقبح ما يقبح.

وسأضرب لك في هذا مثالاً، فأقول: إذا سُئِلت عن لفظة من الألفاظ، وقيل لك: ما تقول في هذه اللفظة أحسنة هي أم قبيحة؟ فإني لا أراك عند ذلك إلا تُفْتي بحسنها أو قبحها على الْفَوْر، ولو كنت لا تفتي بذلك حتى تقول للسائل: اصْبِرْ إلى

---

(١) في الأصول «في تأليف بعضها مع بعض استثقالاً واستكراهاً».

أن أعتبر مخارج حروفها ثم أفتيك بعد ذلك بما فيها من حسن أو قبح؛ لصحّ لابن سنان ما ذهب إليه من جعل مخارج الحروف المتباعدة شرطاً في اختيار الألفاظ، وإنما شذ عنه الأصل في ذلك، وهو أن الحسن من الألفاظ يكون متباعد المخارج؛ فحسن الألفاظ إذن ليس معلوماً من تباعد المخارج، وإنما علم قبل العلم بتباعدها، وكل هذا راجع إلى حاسة السمع؛ فإذا اسْتَحسنَتْ لفظاً أو استَقْبَحَتْهُ وُجِد ما تستحسنه متباعدَ المخارج وما تستقبحه متقارب المخارج، واستحسانها واستقباحها إنما هو قبل اعتبار المخارج لا بعده.

على أن هذه قاعدة قد شذ عنها شواذّ كثيرة؛ لأنه قد يجيء في المتقارب المخارج ما هو حسن رائق.

ألا ترى أن الجيم والشين والياء مخارج متقاربة، وهي من وسط اللسان بينه وبين الحنك، وتسمى ثلاثتها الشَّجَرِية، وإذا تركب منها شيء من الألفاظ جاء حسناً رائقاً، فإن قيل جَيْش كانت لفظة محمودة، أو قدمت الشين على الجيم فقيل شَجِيّ كانت أيضاً لفظة محمودة.

ومما هو أقرب مخرجاً من ذلك الباءُ والميمُ والفاءُ، وثلاثتها من الشفة، وتسمى الشَّفَهِية، فإذا نظم منها شيء من الألفاظ كان جميلاً حسناً، كقولنا: فَمٌ، فهذه اللفظة من حرفين هما الفاء والميم، وكقولنا: ذقته بِفَمِي، وهذه اللفظة مؤلفة من الثلاثة بجملتها، وكلاهما حسن لا عيب فيه.

وقد ورد من المتباعد المخارج شيء قبيح أيضاً، ولو كان التباعد سبباً للحسن لما كان سبباً للقبح؛ إذ هما ضدان لا يجتمعان.

فمن ذلك أنه يقال: مَلَعَ؛ إذا عدا، فالميم من الشفة، والعين من حروف الحلق، واللام من وسط اللسان، وكل ذلك متباعد، ومع هذا فإن هذه اللفظة مكروهة الاستعمال، ينبو عنها الذوق السليم، ولا يستعملها من عنده معرفة بفن الفصاحة.

وههنا نكتة غريبة، وهو أنا إذا عكسنا حروف هذه اللفظة صارت عَلِمَ، وعند

ذلك تكون حسنة لا مزيد على حسنها، وما ندري كيف صار القبح حسناً؛ لأنه لم يتغير من مخارجها شيء، وذاك أن اللام لم تزل وسطاً والميم والعين يكتنفانها من جانبيها، ولو كان مخارجِ الحروف معتبراً في الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة في مَلَعَ وعَلِم.

فإن قيل: إن إخراج الحروف من الحلق إلى الشفة أيسر من إدخالها من الشفة إلى الحلق؛ فإن ذلك انْحِدَار وهذا صعود، والانحدار أسهل.

فالجواب عن ذلك أني أقول: لو استمرَّ لك هذا لصح ما ذهبت إليه، لكنّا نرى من الألفاظ ما إذا عكسنا حروفه من الشفة إلى الحلق أو من وسط اللسان أو من آخره إلى الحلق لا يتغير، كقولنا غَلَبَ؛ فإن الغين من حروف الحلق، واللام من وسط اللسان، والباء من الشفة، وإذا عكسنا ذلك صار بَلَغَ، وكلاهما حسن مليح، وكذلك تقول: حَلُم من الْحِلْم، وهو الأَنَاة، وإذا عكسنا هذه الكلمة صارت مَلُحَ، على وزن فَعُلَ - بفتح الفاء وضم العين - وكلاهما أيضاً حسن مليح، وكذلك تقول: عَقَرَ وَرَقَعَ، وعَرَفَ وفَرَعَ، وحَلَفَ وفَلَحَ، وَقَلَمَ وَمَلَقَ، وكلم وملك، ولو شئت لأوردت من ذلك شيئاً كثيراً تضيق عنه هذه الأوراق، ولو كان ما ذكرته مطرداً لكنا إذا عكسنا هذه الألفاظ صار حسنها قبحاً، وليس الأمر كذلك.

وأما ما ذكره ابن سنان من جَرَيَان اللفظة على العرف العربي فليس ذلك مما يوجب لها حسناً ولا قبحاً، وإنما يقدح في معرفة مستعملها بما ينقله من الألفاظ فكيف يُعَدُّ ذلك من جملة الأوصاف الحسنة؟.

وأما تصغير اللفظة فيما يعبر به عن شيء لطيف أو خفيّ أو ما جرى مجراه فهذا مما لا حاجة إلى ذكره؛ فإن المعنى يسوق إليه، وليست معاني التصغير من الأشياء الغامضة التي يفتقر إلى التنبيه عليها؛ فإنها مُدَوَّنة في كتب النحو، وما من كتابِ نحْوٍ إلا والتصغير باب من أبوابه، ومع هذا فإنّ صاحب هذه الصناعة مخير في ذلك: إن شاء أن يورده بلفظ التصغير، وإن شاء بمعناه، كقول بعضهم:

لَوْ كَانَ يَخْفَى عَلَى ٱلرَّحْمٰنِ خَافِيَةٌ ... مِنْ خَلْقِهِ خَفِيَتْ عَنْهُ بَنُو لَبَدِ

فهل كان يمكن هذا الشاعر أن يصغر من هٰؤلاءِ القوم ويحقر من شأنهم بألفاظ التصغير ويجيء هٰكذا كما جاء بيته هذا؟ فالوصية به إذن مُلْغاة لا حاجة إليها.

وأما الأوصاف الباقية التي ذكرت فهي التي ينبغي أن ينبه عليها؛ فمنها ألاَّ تكون الكلمة وَحْشِيَّةً، وقد خفي الوحشي على جماعة من المنتمين إلى صناعة النظم والنثر، وظنوه الْمُسْتَقْبَحَ من الألفاظ، وليس كذلك، بل الوحشيُّ ينقسم قسمين: أحدهما: غريب حسن، والآخر: غريب قبيح، وذلك أنه منسوب إلى اسم الْوَحْش الذي يسكن الْقِفَار، وليس بأنيس، وكذلك الألفاظ التي لم تكن مأنوسة الاستعمال، وليس من شرط الوحش أن يكون مُسْتَقْبَحاً، بل أن يكون نافراً لا يألف الإنس؛ فتارة يكون حسناً، وتارة يكون قبيحاً، وعلى هذا فإن أحد قسمي الوحشي - وهو الغريب الحسن - يختلف باختلاف النِّسَب والإضافات؛ وأما القسم الآخر من الوحشي الذي هو قبيح فإن الناس في استقباحه سواء، ولا يختلف فيه عربي بادٍ ولا قروي مُتَحَضِّر، وأحسن الألفاظ ما كان مألوفاً متداولاً إلا لمكان حسنه، وقد تقدم الكلام على ذلك في باب الفصاحة؛ فإن أرباب الخطابة والشعر نظروا إلى الألفاظ ونَقَّبُوا عنها، ثم عَدَلوا إلى الأحسن منها فاستعملوه، وتركوا ما سواه، وهو أيضاً يتفاوت في دَرَجَات حسنه؛ فالألفاظ إذن تنقسم ثلاثة أقسام: قسمان حَسَنان، وقسم قبيح؛ فالقسمان الحسنان أحدهما: ما تداول استعماله الأول والآخر، من الزمن القديم إلى زماننا هذا، ولا يطلق عليه أنه وحشي، والآخر: ما تداول استعماله الأول دون الآخر، ويختلف في استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله، وهذا هو الذي لا يعاب استعماله عند العرب؛ لأنه لم يكن عندهم وَحْشِيًّا، وهو عندنا وحشي، وقد تضمن القرآن الكريم منه كلمات معدودة، وهي التي تطلق عليها غريب القرآن، وكذلك تضمن الحديث النبوي منه شيئاً، وهو الذي يطلق عليه غريب الحديث.

وحضر عندي في بعض الأيام رجل متفلسف فجرى ذكر القرآن الكريم، فأخذت في وصفه، وذكر ما اشتملت عليه ألفاظه ومعانيه من الفصاحة والبلاغة، فقال ذلك الرجل: وأيُّ فصاحة هناك وهو يقول: ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾؟ فهل في لفظة (ضِيزَى) من الحسن ما يوصف؟ فقلت له: اعلم أن لاستعمال الألفاظ

أسراراً لم تقف عليها أنت ولا أئمتك، مثل ابن سينا والفارابي، ولا من أضلهم مثل أرسطاليس وأفلاطون، وهذه اللفظة التي أنكرتها في القرآن، وهي لفظة (ضِيزَى) فإنها في موضعها لا يَسُدُّ غيرها مَسَدَّها؛ ألاَ ترى أن السورة كلها التي هي سورة النجم مسجوعة على حرف الياء، فقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى.مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ وكذلك إلى آخر السورة، فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد وما كان يزعمه الكفار قال: ﴿أَلَكُمْ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى.تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ فَجَاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه، وغيرها لا يسدّ مسدها في مكانها، وإذا نَزَلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا: إن غير هذه اللفظة أحسن منها، ولكنها في هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتها، ولا مناسبة؛ لأنها تكون خارجة عن حرف السورة، وسأبين ذلك فأقول: إذا جئنا بلفظة في معنى هذه اللفظة قلنا: قسمة جائرة أو ظالمة ولا شك أن جائرة أو ظالمة أحسن من ضيزى، إلا أنا إذا نظمنا الكلام قلنا: ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ظالمة لم يكن النظم كالنظم الأول وصار الكلام كالشيء المعوز الذي يحتاج إلى تمام، وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام، فلما سمع ذلك الرجل ما أوردته عليه رَبا لسانه في فمه إفحاماً، ولم يكن عنده في ذلك شيء سوى العناد الذي مستنده تقليد بعض الزنادقة الذين يكفرون تَشَهِّياً، ويقولون ما يقولونه جهلاً وإذا حُوقِقُوا عليه ظهر عجزهم وقصورهم.

وحيث انتهى القول إلى ههنا فإني أرجع إلى ما كنت بصدد ذكره فأقول:

وأما القبيح من الألفاظ الذي يعاب استعماله فلا يسمى وَحْشِيًّا فقط، بل يسمى الوحشي الغليظ، وسيأتي ذكره، وإذا نظرنا إلى كتاب الله تعالى الذي هو أفصح الكلام وجدناه سهلاً سلساً، وما تضمنه من الكلمات الغريبة يسير جداً، هذا، وقد أنزل في زمن العرب العرباء وألفاظه كلها من أسهل الألفاظ، وأقربها استعمالاً، وكفى به قُدْوَةً في هذا الباب، قال النبيُّ ﷺ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الإِنْجِيلِ مِثْلَ أُمِّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ السَّبْعُ المَثَانِي»، يريد بذلك فاتحة الكتاب؛ وإذا نظرنا إلى ما اشتملت عليه من الألفاظ وجدناها سهلة قريبة المأخذ يفهمها كل

أحد حتى صبيان المكاتب وعوامّ السوقة، وإن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة؛ فإن أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله، وفهم العامة معناه، وهكذا فلتكن الألفاظ المستعملة في سهولة فهمها وقرب متناولها، والمُقْتَدِي بألفاظ القرآن يكتفي بها عن غيرها من جميع الألفاظ المنثورة والمنظومة.

وأما ما ورد من اللفظ الوحشي في الأخبار النبوية فمن جملة ذلك حديث طَهْفَة بن أبي زهير النهدي، وذاك أنه لما قدمت وفود العرب على النبي ﷺ قام طَهْفَة بن أبي زهير فقال: أتيناك يا رسول الله من غَوْرِيِّ تِهَامَةَ على أَكْوَارِ المَيْسِ[١]، ترتمي بِنا الْعِيسُ[٢]، نَسْتَجْلِبُ الصَّبِيرَ[٣]، وَنَسْتَخْلِبُ الخَبِيرَ[٤]، وَنَسْتَعْضِدُ البَرِيرَ[٥]، وَنَسْتَخِيلَ الرُّهَامَ[٦]، ونستخيل الجَهام[٧]، في أرض غائلة

---

(١) الميس ـ بفتح الميم وسكون الياء ـ هو شجر صلب تعمل منه أكوار الإبل ورحالها.

(٢) العيس ـ بكسر العين المهملة ـ الإبل البيض يخالط بياضها شقرة يسيرة، واحدها أعيس وعيساء.

(٣) الصبير ـ بفتح الصاد المهملة ـ سحاب أبيض متراكم متكاثف.

(٤) الخبير: النبات، ونستخلبه: نحصده ونقطعه بالمخلب، والمخلب ـ بزنة منبر ـ المنجل.

(٥) البرير: ثمر الأراك مطلقاً، ويقال: إذا اسودّ وبلغ. ونستعضده: نجنيه للأكل.

(٦) نستخيل: نظن، وهو نستفعل من خال يخال، بمعنى ظن يظن. والرهام: جمع رهمة، وهي المطر الضعيف، ويقال: الرهمة أشد وقعاً من الديمة، ومعنى نستخيلها نظنها خليقة بالمطر، وتقول: أخلت السحابة وأخيلتها واستخيلتها واستخلتها، وقد روى ابن الأثير هذه العبارة كما رواها أخوه هنا في مادة (ر هـ م) من النهاية، وروى في مادة (خ ي ل) «ونستخيل الجهام».

(٧) الجهام: السحاب الذي فرغ ماؤه، وقد وقع في ب، ج «نستجيل» بالجيم، وهو تحريف، وهذه الكلمة قد رويت «نستحيل» بالحاء المهملة، ورويت «نستخيل» بالخاء المعجمة، قال ابن الأثير في النهاية (ج هـ م): «الجهام: السحاب الذي فرغ ماؤه، ومن روى نستخيل ـ بالخاء المعجمة ـ أراد لا تتخيل في السحاب خالاً إلا المطر وإن كان جهاماً لشدة حاجتنا إليه، ومن رواه بالحاء المهملة أراد لا ننظر من السحاب في حال إلا إلى جهام من قلة المطر.

النِّطاءِ(١)، غليظة الْوِطَاءة، قد نَشِف الْمُدْهُنُ(٢)، وَيَبِسَ الْجِعْثِنِ(٣)، وسَقَطَ الأمْلُوجُ(٤)، وَمَاتَ الْعُسْلُوجُ(٥)، وهَلَكَ الْهَدِيُّ(٦) وَفَادَ الْوَدِيُّ(٧)، بَرِئْنا إليك يا رسول الله من الْوَثَنِ والْفِتَنِ، وما يحدث الزمن، لنا دعوة السَّلَام، وشريعة الإسلام، ما طَمَى الْبَحْرُ وقامَ تِعَارُ(٨)، ولنا نَعَم هَمَل أغْفَال(٩) ما تَبِضُّ بِبِلَال(١٠)،

(١) وردت هذه العبارة في ب، ج «غائلة الغطاء» بالغين المعجمة، وصوابه «غائلة النطاء» بالنون، والنطاء ـ بزنة كتاب ـ البعد، وتقول: بلد نطيّ، مثل بعيد وزناً ومعنى، ويروى «غائلة المنطى» والمنطي: مصدر مبمي بمعنى البعد، والمراد بقوله «غائلة النطاء» أنها تغول سالكيها وتهلكهم ببعدها.

(٢) نشف: جف، والمدهن ـ بضم الميم والهاء بينهما دال مهملة ساكنة ـ نقرة في الجبل يجتمع فيها المطر.

(٣) الجعثن ـ بكسر الجيم والثاء المثلثة بينهما عين مهملة ساكنة ـ هو أصل النبات.

(٤) الأملوج: هو نوى المقل، وقيل: هو ورق من أوراق الشجر يشبه الطرفاء والسرو، وقيل: هو ضرب من النبات ورقه كالعيدان؛ وفي رواية «سَقَطَ الأمْلُوجُ مِنَ الْبِكَارَةِ» والبكارة: جمع بكر ـ بفتح فسكون ـ وهو الفتيّ السمين من الإبل: أي سقط عنها ما علاها من السمن برعي الأملوج؛ فسمي السمن نفسه أملوجاً على سبيل الاستعارة، قاله الزمخشري.

(٥) العسلوج: هو الغصن إذا يبس وذهبت طراوته، وقيل: هو الحديث الطلوع من قضبان الشجر، يريد أن الأغصان يبست وهلكت من الجدب، وجمع العسلوج عساليج.

(٦) الهدي ـ على وزن فعيل ـ مثل الهدي ـ بفتح فسكون ـ وهو ما يهدى إلى البيت الحرام من النعم لينحر هناك، وأطلق على جميع الإبل وإن لم تكن هدياً، من باب الإطلاق والتقييد.

(٧) فاد: مات، والوديّ: صغار النخل، واحدته وديّة، ويروى «ومات الوديّ» كما رواه ابن الأثير في النهاية.

(٨) تعار ـ بكسر التاء أوله ـ جبل بعينه، ويجوز صرفه وترك صرفه.

(٩) وقع في الأصول «نعم همل أعقال» والتصحيح عن ابن الأثير في النهاية، والأغفال: التي لا علامة لها ولا سمة، ويقال: المراد بالأغفال هنا التي لا ألبان لها، واحدها غفل، مثل قفل وأقفال.

(١٠) «تبض» تسيل؛ تقول: بض الماء، إذا قطر وسال، والبلال ـ بكسر الباء ـ ما يبل الحلق، يريد ما يقطر منها لبن.

وَوَقِير[١] كَثِير الرَّسَل، قَلِيل الرِّسْل[٢]، أصابتنا سُنَيَّةٌ حَمْراء مُؤْزِلَة[٣] ليس لها عَلَلٌ وَلاَ نَهَل، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَحْضِهَا[٤] ومَخْضِهَا[٥] وَمَذْقِهَا[٦] وفِرْقِهَا[٧]، وابعث راعيها في الدَّثْر[٨] بيَانِعِ الثمر، وافْجُرْ له الثَّمَدَ[٩]، وبارك له في المال والولد، ومن أقام الصلاة كان مسلماً، ومن آتى الزكاة كان مُحْسناً، ومن شهد أن لا إله إلّا الله كان مخلصاً، لكم يا بني نَهْد وَدَائِعُ الشرك[١٠]، ووَضَائِعُ[١١] الْمِلك، لا تُلطِطْ في الزكاة[١٢]، ولا تُلْحِدْ في الحياة[١٣]، ولا تَتَثَاقَلْ عن الصَّلاة.

---

(١) الوقير: الغنم، ويقال: أصحابها، ويقال: القطيع من الضأن خاصة، وقيل: هو الغنم والكلاب والرعاء جميعاً، وكثير الرسل: أي أنها كثيرة الإرسال في المرعى، وهو بفتح الراء والسين جميعاً.

(٢) «قليل الرسل» بكسر الراء وسكون الشين ـ أي اللبن، يريد أن الذي يرسل إلى المرعى من الغنم كثير ولكنه لا لبن فيه، ويقال: إن المعنى أنه شديد التفرق في طلب المرعى.

(٣) مؤزلة ـ بضم الميم وسكون الهمزة، ويروى بضم الميم وفتح الهمزة وتشديد الزاي مكسورة ـ يريد آتية بالأزل، وهو الجدب والشدة والضيق.

(٤) المحض ـ بالحاء المهملة ـ الخالص.

(٥) المخض ـ بالخاء المعجمة ـ ما مخض من اللبن وأخف زبده.

(٦) المذق: المزج والخلط، تقول: مذقت اللبن، إذا خلطته بالماء، والمراد هنا المخلوط.

(٧) الفرق ـ بكسر الفاء، وبعضهم يفتحها ـ مكيال يكال به اللبن.

(٨) الدثر ـ بفتح فسكون ـ المال الكثير، ويقال: المراد به هنا الخصب والنبات.

(٩) الثمد ـ بفتح الثاء والميم ـ القليل، ومعنى أفجره: صيره لهم كثيراً.

(١٠) ودائع الشرك: العهود والمواثيق، ويقال: توادع الفريقان؛ إذا أعطى كل واحد منهما الآخر عهداً ألا يغزوه، واسم ذلك العهد الوديع، وتقول: أعطيته وديعاً؛ تريد عهداً.

(١١) الوضائع: جمع وضيعة، وهي الوظيفة التي تكون على الملك، وهي ما يلزم الناس من أموالهم من الصدقة والزكاة: أي لكم الوظائف التي تلزم المسلمين لا نتجاوزها معكم ولا نزيد عليكم شيئاً منها.

(١٢) لا تلطط في الزكاة: أي لا تمنعها؛ يقال: لط الغريم، وألط، إذا منع الحق؛ ويقال: لط الحق بالباطل؛ إذا ستره، ويروى «لا يلطط في الزكاة» بياء المضارعة وبناء الفعل للمجهول.

(١٣) لا تلحد في الحياة: أي لا يكن منك ميل عن الحق ما دمت حياً، ويروى «ولا يلحد في=

وكتب معه كتاباً إلى بني نَهْدٍ: «من محمد رسول الله إلى بني نَهْدٍ، السلام على من آمن بالله ورسوله، لكم يا بني نَهْدٍ في الوَظِيفَةِ الفريضة[١]، ولكم الفارض والفريش[٢] وذو العنان الركوب والْفَلُوُّ الضَّبِيس[٣]، لا يُمْنَعُ سَرْحكم[٤]، ولا يُعْضَدُ طَلْحُكم[٥]، ولا يُحْبَسُ درّكم، ولا يؤكل أكلكم، ما لم تضمروا الإمْآق[٦]، وتأكلوا الرباق[٧]، من أقَرَّ بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة، ومن أبى فعليه الرِّبْوَة»[٨].

= الحياة» بياء المضارعة وبناء الفعل للمجهول، ويروى «ولا نلطط في الزكاة، ولا نلحد في الحياة» بنون المضارعة مع البناء للمعلوم.

(١) لكم في الفريضة الوظيفة: أي لكم في فريضة الزكاة الهرمة المسنّة، يريد أنها تبقى لكم ولا تؤخذ منكم، ورويت هذه العبارة «عليكم في الوظيفة الفريضة» والمراد على هذا الوجه أن عليهم في كل نصاب من أنصبة الزكاة ما فرض فيه لا يزاد عليها ولا ينقص منها.

(٢) الفريض والفارض: المسن من الإبل. وقد رويت هذه العبارة على ثلاثة أوجه: أولها: «لكم الفارض والفريض» وثانيها: «لكم الفارض والفريش» وهي هكذا في أصول كتابنا هـذا، وثالثها: «لكم العارض والفريش» والعارض ـ بالعين المهملة ـ المريضة، وقيل: هي التي أصابها كسر، ويقال: عرضت الناقة، إذا أصابها كسر أو آفة، والمعنى إنا لا نـأخذ ذات العيب. والفريش: الناقة الحديثة النتاج كالنفساء من النساء، ويقال: الفريش من النبات ما انبسط على وجه الأرض ولم يقم على ساق، ويقال: فرس فريش، إذا حمل عليها صاحبها بعد النتاج بسبع.

(٣) الفلو الضبيس: أي المهر العسر الذي لم يرض.

(٤) السرح ـ بفتح فسكون ـ والسارح، والسارحة: الماشية، والمراد من قوله: «لا يمنع سرحكم» أنها لا تصرف عن مرعى تريده.

(٥) يعضد: يقطع، والطلح: شجر.

(٦) الإمآق: مصدر أماق الرجل، إذا صار ذا حمية وأنفة، وقيل: صار ذا حدة وجراءة، والمراد هنا ما لم تضمروا في أنفسكم الغدر بالعهود ونكث المواثيق، فأطلق السبب وأراد المسبب وروي «الإماق» وهو بوزن كتاب مخفف من الأول.

(٧) الرباق ـ بكسر الراء ـ جمع ربقة، وأصل الربقة عروة من حبل تجعل في عنق البهيمة أو في يدها تمسكها، وقد شبه ما يلزم الأعناق من العهد بالرباق، واستعار الأكل لنقض العهد، فإن البهيمة إذا أكلت ربقتها خلصت من الشد.

(٨) «من أبى فعليه الربوة» أي من امتنع عن الزكاة وتقاعد عن أدائها وجب عليه الزيادة، كعقوبة =

وفصاحة رسول الله ﷺ لا تقتضي استعمال هذه الألفاظ، ولا تكاد توجد في كلامه، إلا جواباً لمن يخاطبه بمثلها، كهٰذا الحديث وما جرى مجراه، على أنه قد كان في زمنه متداولاً بين العرب، ولكنه ﷺ لم يستعمله إلا يسيراً؛ لأنه أعلم بالفصيح والأفصح.

وهذا الكلام هو الذي نَعُدُّه نحن في زماننا وحشياً لعدم الاستعمال، فلا تظن أن الوحشي من الألفاظ ما يكرهه سمعك، ويثقل عليك النطق به، وإنما هو الغريب الذي يقل استعماله، فتارةً يَخِفُّ على سمعك ولا تجد بِهِ كراهة، وتارةً يثقل على سمعك وتجد منه الكراهة، وذلك في اللفظ عيبان: أحدهما: أنه غريب الاستعمال، والآخر: أنه ثقيل على السمع كريه على الذوق، وإذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته، وهو الذي يسمى الوحشي الغليظ، ويسمى أيضاً المتوعِّرَ، وليس وراءه في القبح درجة أخرى، ولا يستعمله إلا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله معرفة هذا الفن أصلاً.

فإن قيل: فما هذا النوع من الألفاظ؟.

قلت: قد ثبت لك أنه ما كرهه سمعك، وثقل على لسانك النطق به، وسأضرب لك في ذلك مثالاً؛ فمنه ما ورد لتأبط شراً في كتاب الحماسة[1]:

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا جَحِيشاً وَيَعْرَوْرِي ظُهُورَ الْمَسَالِكِ[2]

= له، ويروى «من أقر بالجزية فعليه الربوة» أي من امتنع عن الإسلام لأجل الزكاة كان عليه من الجزية أكثر مما عليه من الزكاة.

(١) من كلمة له رواها أبو تمام في الحماسة (انظر شرح التبريزي: ١ - ٩٠)، وأولها قوله:

وَإِنِّي لَمُهْدٍ مِنْ ثَنَائِي فَقَاصِدٌ بِهِ لابْنِ عَمِّ الصِّدْقِ شُمْسِ بْنِ مَالِكِ

(٢) الموماة: المفازة التي لا ماء فيها، وتجمع على الموامي، وجحيشاً: منفرداً، كما قال المؤلف، ووقع في ج «حجيش» بتقديم المهملة، وهو تصحيف، «ويعروري» من قولهم: اعرورى الفرس، إذا ركبه عرياً. وفي الحماسة «ظهور المهالك».

فإن لفظة «جحيش» من الألفاظ المنكرة القبيحة، ويا لله العجب: أليس أنها بمعنى فريد، وفريد لفظة حسنة رائقة، ولو وضعت في هذا البيت موضع جحيش لما اختلّ شيء من وزنه، فتأبط شراً ملوم من وجهين في هذا الموضع: أحدهما: أنه استعمل القبيح، والآخر: أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنها.

ومما هو أقبح منها ما ورد لأبي تمام [من] قوله[١]:

قَدْ قُلْتُ لَمّا اطْلَخَمَّ الأَمْرُ وَانْبَعَثَتْ عَشْوَاءُ تَالِيَةٌ غُبْساً دَهَارِيسَا[٢]

فلفظة «اطْلَخَمَّ» من الألفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين في أنها غريبة وأنها غليظة في السمع كريهة على الذوق، وكذلك لفظة «دهاريس» أيضاً، وعلى هذا ورد قوله من أبيات يصف فرساً من جملتها[٣]:

نِعْمَ مَتَاعُ الدُّنْيَا حَبَاكَ بِهِ أَرْوَعُ لَا حَيْدَرٌ وَلَا جِبْسُ[٤]

فلفظة «حيدر» غليظة، وأغلظ منها قول أبي الطيب المتنبي[٥]:

جَفَخَتْ وَهُمْ لَا يَجْفَخُونَ بِهَا بِهِمْ شِيَمٌ عَلَى الْحَسَبِ الأَغَرِّ دَلَائِلُ[٦]

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها عياش بن لهيعة، وأولها قوله:

أَحْيَا حُشَاشَةَ قَلْبٍ كَانَ مَخْلُوسَاً وَرَمَّ بِالصَّبْرِ عَقْلاً كَانَ مَأْلُوسَاً

(٢) اطلخم: أظلم، عشواء: مؤنث الأعشى، وهو الذي لا يبصر ليلاً، والغبس: جمع غبساء أو أغبس، وهي المظلمة، والدهاريس: الدواهي.

(٣) من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن وهب، وأولها قوله:

هَلْ أَثَرٌ مِنْ دِيَارِهِمْ دَعْسُ حَيْثُ تَلَاقَى الأَجْرَاعُ وَالْوَعْسُ

(٤) حباك: منحك وأعطاك، والأروع: الذي يعجب الإنسان، والحيدر: القصير، والجبس: الجامد الثقيل الروح.

(٥) من قصيدة له يمدح فيها أبا الفضل أحمد بن عبدالله الأنطاكي، وأولها قوله:

لَكِ يَا مَنَازِلُ في الْقُلُوبِ مَنَازِلُ أَقْفَرْتِ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْكِ أَوَاهِلُ

(٦) الشيم: جمع شيمة؛ وهي الخليقة، و «شيم» فاعل جفخت، ونظام البيت: جفخت بهم شيم دلائل على الحسب الأغر وهم لا يجفخون بها.

فإن لفظة «جَفَخَ» مُرَّة الطعم، وإذا مرت على السمع أقشعرً منها، وأبو الطيب في استعمالها كاستعمال تأبط شراً لفظة جحيش؛ فإن تأبط شراً كانت له مندوحة عن استعمال تلك اللفظة، كما أشرنا إليها فيما تقدم، وكذلك أبو الطيب في استعمال هذه اللفظة التي هي جَفَخَتْ؛ فإن معناها فخرت، والْجَفْخُ: الفخر، يقال: جَفَخَ فلان؛ إذا فخر، ولو استعمل عوضاً عن جَفَخَتْ فَخَرَتْ لاستقام وزن البيت وحظي في استعماله بالأحسن، وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على مثل هؤلاء الفحول من الشعراء؟.

وهذا الذي ذكرته وما يجري مجراه من الألفاظ هو الوحشي اللفظ الغليظ الذي ليس له ما يدانيه في قبحه وكراهته، وهذه الأمثلة دليل على ما أوردناه، والعرب إذن لا تُلَام على استعمال الغريب الحسن من الألفاظ، وإنما تلام على الغريب القبيح، وأما الحضري فإنه يلام على استعمال القسمين معاً، وهو في أحدهما أشد مَلَامة من الآخر.

على أن هذا الموضع يحتاج إلى قيد آخر، وذلك شيء استخرجته أنا دون غيري؛ فإن وجدت الغريب الحسن يسوغ استعماله في الشعر، ولا يسوغ في الخطب والمكاتبات، وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهي إلى ما أوردته من الأمثلة، ولربما أنكره بعد ذلك إما عناداً وإما جهلاً؛ لعدم الذوق السليم عنده.

فمن ذلك قول الفرزدق[1]:

وَلَوْلَا حَيَاءٌ زِدْتُ رَأْسَكَ شَجَّةً ... إِذَا سُبِرَتْ ظَلَّتْ جَوَانِبُهَا تَغْلِي[2]

شَرَنْبَثَةٌ شَمْطَاءُ مَنْ يَرْتَمِي بِهَا ... تَشِبْهُ وَلَوْ بَيْنَ الْخُمَاسِيِّ وَالطِّفْلِ[3]

---

(١) من قصيدة له يهجو فيها جريراً، وأولها قوله:

أَلَا ٱسْتَهْزَأَتْ مِنِّي هُنَيْدَةُ أَنْ رَأَتْ ... أَسِيراً يُدَانِي خَطْوَهُ حَلَقُ ٱلْحِجْلِ

(٢) في الديوان والنقائض «زدت رأسكَ هزمة».

(٣) البيتان ليسا متصلين في الديوان والنقائض، وبينهما خمسة أبيات، وفيهما في صدر هذا البيت «شرنبثة شمطاء من ير ما بها».

فقوله «شَرَنْبَثة» من الألفاظ الغريبة التي يسوغ استعمالها في الشعر، وهي هٰهنا غير مستكرهة، إلا أنها لو وردت في كلام منثور من كتاب أو خطبة لعيبت على مستعملها.

وكذلك وردت لفظة «مشمخر» فإن بشراً[1] قد استعملها في أبياته التي يصف فيها لقاءه الأسد، فقال:

وَأَطْلَقْتُ الْمُهَنَّدَ عَنْ يَمِينِي فَقَدَّ لَهُ مِنَ الأَضْلَاعِ عَشْرَا
فَخَرَّ مُضَرَّجاً بِدَمٍ كَأَنِّي هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءً مُشْمَخِرًّا

وعلى هذا ورد قول البحتري في قصيدته التي يصف فيها إيوان كسرى[2]، فقال:

مُشْمَخِرٌّ تَعْلُو لَهُ شُرُفَاتٌ رُفِعَتْ فِي رُؤُوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ

فإن لفظة «مشمخر» لا يحسن استعمالها في الخطب والمكاتبات، ولا بأس بها هٰهنا في الشعر، وقد وردت في خطب الشيخ الخطيب ابن نُبَاتة، كقوله في خطبة يذكر فيها أهوال يوم القيامة، فقال: «اقمطر وبالها، واشمخر نكالها» فما طابت ولا ساغت.

ومن هذا الأسلوب لفظة «الكَنَهْوَر» في وصف السحاب، كقول أبي الطيب[3]:

يَا لَيْتَ بَاكِيَةً شَجَانِي دَمْعُهَا نَظَرَتْ إِلَيْكَ كَمَا نَظَرْتُ فَتَعْذِرَا

---

(١) هذه القصيدة لبديع الزمان الهمذاني نحلها بشر بن عوانة العبدي، وأولها قوله:

أَفَاطِمَ لَوْ شَهِدْتِ بِبَطْنِ خَبْتٍ وَقَدْ لَاقَى الْهِزَبْرُ أَخَاكِ بِشْرَا

(٢) وأولها قوله:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِي وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أبا الفضل بن العميد، وأولها قوله:

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

وَتَــرَى الْفَضِـيلَةَ لَا تَــرُدُّ فَـضِيـلَةً   الشَّمْسَ تَشْرُقُ وَالسَّحَابَ كَنَهْوَرَا[١]

فلفظة «الكنهور» لا تعاب نظماً، وتعاب نثراً، وكذلك يجري الأمر في لفظة «العرمس» وهي اسم الناقة الشديدة؛ فإن هذه اللفظة يسوغ استعمالها في الشعر، ولا يعاب مستعملها، كقول أبي الطيب أيضاً[٢]:

وَمَهْمَــهٍ جُبْتُــهُ عَـلَى قَــدَمِي   تَعْجِـزُ عَنْهُ الْعَـرَامِسُ الذُّلُـلُ[٣]

فإنه جمع هذه اللفظة، ولا بأس بها، ولو استعملت في الكلام المنثور لما طابت ولا ساغت، وقد جاءت موحدة في شعر أبي تمام، كقوله[٤]:

هِيَ الْعَـرمسُ الْوَجْنَـاءُ وابنُ ملمـةٍ   وَجَأْشٌ عَلَى ما يُحْدِثُ الدَّهْرُ خافِضُ[٥]

وكذلك ورد قوله أيضاً:

يَــا مُـوضِــعَ الشَّــدَنِيـةِ الــوَجْنَــاءِ[٦]

---

(١) نصب «الشمس والسحاب» بفعل مضمر، كأنه قال: وترى الشمس والسحاب، وكنهور: حال.

(٢) من قصيدة يمدح فيها بدر بن عمار، وأولها قوله:

أَبْعَــدُ نَـأْيِ الْمَلِيحَـةِ الْبَخَـلُ   فِـي الْبُـعْـدِ مَـا لَا تُـكَـلَّفُ الإِبِـلُ

(٣) المهمه: ما بعد من الأرض واتسع، وجبته: قطعته، والعرامس: النوق الصلاب الشداد، والذلل: المذللة بالعمل، واحدها ذلول.

(٤) من قصيدة له يمدح فيها دينار بن عبدالله:

مَهَــاةَ النَّقَــا لَــوْلَا الشَّــوَى وَالْمَــآبِضُ   وَأَنْ مَحَضَ الإِعْـرَاضَ لِي مِنْـكِ مَـاحِضُ

(٥) الذي في الديوان (١٨٤ بيروت) «هي الحرة الوجناء».

(٦) هذا صدر بيت هو مطلع قصيدة يمدح فيها خالد بن يزيد الشيباني، وعجزه قوله:

وَمُـصَــارِعَ   الإِدْلَاجِ   وَالإِسْــرَاءِ

وموضع: اسم فاعل من أوضع إذا سير ناقته سيراً سريعاً.

فإن «الشدنية» لا تعاب شعراً، وتعاب لو وردت في كتاب أو خطبة، وهكذا يجري الحكم في أمثال هذه الألفاظ المشار إليها.

وعلى هذا فاعلم أن كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنثور من الألفاظ يسوغ استعماله في الكلام المنظوم، وليس كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنظوم يسوغ استعماله في الكلام المنثور، وذلك شيء استنبطته، واطلعت عليه؛ لكثرة مُمَارستي لهذا الفن، ولأن الذوق الذي عندي دَلَّني عليه؛ فمن شاء فليقلدني فيه، وإلا فَلْيُدْمِنِ النظر حتى يطَّلع على ما اطَّلعت عليه، والأذهان في مثل هذا المقام تتفاوت.

وقد رأيت جماعةً من مُدَّعِي هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يَعِزّ فهمه، وَيَبْعُدُ مُتَناوله، وإذا رأوا كلاماً وَحْشِيًّا غامض الألفاظ يُعْجَبون به ويصفونه بالفصاحة، وهو بالضد من ذلك؛ لأن الفصاحة هي الظهور والبيان؛ لا الغموض والخفاء.

وسأبين لك ما تعتمد عليه في هذا الموضع؛ فأقول:

الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جَزْلة ورقيقة، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه.

فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، وأشباه ذلك.

وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد، وفي استجلاب المودَّات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك.

ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعِّراً عليه عنجهية البداوة، بل أعني بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع، وكذلك لست أعني بالرقيق أن يكون ركيكاً سفسفاً، وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس، كقول أبي تمام(١):

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها إسماعيل بن شهاب ويشكره؛ وأولها قوله:

=

نَـاعِمَـات الأَطْـرَافِ لَـوْ أَنَّهـا تُلْـــبَسُ أَغْنَتْ عَنِ المـلاَءِ الـرِّقَـاقِ[1]

وسأضرب لك مثالاً للجزل من الألفاظ والرقيق، فأقول:

انظر إلى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط، وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا، وما جرى هذا المجرى؛ فإنك لا ترى شيئاً من ذلك وحشيَّ الألفاظ، ولا متوعراً، ثم انظر إلى ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة، والملاطفات في خطاب الأنبياء، وخطاب المنيبين والتائبين من العباد، وما جرى هذا المجرى؛ فإنك لا ترى شيئاً من ذلك ضعيف الألفاظ ولا سفسفاً.

فمثال الأول: ـ وهو الجزل من الألفاظ ـ قوله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ، وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا بَلَى وَلٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ، قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ، وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾.

= أَيُّهَـا الْبَـرْقُ بِتْ بِـأَعْلَى الْـبِـرَاقِ وَاغْـدُ فِـيـهَـا بِـوَابِـلٍ غَـيْـدَاقِ

وانظر الديوان (٣٢٠ بيروت).

(١) قبل هذا البيت قوله:

مَـا تَـمَلَّيْتُ مِثْـلَ ذَاكَ الْـحِجَى الْـمُـغْــرِقِ فِي الْـحِلْمِ وَالسَّجَـايَـا الْـعِتَـاقِ

مَـعَ مَا قَـدْ طَـوَيْتُ مِنْ سَـائِـرِ الـنَّـا سِ وَمَـا قَـدْ نَـشَـرْتُ فِـي الآفَـاقِ

فتأمل هذه الآيات المضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله وذكر النار والجنة. وانظر هل فيها لفظة إلا وهي سَهْلة مستعذبة على ما بها من الجزالة.

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

وأما مثال الثاني: - وهو الرقيق الألفاظ - فقوله تعالى في مخاطبة النبي ﷺ: ﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ إلى آخر السورة، وكذلك قوله تعالى في ترغيب المسألة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وهكذا ترى سبيل القرآن الكريم في كلا هذين الحالين من الجزالة والرقة، وكذلك كلام العرب الأول في الزمن القديم مما ورد عنها نثراً، ويكفي من ذلك كلام قبيصة بن نعيم لما قدم على امرىء القيس في أشياخ بني أسد يسألونه العفو عن دم[1] أبيه، فقال: إنك في المحل والقدر من المعرفة[2] بتصرف الدهر وما تحدثه أيامه وتنتقل به أحواله بحيث لا تحتاج لا تذكير من واعظ، ولا تبصير من مُجَرِّب[3] ولك من سُؤْدُد مَنْصِبك وشرف أعْرَاقك وكرم أصلك في العرب محتد[4] يَحْتَمِل ما حُمِل عليه من إقالة الْعَثْرَة ورُجُوع عن الهَفْوَة[5]، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجَدَتْ عندك من فضيلة الرأي وبصيرة الفهم وكرم الصفح[6]

---

(١) وردت هذه القصة، ومحاورة قبيصة وامرىء القيس في الأغاني (ج ٩ ص ١٠٤ دار الكتب، فانظرها هناك).

(٢) في الأغاني «والمعرفة».

(٣) في الأغاني «بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ ولا تذكرة مجرب».

(٤) في الأغاني «محتمل».

(٥) في الأغاني «عن هفوة».

(٦) في الأغاني «وكرم الصفح في الذي كان من الخطب الجليل».

ما يطول رغباتها ويستغرق طلباتها، وقد كان الذي كان من الخطب الجليل الذي عَمَّتْ رَزِيَّته نزاراً واليمن ولم تخصص بذلك كندة دوننا للشرف البارع الذي كان لحجر[١]، ولو كان يفدي هالك بالأنفس الباقية بعده لما بَخِلت كرائمنا بها على مثله[٢]، ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه، ولا يلحق أقصاه أدناه، فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجبَ عليك في إحدى خلال ثلاث: إما أن اخترت من بني أسد أشرَفَها بيتاً، وأعلاها في بناء المكرمات صَوْتاً، فَقُدْنَاهُ إليك بِنِسْعَةٍ تذهب مع شَفَرَاتِ حُسَامك بباقي قُصْرَته[٣]، فنقول: رجل امْتُحِن بها لك عزيز فلم يَسْتَلَّ سَخِيمته إلا بمكنته[٤] من الانتقام، أو فداء بما يروح على بني أسد من نَعَمِها فهي ألوف تجاوز الحسبة[٥]، فكان ذلك فداء رجعت به القُضُب إلى أجفانها لم يرددها تسليط الإحن على الْبُرَآء، وإما أن وَادَعْتَنَا إلى أن تضع الحوال، فتُسْدل الأزر، وتعقد الخمر فوق الرايات، قال: فبكى ساعة ثم رفع رأسه، فقال: لقد علمت العرب أنه لا كفء لحجر في دم، وإني لن أعتاض [به] جملاً ولا ناقة فأكتسب به سُبَّة الأبد، وفَتَّ الْعَضُد، وأما النَّظِرَة فقد أوجبتها الأجِنَّة في بطون أمهاتها، ولن أكون لَعَطَبِها سَبَباً، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل في القلوب حَنَقَاً، وفوق الأسنة عَلَقاً:

إِذَا جَالَتِ الْحَرْبُ فِي مَأْزِقٍ تُصَافِحُ فِيهِ الْمَنَايَا النُّفُوسَا[٦]

أتقيمون أم تنصرفون؟ قالوا: بل ننصرف بأسوأ الاختيار، وأبلى الاجترار، بمكروه وأذِيَّة، وحرب وبَلِيَّة، ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل:

---

(١) في الأغاني «كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم وإخاء الحمد وطيب الشيم».

(٢) في الأغاني زيادة «ولفديناه منه».

(٣) كذا في الأصول، والذي في الأغاني «تذهب مع شفرات حسامك قصدته» والقصدة ـ بفتحات ـ العنق، ولما في أصول هذا الكتاب وجه ولكنه بعيد.

(٤) في الأغاني «إلا بتمكينه من الانتقام».

(٥) في الأصول «الخمسة» وهو تحريف، والتصويب عن عدة مراجع منها الأغاني.

(٦) رواية الأغاني «إذا جالت الخيل».

لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَوخِمِ الْوِرْدَ إِنْ غَـدَتْ   كَتَائِبُنا فِي مَـأْزِقِ الحرب تمـطر[١]

فقال امرؤ القيس: لا والله، ولكن أستعذبه، فرُوَيْداً ينفرج لك دُجَاها عن فرسان كندة وكتائب حمير، ولقد كان ذكر غير هذا بي أولى؛ إذ كُنْتَ نازلاً بربعي، ولكنك قلت فأوجبت[٢] [فقال قبيصة: ما نتوقع فوق المعاتبة والإعتاب][٣] فقال امرؤ القيس: هو ذاك.

فلتنظر إلى هذا الكلام من الرجلين قبيصة وامرىء القيس، حتى يدع المتعمقون تعمقهم في استعمال الوحشي من الألفاظ؛ فإن هذا الكلام قد كان في الزمن القديم قبل الإسلام بما شاء الله، وكذلك كلام كل فصيح من العرب مشهور، وما عداه فليس بشيء، وهذا المشار إليه هُهنا هو جَزْل كلامهم، وعلى ما تراه من السلاسة والعذوبة.

وإذا تصفحت أشعارهم أيضاً وجدت الوحشيَّ من الألفاظ قليلاً بالنسبة إلى المسلسل في الفم والسمع، ألا ترى إلى هذه الأبيات الواردة للسموأل بن عاديا، وهي:

إِذَا الْمَـرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللؤْمِ عِـرْضُهُ   فَـكُـلُّ رِدَاءٍ يَـرْتَـدِيـهِ جَـمِـيـلُ
وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا   فَـلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الـثَّـنَـاءِ سَـبِـيـلُ
تُـعَـيِّـرُنَـا أَنَّـا قَـلِيـلٌ عَـدِيـدُنَـا   فَـقُـلْتُ لَـهَـا إِنَّ الْـكِـرَامَ قَـلِيـلُ
وَمَـا ضَـرَّنَـا أَنَّـا قَلِيـلٌ وَجَـارُنَـا   عَـزِيـزٌ وَجَـارُ الأَكْـثَـرِيـنَ ذَلِـيـلُ
يُقَـرِّبُ حُبُّ الْمَـوْتِ آجَـالَنَـا لَنَـا   وَتُـكْـرِهُـهُ آجَـالُـهُـمْ فَـتَـطُولُ
وَمَـا مَـاتَ مِنَّـا سَيِّـدٌ حَتْفَ أَنْفِـهِ   وَلاَ طُـلَّ مِـنَّـا حَيْثُ كَـانَ قَـتِـيـلُ

---

(١) رواية الأغاني «لعلك أن تستوخم الموت» وفيه «في مأزق الموت».
(٢) في الأغاني «فأجبت»، ولما في أصول هذا الكتاب وجه.
(٣) سقطت هذه العبارة من أصول هذا الكتاب، فلم يبن الكلام، حتى اضطر مصحح نسخة بولاق إلى أن يكتب في هامش النسخة «قوله ولكنك قلت إلخ، كذا في النسخ، والظاهر أن يقول: فقال قبيصة ولكنك إلخ» وهذا الذي استظهره غير سديد.

عَلَوْنَا إلَى خَيْرِ الظُّهُورِ وَحَطَّنَا ... لِوَقْتٍ إلَى خَيْرِ الْبُطُونِ نُزُولُ
فَنَحْنُ كماءِ المُزْنِ ما في نِصَابِنَا ... كَهَامٌ وَلاَ فِينَا يُعَدُّ بَخِيلُ
إذَا سَيِّدٌ مِنَّا خَلاَ قَامَ سَيِّدٌ ... قَؤُولٌ لِمَا قَالَ الْكِرَامُ فَعُولُ
وَأَيَّامُنَا مَشْهُورَةٌ في عَدُوِّنَا ... لها غُرَرٌ مَشْهُورَةٌ وَحُجُولُ
وَأَسْيَافُنا في كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ ... بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ
مُعَوَّدَةٌ ألاَّ يُسَلَّ نِصَالُهَا ... فَتُغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ

فإذا نظرنا إلى ما تضمنته من الجزالة خلناها زُبَراً من الحديد، وهي مع ذلك سهلة مستعذبة غير فَظة ولا غليظة.

وكذلك قد ورد للعرب في جانب الرقة من الأشعار ما يكاد يذوب لرقته، كقول عُرْوَةَ بن أذينة[١]:

إنَّ الَّتِي زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّهَا ... خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوًى لَهَا
بَيْضَاءُ بَاكَرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا ... بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وَأَجَلَّهَا
حَجَبَتْ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي ... مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقَلَّهَا
وَإِذَا وَجَدْتُ لها وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ ... شَفَعَ الضَّمِيرُ إلى الْفُؤَادِ فَسَلَّهَا

وكذلك ورد قول الآخر[٢]:

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالْعِيسُ تَهْوِي ... بِنَا بَيْنَ المنِيفَةِ فَالضِّمَارِ
تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ ... فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ
أَلاَ يَا حَبَّذَا نَفَحَاتُ نَجْدٍ ... وَرَيَّا رَوْضِهِ غِبَّ الْقِطَارِ[٣]

---

(١) روى هذه الأبيات أبو تمام في ديوان الحماسة (انظر شرح التبريزي: ٣ - ٢١١).
(٢) وهذه الأبيات أيضاً قد رواها إلا آخرها بيتاً أبو تمام في ديوان أبي الحماسة (انظر شرح التبريزي: ٣ - ٢١٤).
(٣) في الحماسة «بعد القطار».

وَأَهْلُكَ إِذْ يَحُلُّ الحَيُّ نَجْداً وَأَنْتَ عَلَى زَمَانِكَ غَيْرُ زَارِ
شُهُورٌ يَنْقَضِينَ وَمَا شَعَرْنَا بِأَنْصَافٍ لَهُنَّ وَلَا سِرَارِ
فَأَمَّا لَيْلُهُنَّ فَخَيْرُ لَيْلٍ وَأَطْيَبُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّهَارِ

ومما ترقص الأسماع له، ويرن على صفحات القلوب، قول يزيد بن الطَّثْرِيَّة في محبوبته من جرم:

بِنَفْسِيَ مَنْ لَوْ مَرَّ بَرْدُ بَنَانِهِ عَلَى كَبِدِي كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلُهْ
وَمَنْ هَابَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهِبْتُهُ فَلَا هُوَ يُعْطِينِي وَلَا أَنَا سَائِلُهْ

وإذا كان هذا قول ساكن في الفلاة لا يرى إلا شِيحَةً أو قَيْصُومة، ولا يأكل إلا ضَبًّا أو يَرْبُوعاً، فما بَالُ قوم سكنوا الحضر، ووجدوا رقة العيس، يتعاطَوْنَ وَحْشِيَّ الألفاظ، وشَظَف العبارات، ولا يُخْلد إلى ذلك إلا إما جاهل بأسرار الفصاحة، وإما عاجز عن سلوك طريقها؛ فإنَّ كل أحد ممن شَدَا شيئاً مِنْ علم الأدب يمكنه أن يأتي بالوحشيِّ من الكلام، وذاك أنه يلتقطه من كتب اللغة، أو يتَلَقَّفُه من أربابها، وأما الفصيح المتَّصِف بصفة الملاحة فإنه لا يقدر عليه، ولو قدر عليه لما علم أين يضع يده في تأليفه وسبكه.

فإنْ مَارَى في ذلك مُمَارٍ فلينظر إلى أشعار علماء الأدب ممن كان مشاراً إليه حتى يعلم صحة ما ذكرته.

هذا ابن دريد، قد قيل: إنه أشعر علماء الأدب، وإذا نظرت إلى شعره وجدته بالنسبة إلى شعر الشعراء المجيدين منحَطًّا، مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الأدب عُشْرِ مِعْشار ما علمه.

هذا العباس بن الأحنف، قد كان من أوائل الشعراء المجيدين، وشعرُهُ كمرِّ نسيم على عَذَبات أغصان، وكلؤلؤات طَل على طُرَر ريحان، وليس فيه لفظة واحدة غريبة يحتاج إلى استخراجها من كتب اللغة، فمن ذلك قوله:

وَإِنِّي لَيُرْضِينِي قَلِيلُ نَوَالِكُمْ وَإِنْ كَانَ لَا أَرْضَى لَكُمْ بِقَلِيلِ

بِحُرْمَةِ مَا قَدْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكُم ... مِنَ الْوُدِّ إلاَّ عُدْتُمُ بِجَمِيلِ

وهكذا ورد قوله في فَوْزَ التي كان يُشَبِّب بها في شعره:

يَا فَوْزُ، يَا مُنْيَةَ عَبَّاسِ ... قَلْبِي يُفَدِّي قَلْبَكِ الْقَاسِي

أَسَأْتُ إِذْ أَحْسَنْتُ ظَنِّي بِكُمْ ... وَالْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ

يُقْلِقُنِي شَوْقِي فَآتِيكُمُ ... وَالْقَلْبُ مَمْلُوءٌ مِنَ الْيَأْسِ

وهل أعْذَب من هذه الأبيات وأعْلق بالخاطر وأسْرَى في السمع؟ ولمثلها تخف رواجح الأوزان، وعلى مثلها تَسْهَر الأجفان، وعن مثلها تتأخر السوابق عند الرهان، ولم أُجْرها بلساني يوماً من الأيام إلا ذكرت قول أبي الطيب المتنبي.

إذَا شَاءَ أنْ يَلْهُو بِلِحْيَةِ أحْمَقٍ ... أَرَاهُ غُبَارِي ثُمَّ قَالَ لَهُ آلْحَق

ومن الذي يستطيع أن يسلك هذه الطريق التي هي سَهْلة وَعْرة قريبة بعيدة؟.

وهذا أبو العتاهية؛ كان في عزة الدولة العباسية، وشعراء العرب إذْ ذاك موجودون كثيراً، وكانت مدائحه في المهديّ بن المنصور، وإذا تأملت شعره وجدته كالماء الجاري رقَّةَ ألفاظ ولَطَافَةَ سَبْك، وليس بركيك ولا وَاهٍ.

وكذلك أبو نواس، وبهذا قُدِّمَ على شعراء عصره، وناهيك بعصره وما جمعه من فحول الشعراء، ويكفي منهم مُسْلم بن الوليد الذي كان فارسَ الشعر، وله الأسلوب الغريب العجيب، غير أنه كان يَتَعَنْجَه في أكثر ألفاظه.

ويحكى أن أبا نواس جلس يوماً إلى بعض التجار ببغداد هو وجماعة من الشعراء، فاستسقى ماء، فلما شرب قال:

عَذُبَ المَاءُ وَطَابَا

ثم قال: أجيزوه، فأخذ أولئك الشعراء يتردَّدون في إجازته، وإذا هم بأبي العتاهية، فقال: ما شأنكم مجتمعين؟ فقالوا: هو كيت وكيت، وقد قال أبو نواس:

عَذُبَ المَاءُ وَطَابَا

فقال أبو العتاهية:

* حَـبَّـذَا الْـمَـاءُ شَـرَابَـا *

فعجبوا لقوله على الفور من غير تَلَبُّثٍ.

وكل شعر أبي العتاهية كذلك سهل الألفاظ، وسأورد منه ههنا شيئاً يستدل به على سلاسة طبعه وترويق خاطره:

فمن ذلك قصيدته التي يمدح فيها المهدي؛ ويشبِّب فيها بجاريته عتب:

أَلَا مَـا لِسَيِّـدَتِي مَـا لـهـا ... تُـدِلُّ فـأحْـمِـلُ إدْلَالَـهـا

أَلا إنَّ جَـارِيَـةً لِـلإمَـا ... مِ قَـدْ سَكَنَ الحُسْنُ سِرْبَالَهَا

لَـقَـدْ أتْعَبَ اللَّهُ قَلْبِي بِـهَـا ... وَأتْـعَبَ فِي اللَّوْمِ عُـذَّالَـهَـا

كَـأَنَّ بِـعَيْـنَيَّ فِي حَيْـثـمـا ... سَلَكْتُ مِنَ الأَرْضِ تِمْثَـالَهَا

فلما وصل إلى المديح قال من جملته:

أَتَـتْـهُ الْـخِـلَافَـةُ مُـنْـقَـادَةً ... إلَـيْـهِ تُـجَـرِّرُ أَذْيَـالَـهَـا

فَـلَمْ تَـكُ تَـصْـلُحُ إلَّا لَـهُ ... وَلَـمْ يَـكُ يَـصْـلُحُ إلَّا لَـهَـا

وَلَـوْ رَامَـهَـا أحَـدٌ غَـيْـرُهُ ... لَـزُلْـزِلَتِ الأَرْضُ زِلْـزَالَهَـا

وَلَـوْ لَمْ تُـطِعْـهُ نياتُ الْقُلُوبِ ... لَـمَـا قَبِـلَ الـلَّهُ أَعْـمَـالَـهَـا

ويحكى أن بَشَّاراً كان شاهداً عند إنشاد أبي العتاهية هذه الأبيات، فلما سمع المديح قال: انظروا إلى أمير المؤمنين، هل طار عن أعواده؟ يريد هل زال عن سريره طَرَباً بهذا المديح، ولعمري إنَّ الأمر كما قال بشار، وخير القول ما أسكر السامع حتى ينقله عن حالته، سواء كان في مديح أو غيره، وقد أشرت إلى ذلك فيما يأتي من هذا الكتاب عند ذكر الاستعارة؛ فليؤخذ من هناك.

وآعلم أن هذه الأبيات المشار إليها ههنا من رقيق الشعر غزلاً ومديحاً، وقد أذعن لمديحها الشعراء من أهل ذلك العصر، ومع هذا فإنك تراها من السلاسة

واللطافة على أقصى الغايات، وهذا هو الكلام الذي يسمى السَّهْل الممتنع، فتراه يُطْمِعُك ثم إذا حاولت مُمَاثلته رَاغَ عنك كما يَرُوغُ الثَّعْلَبُ، وهكذا ينبغي أن يكون من خاض في كتابة أو شعر؛ فإن خير الكلام ما دخل الأذن بغير إذْنٍ.

وأما البداوة والعنجهية في الألفاظ فتلك أمة قد خَلَتْ؛ ومع أنها قد خَلَتْ وكانت في زمن العرب العاربة فإنها قد عيبت على مستعملها في ذلك الوقت، فكيف الآن وقد غلب على الناس رقة الحضر؟.

وبعد هذا، فاعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مَهَابة وَوَقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذي دَمَاثة ولين أخلاق ولطافة مزاج، ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم، واسْتَلأموا[١] سِلاَحهم، وتأهَّبوا للطِّراد، وترى ألفاظ الْبُحْتُرِي كَأَنَّها نساء حِسان عليهنّ غَلاَئل[٢] مُصَبَّغات وقد تحلَّيْنَ بأصناف الحلي، وإذا أنعمت نظرك فيما ذكرته ههنا وجدتني قد دللتك على الطريق، وضربت لك أمثالاً مناسبة.

واعلم أنه يجب على الناظم والناثر أن يجتنبا ما يضيق به مجال الكلام في بعض الحروف، كالثاء والذال والخاء والشين والصاد والطاء والظاء والغين؛ فإنْ في الحروف الباقية مندوحة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الأحرف المشار إليها، والناظم في ذلك أشدُّ مَلاَمة؛ لأنه يتعرّض لأن ينظم قصيدة ذات أبيات متعددة فيأتي في أكثرها بالبشع الكريه الذي يَمُجُّه السمع لعدم استعماله، كما فعل أبو تمام في قصيدته الثائية التي مطلعها.

قِفْ بالطُّلُولِ الدَّارِسَاتِ عُلاَثَا[٣]

---

(١) استلأموا: لبسوا اللأمة؛ واللأمة ـ بفتح اللام وسكون الهمزة ـ هي الدرع المحكمة الملتئمة.

(٢) الغلائل: جمع غلالة ـ بالغين المعجمة ـ وهي شعار يلبس تحت الثوب.

(٣) هذا صدر البيت وعجزه قوله:

أضحَتْ حِبَالُ قَطِينِهِنَّ رِثَاثَا

وانظر الديوان (ص ٦٣ بيروت). و «علاثًا» منادى مرخم، وأصله علاثة.

وكما فعل أبو الطيب المتنبي في قصيدته الشينية التي مطلعها:

مَبِيتِي مِنْ دِمَشْقَ عَلَى فِرَاشٍ[١]

وكما فعل ابن هانىء المغربي في قصيدته الخائية التي مطلعها:

سَرَى وَجَنَاحُ اللَّيْلِ أَقْتَمُ أَفْتَخُ[٢]

والناظم لا يعاب إذا لم يَنْظُمْ هذه الأحرف في شعره، بل يعاب إذا نظمها وجاءت كريهة مُسْتَبْشَعة، وأما الناثر فإنه أقرب حالاً من الناظم، لأن غاية ما يأتي به سَجْعَتان أو ثلاث أو أربع على حرف من هذه الأحرف، وما يَعْدَم في ذلك ما يَرُوق إذا كان بهذه العدة اليسيرة، فإن كلفت أيها الشاعر أن تنظم شيئاً على هذه الحروف فقل: هذه الحروف هي مَقَاتل الفصاحة، وعُذْري واضح في تركها، فإن واضعَ اللغة لم يضع عليها ألفاظاً تَعْذُب في الفم، ولا تلذ في السمع والذي هو بهذه الصفة منها فإنما هو قليل جداً، ولا يصاغ منه إلا مقاطيع أبيات من الشعر، وأما القصائد الْمُقَصَّدة فلا تُصَاغ منه، وإن صيغت جاء أكثرها بَشِعاً كريهاً، على أن هذه الحروف مُتَفَاوتة في كراهة الاستعمال، وأشدها كراهية أربعة أحرف، وهي الخاء والصاد والظاء والغين، وأما الثاء والذال والشين والطاء فإن الأمر فيهن أقربُ حالاً، وهذا موضع ينبغي لصاحب الصناعة أن يُنْعِم نظره فيه، وفيما أشرنا إليه كفاية للمتعلم؛ فليعرفه وليقف عنده.

---

(١) هي قصيدة يمدح فيها أبا العشائر علي بن الحسين بن حمدان، وهذا الذي ذكره المؤلف صدر مطلعها، وعجزه قوله:

حَشَاهُ لِي بِحَرٍّ حَشَايَ حَاشِ

(٢) هي قصيدة يمدح فيها المعز الفاطمي، وهذا الذي ذكره المؤلف صدر مطلعها وعجزه قوله:

حَبِيبٌ ضَجِيعٌ بِالْعَبِيرِ مُضَمَّخُ

والأقتم: المظلم، والأفتخ: المستطيل.

ومن أوصاف الكلمة ألّا تكون مُبْتَذَلة بين العامة، وذلك ينقسم قسمين:

الأول: ما كان من الألفاظ دالًّا على معنى وضع له في أصل اللغة فغيرته العامة وجعلته دالًّا على معنى آخر، وهو ضربان:

الأول: ما يكره ذكره، كقول أبي الطيب(١):

أَذَاقَ الْغَـوَانِي حُسْنُـهُ مَـا أَذَقْنَنِي ... وَعَفَّ فَجَـازَاهُنَّ عَنِّيَ بِالصَّـرْمِ (٢)

فإن لفظة «الصرم» في وضع اللغة هو الْقَطْع، يقال: صرمه إذا قطعه، فغيرتها العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره، فأبدلوا السين صاداً، ومن أجل ذلك استكره استعمال هذه اللفظة، وما جرى مجراها، لكن المكروه منها ما يستعمل على صيغة الاسمية، كما جاءت في هذا البيت، وأما إذا استعملت على صيغة الفعل كقولنا صَرَمَه وصَرَمْتُه وتَصْرِمه فإنها لا تكون كريهة؛ لأن استعمال العامة لا يدخل في ذلك، وهذا الضرب المشار إليه لا يعاب البدوي على استعماله كما يعاب المحتضر؛ لأن البدويّ لم تتغير الألفاظ في زمنه، ولا تصرفت العامة فيها كما تصرفت في زمن المحتضرة من الشعراء؛ فمن أجل ذلك عيب استعمال لفظة الصرم وما جرى مجراها على الشاعر المحتضر، ولم يعب على الشاعر المتبدي(٣)، ألا ترى إلى قول أبي صَخْر الهذلي(٤):

قَدْ كَانَ صُـرْمٌ فِي الْمَمَاتِ لَنَـا ... فَعَجِلْتِ قَبْـلَ الْمَوْتِ بِـالصُّـرْمِ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها الحسين بن إسحاق التنوخي، وأولها قوله:

مَلَامُ النَّوَى في ظُلْمِهَا غَايَةُ الظُّلْمِ ... لَعَلَّ بِهَا مِثْلَ الَّذِي بِي مِنَ السُّقْمِ

(٢) رواية الديوان في عجز هذا البيت هكذا:

وَعَـفَّ فَـجَـازَاهُـنَّ عَـنِّـي عَـلَى الصُّـرْمِ

(٣) في نسخة «المبتدي» بتقديم الباء، وهي توافق «المحتضر».

(٤) من كلمة له رواها أبو تمام في ديوان الحماسة وأولها قوله:

بِـيَـدِ الَّـذِي شَـعَـفَ الْـفُـؤَادَ بِـكُـمْ ... تَـفْـرِيـجُ مَـا أَلْـقَـى مِـنَ الْـهَـمِّ

فإن هذا لا يعاب على صخر كما عيب على المتنبي قوله في البيت المقدم ذكره.

وقد صنف الشيخ أبو منصور بن أحمد البغدادي المعروف بابن الجواليقي كتاباً في هذا الفن، ووسمه بإصلاح ما تغلط فيه العامة؛ فمنه ما هذا سبيله، وهو الذي أنكره استعماله؛ لكراهته، ولأنه مما لم ينقل عن العرب، فهذان عيبان.

وأما الضرب الثاني، وهو أنه وضع في أصل اللغة لمعنى فجعلته العامة دالاً على غيره، إلا أنه ليس بمستقبح ولا مستكره، وذلك كتسميتهم الإنسان ظريفاً إذا كان دَمْثَ الأخلاق حسن الصورة أو اللباس، أو ما هذا سبيله، والظَّرْف في أصل اللغة مختص بالنطق فقط.

وقد قيل في صفات خلق الإنسان ما أذكره ههنا، وهو الصبَّاحة في الوجه، الوَضَاءَة في البشرة، الجَمَال في الأنف، الحَلاَوَة في العينين، الْمَلاَحة في الفم، الظَّرْف في اللسان، الرَّشاقة في القَدّ، اللَّباقة في الشمائل، كمال الحسن في الشعر؛ فالظرف إنما يتعلق بالنطق خاصة، فغيرته العامة عن بابه.

وممن غلط في هذا الموضع أبو نواس حيث قال:

اخْتَصَمَ الْجُودُ وَالْجَمَالُ فِيكَ فَصَارَا إِلَى جِدَالِ
فَقَالَ هٰذَا يَمِينُهُ لِي لِلْعُرْفِ وَالْبَذْلِ وَالنَّوَالِ
وَقَالَ هٰذَاكَ وَجْهُهُ لِي لِلظَّرْفِ وَالحُسْنِ وَالْكَمَالِ
فَافْتَرَقَا فِيكَ عَنْ تَرَاضٍ كِلاَهُمَا صَادِقُ المَقَالِ

وكذلك غلط أبو تمام، فقال[1]:

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف، ويعرض بوال ولي الثغر بعده، وأولها قوله:

أَطْلاَلُهُمْ سُلِبَتْ دُمَاهَا الْهِيفَا وَاسْتَبْدَلَتْ وَحْشاً بِهِنَّ عُكُوفَا

لَـكَ هَضْبَـةُ الْحِلْمِ الَّتِي لَـوْ وَازَنَتْ أَجَـأً إِذَنْ ثَـقُلَتْ وَكَـانَ خَـفِـيـفَـا[١]
وَحَـلَاوَةُ الشِّيَـمِ الَّتِي لَـوْ مَـازَجَتْ خُلُقَ الـزَّمَـانِ الْفَـدْمِ عَـادَ ظَـرِيفَـا

فأبو نواس غلط ههنا في أنه وصف الوجه بالظرف، وهو من صفات النطق، وأبو تمام غلط في أنه وصف الخلق بالظرف، وهو من صفات النطق أيضاً، إلا أن هذا غلط لا يوجب في هذه اللفظة قبحاً، لكنه جهل بمعرفة أصلها في وضع اللغة.

القسم الثاني مما ابتذلته العامة؛ وهو الذي لم تغيره عن وصفه، وإنما أنكر استعماله لأنه مبتذل بينهم، لا لأنه مستقبح، ولا لأنه مخالف لما وضع له، وفي هذا القسم نظر عندي؛ لأنه إن كان عبارةً عما يكثر تداوله بين العامة فإنَّ من الكثير المتداول بينهم ألفاظاً فصيحة، كالسَّماءِ والأرض والنار والماء والحجر والطين، وأشباه ذلك، وقد نطق بها القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه، وجاءت في كلام الفصحاء نظماً ونثراً، والذي ترجح في نظري أنّ المراد بالمبتذل من هذا القسم إنما هو الألفاظ السخيفة الضعيفة، سواء تداولتها العامة أو الخاصة.

فمما جاء منه قول أبي الطيب المتنبي[٢]:

وَمَلْمُومَـةٌ سَيْفِيَّـةٌ رَبَعِيَّـةٌ يَصِيحُ الحَصَا فِيها صِياحَ اللَّقَالِقِ[٣]

فإن لفظة «اللقالق» مبتذلة بين العامة جداً، وكذلك قوله[٤]:

---

(١) الهضبة: الرابية، وأجأ: أحد جبلي طيىء، وثانيهما سلمى.

(٢) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة، ويذكر إيقاعه بقبائل العرب، وأولها قوله:

تذَكَّرْتُ مَـا بَيْـنَ الْـعُـذَيْـبِ وَبَـارِقِ مَـجَـرَّ عَـوَالِيـنَـا وَمَجْـرَى الـسَّـوَابِقِ

(٣) الملمومة: الكتيبة المجتمعة، سيفية: منسوبة إلى سيف الدولة، ربعية: منسوبة إلى ربيعة، وهي قبيلة سيف الدولة، واللقالق: جمع لقلق، وهو طائر كبير يسكن العمران في أرض العراق.

(٤) من قصيدة له يمدح فيها أبا بكر علي بن صالح الكاتب، وأولها قوله:

كَفِـرِنْـدِي فِـرِنْـدُ سَيْفِي الْـجُـرَازِ لَـذَّةُ الْـعَـيْـنِ عُـدَّةٌ لِـلْبِـرَازِ

وَمِنَ النَّـاسِ مَنْ يَجُوزُ إِلَيْهِمْ   شُعَرَاءُ كَأَنَّهَـا الْخَازِبَـازِ[١]

وهذا البيت من مضحكات الأشعار، وهو من جملة البرسام الذي ذكره في شعره حيث قال[٢]:

إِنَّ بَعْضاً مِنَ القَرِيضِ هُـرَاءُ   لَيْسَ شَيْئاً وَبَعْضُهُ أَحْكَـامُ[٣]
فِيـهِ مَا يَجْلُبُ الْبَـرَاعَـةَ وَالْفَهْـمَ وَفِيـهِ مَـا يَجْلُبُ الْبِـرْسَـامُ

ومثل هذه الألفاظ إذا وردت في الكلام وضعت من قدره، ولو كان معنى شريفاً.

وهذا القسم من الألفاظ المبتذلة لا يكاد يخلو منه شعر شاعر، لكن منهم المقلّ ومنهم المكثر، حتى إنّ العاربة قد استعملت هذا، إلا أنه في أشعارها أقل.

فمن ذلك قول النابغة الذبياني في قصيدته التي أولها:

مِـنْ آلِ مَـيَّـةَ رَائِـحٌ أَوْ مُـغْـتَـدِي

أَوْ دُمْيَـةٍ في مَـرْمَـرٍ مَـرْفُـوعَـةٍ   بُنِيَتْ بِـآجُرٍّ يُشَـادُ بِقَـرْمَـدِ

فلفظة «آجُرّ» مبتذلة جداً، وإن شئت أن تعلم شيئاً من سر الفصاحة التي تضمنها القرآن فانظر إلى هذا الموضع، فإنه لما جيء فيه بذكر الآجر لم يذكر بلفظه، ولا بلفظ القرمد أيضاً، ولا بلفظ الطُّوب الذي هو لغة أهل مصر؛ فإن هذه

---

(١) رواية الديوان «من يجوز عليه»، والخازباز: حكاية صوت الذباب، وهو اسم صوت مبني على الكسر، وربما سمي به الذباب نفسه. قال ابن أحمر:

تَـفَـقَّـأُ فَـوْقَـهُ الْـقَـلَع الـسَّـوَارِي   وَجُـنَّ الْـخَـازِبَـازِ بِـهِ جُـنُـونَـا

(٢) من قصيدة له يمدح فيها علي بن أحمد المري الخراساني، وأولها قوله:

لاَ ٱفْـتِـخَـارٌ إِلاَّ لِـمَـنْ لاَ يُـضَـامُ   مُـدْرِكٍ أو مُـحَـارِبٍ لاَ يَـنَـامُ

(٣) في بعض نسخ الديوان «إن بعضاً من القريض هذاء» بالذال معجمة، وتقول: هذى يهذي هذاء وهذياناً، إذا قال قولاً لا فائدة فيه.

الأسماء مبتذلة، لكن ذكر في القرآن على وجه آخر وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحاً﴾ فعبر عن الآجر بالوقود على الطين.

ومن هذا القسم المبتذل قول الفرزدق في قصيدته التي أولها:

عَـزَفْتَ بـأَعْشَـاشٍ وَمَـا كِـدْتَ تَعْـزِفُ[١]

وَأَصْبَحَ مُبْيَضُّ الضَّرِيبِ كَأَنَّهُ ... عَلَى سَرَوَاتِ النِّيبِ قُطْنٌ مُنَدَّفُ[٢]

فقوله «مُنَدَّفُ» من الألفاظ العامية.

ومن هذا القسم قول البحتري[٣]:

وُجُوهُ حُسَّادِكَ مُسْوَدَّةٌ ... أَمْ صُبِغَتْ بَعْدِيَ بِالزَّاجِ

فلفظة «الزاج» من أشد ألفاظ العامة ابتذالاً، وقد استعمل أبو نواس هذا النوع في شعره كثيراً، كقوله:

يَا مَنْ جَفَانِي وَمَلَّا ... نَسِيتَ أَهْلاً وَسَهْلَا

وَمَاتَ مَرْحَبُ لَمَّا ... رَأَيْتَ مَالِيَ قَلَّا

إِنِّي أَظُنُّكَ فِيمَا ... فَعَلْتَ تَحْكِي الْقِرِلَّى

---

(١) هذا صدر مطلع القصيدة، وعجزه قوله:

وَأَنْكَرْتَ مِنْ حَدْرَاءَ مَا كُنْتَ تَعْرِفُ

وعزفت: انصرفت، وتقول: عزف الرجل عن اللهو؛ إذا كان لا يميل إليه ولا يشتهيه، وتقول: عزف عن النساء، إذا لم يصب إليهن.

(٢) رواية الديوان «وأصبح موضوع الصقيع كأنه» وقد وقع هنا في ب، ج «على سروات البيت» وما أثبتناه عن الديوان والنقائض، وهو الصواب.

(٣) من قصيدة له يمدح فيها ابن كنداج، وأولها قوله:

مُخْبِرَتِي بُرْقَةُ أَحْوَاجِ ... عَنْ ظُعُنٍ سَارَتْ وَأَحْدَاجِ

وكقـولـه:

وَأَنْمَـرُ الْجِـلْدَةِ صَيَّـرْتُـهُ   في النَّـاسِ زَاغاً وَشِقِـرَّاقَـا
مـا زِلْتُ أُجْرِي كَلكي فَـوْقَـهُ   حَتَّى دَعَـا مِنْ تَحْتِـهِ قَـاقَـا

وكقـولـه:

وَمُلِحَّـة بِـالْعَـذْلِ تَحْسَبُ أَنَّني   بِالْجَهْلِ أَتْـرُكُ صُحْبَةَ الشُّـطَّار

وقد استعمل لفظة الشَّاطر والشَّاطرة والشُّطَّار كثيراً؛ وهي من الألفاظ التي ابتذلها العامة حتى سئمت من ابتذالها.

وهذه الأمثلة تمنع الواقف عليها من استعمال أشباهها وأمثالها.

ومن أوصاف الكلمة ألَّا تكون مشتركة بين معنيين: أحدهما: يكره ذكره وإذا وردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت، وذلك إذا كانت مهملة بغير قرينة تميز معناها عن القبح، فأما إذا جاءت ومعها قرينة فإنها لا تكون معيبة، كقوله تعالى: **﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة تطلق على التعظيم والإكرام وعلى الضرب الذي هو دون الحد، وذلك نوع من الهوان، وهما معنيان ضدان، فحيث وردت في هذه الآية جاء معها قرائن من قبلها ومن بعدها فخصت معناها بالحسن؛ وميزته عن القبيح، ولو وردت مهملة بغير قرينة وأريد بها المعنى الحسن لسبق إلى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح. مثال ذلك لو قال قائل: لقيت فلاناً فعزرته، لسبق إلى الفهم أنه ضربه وأهانه، ولو قال: لقيت فلاناً فأكرمته وعزرته، لزال ذلك اللبس.

واعلم أنه قد جاء من الكلام ما معه قرينة فأوجب قبحه، ولو لم تجيء معه لما استقبح، كقول الشريف الرضي[1]:

---

(١) من قصيدة له يرثي فيها أبا إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي الكاتب، وأولها قوله:

أَعَـلِمْـتَ مَـنْ حَـمَـلُوا عَـلَى الأَعْـوَادِ   أَرَأَيْـتَ كَـيْـفَ خَـبَـا ضِـيَـاءُ النَّـادِي

أَعْـزِزْ عَلَيَّ بـأَنْ أَرَاكَ وَقَـدْ خَـلاَ   عَنْ جَـانِبَيْـكَ مَقَـاعِـدُ الْعُـوَّادِ[١]

وقد ذكر ابن سنان الخفاجي هذا البيت[٢] في كتابه فقال: إن إيراد هذه اللفظة في هذا الموضع صحيح، إلا أنه موافق لما يكره ذكره في مثل هذا الشعر، لا سيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليه، وهم العواد، ولو انفرد لكان الأمر فيه سهلاً، فأما الإضافة إلى من ذكره ففيها قبح لا خفاء به؛ هذا حكاية كلامه، وهو مرضيٌّ واقع في موقعه، ولنذكر نحن ما عندنا في ذلك فنقول: قد جاءت هذه اللفظة المعيبةُ في الشعر في القرآن الكريم، فجاءت حسنة مرضية، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْنَاها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً•وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ ألا ترى أنها في هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقبح إضافته إليه كما جاءت في الشعر، ولو قال الشاعر بدلاً من مَقَاعد الْعُوَّاد: مَقَاعد الزيارة، أو ما جرى مجراه؛ لذهب ذلك القبح، وزالت تلك الْهُجْنة، ولهذا جاءت هذه اللفظة في الآيتين على ما تراه من الحسن، وجاءت على ما تراه من القبح في قول الشريف الرضي.

وعلى هذا ورد قول تأبط شراً[٣]:

أَقُـولُ لِلِحْيَـانٍ وَقَـدْ صَفِـرَتْ لَهُمْ   وِطَابِي وَيَوْمِي ضَيِّقُ الْجُحْرِ مُعْوِرُ[٤]

فإنه أضاف الجحر إلى اليوم فأزال عنه هجنة الاشتباه، لأن الجحر يطلق على

---

(١) في الديوان «مقاود العواد» وهو خطأ.

(٢) انظر كتاب «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي (ص ٧٩).

(٣) من أبيات رواها أبو تمام في ديوان الحماسة، وأولها:

إِذَا الْمَـرْءُ لَمْ يَحْتَـلْ وَقَـدْ جَـدَّ جِـدُّهُ   أَضَـاعَ وَقَـاسَـى أَمْـرَهُ وَهْـوَ مُـدْبِـرُ

(انظر شرح التبريزي: ١ ـ ٧٥).

(٤) لحيان: بطن من هذيل، وقوله: «صفرت لهم وطابي» يريد خلا قلبي من ودهم. ومعور: بادية عورته، وهي مكان المخافة منه.

كل ثقب كثقب الحية واليربوع، وعلى المحل المخصوص من الحيوان، فإذا ورد مهملاً بغير قرينة تخصصه سبق إلى الوهم ما يقبح ذكره؛ لاشتهاره به دون غيره، ومن ههنا ورد قول النبي ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لَا يُلْسَعُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ» وحيث قال: «يلسع» زال اللبس؛ لأن اللَّسْع لا يكون إلا للحية وغيرها من ذوات السموم.

وأما ما ورد مهملاً بغير قرينة فقول أبي تمام[١]:

أَعْطَيْتَ لِي دِيَةَ الْقَتِيلِ وَلَيْسَ لِي عَقْلٌ وَلَا حَقٌّ عَلَيْكَ قَدِيمُ[٢]

فقوله: «ليس لي عقل» يظن أنه من عَقَلَ الشيء إذا علمه، ولو قال ليس لي عليك عقل لزال اللبس.

فيجب إذاً على صاحب هذه الصناعة أن يراعي في كلامه مثل هذا الموضع، وهو من جملة الألفاظ المشتركة التي يحتاج في إيرادها إلى قرينة تخصصها ضرورة.

ومن أوصاف الكلمة أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيباً، وهذا مما ذكره ابن سنان في كتابه[٣]، ثم مثله بقول أبي الطيب المتنبي[٤]:

إِنَّ الْكِرَامَ بِلَا كِرَامٍ مِنْهُمُ مِثْلُ الْقُلُوبِ بِلَا سُوَيْدَاوَاتِهَا[٥]

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة، وأولها قوله:

أَسْقَى طُلُولَهُمُ أَجَشُّ هَزِيمُ وَغَدَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ وَنَعِيمُ

انظر الديوان (٢٩٩ بيروت).

(٢) رواية الديوان «أعطيتني دية القتيل».

(٣) انظر سر الفصاحة (ص ٨١).

(٤) من قصيدة له يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران، وأولها قوله:

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا دَانِي الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا

(٥) أبو الطيب مولع بمثل هذه المطولات، انظر إلى قوله في هذه القصيدة:

إِنِّي عَلَى شَغَفِي بِمَا فِي خُمْرِهَا لَأَعِفُّ عَمَّا فِي سَرَاوِيلَاتِهَا

وقال: إن لفظة «سُوَيْدَاوَاتِهَا» طويلة، فلهذا قبحت؛ وليس الأمر كما ذكره، فإن قبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها، وإنما هو لأنها في نفسها قبيحة، وقد كانت وهي مفردة حسنة، فلما جمعت قَبُحَتْ، لا بسبب الطول، والدليل على ذلك أنه قد ورد في القرآن الكريم ألفاظ طِوَال، وهي مع ذلك حسنة، كقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فإن هذه اللفظة تسعة أحرف، وكقوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ فإن هذه اللفظة عشرة أحرف، وكلتاهما حسنة رائقة، ولو كان الطول مما يوجب قُبْحاً لقبحت هاتان اللفظتان، وليس كذلك، ألا ترى أنه لو أسقط من لفظة «سويداواتها» الهاء والألف اللتين هما عوض عن الإضافة لبقي منها ثمانية أحرف، ومع هذا فإنها قبيحة ولفظة (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ) عشرة أحرف، وهي أطول منها بحرفين؛ ومع هذا فإنها حسنة رائقة.

والأصل في هذا الباب ما أذكره، وهو أن الأصول من الألفاظ لا تحسن إلا في الثلاثي وفي بعض الرباعي، كقولنا: عَذْب وعَسْجد، فإن هاتين اللفظتين إحداهما ثلاثية والأخرى رباعية، وأما الخماسي من الأُصول فإنه قبيح، ولا يكاد يوجد منه شيء حسن، كقولنا: جَحْمَرِش[1] وصَهْصَلِق[2] وما جرى مجراهما، وكان ينبغي على ما ذكره ابن سنان أن تكون هاتان اللفظتان حسنتين واللفظتان الواردتان في القرآن قبيحتين؛ لأن تلك تسعة أحرف وعشرة وهاتان خمسة وخمسة، ونرى الأمر بالضد مما ذكره، وهذا لا يعتبر فيه طول ولا قصر، وإنما يعتبر نظم تأليف الحروف بعضها مع بعض، وقد تقدم الكلام على ذلك، ولهذا لا يوجد في القرآن من الخماسي الأُصول شيء، إلا ما كان من اسم نبي عُرِّب اسمه ولم يكن في الأصل عربياً نحو إبراهيم وإسمعيل.

ومما يدخل في هذا الباب أن تجتنب الأَلفاظ المؤلفة من حروف يثقل النطق بها، سواء كانت طويلة أو قصيرة، ومثال ذلك قول امرىء القيس في قصيدته اللامية التي هي من جملة القصائد السبع الطوال:

---

(١) الجحمرش: العجوز المسنّة.

(٢) الصهصلق: العجوز الصخابة، وهو أيضاً الصوت الشديد.

غَــدَائِـرُهُ مُسْتَشْــزِرَاتٌ إِلَى الْعُـلاَ تَضِلُّ المَدَارَى في مُثَنًّى وَمُرْسَلِ [١]

فلفظة «مُسْتَشْزِرَاتٌ» مما يقبح استعمالها؛ لأنها تثقل على اللسان ويشق النطق بها، وإن لم تكن طويلة؛ لأنا لو قلنا «مستنكرات» أو «مستنفرات» على وزن «مستشزرات» لما كان في هاتين اللفظتين من ثقل ولا كراهة.

ولربما اعترض بعض الجهال في هذا الموضع، وقال: إن كراهة هذه اللفظة إنما هو لطولها، وليس الأمر كذلك؛ فإنا لو حذفنا منها الألف والتاء وقلنا: «مُسْتَشْزِر» لكان ذلك ثقيلاً أيضاً، وسببه أن الشين قبلها تاء، وبعدها زاي، فثقل النطق بها، وإلا فلو جعلنا عوضاً من الزاي راء ومن الراء فاء، فقلنا: «مستشرف» لزال ذلك الثقل.

ولقد رآني بعض الناس وأنا أعيب على امرىء القيس هذه اللفظة المشار إليها، فأكبر ذلك؛ لوقوفه مع شهرة التقليد في أن امرىء القيس أشعر الشعراء، فعجبت من ارتباطه بمثل هذه الشبهة الضعيفة، وقلت له: لا يمنع إحسان امرىء

---

(١) البيت من معلقته المشهورة التي أولها:

قِفَـا نَبْـكِ مِـنْ ذِكْـرَى حَبِيبٍ وَمَنْـزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الـدَّخُـولِ فَحَـوْمَـلِ

وقبل البيت قوله:

وَفَـرْعٍ يَـزِيـنُ المَـتْـنَ أَسْـوَدَ فَـاحِـمٍ أثـيـثٍ كَـقِنْـوِ الـنَّخْلَةِ الْـمُـتَـعَـثْكِـلِ

وأراد بالفرع شعرها، والمتن: الظهر، وفاحم: يشبه الفحم، والمراد أنه شديد السواد، وأثيث: كثير، وقنو النخلة: ما يكون فيه البلح، وهو المشراخ، والمتعثكل: الذي تداخل بعضه في بعض لكثرته. ويقال: هو المتدلي. والغدائر: جمع غديرة والمراد خصلاته، والضمير يعود إلى الفرع. ومستشزرات: مرتفعات. والمداري: جمع مدراة، والمراد بها المشط. والمثني: الذي فتل بعضه على بعض، والمرسل: الذي ترك بغير فتل. ويروى «تضل العقاص في مثني ومرسل» والعقاص: جمع عقيصة، وهو ما جمع من الشعر ففتل تحت الذوائب، يريد أنها لكثرة شعرها تجعله ثلاثة أقسام فبعضه تعقصه، وبعضه تفتله، وبعضه ترسله، وأن الذي تعقصه يكون بين المفتول والمرسل فيغيب فيهما حتى لا يكاد يظهر.

القيس من استقباح ما له من القبح، ومثال هذا كمثال غزال المسك فإنه يخرج منه المسك والْبَعَر، ولا يمنع طيبُ ما يخرج من مسكه من خبث ما يخرج من بعره، ولا تكون لذاذة ذلك الطيب حاميةً للخبث من الاستكراه، فأسكت الرجل عند ذلك.

وحضر عندي في بعض الأيام رجل من اليهود، وكنت إذ ذاك بالديار المصرية، وكان لليهود في هذا الرجل اعتقاد؛ لمكان علمه في دينهم وغيره، وكان لَعَمْري كذلك، فجرى ذكر اللغات، وأن اللغة العربية هي سيدة اللغات، وأنها أشرفهن مكاناً، وأحسنهن وضعاً؛ فقال ذلك الرجل: كيف لا تكون كذلك، وقد جاءت آخراً فنفت القبيح من اللغات قبلها وأخذت الحسن؟ ثم إن واضعها تَصَرَّف في جميع اللغات السالفة؛ فاختصر ما اختصر، وخفف ما خفف، فمن ذلك اسم الجمل؛ فإنه عندنا في اللسان العبراني «كوميل» مُمَالاً على وزن فُوعيل، فجاء واضع اللغة العربية وحذف منها الثقيل المستبشع، وقال: جَمَل، فصار خفيفاً حسناً، وكذلك فعل في كذا وكذا، وذكر أشياء كثيرة، ولقد صدق في الذي ذكره؛ وهو كلام عالم به.

ومن أوصاف الكلمة أن تكون مَبْنِيَّةً من حركات خفيفة، ليخف النطق بها، وهذا الوصف يترتب على ما قبله من تأليف الكلمة، ولهذا إذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستثقل، وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة، فإنه إذا توالى منها حركتان في كلمة واحدة استثقلت، ومن أجل ذلك استثقلت الضمة على الواو والكسرة على الياء؛ لأن الضمة من جنس الواو، والكسرة من جنس الياء، فتكون عند ذلك كأنها حركتان ثقيلتان.

ولنمثل لك مثالاً لتهتدي به في هذا الموضع، وهو أنا نقول: إذا أتينا بلفظة مؤلفة من ثلاثة أحرف، وهي «ج ز ع» فإذا جعلنا الجيم مفتوحة فقلنا: الجَزْعُ أو مكسورة فقلنا: الجِزْع كان ذلك أحسن من أن لو جعلنا الجيم مضمومة فقلنا: الجُزع، وكذلك إذا والينا حركة الفتح فقلنا: الجَزَع كان ذلك أحسن من موالاة حركة الضم عند قولنا: الجُزُع، ومن المعلوم أن هذه اللفظة لم يكن اختلاف حركاتها مُغَيِّراً لمخارج حروفها، حتى ينسب ذلك إلى اختلاف تأليف المخارج، بل

وجدناها تارة تكتسى حسناً، وتارة يسلب ذلك الحسن عنها، فعلمنا أن ذلك حادث عن اختلاف تأليف حركاتها.

واعلم أنه قد توالت حركة الضم في بعض الألفاظ، ولم يُحْدِث فيها كراهة ولا ثقلاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ فحركة الضم في هذه الألفاظ متوالية، وليس بها من ثقل ولا كراهة، وكذلك ورد قول أبي تمام[1]:

نَفَسٌ يَحْتَثُّهُ نَفَسُ ... وَدُمُوعٌ لَيْسَ تُحْتَبَسُ
وَمَغَانٍ لِلْكَرَى دُثُرٌ ... عُطُلٌ مِنْ عَهْدِهِ دُرُسُ
شَهَرَتْ مَا كُنْتُ أَكْتُمُهُ ... نَاطِقَاتٌ بِالْهَوَى خُرُسُ

فانظر كيف جاءت هذه الألفاظ الأربعة مضمومات كلها، وهي مع ذلك حسنة لا ثقل بها، ولا ينبو السمع عنها.

وهذا لا ينقض ما أشرنا إليه؛ لأن الغالب أن يكون توالي حركة الضم مستثقلاً، فإذا شذ عن ذلك شيء يسير لا ينقض الأصل المقيس عليه.

القسم الثاني: الألفاظ المركبة:

قد قَدَّمنا القول في شرح أحوال اللفظ المفردة، وما يختص بها، وأما إذا صارت مركبة فإن لتركيبها حكماً آخر؛ وذاك أنه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة، ومثال ذلك كمن أخذ لآلىء ليست من ذوات الْقِيَم الغالية فأَلَّفها، وأحسن الوضع في تأليفها؛ فخيل للناظر بحسن تأليفه وإتقان صنعته أنها ليست تلك التي كانت مَنثورة مُبَدَّدَة، وفي عكس ذلك من يأخذ لآلىء من ذوات الْقِيَم الغالية فيفسد تأليفها؛ فإنه يَضَعُ من حسنها، وكذلك يجري حكم الألفاظ العالية مع فساد التأليف؛ وهذا موضع شريف ينبغي الالتفات إليه، والعناية به.

(١) هي أبيات في الغزل مذكورة في ديوانه (٤٤٨ بيروت) وليس معها شيء.

واعلم أن صناعة تأليف الألفاظ تنقسم إلى ثمانية أنواع؛ هي السجع: ويختص بالكلام المنثور، والتصريع، ويختص بالكلام المنظوم، وهو داخل في باب السجع؛ لأنه في الكلام المنظوم كالسجع في الكلام المنثور، والتجنيس، وهو يعم القسمين جميعاً، والترصيع، وهو يعم القسمين أيضاً جميعاً، ولزوم ما لا يلزم، وهو يعم القسمين أيضاً، والموازنة، وتختص بالكلام المنثور، واختلاف صيغ الألفاظ، وهو يعم القسمين جميعاً، وتكرير الحروف، وهو يعم القسمين جميعاً.

النوع الأول: السجع؛ وحَدُّه أن يقال: تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد.

وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة، ولا أرى ذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم؛ فإنه قد أتى منه بالكثير، حتى إنه ليؤتي بالسورة جميعها مسجوعةً، كسورة الرحمن، وسورة القمر، وغيرهما، وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً﴾ وكقوله تعالى في سورة طه: ﴿طٰهٰ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى، إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى، تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمٰوَاتِ الْعُلَى، الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى، وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، اللَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وكذلك قوله تعالى في سورة قٓ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ، أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ، وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ وأمثال ذلك كثيرة.

وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام النبي ﷺ شيء كثير أيضاً:

فمن ذلك ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ» قلنا: إنا لنستحْيِي من الله يا رسول الله، قال: «لَيْسَ ذَلِكَ، وَلٰكِنْ ٱلاِسْتَحْيَاءُ مِنَ اللَّهِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وتَذْكُرَ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ترك زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا».

ومن ذلك ما رواه عبدالله بن سلام فقال: لما قدم رسول الله ﷺ فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما تَبَيَّنْت وَجهه علمت أنه ليس بوجه كذّاب، فكان أول شيء تكلم به أن قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَام».

فإن قيل: إن النبي ﷺ قال لبعضهم مُنْكِراً عليه وقد كلمه بكلام مسجوع: «أَسَجْعاً كَسَجْعِ الْكُهّان» ولولا أن السجع مكروه لما أنكره النبي ﷺ.

فالجواب عن ذلك أنا نقول: لو كره النبي ﷺ السجع مطلقاً لقال: «أسَجْعاً» ثم سكت، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لِمَ كان، فلما قال: «أسجعاً كسجع الكهان» صار المعنى معلقاً على أمر، وهو إنكار الفعل لِمَ كان على هذا الوجه، فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سَجْع الكهان، لا غير، وأنه لم يذم السجع على الإطلاق، وقد ورد في القرآن الكريم، وهو ﷺ قد نطق به في كثير من كلامه، حتى إنه غَيَّرَ الكلمة عن وجهها إتباعاً لها بأخواتها من أجل السجع، فقال لابن ابنته عليهما السلام: «أُعِيذُهُ مِنَ الْهَامَّة، وَالسَّامَّة، وَكُلِّ عَيْنٍ لاَمَّة» وإنما أراد مُلِمة، لأن الأصل فيها من أَلَمَّ فهو مُلِم، وكذلك قوله ﷺ: «ارْجِعْنَ مَأْزُوْرَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ» وإنما أراد مَوْزُورات من الْوِزْر، فقال: «مأزورات» لمكان مأجورات، طلباً للتوازن والسجع، وهذا مما يدلك على فضيلة السجع.

على أن هذا الحديث النبوي الذي يتضمن إنكار سجع الكهان عندي فيه نظر؛ فإن الوهم يسبق إلى إنكاره، يقال: فما سَجْع الكُهّان الذي يتعلق الإنكار به ونهى عنه رسول الله ﷺ؟ والجواب عن ذلك: أن النهي لَمْ يكن عن السجع نفسه، وإنما النهي عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع؛ ألا ترى أنه لما أمر رسول الله ﷺ في الجنين بغرة عبد أو أمة قال الرجل: «أَأَدِي مَنْ لاَ شَرِبَ وَلاَ

أَكَلَ، وَلَا نَطَقَ وَلَا آسْتَهَلّ، وَمِثْلُ ذٰلِكَ يُطَلّ» فقال رسول الله ﷺ: «أسَجْعاً كسجع الكهّان» أي: أَتَبَّع سجعاً كسجع الكهان(١).

وكذلك كان الكهنة كلهم؛ فإنهم كانوا إذا سئلوا عن أمر جاءوا بالكلام مسجوعاً، كما فعل الكاهن في قصة هند بنت عتبة، فإنه قال لما امتحن قبل السؤال عن قصتها: «ثَمَرَة في كَمَرَةٍ» فقيل له: نريد أبين من هذا؟ فقال: «حَبَّةُ بُرّ في إحليل مُهْو» والحكاية مشهورة، فلهذا اختصرناها هٰهنا.

وكذلك قال سطيح؛ فإنه قال: عَبْد المسيح، جاء إلى سَطيح، وهو مُوفٍ على الضريح، لِرُؤْيَا المُوبِذَانِ، وَارْتِجَاس الإيوان، وأتم الكلام إلى آخره مسجوعاً؛ والحكاية مشهورة أيضاً فلهذا اختصرناها.

فالسجع إذاً ليس بمنهي عنه، وإنما المنهيّ عنه هو الحكم المتبوع في قول الكاهن؛ فقال رسول الله ﷺ: «أسَجْعاً كسَجْعِ الكُهّان» أي: أحكماً كحكم الكهان، وإلا فالسجع الذي أتى به ذلك الرجل لا بأس به؛ لأنه قال: «أأدي من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهلّ، ومثل ذلك يُطَل» وهذا كلام حسن من حيث السجع، وليس بمنكر لنفسه؛ وإنما المنكر هو الحكم الذي تضمنه في امتناع الكاهن أن يَدِيَ الجنين بغرةٍ عبد أو أمة.

واعلم أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام؛ والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع، ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد؛ إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سَجَّاعاً، وما من أحد منهم ولو شَدَا شيئاً يسيراً من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظاً مسجوعة، ويأتي بها في كلامه، بل ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حُلْوَة حادة طَنَّانة رنَّانة، لا غَثَّة ولا باردة، وأعني بقولي غثة باردة أنَّ صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مُفْرَدات الألفاظ المسجوعة، وما يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها وما

(١) في بعض النسخ (أأتبع سجعاً كسجع الكهان).

يشترط له من الحسن، وهو في الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثواباً من الْكُرْسُفِ[١]، أو ينظم عقداً من الْخَزَفِ المُلَوَّنِ.

وهذا مقام تزلّ عنه الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد، ومن أجل ذلك كان أربابه قليلاً.

فإذا صفي الكلام المسجوع من الغَثَاثة والبرد فإن وراء ذلك مطلوباً آخر، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ؛ فإنه يجيء عند ذلك كظاهرٍ مُمَوَّه، على باطن مُشَوَّه، ويكون مثله كغِمْد من ذهب، على نَصْل من خَشَب، وكذلك يجري الحكم في الأنواع الباقية الآتي ذكرها من التجنيس والترصيع وغيرهما.

وسأبين لك في هذا مثالاً تتبعه؛ فأقول: إذا صوّرت في نفسك معنى من المعاني، ثم أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع ولم يؤاتك ذلك إلا بزيادة في ذلك اللفظ أو نقصان منه، ولا يكون محتاجاً إلى الزيادة ولا إلى النقصان، إنما تفعل ذلك لأن المعنى الذي قصدته يحتاج إلى لفظ يدل عليه، وإذا دللت عليه بذلك اللفظ لا يكون مسجوعاً إلا أن تضيف إليه شيئاً آخر أو تنقص منه، فإذا فعلت ذلك فإنه هو الذي يُذَمّ من السجع ويستقبح؛ لما فيه من التكلف والتعسف، وأما إذا كان محمولاً على الطبع غير متكلَّف فإنه يجيء في غاية الحسن، وهو أعلى درجات الكلام، وإذا تَهَيَّأ للكاتب أن يأتي به في كتابته كلها على هذه الشريطة فإنه يكون قد ملك رِقابَ الكلم: يَسْتَعْبِد كَرَائِمَهَا، ويستولد عَقَائمها، وفي مثل ذلك فليتنافس، وعن مقامه فليُقَاعَس، ولَصَاحِبُهُ أولى بقول أبي الطيب المتنبي[٢]:

أَنْتَ ٱلْـوَحِيـدُ إِذَا رَكِبْتَ طَـرِيقَـةً ... وَمَنِ الرَّدِيفُ وَقَدْ رَكِبْتَ غَضَنْفَرَا؟[٣]

---

(١) الكرسف ـ بزنة قنفذ ـ القطن.

(٢) هو من قصيدته التي يمدح بها أبا الفضل بن العميد، والتي أولها:

بَـادٍ هَـوَاكَ صَبَـرْتَ أَمْ لَـمْ تَـصْبِـرَا ... وَبُكَـاكَ إِنْ لَمْ يَجْـرِ دَمْعُـكَ أَوْ جَـرَى

(٣) رواية الديوان «إذا ارتكبت» ولعل ما هنا أحسن.

فإن قيل: فإذا كان السجع أعلى درجات الكلام على ما ذهبت إليه، فكان ينبغي أن يأتي القرآن كله مسجوعاً؟ وليس الأمر كذلك، بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع.

قلت في الجواب: إن أكثر القرآن مسجوع، حتى إن السورة لتأتي جميعها مسجوعة، وما منع أن يأتي القرآن كله مسجوعاً إلا أنه سلك [به] مسلك الإيجاز والاختصار، والسجع لا يؤاتي في كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار، فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب.

وهٰهنا وجه آخر هو أقوى من الأول، ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزاً أبْلغ في باب الإعجاز من ورود المسجوع، ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعاً.

واعلم أن للسجع سراً هو خلاصته المطلوبة فإن عري الكلام المسجوع منه فلا يُعْتَدُّ به أصلاً، وهذا شيء لم ينبه عليه أحد غيري، وسأبينه ههنا، وأقول فيه قولاً هو أبين مما تقدم، وأمثِّلُ لك مثالاً إذا حَذَوْتَهُ أمِنْتَ الطاعن، والعائب، وقيل في كلامك: لِيُبَلِّغ الشاهد الغائب، والذي أقوله في ذلك هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملةً على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه أختها، فإن كان المعنى فيهما سواء فذاك هو التطويل بعينه؛ لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها، وإذا وردت سجعتان يَدُلّان على معنى واحد كانت إحداهما كافيةً في الدلالة عليه، وجُلُّ كلام الناس المسجوع جارٍ عليه، وإذا تأملت كتابة الْمُفْلِقِين ممن تقدم كالصّابي وابن الْعَمِيد وابن عَبَّاد وفلان وفلان فإنك تَرَى أكثر المسجوع منه كذلك، والأقلّ منه على ما أشرتُ إليه.

ولقد تصفحت المقامات الحريرية والخطب النُّبَاتية، على غرام الناس بهما، وإكبابهم عليهما، فوجدت الأكثر من السجع فيهما على الأسلوب الذي أنكرته.

فالكلام المسجوع إذاً يحتاج إلى أربع شرائط: الأولى: اختيار مفردات الألفاظ على الوجه الذي أشرت إليه فما تقدم، الثانية: اختيار التركيب على الوجه

الذي أشرت إليه أيضاً فيما تقدم، الثالثة: أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعاً للمعنى، لا المعنى تابعاً للفظ، الرابعة: أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي دَلَّت عليه أختها؛ فهذه أربع شرائط لا بد منها.

وسأورد ههنا من كلامي أمثلة تَحْذي حذوها، فإني لما سلكت هذه الطريق وأتيت بكلامي مسجوعاً توخَّيْتُ أن تكون كل سَجْعة منه مختصة بمعنى غير المعنى الذي تضمنته أختها، ولم أخلّ بذلك في مكاتباتي كلها، وإذا تأملتها علمت صحة ما قد ذكرته.

فمن ذلك ما كتبته في صدر كتاب عن بعض الملوك إلى دار الخلافة، وهو: الخادم واقف مَوْقِف رَاجٍ هائب، لازم بكتابه هذا وقارَ حاضرٍ عن شخص غائب، مُوجِّه وجهه إلى ذلك الجناب الذي تقسم فيه أرزاق العباد، ويتأدب به الزمان تأدُّبَ ذوي الاستعباد، وتستمد الملوك من خدمته شرف الجدود كما تستغني بنسبها إليه عن شرف الأجداد، ولو ملك الخادم نفسَه لقصرها على خدمة قصره، وأحظاها من النظر إليه ببرد العيش الذي عُمْرُها محسوبٌ من عُمْره، وهذا القول يقوله وكل ما جد فيه حاسد، وبتأميله راكع ساجد، والديوان العزيز محسود الاقتراب، وهو موطن الرغبات الذي الاغتراب إليه ليس بالاغتراب، وما ينافس في القرب من أبوابه الكريمة إلا ذوو الهمم الكريمة، وقد وَدَّت الكواكب بأسْرِها أن تكون له مُنادِمةً فضلاً عن نَدْمَانَيْ جَذِيمة.

ومن ذلك ما كتبته من كتاب يتضمن العناية ببعض الناس، وهو: الكريم من أوْجَبَ لسائله حقّاً، وجعل كواذب آماله صدقاً؛ وكان خرق العطايا منه خُلُقاً، ولم يَرَ بين ذِمَمه وبين رحمه فَرْقاً، وكل ذلك موجود في كرم مولانا أجراه الله من فضله على وتيرة، وجعل هِمَمَه على تمام كل نقص قديرة، وأوطأه من كل مجد سريراً كما بَوَّأه من كل قلبٍ سَرِيرةً، ولا زالت يَـدُه بالمكـارم جَدِيـرة، ومن الأيام مُجِيـرة، ولضرائرها من البحار والسحاب معيرة، ولا برحت تستولد عقائم المعاني وتستجد أبنيتها حتى يشهد الناسُ منها في كل يوم عقيقة أو وكيرة، ومن صفات كرمه أنه

يسبك الأموال مآثر، ويَتَّخِذها عند السؤال ذخائر، فهي تفنى لديهم بالإنفاق، وذِكْرُها على مرور الأيام باق، ومَنْ أرْبَحُ منه صَفْقَةً وقد باع صامتاً بناطق، وما هو مُعَرَّض لحوادث السرقات بما لا تصل إليه يد سارق، ومثْلُه مَنْ عَرَف الدنيا فرغب عن اقتنائها، وجَدَّ في ابتناء المحامد بهدم بنائها، وعلم أن مالها ليس عند الضنين به إلا أحجاراً، وأن غِنَاه منها لا يزيده إلا افتقاراً؛ فهو لماله عَبْدٌ يخدمه ولا يستخدمه، وأم ترضعه بسعيها ولا تَفْطِمُهُ.

ومنه ما كتبته في جواب كتاب يتضمن إباق غلام، وهو أول كتاب ورد من المكتوب عنه إلى المكتوب إليه؛ فقلت: وأما الإشارة الكريمة في أمر الغلام الآبق عن الخدمة فقد يَفِرُّ المُهْرُ من عَليقه، ويطير الْفَراش إلى حَريقه، وغير بعيد أن يَنْبُوَ مَضْجَعه، أو يَكْبُو به مَطْمَعه، فيرجع وقد حمد من رجوعه ما ذمه من ذهابه، وعلم أن الغنيمة كل الغنيمة في إيابه، فما كل شجرة تحلو لذائقها، ولا كل دارٍ تُرَحِّب بطارقها، ومن أَبَقَ عن مولاه مغاضباً، وجَانَبَ محلّ إحسانه الذي لم يكن مُجانباً، فإنه يجد من مفارقة الإحسان، ما يجده من مفارقة معاهد الأوطان، وهل أضَلُّ سَعْياً مِمَّنْ دفع في صدر العافية وغداً يسأل عن الأسقام، وألقى الثروة من يده ومضى في طلب الإعدام، ومع هذا فإن الخادم يشكره على ذنب الإباق الذي أقدم على اجتراحه، وليس ذلك إلا لأنه صار سبباً لافتتاح باب المكاتبة الذي لم يطمع في افتتاحه، ولا جزاء له عنده إلا السعي في إعادته إلى الخدمة التي تقلب في إنشائها، وهي أبَرُّ به من أمِّه التي تقلب في أحشائِها، ومن فضلها أنها تلقاه من حلمها بوسيلة الشافع، ومن كرمها بالوجه الضاحك والفضل الواسع.

فانظر أيها المتأمل إلى هذه الأسجاع جميعها وأَعْطِهَا حقّ النظر حتى تعلم أن كل واحدة منها تختص بمعنى ليس في أختها التي تليها، وكذلك فليكن السجع، وإلا فلا.

وسأورد ههنا من كلام الصابي ما ستراه:

فمن ذلك تحميد في كتاب؛ فقال: «الحمدُ لله الذي لا تدركه الأعين

بألحاظها، ولا تَحُدُّه الألسن بألفاظها، ولا تخلقه العصور بمرورها، ولا تهرمه الدهور بكرورها».

ثم أنتهى إلى الصلاة على النبي ﷺ؛ فقال: «لم يرَ للكفر أثراً إلا طَمَسَه ومَحاه، ولا رسماً إلا أزاله وعَفَّاه».

ولا فرق بين مرور العصور وكرور الدهور، وكذلك لا فرق بين مَحْوِ الأثر وعفاء الرسم.

ومن كلامه أيضاً في كتاب، وهو: «وقد علمت أنّ الدولة العباسية لم تزل على سالف الأيام، وتعاقب الأعوام(1)، تعتلّ طَوْراً وتَصِحّ أطواراً، وتَلْتَاث مرة وتستقل مراراً، من حيث أصلها راسخ لا يتزعزع، وبنيانها ثابت لا يتضعْضع».

وهذه الأسجاع كلها متساوية المعاني، فإن الاعتلال والالتياث والطَّوْر والْمَرَّة والرُّسوخ والثَّبات، كلُّ ذلك سَوَاء.

وكذلك ورد له في جملة كتاب كتبه عن عز الدولة بن بُوَيْه جواباً عن كتاب وصله من الأمير عبد الكريم بن المطيع لله، فقال: «وصلني كتابه مُفْتَتَحاً من الاعتزاء إلى إمارة المؤمنين، والتقلد لأمور المسلمين، بما أعْرَاقُه الزكية مُجَوِّزة لاستمراره، وأرُوْمَتُه العلية مُسَوِّغَةً لاستقراره، له ولكل نجيب أخذ بحظه من نسبه، وضارب بسهم في مَنْصِبِهِ؛ إذ كان ذلك جارياً على الأصول المعهودة فيه، والأسباب العاقدة له، من إجماع المؤمنين كافة، فإن تعذر اجتماعهم مع انبساطهم في الأرض، وانتشارهم في الطول والعرض؛ فلا بد من اتفاق أشراف كل قُطْر وأفاضله، وأعيان كل صُقْع وأمَاثِلِه».

وهذا الكلام كله متماثل المعاني في أسجاعه، فإن إمارة المؤمنين والتقلّد لأمور المسلمين سواء في المعنى، وكذلك الأعراق والأرُومَة، والتجويز والتسويغ، والأشراف والأفاضل، والأعيان والأماثل، والْقُطْر والصُّقْع، كل ذلك سواء.

---

(1) في أ، ب «ومعاقب الأيام».

وعلى هذا جاء كلامه في كتاب آخر، فقال: «يسافر رأيه وهو دانٍ لم يَنْزَح، ويَسِير تدبيره وهو ثاوٍ لم يَبْرَح».

وكلا هذين سواء أيضاً. وما أحسن هذا المعنى لو قال: يسافر رأيه وهو دانٍ لم يَبْرَح، ويُثْخِن الجراحَ في عدوه وسيفه في الغمد لم يجرح؛ فإنه لو قال مثل هذا سلم من هُجْنة التكرار. وأمثال ذلك في كلام الصابي كثير.

وعلى منواله نسج الصاحب ابن عَبَّاد.

فمن ذلك ما ذكره في وصف مهزومين، فقال: «طَارُوا واقين بظهورهم صُدُورَهم، وبأصلابهم نُحُورَهم»(١) وكلا المعنيين سواء.

وكذلك قوله في هذا الكتاب يصف ضيق مجال الحرب: «مَكَانٌ ضَنْك على الفارس والراجل، ضَيِّق على الرَّامِحِ والنَّابِلِ».

ومن كلامه في كتاب، وهو: «لا تتوجه هِمَّتُه إلى أعظم مرقوب إلا طَاعَ ودَان، ولا تمتد عزيمته إلى أفخم مطلوب إلا كان واستكان».

وكل هذا الذي ذكره شيء واحد.

وله من كتاب، وهو: «وصل كتابه جامعاً من الفوائد أشدَّهما للشكر اسْتِحْقَاقاً، وأتمها للحمد استغراقاً، وتعرَّفْتُ من إحسان الله فيما وفره من سلامته، وهنأه من كرامته، أنفسَ مَوْهُوب ومطلوب، وأَحْمَدَ مرقوب ومخطوب».

وهذا كله متماثل المعاني، متشابه الألفاظ.

وفيما أوردته هٰهنا مَقْنَع؛ فأنعِمْ نظرك أيها الواقف على هذا الكتاب فيما بينته لك، ووضَعْتُ يدك عليه، حتى تعلم كيف تأتي بالمعاني في الألفاظ المسجوعة، والله الموفق للصواب.

فإن قيل: إنك اشترطت أن تكون كل واحدة من الفقرتين في الكلام المسجوع دالةً على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها، وإنما اشترطت هذه

---

(١) في أ «وبأصلابهم فجورهم» وهو تصحيف، ولا يتم عليه كلام المؤلف.

الشريطة فِراراً من أن يكون المعنيان شيئاً واحداً، ونرى قد ورد في القرآن الكريم لفظتان بمعنى واحد في آخر إحدى الفقرتين المسجوعتين، كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ وكل رسول نبي.

قلت في الجواب: ليس هذا كالذي اشترطته أنا في اختصاص كل فقرة بمعنى غير المعنى الذي اختصت به أختها، وإنما هذا هو إيراد لفظتين في آخر إحدى الفقرتين بمعنى واحد، وهذا لا بأس به؛ لمكان طلب السجع، ألا ترى أن أكثر هذه السورة التي هي سورة مريم عليها السلام مسجوعة على حرف الياء، وهذا يجوز لصاحب السجع أن يأتي به، وهو بخلاف ما ذكرته أنا؛ ألا ترى أن النبي ﷺ قد غيّر اللفظة عن وضعها طلباً للسجع، فقال: «مأزُورَاتٍ» وإنما هي مَوْزُورات، وقال: «الْعَين اللاَّمَّة» وإنما هي المُلِمَّة، إلا أنه ليس في ذلك زيادة معنى، بل يفهم من لفظة مأزورات أنها قائمة موزورات، وكذلك يفهم من لفظة لاَمَّة أنها بمعنى مُلِمَّة؛ فالسجع قد أجيز معه تغيير وضع اللفظة، وأجيز معه أن يورد لفظتان بمعنى واحد في آخر إحدى الفقرتين، ومع هذا فلم يجز في استعماله أن يورد فقرتان بمعنى واحد؛ لأنه تطويل مَحْضٌ لا فائدة فيه، وبين الذي ذكرتَهُ أنت وبين الذي ذَكرتُهُ أنا فرق ظاهر.

والذي قدمت من الأمثلة المسجوعة للصابي والصاحب ابن عباد ربما كانت يسيرة أُتَّهَمُ فيها بالتعصب، ويقال: إني الْتَقَطْتُها التقاطاً من جملة رسائلهما، وقد خرجت من عُهْدَة هذه التهمة، وذاك أني وجدت للصابي تقليداً بنقابة الأشراف العلويين ببغداد، وكنت أنشأت تقليداً بنقابة الأشراف العلويين بالموصل؛ وقد أوردت التقليدين ههنا؛ ليتأملهما الناظر في كتابي هذا، ويحكم بينهما إن كان عارفاً أو يسأل عنهما العارفَ إن كان مقلِّداً.

وقد أوردت تقليد الصابي أولاً؛ لأنه المقدم زماناً وفَضْلاً، وهو: «هذا ما عهدَ أميرُ المؤمنينَ إلى محمد بن الحسين بن موسى العَلَوِيّ، المُوسَوي، حين وصلته به الأنساب، وتأكَّدَتْ له الأسباب، وظهرت دلائل عقله ولُبَابته، ووضحت مَخايِلُ فضله ونَجَابته، ومهد له بهاء الدولة وضياء الملة أبو نصر بن عضد الدولة وتاج

الملة مولى أمير المؤمنين ما مكن له عند أمير المؤمنين من المحل المكين، وَوَصَفَه به من الحِلْمِ الرَّزِينِ، وأشاد به فيه من رفع المنزلة، وتقديم المرتبة، والتأهيل لولاية الأعمال، والحمل للأعباء الثِّقال، وحيث رغبه فيه، سابقةُ الحسين أبيه، في الخدمة والنصيحة والمواقف المحمودة، والمقامات المشهودة، التي طابت بها أخْبَاره، وحَسُنَت فيها آثاره، وكان محمد متخلقاً بخلائقه، وذاهباً في طرائقه، عِلْما وديانة، وَوَرَعاً وصِيانة، وعِفَّةً وأمانة، وشهامة وصَرَامة، بالحظ الجزيل، من الفضل الجميل، والأدب الجَزْل، والتوجُّه في الأَهل، والإيفاء بالمناقب على لِدَاته وأَتْرَابه، والإبرار على قَرَائبه وأضْرَابه، فقلَّده ما كان داخلاً في أعمال أبيه من نِقابة نُقَباء الطالبين أجمعين بمدينة السلام وسائر الأعمال والأمصار شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، واختصه ذلك جذباً بصنعه[1]، وإنافة بقدره، وقضاء لحق رحمه، وتَرْفيهاً لأبيه، وإسعافاً بإيثاره فيه، إلى أمير المؤمنين واستخلافه عليه من النظر في المظالم، وتسيير الحَجِيج في المواسم، والله يعقب أمير المؤمنين فيما أمر ودَبَّر حسن العاقبة فيما قَضَى وأَمْضَى، وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

أمَرَه بتقوى الله التي هي شعار المؤمنين، وسنا الصالحين، وعِصْمَة عباد الله أجمعين، وأن يَعْتَقِدَها سِراً وجهراً، ويعتمدها قولاً وفعلاً، ويأخذ بها ويعطي، ويُسِرُّ بها ويَنْوي، ويأتي ويذر، ويورد ويصدر؛ فإنها السَّبَب المتين، والمَعْقِلُ الحصين، والزاد النافع يوم الحساب، والمسلك المُفضِي إلى دار الثواب، وقد حَضَّ الله أولياءه عليها، وهداهم في مُحْكم كتابه إليها، فقال عزَّ من قائل: **﴿يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾**.

وأمَرَه بتلاوة كتاب الله مواظباً، وتَصَفّحه مُدَاوماً ملازماً، والرجوع إلى أحكامِهِ فيما أحل وحَرَّم، ونَقَض وأبرم، وأثاب وعاقب، وباعد وقارب، فقد صحح الله برهانه وحجته، وأوضح مِنْهاجه ومَحَجَّته، وجعله نَجْماً في الظلمات طالعاً، ونوراً في المشكلات ساطعاً، فمن أخذ به نجا وسلم، ومن عَدَل عنهُ هَوَى ونَدِمِ،

(١) كذا في جمع الأصول؛ ولعله «جذباً بضبعه».

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

وأمَرَه بتنزيه نفسه عما تدعو إليه الشبهات، وتطلع إليه التَّبِعَات، وأن يَضْبِطَها ضَبْطَ الحليم، ويَكُفَّها كَفَّ الحكيم، ويجعل عقله سلطاناً عليها، وتمييزه آمراً ناهياً لها، ولا يجعل لها عذراً إلى صَبْوَة، ولا هفوة، ولا يطلق منها عناناً عند ثَوْرة، لا فَوْرَة، فإنها أمَّارة بالسُّوء، منصبة إلى الغي؛ فمن رَفضَها نجا، ومن اتَّبعَها هَوَى، فالحازم متهم عند تحرك وطره وأربه واهتياج غيظه، ولا يَدَعْ أن يغضها بالشَّكيم، ويَعْركَها عَرْكَ الأديم، ويَقُودَهَا إلى مصالحها بالخزائم، ويفتقدها من مقارفة المآثم والمحارم[1]، كيما يعز بتذليلها وتأديبها، ويُجَلّ برياضها وتقويمها، والمُفرِّط [في أمر] تَطْمَحُ به إذا طَمَحَت، ويجمح معها إذا جَمَحَت، ولا يَلْبَثُ أن توردَه حيث لا يصدر، وتلجئه إلى أن يعتذر، وتقيمه مقام النادم الواجم، وتتنكب به سبيل الراشد السالم، وأحق من تَحَلَّى بالمحاسن، وتَصَدَّى لاكتساب المحامد، مَنْ ضرب بمثل سهمه في نسب أمير المؤمنين الشريف، ومنصبه المنيف، واجتمع معه في ذُؤَابة العِتْرَة الطاهرة، واسْتَظَلَّ بأوراق الدَّوْحَة الفاخرة، فذلك الذي تتضاعف به المآثر إن آثرها، والمثالب إن أسَفَّ إليها، ولا سيما من كان مندوباً بالسياسة ومرشحاً للتقليد على أهله؛ إذ ليس يفي بالصلاح لمن ولي عليه، ولا يفي بإصلاح ما بَيْنَ جَنْبَيْهِ، ومِنْ أعظم الهُجْنَة عليه أن يأمر ولا يأتمر، ويَزْجُر ولا يزدجر، قال الله تعالى جلّ ذكره: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وأمره أن يتصفَّح أحوال من ولي عليهم: من استقراء مذاهبهم، والبحث عن بواطنهم ودخائلهم، وأن يعرف لمن تقدمت قَدَمُه منهم وتظاهر فضله فيهم منزلَتَهُ، ويُوَفِّيه حَقَّه وزينته، وينتهي في إكرام جماعتهم إلى الحدود التي توجبها أنسابهم وأقدارهم، وتقتضيها مواقعهم وأخطارهم، فإنَّ ذلك يلزمه لشيئين: أحدهما: يخصه، وهو النسب الذي بينه وبينهم، والآخر: يعمه والمسلمين جميعاً، وهو قول الله جل ذكره: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فالمودة لهم

(١) في أ «ويغتفرها من مقارفة المآثم والمحارم».

الإعظام لأكابرهم، والاشتمال على أصاغرهم؛ واجب متضاعف الوجوب عليه، متأكد اللزوم له، ومَنْ كان منهم في دون تلك الطبقة مِنْ أحداثٍ لم يحتنكوا عليه، وجذْعان لم يقرحوا، ومجرين إلى ما يُزْرِي بأنسابهم، ويَغُضُّ من أحسابهم، عَذَلهم وأنَّبهم، ونهاهم وَوَعَظَهم، فإنْ نَزَعُوا وأقلعوا فذاك المراد بهم، والمقصد فيهم، وإن أصَرُّوا وتتابعوا أنالَهُمْ من العقوبة بقدر ما يكف ويردع؛ فإن نَفَعَ وإلا تجاوزه إلى ما يلذع ويوجع، من غير تطرّق لأعراضهم، ولا امتهان لأحسابهم؛ فإن المغرض منهم الصيانة، لا الإهانة، والإدالة، لا الإذالة، وإذا وجبت عليهم الحقوق، أو تعلقت بهم دواعي الخصوم، قادَهم إلى الإغفاء بما يصح منها ويجب، والخروج إلى سَنَن الحق فيما يشتبه ويلتبس، ومتى لزمتهم الحدود أقامها عليهم بحسب ما أمره الله تعالى فيها، بعد أن تثبت الجرائم وتصح، وتبين وتتضح، وتتجرد عن الشك، وتتجلى من الظن والتهمة، فإنَّ الذي يستحب في حدود الله عز وجل أن تُدْرأ مع نقصان اليقين والصحة، وأن تُمْضَى عليهم مع قيام الدليل والبينة؛ قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ آللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وأمره بحياطة أهل النسب الأطهر، والشرف الأفخر، عن أن يَدّعيه الأدعياء، أو يدخل فيه الدُّخَلاء، ومن أنتمى إليه كاذباً، أو انتحله باطلاً، ولم يوجد له بيت في الشجرة، ولا مِصْدَاق عند النسابين المهرة، أوقع به كذبه وفسقه وشَهَرَه شُهْرَةً ينكشف بها غشه ولبسه، وينزع بها غيره ممن تُسَوِّل له ذلك نفسه، وأن يُحصن الفروج عن مناكحة من ليس كفئاً لها في شرفها وفخرها، حتى لا يطمع في المرأة الحسيبة النسيبة إلا من كان مثلاً لها مساوياً، ونظيراً موازياً، فقدقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

وأمره بمراعاة مُتَبَتِّلي أهله ومتهجديهم، وصلحائهم ومجاوريهم، وأراملهم وأصاغرهم، حتى تستد الْخَلَّة من أحوالهم، وتدرّ المواد عليهم وتتعادل أقساطهم فيما يصل إليهم من وجوه أموالهم، وأن يزوج الأيَامَى، ويربي الْيَتامى، وليلزمهم المكاتب فيتلقنوا القرآن، ويعرفوا فرائض الإسلام والإيمان، ويتأدبوا بالآداب اللائقة بذوي الأحساب؛ فإن شرف الأعْراق، محتاج إلى شرف الأخلاق، ولا حمد لمن شرفه حسبه، وسخف أدبه، إذ كان لم يكتسب الفخر الحاصل بفضل سعي ولا

طلب ولا اجتهاد، بل بصنع الله تعالى له، ومزيد المنة عليه، وبحسب ذلك لزوم ما يلزمه من شكره سبحانه على هذه العطية، والاعتداد بما فيها من الْمَزِيَّة. وإعمال النفس في حيازة الفضائل والمناقب، والتَّرَفُّع عن الرذائل والْمَثالب.

وأمره بإجمال النيابة عن شيخه الحسين بن موسى فيما أمره أمير المؤمنين باستخلافه عليه من النظر، والأخذ للمظلوم من الظالم، وأن يجلس للمترافعين إليه جلوساً عاماً، ويتأمّل كلامهم تأملاً تاماً؛ فما كان منها متعلقاً بالحاكم رده إليه، ليحمل الخصوم عليه، وما كان من طريقة الغشم والظلم، والتغلب والغصب، قَبَضَ عنه اليد المبطلة، وثَبَّتَ فيه اليدَ المستحِقَّة، وتَحَرَّى في قضاياه أن تكون مُوَافقة للعدل، ومُجَانبة للخذل، فإن عادة الحكام وصاحب المظالم واحدة، وهي إقامة الحق ونصرته، وإبانته وإثارته، وإنما يختلف سبيلاهما في النظر، إذ كان الحاكم يعمل بما ثبت عنده وظهر، وصاحب المظالم يَفْحَص عما غمض واستتر، وليس له مع ذلك أن يرد للحاكم حكومة، ولا يعل له قَضِيَّة، ولا يتعقب ما ينفذه ويُمْضيه، ولا يَتَتَبَّع ما يحكم به ويقضيه، والله يهديه ويوفقه، ويُسَدِّده ويرشده.

وأمره أن يسير حجيج بيت الله عز وجل إلى مقصدهم، ويحميهم في بَدْأتهم وعَوْدتهم، ويرتِّبهم في مسيرهم ومَسْلكهم، ويَرْعاهم في ليلهم ونهارهم، حتى لا تنالهم شِدَّة، ولا تَصِل إليهم مَضَرَّة، وأن يريحهم[1] في المنازل، ويوردهم المناهل، ويُناوِب بينهم في النَّهَل والْعَلَل، ويمكنهم من الارتواء والاكتفاء، مجتهداً في الصيانة لهم، ومعذراً في الذَّبِّ عنهم، ومُتَلَوِّماً على متأخرهم ومتخلفهم، ومُنْهضاً لضعيفهم ومَهِيضهم، فإنهم حُجَّاج بيت الله الحرام، وزُوَّار قبر رسوله عليه الصلاة والسلام، قد هَجَرُوا الأهل والأوطان، وفارقوا الجِيْرَةَ والإخوان، وتَجَشَّمُوا المغارم الثِّقَال، وتَعَسَّفوا السُّهُولة والجِبَال، يُلَبُّون دعاء الله، ويطيعون أمره، ويُؤَدُّون فرضه، ويرجون ثوابه، وحَقِيقٌ على المسلم أن يحرسهم مُتَبَرِّعاً، ويَحُوطهم متطوعاً، فكيف من تولى ذلك وضمنه، وتقلده واعتقبه؟ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾.

(١) كذا في ب، ج؛ وفي أ «وأن ينزلهم في المنازل».

وأمره أن يراعي أمور المساجد بمدينة السلام وأطرافها، وأقطارها وأكنافها؛ وأن يَجْبِيَ أموال وَقْفِهَا، ويستقصي جميع حقوقها، وأن يَلُمَّ شَعَثها، ويَسُدَّ خَلَلَها، بما يتحصل من هذه الوجوه قبله، لا يزيل رسماً جرى، ولا ينقض عادة كانت لها، وأن يكتب اسم أمير المؤمنين على ما يَعْمُرُهُ منها، ويذكر اسمه بعده بأن عمارتها جَرَتْ على يده، وصلاح أداه قول أمير المؤمنين في ذلك، تَنْويهاً باسمه، وإشادةً لذكره، وأن يولّي ذلك من قبله مَنْ حَسُنَتْ أمانته، وظهرت عِفته وصيانته؛ فقد قال الله جل من قائل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

وأمره أن يستخلف على ما يرى استخلافه عليه من هذه الأعمال في الأمصار الدانية والنائية والبلاد القريبة والبعيدة مَنْ يثِقُ به من صُلَحاء الرجال، ذوي الوفاء والاستقلال، وأن يعهد إليهم مثل ما عهد إليه، ويعتمد عليهم مثل ما اعتمد عليه، ويستقصي في ذلك آثارَهُم، ويَتَعَرَّف أخبارهم؛ فمن وجده محموداً قَرَّبه، ومن وجده مذموماً صَرَفه ولم يمهله، واعْتَاضَ مَنْ تُرْجَى الأمانة عنده، وتكون الثقة معهودة منه، وأن يختار لكتابته وحِجَابته والتصرُّف فيما قرب منه وبعد عنه مَنْ يَزِينه، ولا يَشِينه، وينصح له ولا يغشه، ويجمله ولا يُهَجّنه، مِنَ الطبقة المعروفة باللطف، المتصوِّنة عن النَّطَفِ، ويجعل لهم من الأرزاق الكافية، والأجرة الوافية، ما يَصُدُّهم عن المكاسب الذميمة، والمآكل الوخيمة؛ فليس تجب عليهم الحجة إلا مع إعطاء الحاجة، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾.

وأمره أن يكتب لمن تقوم بينته عنده وتنكشف له حجته إلى أصحاب المعارف بالشدّ على يده، واتصال حقه إليه، وحَسْم الطَّمَع الكاذب فيه، وقبض اليد الظالمة عنه؛ إذ هم مندوبون للتصرف بين أمره ونَهْيه، والوقوف عند رسمه وحَدّه.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته لك وعليك، قد أبان منه سبيلك، وأوضح دليلك، وهَدَاكَ لرشدك، وجعلت على بينة من أمرك، فاعمل به ولا تخالفه، وانْتَهِ إليه ولا تجاوزه، وإن عَرَضَ لك عارض يُعْجِزك الوفاء به ويَشْتَبه

عليك الخروج منه أنْهَيْتَهُ إلى أمير المؤمنين مبادِراً، وكنت إلى ما يأمرك به صائراً؛ إن شاء الله تعالى.

وأما التقليد الذي أنشأته أنا فقد أوردته بعد هذا التقليد، وهو:

أما بعد فإن كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجْذَم، وكل كتاب لا يرقم باسمه فليس بمُعْلم، وعلى هذا فإن حمده يتنزل من الكلام، منزلَةَ الأعضاء من الأجسام، واسمه يتنزل من الكتاب، منزلَةَ الرُّقُوم من الثياب، وقد جمعنا في كتابنا هذا بين التسمية والتحميد، وجعلنا أحدهما مفتاحاً للتيمن والآخر سبباً للمزيد، ثم رَدَفْنَاهما بالصلاة على سيدنا محمد الذي أيَّدَه الله بالقرآن المجيد، وجعل شهادته قبل كل شَهيد، وعلى آله وصحبه الذين هُدُوا إلى الطَّيِّب من القول وهُدُوا إلى صراط الحميد، ومما يقترن بهذه الصلاة في ثَوَابها، ويجيء على أعقابها، النظر في أمر الأسرة النبوية التي وَصَل وُدّها بوده، وجعلها إحدى الثَّقَلَين الْمُخَلَّفين مِنْ بَعْدِهِ، وقد تقادم الآن زمانها، وتشعبتْ أغصانها، ونُسِيَ مالها في الرقاب من عهدة الأمانة، ولم توضع فيما وضع الله تعالى ورسوله ﷺ من المكانة، وأولى الناس بها مَنْ أضمر ولاءها حقاً، وأوجب أن يَرِدَ معها الحوضَ حين يقال لوارده: سُحْقاً، وكان بمن تحت يده منها بَارًّا رَفيقاً حتى لا يسأله برًّا ولا رفقاً، ونحن نرجو أن نفوز بفضيلة هذهِ الحسنة، وأن نَسْبق إليها سَبْق المتقرب في الجمعة ببَدَنَهْ، ومِنْ أهَمِّ أمورها أن يُخْتار لها زعيم يرأف بها رأفة الوالد بولده، ويقوم بأمرها قيام الرأس بجسده، حتى تأتلف أصولها كلها في مَغْرسها، ولا يَحْكُمُ عليها من ليس من أنْفسِها، وقد اخترنا من وُفِّقْنا في اختياره، وأخذناه فيه ببيان الرأي وحَزْمِهِ لا بِشُبْهَة الهوى واغتراره، ولو لم يكن من القوم الذين ولوها لكان استحقاقه لها بَيِّناً، والتعويل عليه مُتَعَيِّناً، فكيف وقَدَمُه فيها قديمة الميلاد، ووراثته إياها عن سيادة الجدود وسؤدد الأجداد، وهو أنت أيها السيد الأجل الشريف الحسيب النسيب فلان بن فلان الحسيني، ولو شئنا لأسندنا هذه النسبة كابراً عن كابر، ونضَّدناها آخراً بعد أول عن أول قبل آخر، حتى وصلنا هذا الفرعَ بشجرته الطيبة، وهذا الْقَطْر بسحابته الصَّيِّبة، وشرف الأنساب أصدقه ما كان الدهر به شهيداً، وأجَدُّه ما كان قديماً وأخْلَقُه ما كان جديداً، وما تَوَلى الروح الأمين مدحه قرآناً أكرم مما تولى

الشعراء مدحه قصيداً، ولا فَضْل للْمُعْتَزِي إلى هذا النسب حتى تلحق البنوة بالأبوة، ويضيف درجة الفضيلة إلى مَحْتِدِ النبوة، وحينئذ يقال: ما أقرب الشَّبَهَ على قدم عهده، وهذا ماء الوَرْد بعد ذهاب ورده، وأنت ذلك الرجل الذي تردد الشرف في مناسبه تردد القمر في منازله، وزَهَا المجد بمناقبه زهو الروض في خمائله، فلآلِيء حَسَبك تغنيك عن سؤال مَـنْ ومَا، وتملأ بودِّك وحمدك قلباً وفماً، والحسب ما حفظت أواخرُهُ أوائِلَه، وأوضحت الليالي والأيامُ دلائِلَه، وأقَرَّت به الأعداء فما رَدَّتْ فضائله، وهذه هي المآثر التي إذا نظمت غارت الشِّعْرَى عليها من الشعر، وإذا نثرت وجدت في محكم الذِّكر، وأنت صاحبها وابن صاحبها، ومَنْ لَمْ يرثها عن أباعدها بل عن أقاربها، ولو جانبت رياستها مصانعاً، ومَشَيْتَ بها الضَّرَاءَ متواضعاً؛ لدلّ عليك وَصْفُها، وعرف منك عَرْفُها.

وقد قلّدناك أمر هذه الأسرة الطاهرة التي هي أسرتك، وأمرناك عليها وإمرتها إمرتك، فَتَوَلَّهَا تولِّيَ من خَفَضَ لها جناحَه، وأفاض عليها سَمَاحَهُ، وأنضى فيها غُدُوَّه ورَوَاحه، حتى يقال: إنك الراعي الذي تناول ثلثه فأراح حسيرها، وجَبَر كَسيرها، وارتاد لها خِصْباً، وأوردها رِفْهاً لا غِبًّاً، وأذكى في كَلاءتها عَيْناً وقَلْبَاً.

ومن حقها عليك أن تنظر إلى ذات شمالها وذات يمينها، وتتصفَّح أحوالها في أمر دنياها ودينها؛ فأوّل ذلك أن تعلّمها كتابَ الله تعالى الذي في تعليمه نهج الصواب، وفي تلاوته مضاعفة حسنات الثواب، وقد مُثِّل قارئه بالبيت العامر وتاركه بالبيت الخراب، وهو كتاب امتاز عن الكتب بنجوم التنزيل، وتولى الله حفظه من التحريف والتبديل، وافتتحه بالسبع المثاني التي لم ينزل مثلها في التوراة ولا في الإنجيل، وهو الموصوف بأنه النور المستضاء به في غيابة الظلماء، والْحَبْلُ الممدود من الأرض إلى السماء، والبحر الذي لا يَسْتَخْرِج لؤلؤه ومرجانه إلا الراسخون من العلماء.

وكذلك فَخُذْ هذه الأسرة بتعليم الفضائل التي تتفاوت بها القيم، وسُسْهَا برياضة الآداب وتهذيب الشِّيم، ولا تتركها فَوْضَى لا يتّسم أحدها بسِمَة القدر المنيف، ولا يرجع إلى حسب تليد ولا إلى سَعْي طريف، وتكون غاية ما عنده من

الفضيلة أن يقال فلان الشريف، ومن حفظ رسول الله ﷺ فيها أن توفي فضل مكانها، وتخالف بين شأن غيرها من المسلمين وبين شأنها؛ فلا تبتذل بمجالس الولاة في انتزاع ظلامة، ولا في إقامة حد يسلب معه رداء الكرامة، وأنت تَتَوَلَّى ذلك منها وجب عليها من حق فخذها باقتضائه، وأمْضِ فيها حكم الله الذي أمر بإمضائه، وَلْيَكُنْ ذلك على وجه الرفق الذي يسلس له القياد، ويتوطأ له المِهاد، وإن أمكنك افتداء شيء من هذه الظلامات التي تتوجه عليها ففاد، وقد أتم الله فضلها بمنع كرائمها إلا من كفء لا دناءَة في عنصره، ولا غضاضة في مَخْبره، وهو الذي إن فاته شرف النبوة في مَغْرسه فلم يَفُتْه شَرَف النباهة في مَعْشَره، وإذا تباينت الأقدار فلا فرق بين المناكح المخطوبة، وبين الأسلاب المسلوبة، فاحْفَظْ لأسرتك حرمة هذه المنزلة، واجعلها في كتاب الوصايا التي وصيت بها مكان الْبَسْمَلَة، وكما أمرناك بالنظر في صَوْن أقْدَارِها، فكذلك نأمرك بالنظر في حفظ مادة درهمها ودينارها، وقد علمت أن لها أوقافاً وقفها قوم فحظوا بأجرها واسمها، وستحظى أنت بالعدل في قسمها، فأجْرِ على كل منها رزقه، وأعْطِ كل ذي حق حقه، وفي الناس طائفة أدعياء يرومون إلحاق الرأس بالذنب، والنَّبْع بالغرب، ويلحقون أباً لغير ابن وابناً لغير أب، كُلُّ ذلك رغبة في سحت يأكلونه، لا في نَسَبٍ يوصلونه، فنقب عن حال هؤلاء تنقيباً، واجعل النسيب نسيباً، والغريب غريباً، حتى تخلص السلالة من طرّاقها، وتبقى الشجرة قائمة على أعراقها، ومن علمت كذبه فازجره بأليم الازدجار، وأعْلِمْه بأنه قد تَبَوَّأ مقعده من النار، وأشْهِرْه في الناس حتى ينتهي وينتهي غيره بذلك الاشتهار. وههنا وصية هي أهم من هذه الوصية أمراً وأعظم أجْراً، وأجْدَرُ بأن تكون هي الأولى وتكون هذه الأخْرَى، وهي الأخذ على ألسنة السفهاء من الْخَوْض فيما شَجَرَ بين آل النبي ﷺ وأصحابه، وإظهار العَصَبِيَّة التي تزحزح الحق عن نصابه، وترجعه على أعقابه، وليس مُسْتَنَدُهَا إلا مغالاة ذوي الجهل، وربما نشأ منها فتنة والفتنة أشد من القتل؛ فوكل بهؤلاء غرباً قاطعاً، ونهياً قامعاً، وكن في ذلك شارعاً لما كان الله شارعاً، فأولئك السادات هم النجوم الذين بأيِّهِمْ كان الاقتداء كان به الاهتداء، وقُصَارى المحسن في هذا الزمان أن يتعلق منها سبباً، ويأخذ عنهم ديناً أو أدَبَاً، ولا يَبْلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه ولو أنفق مثل أحد ذهباً، ونحن نعلم أنك واقف على سُنَن اقتصادك، وأن هذه الوصية هي محضُ

اعتقادك، والمُنْصِف في هذا المقام من رَمَقَه بنظر جلي، ووفى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما حقهما وإن كان من نَسْل علي؛ فكل قد ذكره رسول الله ﷺ بفضله، وهؤلاء من صحابته وهذا من أهله، ونعوذ بالله من الأهواء الزائغة، والأقوال التي ليست بسائغة، ولا حجة إلا بالحق ولله الحجة البالغة، وقد جعلنا لك في مالنا عطاءً دارًّا تستعين به على لوازم النفقات، وتخرج نافلته في وقاية عرضك التي هي محسوبة من الصدقات، فإنَّ مَنْ ساد قَوْماً يفتقر إلى تحمل أثقالهم، والإفاضة من حاله على أحْوَالهم، وهذا بر يكون منا أصله ومنك فرعه، وثَوَاب يكون لك قَصْدَه ولنا شَرْعهُ، وصاحب الإحسان مَنْ سَنَّ سبيل الإحسان، ولم نَرْض أنْ أريناك مكانه حتى أمددناك فيه بالإمكان، فأعْطِ ما لنا، وتعلم من سنة إفضالنا، ولدولتنا بذلك ثوب جمال كلما لُبسَ زاد جِدَّةً، وعمر ذكر كُلَّما مضت عليه مدد الأيام طال مُدَّة، ولا ملك في الدنيا لمن لم يجعل ملكه حديثاً حسناً، ويَشْتَرِي المحامد فيجعله لها ثمناً، ومَنْ عرف قدر الثناء جَدَّ في تحصيله، ولو أنفق الكثير في قليله، فكم من دولة أعدمت منه فَدَرَسَتْ آثار معالمها، ولو كانت منهُ مُثْرِية لما ذهبت مع بقاء مكارمها، وإذ ذكرنا هذا فلنختمهُ بما يكون قِلَادَةً لصاحب هذا التقليد، وهو أن نجرد العناية بوجاهته حتى يلبس تقدّماً بذلك التجريد، وفَحْوَى ذلك أن يعلم الناس ما له في الدولة من منزلة الكرامة، ويعرفوا أنه فيها ابن جَلَا غير مُحْتاج إلى وَضْع الْعِمامة، ونحن نأمر نوابنا وولاتنا وأصحابنا أن يُوَفُّوه حَقَّ أبُوَّته الشريفة، وفضيلته التي رَدَفتها فأضْحَتْ وهي لها رديفة، وأن يُعْطوه ما شاء من إعلاء شأنه، ويمضوا فِعْل يده وقول لسانه، إن شاء الله تعالى.

وقد وَجَدْتُ للصابي أيضاً تقليداً أنشأه لفخر الدولة أبي الحسن بن ركن الدولة أبي علي بن بويه، عن الخليفة الطائع رحمه الله، وهو مثبت ههنا على صورته، وكان عرض على تقليد كتب للملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، من الخليفة المستضيء بالله رحمه الله في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، فوجدت فيه كلاماً نازلاً بالمرة، وسألني بعض الإخوان بمدينة دمشق أن أعارضه، فعارضته بتقليد في معناه، وهو مثبت ههنا أيضاً، وكلا التقليدين باسم ملك كبير، وفيهما يظهر ما يظهر من فصاحة وبلاغة.

فأما التقليد الذي أنشأه الصابي فهو: هذا ما عهد عبدالله عبد الكريم الطائع لله أمير المؤمنين إلى فخر الدولة أبي الحسن بن ركن الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين حين عرف غناه، وبَلَاه، واستصَحَّ دينه ويقينه. ورعى قديمه وحديثه، واستنجب عُودَه ونِجارَه، وأثنى عز الدولة أبو منصور بن معز الدولة أبي الحسين مولى أمير المؤمنين عليه، وأشار بالمزيد في الصنيعة إليه، وأعلم أمير المؤمنين اقتداءه به في كل مذهب ذهب فيه من الخدمة، وغَرَضٍ رَمَى إليه من النصيحة، دُخُولاً في زُمْرَة الأولياء المنصورة، وخروجاً عن جماعة الأعداء المدحورة، وتَصَرُّفاً على موجبات البيعة التي هي بعز الدولة أَبي منصور منوطة، وعلى سائر ما يتلوه ويتبعه مأخوذة مشروطة، فقلده الصَّلَاة وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والخراج والأعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجوالي وسائر وجوه الجبايات والعرض والعطاء والنفقة في الأولياء والمظالم وأسواق الرقيق والعيار في دور الضرب والطرز والحسبة، بكُوَر هَمذَان واسْتَراباذ والدِّينَوَر وقرميسين والإيعارين وأعمال أذْرَبيجان وأزان والسحانين وموقان، وَاثِقاً منه باستقبال [النعمة] واستدامتها، والاستزادة بالشكر منها، والتَّجَنُّب لغمطها وجحودها، والتنكب لإيحاشها وتنفيرها، والتعمد لما يمكن له الْحُظْوَة والزُّلْفَى، ويحرس عليه الأثرة والقربى، بما يظهره ويضمره من الوفاء الصحيح، والولاء الصريح، والغيب الأمين، والصدر السليم، والمقاطعة لكل من قَطَع العصمة، وفَارق الجملة، والمواصلة لكل من حمى البيضة، وأخلص النيّة، والكون تحت ظل أمير المؤمنين وذمته، ومع عز الدولة أبي منصور وفي حوزته، والله جل اسمه يعرف لأمير المؤمنين حُسْنَ العقبى فيما أَبْرَمَ ونَقَض، وسَدَادَ الرأي فيمن رفع وخفض، ويجعل عزائمه مقرونة بالسلامة، محجوبة عن موارد الندامة، وحسب أمير المؤمنين اللّهُ ونعم الوكيل.

أمره بتقوى الله التي هي العصمة المتينة، والجنة الحصينة، والطود الأرفع، والمعاذ الأمنع، والجانب الأعَزّ، والملجأ الأحرز، وأن يستشعرها سراً وجهراً، ويستعملها قولاً وفعلاً، ويَتّخذها ذُخْراً دافعاً لنوائب القدر، وكهفاً حامياً من حوادث الغير؛ فإنها أوجب الوسائل، وأقرب الذرائع، وأعودها على العبد بمصالحه، وأدعاها إلى كل مَناجحه، وأولاها بالاستمرار على هدايته، والنجاة من غوايته،

والسلامة في دنياه حين تُوبِق موبقاتها، وتُرْدِهي مُرْدِيَاتها، وفي آخرته حين تروع رائعاتها، وتخيف مخيفاتها، وأن يتأدَّبَ بأدب الله في التواضع والإخبات والسكينة، وصدق اللهجة إذا نطق، وغَضّ الطرف إذا رَمَق، وكظم الغيظ إذا أحفظ، وضبط اللسان إذا أغضب، وكفّ اليد عن المآثم، وصَوْن النفس عن المحارم، وأن يذكر الموت الذي هو نازل به، والموقف الذي هو صائر إليه، ويَعلم أنه مسئول عما اكتسب، مجزى عما تَزَمَّلَ واحْتَقَب، ويتزود من هذا المَمَرّ لذلك المَقَر، ويستكثر من أعمال البر لتنفعه، ومن مساعي الخير لتنقذه، ويأتمر بالصالحات قبل أن يأمر بها، ويزدجر عن السَّيِّئات قبل أن يزجر عنها، ويبتدىء بإصلاح نفسه قبل إصلاح رعيته، فلا يبعثهم على ما يأتي ضِدّه، ولا ينهاهم عما يقترف مثله، ويجعل ربه رقيباً عليه في خلواته، ومُرُوأته مانعة له من شَهَوَاته، فإن أحق من غلب سلطان الشهوة، وأوْلَى من ضرع لغذاء[1] الحمية؛ مَنْ ملك أزمة الأمور، واقتدر على سياسة الجمهور، وكان مُطَاعاً فيما يرى، مُتَّبَعاً فيما يشاء، يلي على الناس ولا يلون عليه، ويقتصّ منهم ولا يَقْتَصُّون منهُ، فإذا اطلع الله منه على نَقاء جَيْبه، وطهارة ذَيْله، وصحة سريرته، واستقامة سيرته، أعانه على حفظ ما استحفظه، وأنهَضَه بثقل ما حمَّله، وجعل له مَخْلَصاً من الشُّبْهَة، وَمَخْرَجاً من الحَيْرَة، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وقال عَزَّ مِنْ قائل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾ وقال: ﴿اتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ إلى آيٍ كثيرة حَضَّنا بها على أكرم الخلق، وأسلم الطرق، فالسعيد من نَصَبَها إزاء ناظره، والشقي من نَبَذَها وراء ظهره، وأشقى منها من بَعَثَ عليها وهو صادفٌ عنها، وأهاب إليها وهو بعيد منها، وله ولأمثاله يقول الله تعالى ذكره: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وأمره أن يتخذ كتاب الله إماماً مُتَّبَعاً، وطريقاً مُتَوَقَّعاً، ويكثر من تلاوته إذا خلا بذكره، ويملأ بتأميله أرْجَاءَ صَدْره، فيذهب معه فيما أباح وحظر، ويقتدي به

---

(١) في رسائل الصحابى (ص ١٠١) «من أضرع خد الحمية».

إذا نهى وأمر ، ويستبين بِبَيِّنَاتِهِ إذا استغلقت دونه المعضلات، ويستضيء بمصابيحه إذا غُمَّ عليه في المشكلات؛ فإنه عُرْوَة الإسلام الْوُثْقَى، ومَحَجَّته الوسطى، ودليله المقنع، وبرهانه المرشد، والكاشف لِظُلم الخطوب، والشافي من مرض القلوب، والهادي لمن ضَلّ، والمتلافي لمن زَلَّ؛ فمن نجا به فقد فاز وسلم، ومن لها عنه فقد خاب وندم، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

وأمره أن يحافظ على الصَّلَوات، ويدخل فيها في حقائق الأوقات، قائماً على حدودها، متبعاً لرسومها، جامعاً فيها بين نيته ولفظه، متوقياً لمطامح سهوه ولحظه، منقطعاً إليها عن كل قاطع لها، مشغولاً بها عن كل شاغل عنها، متثبتاً في ركوعها وسجودها، مستوفياً عَدَدَ مفروضها ومسنونها، موفّراً عليها ذِهْنَه، صارفاً إليها همه، عالماً بأنه واقف بين يدي خالقه ورازقه، ومحييه ومميته، ومعاقبه ومثيبه، لا تُسْتَر دونه خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فإذا قضاها على هـذه السبيل منـذ تكبيرة الإحرام إلى خاتمة التسليم أتبعها بدعاء يرتفع بارتفاعها، ويستمع باستماعها، لا يتعدّى فيه مسائل الأبرار، ورغائب الأخيـار، مِنَ استصفاح واستغفـار، واستقالـة واسترحام، واستدعاء لمصالح الدين والدنيا، وعوائد الآخرة والأولى؛ فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

وأمـره بالسعي في أيـام الجمع إلى المسـاجد الجـامعة، وفي الأعيـاد إلى المصلَّيات الضاحية، بعد التقـدم في فرشهـا وكسوتهـا، وجمع القـوام والمؤذنين والمكبرين فيها، واستسعاء الناس إليها، وحَضّهم عليها، آخذين الأُهْبَة، متنظفين في الْبِزَّة، مؤدِّين لفريضة الطهارة، وبالغيـن في ذلك أقصى الاستقصاء، معتقدين خشية الله وخيفته، مُدَّرعين تَقْواه ومراقبته، مكثرين من دعائه عز وجـل وسؤاله، مصلين على محمد ﷺ وعلى آله، بقلوب على اليقين موقوفة، وهمم إلى الدين مصروفة، وأَلْسُنٍ بالتقديس والتسبيح فصيحة، وآمال في المغفرة والرحمة فسيحة؛ فإن هذه المُصَلَّيات والمتعبَّدات بيوتُ الله التي فضلها، ومناسكه التي شرفها، وفيها

يُتْلى القرآن الكريم، ويتعوذ العائذون، ويتعبد المتعبدون، ويتهجد المتهجدون، وحَقيقٌ على المسلمين أجمعين مِنْ وَالٍ ومولى عليه أن يَصُونها ويَعْمُرَها، ويواصلها ولا يهجرها، وأن يقيم الدعوة على منابِرها لأمير المؤمنين ثم لنفسه، على الرسم الجاري فيها؛ قال الله تعالى في هذه الصلاة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ وقال في عمارة المساجد: ﴿إِنَّما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِيْنَ﴾.

وأمره أن يراعي أحوال مَنْ يليه من طبقات جند أمير المؤمنين ومواليه، ويطلق لهم الأرزاق، في أوقات الوجوب والاستحقاق، وأن يُحْسِن في معاملتهم، ويُجْمِل في استخدامهم، ويَتَصَرَّف في سياستهم بين رِفْقٍ من غير ضَعْف، وخُشُونة في غير عُنْف، مثيباً لمحسنهم ما زاد بالإثابة في حسن الأثر، وسلم معها من دواعي الأَشَر، ومتغمداً لمسيئهم ما كان التغمد له نافعاً، وفيه ناجعاً، فإن تكَرَّرت زَلَّاته، وتتابعت عَثَرَاته، تناولته من عقوبته بما يكون له مصلحاً، ولغيره واعظاً، وأن يختص أكابرَهُم وأماثلهم وأهل الرأي والخطر منهم بالمشاورة في المُلِم، والإطْلَاع على بعض المهم، مستخلصاً مخايل صدورهم بالبسط والإيناء، ومُسْتَشْحذاً بصائِرهم بالإكرام والاجتباء؛ فإن في مُشَاوَرة هذه الطبقة استدلالاً على مواقع الصواب، وتَحَرُّزاً عن غلط الاستبداد، وأخذاً بمجامع الْحَزامة، وأمْناً من مفارقة الاستقامة، وقد حضّ الله عز وجل على الشورى حيث قال لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وأمره بأن يصمد بما يتصل[١] بنواحيه من ثغورالمسلمين، ورباط المرابطين، ويقسم لها قسماً وافراً من عنايته، ويصرف إليها طرفاً بل شطراً من رعايته، ويختار لها أهل الْجَلَد والشدة، وذوي البأس والنجدة، ممن عَجَمَتْه الخطوب، وعَرَكَتْه الحروب، واكتسب دِرْبة بخُدَع المتنازلين، وتجربة بمكايد المتقارعين، وأن يستظهر

(١) كذا في أ، ب، ج؛ وفي رسائل الصابي «بأن يضم ما يتصل بنواحيه».

بكشف عـددهم، واعتبار عـددهم، وانتخاب خيلهم، واستجـادة أسلحتهم، غَيْرَ مجمر بعثاً إذا بعثه، ولا مستكرهه إذا وجَّهه، بل يناوب بين رجاله مناوَبَةً تُريحهم ولا تمدهم، وتُرَفِّهُهم ولا تئودهم؛ فإن في ذلك من فائِدة الإجمام، والعدل في الاستخدام، زَيْناً، فَلْيُسَوِّ بين رجال النوب فيما عاد عليهم بعز الظفر والنصر، وبعد الصيت والذكر، وإحراز النفع والأجر، ما يحق أن يكون الولاة به عاملين، وللناس عليه حاملين، وأن يكرر في أسماعهم، ويثبت في قلوبهم؛ مواعيدَ الله تعالى لمن صبر ورابط وسامح بالنفس من حيث لا يقدمون على تورط غرة، ولا يحجمون عن انتهاز فرصة، ولا ينكصون عن تَوَرُّد معركة، ولا يُلْقُونَ بأيديهم إلى التَّهْلُكة، فقد أخذ الله ذلك على خلقه، والمرء أمين على دينه، وأن يريح الْعَمَلَة فيما يحتاج إليه من راتب نفقات هذه الثغور وحادثها وبناء حصونها ومعاقلها، واستـطراق طرقهـا ومسالكها، وإفاضة الأقوات والعلوفة فيها للمترتبين بها، والمترددين إليها، والحامين لها، وأن يبذل أمانة لمن طلبهُ، ويعرضه على من لم يطلبه، ويفي بالعهد إذا عاهد، وبالعقد إذا عاقد، غير مُخْفِرٍ ذِمَّةً، ولا جارح أمانة، فقد أمر الله تعالى بالوفاء، فقال عز وجل: ﴿يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ ونهى عن النَّكْثِ؛ فقال عَزَّ مِنْ قائل: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

وأمره أن يعرض مَنْ في حبوس عمله على جرائمهم، فمن كان إقراره واجباً أقره، ومن كان إطلاقه سائغاً أطلقه، وأن ينظر في الشُّرْطَة والأحداث نَظَرَ عـدل وإنصاف، ويختار لها من يخاف الله ويتقيه، ولا يجابي ولا يراقب فيه، ويتقـدم إليهم بقَمْع الجهال، وردع الضُّلَّال، وتتبع الأشرار، وطلب الدُّعَّار، مستدلين على أماكنهم، متوغِّلين إلى مَكامِنِهم، مُتَوَلجين عليهم في مظانهم، متوثقين ممن يجدونه منهم، منفذين أحكام الله تعالى فيهم، بحسب الذي يتبين من أمرهم، ويصح من فعلهم، في كبيرة ارتكبوها، وعظيمة احْتَقَبُوها، ومهجة إن أفاظوها واستهلكوها، وحرمة إن استباحوها وانتهكوها؛ فمن استحق حداً من حدود الله المعلومة أقاموه عليه غير مُخَفِّفين منه، وأحَلُّوه به غير مقصرين عنه، بعد ألَّا يكون عليهم في الذي يأتونه حجة، ولا يعترضهم في وجوبه مشبهة، فإن الواجب في الحـدود أن تقام بالبينات، وأن تدرأ بالشبهات، فأولى ما توخَّاهُ رُعاة الرعايا فيها ألَّا يقدموا عليها مع

نقصان، ولا يتوقفوا عنها مع قيام الدليل، وَمَنْ وَجَبَ عليه القتل احتاط بما يحتاط به على مثله من الحبس الحصين، والتوثق الشديد، وكتب إلى أمير المؤمنين بخبره، وشرح جنايته وثبوتها بإقرار يكون منه أو بشهادة تقع عليه، ولينتظر مِنْ جَوَابه ما يكون عمله بحسبه؛ فإن أمير المؤمنين لا يطلق سفك دم مسلم أو معاهد، إلا ما أحاط به علماً، وأتْقَنه فَهْماً، وكان ما يمضيه فيه عن بصيرة لا يخالجها شك، ولا يشوبها ريب، ومن أَلَمَّ بصغيرة من الصغائِر، ويَسِيرة من الجرائر، من حيث لم يعرف له مثلها، ولم يتقدم له أختها، وعَظَه وزجره، ونهاه وحَذَّره، واستتابه وأقاله، ما لم يكن عليه خصم في ذلك يطالب بِقِصَاصٍ منه، وجزاء له، فإن عاد تناوله من التقويم والتهذيب والتعزير والتأديب بما يرى أن قد كفى فيما اجترم، ووفى بما قدم؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ آللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وأمره أن يعطل ما في أعماله من الحانات والمواخير، ويطهرها من القبائح والمناكير، ويمنع من يجمع أهل الخنا فيها، ويؤلف شملها بها، فإنه شمل يصلحه التشتيت، وجمع يحفظه التفريق، وما زالت هذه المواطن الذميمة، والمطارح الدنية، داعيةً مَنْ يَأْوِي إليها، ويعكف عليها، إلى ترك الصلوات، وإهمال المفترضات، وركوب المنكرات، واقتراف المحظورات، وهي بيوت الشيطان التي في عمارتها لله معصية، وفي إخرابها للخير مجلبة، والله تعالى يقول لنا معشر المؤمنين: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ ويقول عَزَّ مِنْ قَائل لغيرنا من المذمومين: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ واتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

وأمره أن يولي الحماية في هذه الأعمال، أَهْلَ الكفاية والعناية من الرجال، وأن يضم إليهم كلَّ من خَفَّ ركابه، وأسرع عند الصريخ، مرتِّباً لهم في المسالح وساداً بهم ثغر المسالك، وأن يوصيهم بالتيقظ، ويأخذهم بالتحفظ، ويزيح عللهم في علوفة خيلهم، والمقرر من أزوادهم وميرهم، حتى لا تثقل لهم على البلاد وطأة ولا يدعوهم إلى تحنقهم[1] وثلمهم حاجة، وأن يحوطوا السابِلَة بادئة وعائدة،

(١) في رسائل الصابي «تحيفهم».

ويُبَذْرِقوا القوافل صادرة وواردة، ويحرسوا الطريق ليلاً ونهاراً، ويتفصَّوها رواحاً وغُدُوًّا، وينصبوا لأهل العبث الأرصاد، ويتكمنوا لهم بكل واد، ويتفرقوا عليهم حيث يكون التفرق مضيقاً لفضائهم، ومؤدياً إلى انفضاضهم، ويجتمعوا حيث يكون الاجتماع مطفئاً لجمرتهم، وصادعاً لِمَرْوتهم، ولا يُخْلُوا هذه السبل من حماة لها، وسيارة فيها، يترددون في جَوَادِّها، ويتعسفون في عواديها[1]، حتى تكون الدماء مَحْقونة، والأموال مَصُونة، والفتن محسومة، والغارات مأمونة، ومَنْ حَصَلَ في أيديهم من لص خاتل، وصُعْلوك خارب، ومخيف لسبيل، ومنتهك لحريم؛ امتثل في أمره أمْرَ أمير المؤمنين الموافق لقول الله عز وجل: ﴿إِنَّما جَزَاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ آللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ في الأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ في الدُّنْيَا وَلَهُمْ في الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وأمره بوضع الرَّصَد على من يجتاز في أعماله من أبَّاق العبيد، والاحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم، والبحث عن الأماكن التي فارقوها، والطرق التي استطرقوها، ومواليهم الذين أبقوا منهم، ونشزوا عنهم، وأن يرُدُّوهم عليهم قهراً، ويعيدوهم إليهم صُغْراً، وأن ينشد الضالة ما أمكن أن تنشد، ويحفظوها على ربها بما جاز أن تحفظ، وَيَتَجَنَّبُوا الامتطاء لظهورها، والانتفاع بأوبارها، وألبان ما يجز ويحلب، وأن يعرّفوا اللُّقَطَة، ويتّبعوا أثرها، ويشيعوا خبرها؛ فإذا حضر صاحبها وعلم أنه مستوجبها سُلّمت إليه، ولم يعترض فيها عليه، والله عَزَّ وجل يقول: ﴿إِنَّ آللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ ويقول رسول الله ﷺ: «ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ حَرَقُ النَّارِ».

وأمره أن يوصي عماله بالشد على يد الحكام، وتنفيذ ما يصدر عنهم من الأحكام، وأن يحضروا مجالسهم حضور الموقرين لها الذَّابِّين عنها المقيمين لرسوم الهيبة وحدود الطَّوَاعية فيها، ومن خرج عن ذلك من ذي عقل ضعيف وحلم

---

(١) فيها «عوادلها».

سخيف، نالوه بما يردعه، وَأَحلُّوا به ما يَزَعه، ومتى تَقَاعَسَ مُتَقَاعِسٌ عن حضور مع خصم يستدعيه بأمر يوجبه الحكم إليه، أو الْتَوَى مُلْتَوٍ بحق يحصل عليه ودين يستقر في ذمته؛ قَادُوه إلى ذلك بأَزِمَّةِ الصَّغار وخزائم الاضطرار، وأن يحبسوا ويطلقوا بأقوالهم، ويثبتوا الأيدي في الأملاك والفروج، وينزعوا بقضاياهم؛ فإنهم أُمَناء الله في فَصْل ما يقضون، وبث ما يَبُثُّون، وعن كتابه وسنة نبيه ﷺ يوردون ويصدرون، وقد قال الله عزّ وجل: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

وأن يَتَوَخَّى بمثل هذه المعاملة عمال الخراج في استيفاء حقوق ما استعملوا عليه، واستنطاف بقاياهم فيه، والرياضة لمن تسوء طاعته من معامليهم، وإحضارهم طائعين أو كارهين بين أيديهم؛ فمن آداب الله تعالى للعبد الذي يحق عليه أن يتخذها ويجعلها للرضا عنه سبباً قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وأمره أن يجلس للرعية جلوساً عامًّا، وينظر في مظالمها نظراً تامًّا؛ يساوي في الحق بين خاصها وعامها، ويوازي في المجالس بين عزيزها وذليلها، ويُنْصِف المظلوم من ظالمه، والمغصوبَ من غاصبه، بعد الْفَحْص والتأمل، والبحث والتبين، حتى لا يحكم إلا بعدل، ولا ينطق إلا بفَصْل، ولا يثبت يداً إلا فيما وَجَبَ تثبيتها فيه، ولا يقبضها إلا عما وجب قبضها عنه، وأن يسهل الإذن لجماعتهم، ويرفع الحجاب بينه وبينهم، ويوليهم من حَصَانة الْكَنَف، ولين المنعطف، والاشتمال والعناية، والصون والرعاية؛ ما تَتَعادَلُ به أقسامهم، وتتوازى منه أقساطهم، ولا يصل الركين منهم إلى استضامة ما تأخر عنه، ولا ذو السلطان إلى هضيمة من حل دونه، وأن يدعوهم إلى أحسن العادات والخلائق، ويحضهم على أحمد المذاهب والطرائق، ويحمل عنهم كله، ويمد عليهم ظله، ولا يَسُومهم عَسْفاً، ولا يلحق بهم حَيْفاً، ولا يكلفهم شَطَطاً، ولا يجشمهم مُضْلِعاً، ولا يثلم لهم معيشة، ولا يداخلهم في جريمة، ولا يأخذ بريئاً بسقيم، ولا حاضراً بعديم؛

فإن الله عز وجل ينهى أن تزرَ وازرة وزر أخرى، ويرفع عن هذه الرعية ما عسى أن يكون سُنَّ عليها من سنة ظالمة، وسُلِك بها من محجة جائرة، وَيَسْتَقْرِي آثار الولاة قبله عليها، فيما أزلفوه[١] من خير أو شر إليها؛ فيقر من ذلك ما طاب وحسن، ويزيل ما خبث وقبح فإنَّ مَنْ غـرس الخير يحظى بمعسول ثمره، ومن زرع الشر يَصْلَى بممرور رَيْعِهِ[٢]، والله تعالى يقول: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِـإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

وأمره بأن يصون مال الخراج وأثمان الغلات ووجوه الجبايات مُوفَّراً، ويزيد ذلك مثمراً، بما يستعمله من الإنصاف لأهلها، وإجرائِهم على صحيح الرسم فيها؛ فإنه مال الله لذي به قُوَّة عباده، وحماية بلاده، ودُرُور حَلَبه، واتصال مدده، وبه يحاط الحريم، ويدفع العظيم، ويحمي الذِّمار، ويُذَاد الأشرار، وأن يجعل افتتاحه إياه بحسب إدراك أصنافه، وعند حضور مَوَاقيته وأَحْيَانه، غير متسلف شيئاً قبلها، ولا مؤخـر لها عنهـا، وأن يَخُصَّ أهل الـطاعة والسـلامة بـالترقيـة لهم، وأهـل الاستصعاب والامتناع بالتشديد عليهم؛ لئلا يقع إرهاق لمذعِنٍ، أو إهمال لطامع، وعلى المتولي لذلك أن يضع كلًّا من الأمرين موضعه، ويوقعه موقعه، متجنباً إحلال الغلظة بمن لا يستحقها، وإعطاء الفسحة من ليس أهلها، والله تعالى يقول: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾.

وأمره أن يَتَخَيَّر عماله على الخراج والأعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجوالي من أهل الظلف والنزاهة، والضبط والصيانة، والجزالة والشهامـة، وأن يستظهر مع ذلك عليهم بوصية تَعيها أسماعهم، وعهود يقلدها أعناقهم، بألَّا يضيعوا حقًّـا، ولا يأكلوا سُحْتَـاً، ولا يستعملوا ظلماً، ولا يقـارفـوا غشمـاً، وأن يقيمـوا العمارات، ويحتاطوا ويحترزوا من إتْواءِ حق لازم، أو تعطيل رسم عادل، مؤدِّين في جميع ذلك الأمانة، مجتنبين للخيانة، وأن يأخذوا جَهَابذتهم باستيفاء وزن المال على تمامه، واستجادة نقده على عياره، واستعمال الصحة في قبض ما يقبضوه،

---

(١) في أ، ب، ج «فيما رجوه» وفي رسائل الصابي «فيما أزلوه».
(٢) في أ، ب، ج «يصلى بمرور زيغه» والتصويب عن رسائل الصابي.

وإطلاق ما يطلقون، وأن يوعزوا إلى سُعَاة الصدقات في أخذ الفرائض من سائمة مواشي المسلمين دون عاملتها، وكذلك الواجب فيها، وألَّا يجمعوا فيها متفرقاً، ولا يفرقوا مجتمعاً، ولا يدخلوا فيها خارجاً عنها، ولا يضيفوا إليها ما ليس منها، من فَحْل إبل، وأكولة راع، أو عقيلة مال؛ فإذا اجْتَبَوْها على حقها، واستوفوها على رسمها؛ أخرجوها في سبيلها، وقسموها على أهلها الذين ذكرهم الله عز وجل في كتابه العزيز: إلّا المؤلفة قلوبهم الذين ذكرهم الله عز وجل في كتابه الكريم وسقط سهمهم؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ وإلى جُبَاة أهل الذمة أن يأخذوا منهم الجزية في المحرم من كل سنة، بحسب منازلهم في الأحوال، وذات أيديهم في الأموال، وعلى الطبقات المطبقة فيها، والحدود المعهودة لها، وألّا يأخذوها من النساء، ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال، ولا من ذي سِنّ عالية، ولا ذي عِلَّةٍ بادية، ولا فقير معدم، ولا مترهب متبتل، وأن يراعي جماعة هؤلاء العمال مراعاة يُسِرُّها وَيُظْهِرها، ويلاحظهم ملاحظة يخفيها ويبديها؛ لئلا يزولوا عن الحق الواجب، أو يعدلوا عن السَّنَن اللاحب، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾.

وأمره بأن يندب لعرض الرجال وإعطائهم، وحفظ جراياتهم، وأوقات إطعامهم، مَنْ يعرفه بالثقة في متصرفه، والأمانة فيما يجري على يده، والبعد عن الإسفاف إلى الدَّنِيَّة، والاتباع للدناءة[1]، وأن يبعثه على ضَبْط الرجال، وشيات الخيل، وتجديد العرض بعد الاستحقاق، وإيقاع الاحتياط في الإنفاق، فمن صَحَّ عرضه ولم يبق في نفسه شيء منهم من شك يعرض له أو ريبة يتوهمها أطلق أموالهم موفورة، وحصلها في أيديهم غير مثلومة، وأن يرد على بيت المال أرزاق من سقط بالوفاة والإخلال، ناسباً ذلك إلى جهته، مورداً له على حقيقته، وأن يطالب الرجال بإحضار الخيل المختارة، والآلات المستكملة، على ما توجبه مبالغ أرزاقهم، وحسب منازلهم ومراتبهم، فإنْ أخَّر أحدهم شيئاً من ذلك قاصه به من

(١) كذا في أ، ب، ج. وفي رسائل الصابي «والاتباع للديانة» عطفاً على الثقة.

رزقه، وأغرمه مثل قيمته، فإن المقصِّر فيه خائن لأمير المؤمنين، ومخالف لرب العالمين؛ إذ يقول سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

وأمره أن يعتمد في أسواق الرقيق ودور الضرب والطرز والحسبة على من تجتمع فيه آلات هذه الولايات من ثقة ودراية، وعلم وكتابة، ومعرفة ورواية، وتجربة وحنكة، وحصافة ومسكة، فإنها أحوال تضارع الحكم وتناسبه، وتدانيه وتقاربه، وأن يتقدم إلى وُلاةِ أسواق الرقيق بالتحفظ فيمن يطلقون بيعه، ويمضون أمره، والتحرز من وقوع تخوُّن فيه، أو إهمال له؛ إذ كان ذلك عائداً بتحصين الفروج، وتطهير الأنساب، وأن يبعدوا عنه أهل الريبة، ويقربوا أهل العفة، ولا يمضوا بيعاً على شبهة، ولا عقداً على تهمة، وإلى ولاة العيار، بتخليص عين الدرهم والدينار؛ ليكونا مضروبين على البراءة من الغش، والنزاهة من المش[1]، وبحسب الإمام المقدر بمدينة السلام، وحراسة السكك من أن تتداولها الأيدي الزغلة، وتتناقلها الجهات المنبية، وإثبات اسم أمير المؤمنين على ما يضرب ذهباً وفضة، وإجراء ذلك على الرسم والسنة؛ وإلى ولاة الطرز أن يجروا الاستعمال في جميع المناسج على أتم النيقة، وأسلم الطريقة، وأحكم الصنعة، وأفضل الصحة، وأن يكتبوا اسم أمير المؤمنين على طرر الكسا والفرش، والأعلام والبنود، وإلى وُلَاة الحسبة بتصفح أحوال العوام في حرفهم ومتاجرهم، ومجتمع أسواقهم ومعاملاتهم، وأن يعايروا الموازين والمكاييل، ويفرزوها على التعديل والتكميل، ومَنِ اطلعوا منه على حيلة أو تلبيس، أو غيلة أو تدليس، أو بخس ما يوفيه، واستفضال فيما يستوفيه؛ نالوه بغليظ العقوبة وعظمها، وخصوه بوجيعها وألمها، واقفين في ذلك عند الحد الذي يَرَوْنَه لذنبه مجازياً، وفي تأديبه كافياً، فقد قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

---

(١) كذا في ب، ج. وفي أ «من المس». وفي الرسائل «والتهذيب من اللبس».

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عليك، وقد وقفك على سواء السبيل، وأرشدك إلى واضح الدليل، وأوسعك تعليماً وتحكيماً، وأقنعك تعريفاً وتفهيماً[1]، ولم يألُكَ جُهْداً فيما عصمك وعصم على يدك، ولم يدخرك ممكناً فيما أصلح بك وأصلحك، ولا تَرَك لك عذراً في غلط تغلطه، ولا طريقاً إلى تورط تتورطه، بَالِغاً بك في الأوامر والزواجر إلى حيث يلزم الأئمة أن يندبوا الناس إليه، ويَحُثُّوهم عليه، مقيماً لك على مُنْجِيات الْمسالك، صارفاً لك عن مُرْدِيات المَهالك، مريداً فيك ما يسلمك في دينك ودنياك، يعود بالحظ عليك في آخرتك وأولاك، فإن اعتدلت وعَدَلت فقد فزت وغنمت، وإن تَجانَفْتَ واعوججت فقد فسدت وندمت، والأوْلَى بك عند أمير المؤمنين مع مَغْرِسَك الزاكي، ومنبتك النامي وعودك الأنجب، وعنصرك الأطيب، أن تكون لظنِّه مُحَقِّقاً، ولمخيلته فيك مُصَدِّقاً، وأن تستزيده بالأثر الجميل قرباً [من رب العالمين] وثواباً يوم الدين، وزلفى عند أمير المؤمنين، وثناءً حسناً من المسلمين، فخذ ما نبذ إليك أمير المؤمنين من معاذيره، وأمْسِك بيدك على ما أعطى من مواثيقه، واجعل عهده مثالاً تحتذيه، وإماماً تقتفيه، واسْتَعِنْ بالله يُعِنْك، واستهده يَهْدِك، وأخلص إليه في طاعته يخلص لك الحظ في معونتك، ومهما أشكل عليك من خطب، أو أعضل عليك من صعب، أو بهرك من باهر، أو بَهَظَك من باهظ، فاكتب إلى أمير المؤمنين مُنْهِياً، وكن إلى ما يرد عليك [من جوابه متطلعاً] إن شاء الله تعالى؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأما التقليد الذي أنشأته أنا فهو هذا: أما بعد، فإن أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذي يكون لكل خطبة قياداً، ولكل أمر مهاداً، ويستزيده من نعمه التي جعلت التقوى له زاداً، وحملته عبء الخلافة فلم يضعف عنهُ طوقاً ولم يأل فيه اجتهاداً، وصغرت لديه أمر الدنيا فما تَسَوَّرت له محراباً ولا عرضت عليه جياداً، وحققت فيه قول الله تعالى: **﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾**، ثم يصلي على من أنزلت الملائكة لنصره أمداداً، وأسري به إلى السماء حتى ارتقى سبعاً شداداً، وتجلى له ربهُ فلم يزغ منه بصراً ولا أكذب منه

(١) في أ، ب، ج «تعليماً وتحكيماً وأقنعك تعليماً وتفهيماً» وما أثبتناه عن الرسائل.

فؤاداً، ثم من بعده على أُسْرَته الطاهرة التي زكت أوراقاً وأعـواداً، وورثت النور المتين تلاداً، ووصفت بأنها أحد الثقلين هِدَايَةً وإرشاداً، وخصوصاً عمه العباس المدعو له بأن يُحْفَظ نفساً وأولاداً، وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركاً ولا تخشى نفاداً.

وإذا استوفى القلم مداده من هذه الحمدلة، وأسند القول فيها عن فصاحته المرسلة، فإنه يأخذ في إنشاء هذا التقليد الذي جعله حليفاً لقرطاسـه، واستدام سجوده على صفحته حتى لم يكد يرفع من رأسه، وليس ذلك إلا لإفاضتـه في وصف المناقب التي كثـرت فحسن لهـا مقـام الإكثـار، واشتبـه التـطويـل فيهـا بـالاختصار، وهي التي لا يفتقـر واصفها إلى القـول المعاد، ولا يستـوعر سلوك أطوادها ومن العجب وجود السهل في سلوك الأطواد، وتلك مناقبـك أيها الملك الناصر الأجل السيد الكبير العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب، والديوان العزيز يتلوها عليك تحدثاً بشكرك، ويُبَاهي بك أولياءه تنويهاً بذكرك، ويقول: أنت الذي تستكفي فتكون للدولة سهمها الصائب، وشهابها الثاقب، وكنزها الذي تذهب الكنوز وليس بذاهب، وما ضرها وقـد حضرت في نصرتها إذا كان غيرك هو الغائب، فاشكر إذاً مساعيك التي أهلتك لما أهلتـك، وفضلتك على الأولياء بما فضلتك، ولئن شُورِكت في الولاء بعقيدة الإضمار، فلم تُشَارَك في عزمك الذي انتصر للدولة فكان له بسطة الانتصار، وفَرْقٌ بين مَنْ أمد بقلبه وبين من أمد بيده في درجات الأمداد، وما جعل الله القاعدين كالذين قالوا لو أمرتنا لضربنا أكبادها إلى بَرْك الغماد، وقد كفاك من المساعي أنك كفيت الخلافة أمر منازعيها، وطمست على الدعوة الكاذبة التي كانت تدعيها، ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها محفوف من الباطل بمحرابين، ورأت ما رآه رسول الله ﷺ من السوارين اللذين أَوَّلَهُمَا كذابين، فمبصر منهما واحِدٌ تَاه بمجرى أنهارها من تحته، ودعا الناس إلى عبادة طاغُوته وجِبْتِهِ، ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعته من يوم أحده ولا يوم سبته، وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائـرهم بالعمي والصمم، واتخذوه صنماً بينهم ولم تكن الضلالة هناك إلا بِعِجْلٍ أو صَنَم، فقمت أنت في وجه باطله حتى قعد، وجعلت في جيده حبلاً من مَسَد، وقلت ليده تبت فأصبح وهو

لا يسعى بقدم ولايبطش بيد، وكذلك فعلت بالآخر الذي نجمت باليمن نَاجِمَتُه، وسامت فيه سائِمته، فوضع بنية موضع الكعبة اليمانية، وقال: هذا ذو الخلصة الثانية، فأي مقاميك يعترف الإسلام بسبقه؟ أم أيها يقوم بأداء حقه؟ وههنا فليصبح القلم للسيف من الحساد، وليقصر مكانته عن مكانته وقد كان له من الأنْدَاد، ولم يحظ بهذه المزية إلا لأنه أصبح لك صاحباً، وفَخَر بك حتى طال فَخراً عماً عزَّ جانباً، وقضى بولايتك فكان بها قاضياً لما كان حَدُّه قاضباً.

وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غوراً ونجداً، وما اشتملت عليهِ رعية وجنداً، وما انتهت إليهِ أطرافها براً وبحراً، وما يستنقذ من مجاوريها مسالمة وقهراً، وأضاف إليها بلاد الشام، وما تحتوي عليه من المدن الممدنة، والمراكز المحصنة، مستثنياً منها ما هو بيد نور الدين إسمعيل بن نور الدين محمود رحمه الله، وهو حلب وأعمالها، فقد مضى أبوه عن آثار في الإسلام ترفع ذكره في الذاكرين، وتخلفه في عقبه في الغابرين، وولده هذا قد هَذَّبته الفطرة في القول والعمل، وليست هذه الرَّبْوَة إلا من ذلك الجبل، فليكن له منك جار يدنو منه وداداً كما دنا أرضاً، ويُصْبح وهُو له كالبنيان يشد بعضه بعضاً.

والذي قدمناه من الثناء عليك ربما تجاوز بك درجة الاقتصاد، ولفتك عن فضيلة الازدياد، فإياك أن تنظر سعيك بالإعجاب، وتقول هذه بلاد أنا فتحتها بعد أن أضرب عنها كثير من الأضراب، ولكن اعلم أن الأرض لله ولرسوله ثم لخليفته من بعده، ولا منَّةَ للعبد بإسلامه بل المنة لله بهداية عبده، وكم سلف من قبلك مَنْ لو رَامَ ما رمته لدناً شاسعه، وأجاب مانعه، لكن ذَخَرَهُ الله لك لتحظى في الآخرة بمفازه، وفي الدنيا برقم طرازه، فألق بيدك عند هذا القول إلقاء التسليم، وقل **﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾**.

وقد قرن تقليدك هذا بخلعة تكون لك في الاسم شعاراً، وفي الوسم فخاراً، وتناسب محل قلبك وبصرك وخير ملابس الأولياء ما ناسب قلوباً وأبصاراً، ومن جملتها طوق يوضع في عنقك موضع العهد والميثاق، ويشير إليك بأن الإنعام قد أطاف بك إطافة الأطواق بالأعناق، ثم إنك خوطبت بالملك وذلك خَطاب يقضي

لصدرك بالانشراح، ولأملك بالانفساح، وتؤمر معه بمد يدك إلى العليا لا بضمها إلى الجناح، وهذه الثلاثة المشار إليها هي التي تكمل بها أقسام السيادة، وهي التي لا مزيد عليها في الإحسان فيقال إنها الحسنى وزيادة، فإذا صارت إليك فانصب لها يوماً يكون في الأيام كريم الأنساب، واجعله لها عيداً وقل هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب.

هذا، ولك عند أمير المؤمنين مكانة تجعلك لديه حاضراً وأنت ناء عن الحضور، وتضنّ أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك والضنة من شيم الغيور، وهذه المكانة قد عرفتك نفسها وما كنت تعرفها، وما تقول إلا أنها لك صاحبة وأنت يوسفها، فاحرسها عليك حراسة تقضي بتقديمها، واعمل لها فإن الأعمال بخواتيمها.

واعلم أنك قد تقلدت أمراً تعين به نفي الحلوم، ولا ينفك صاحبه عن عهدة الملوم، وكثيراً ما يرى حسناته يوم القيامة وهي مقتسمة بأيدي الخصوم، ولا ينجو من ذلك إلا من أخذ أهبة الحذار، وأشفق من شهادة الأسماع والأبصار، وعلم أن الولاية ميزان إحدى كفتيه في الجنة والأخرى في النار، قال النبي ﷺ: «يا أبا ذر، إني أحبُّ لك ما أحب لنفسي، لا تأمَّرَنَّ على اثنين، ولا تولين مال يتيم»، فانظر إلى هذا القول النبوي نظر من لم يخدع بحديث الحرص والآمال، ومَثِّل الدنيا وقد سيقت إليك بحذافيرها أليس مصيرها إلى زوال، والسعيد إذا جاءته قضى بها أرب الأرواح لا أرب الجسوم، واتخذ منها وهي السم دواء وقد تتخذ الأدوية من السموم، وما الاغتباط بما يختلف على تلاشيه المساء والصباح، وهو كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح، والله يعصم أمير المؤمنين وولاة أمره من تباعتها التي لابستهم ولابسوها، وأحصاها الله عليهم ونسوها، ولك أنت من هذا الدعاء حظ على قدر محلك من العناية التي جذبت بضبعك، ومحلك من الولاية التي بسطت من درعك، فخذ هذا الأمر الذي تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان، وكن في رعايته ممن إذا نامت عيناه كان قلبه يقظان.

ومَلاَك ذلك كله في إسباغ العدل الذي جعله الله ثالث الحديث والكتاب، وأغنى بثوابه وَحْدَه عن أعمال الثواب، وقدر يوماً منه بعبادة ستين عاماً في

الحساب، ولم يأمر به آمر إلا زيد قوة في أمره، وتحصن به من عدوه ومن دهره، ثم يجاء به يوم القيامة وفي يديه كتابا أمان، ويجلس على منبر من نور عن يمين الرحمن، ومع هذا فإن مركبه صعب لا يستوي على ظهره إلا من أمسك عنان نفسه قبل إمساك عنانه، وغلبت لَمَّة ملكه على لمة شيطانه، ومن أوكد فروضه أن تمحي السنن السيئة التي طالت مدد أيامها، ويئس الرعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمداً لانحسار ظلامها، وتلك السنن هي المكوس التي أنشأتها الهمم الحقيرة، ولا غني للأيدي الغنية إذا كانت ذات نفوس فقيرة، وكلما زيدت الأموال الحاصلة منها قدراً زادها الله محقاً، وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الواجبة فَسَمَّوْها حقاً، ولولا أن صاحبها أعظم الناس جرماً لما أغلظ في عقابه، ومثلت توبة المرأة الغامدية بمتابه، وهل أشقى ممن يكون السواد الأعظم له خصماً، ويصبح وهو مطالب بهم بما يعلم وبما لم يُحِطْ به علماً؛ وأنت مأمور بأن تأتي هذه الظلامات فتنحي على أبطالها[1]، وتلحق أسماءها في المحو بأفعالها، حتى لا يبقى لها في العيان صور منظورة، ولا في الألسنة أحاديث مذكورة، فإذا فعلت ذلك كنت قد أزلت عن الماضي سنة سوء سنتها يداه، وعن الآتي متابعة ظلم وجده نهجاً مسلوكاً فجرى على مَدَاه، فبادر إلى ما أمرت به مبادرة من لم يضق ذِراعاً، ونظر إلى الحياة الدنيا بعينه فرآها في الآخرة متاعاً، وأحمد الله تعالى على أن قيض للإمام هدى يقف بك على هُدَاك، ويأخذ بحُجْزَتك عن خطوات الشيطان الذي هو أعدى عِدَاك.

وهذه البلاد المنوطة بطرفك تشتمل على أطراف متباعدة، وتفتقر في سياستها إلى أيدٍ متساعدة، ولهذا يكثر بها قضاة الأحكام، وأولو تدبيرات السيوف والأقلام، وكل من هؤلاء ينبغي أن يقف على باب الاختيار، ويسلط عليه شاهداً عدل من أمانة الدرهم والدينار، فما أضلّ الناس شيء كحب المال الذي فورقت من أجله الأديان، وهجرت بسببه الأولاد والإخوان، وكثيراً ما نرى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الأوثان، فإذا استعنت بأحد منهم على شيء من أمرك فاضرب عليه بالأرصاد،

(١) في أ، ب، ج «فتنجي على أبطالها».

ولا ترض بما عرفته من مبدإ حاله فإن الأحوال تنتقل مُنْتَقَلَ الأجساد، وإياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالربيع بن زياد. وكذلك آؤمر هؤلاء على اختلاف طبقاتهم بأن يأمروا بالمعروف مواظبين، وينهوا عن المنكر محاسبين، ويعلموا أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم الله الغالبين، وليبدأوا أولاً بأنفسهم فيعدلوا بها عن هواها، ويأمروها بما يأمرون به سواها، ولا يكونوا ممن هَدَى إلى طريق البر وهو عنه حائد، وانتصب لطلب المرضى وهو محتاج إلى طبيب وعائد، فما تنزل بركات السماء إلا على من خاف مقام ربه، وألزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه، وإذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم، وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضيء كل قوم إلا بمصباحهم، ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخواناً في الاصطحاب، وجيراناً في الاقتراب، وأعواناً في توزع الحمل الذي يثقل على الرقاب، فالمسلم أخو المسلم وإن كان عليه أميراً، وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كثيراً، وليست الولاية لمن يستجدُّ بها كثرة اللفيف، ويتولاها بالوطء العنيف، ولكنها لمن يمال على جوانبه، ويؤكل من أطايبه، ولمن إذا أُغضب لم يُرَ للغضب عنده أثر، وإذا ألحف في سؤاله لم يلق الإلحاف بخلق الضجر، وإذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم في قسمة القول والنظر، فذلك الذي يكون في أصحاب اليمين، والذي يدعى بالحفيظ العليم والقويّ الأمين، ومن سعادة المرء أن تكون ولاته متأدبين بآدابه، وجارين على نهج صوابه، وإذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسناتٍ مثبتة في كتابه.

وبعد هذه الوصية فإن هُهنا حسنة هي للحسنات كالأم الولود، ولطالما أغنت عن صاحبها إغناء الجنود، وتيقظت لنصره والْعُيُونُ رقود، وهي التي تسبغ لها الآلاء، ولا يتخطاها البلاء، ولأمير المؤمنين بها عنايةَ تبعثها الرحمة الموضوعة في قلبه، والرغبة في المغفرة لما تقدم وتأخر من ذنبه، وتلك هي الصَّدَقَة التي فضل الله بها بعض عباده لمزية إفضالها، وجعلها سبباً إلى التعويض عنها بعشر أمثالها، وهو يأمرك أن تتفقد أحوال الفقراء الذين قُدِرَت عليهم مادة الأرزاق، وألبسهم التعفف ثوب الغنى وهم في ضيق من الإملاق، فأولئك أولياء الله الذين

مَسَّتهم الضراء فصبروا، وكثرت الدنيا في يد غيرهم فما نـظروا إليها إذ نـظروا، وينبغي أن يهيىء لهم من أمرهم مرْفَقاً، ويضرب بينهم وبين الفقر مَوْبِقاً، وما أطلنا لك القول في هذه الوصية إلا إعلاماً بأنها من المهمّ الذي يستقبل ولا يستدبر، ويستكثر منه ولا يستكثر، وهذا يعد من جهاد النفس في بذل المال، ويتلوه جهاد العدو الكافر في مواقف القتال، وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه ما تجعل السيف في ملازمته أخاً، وتَسْخُو له بنفسك إن كان أحد بنفسه سخا، ومن صفاته أنه العمل المحبوُّ بفضل الكرامة، الذي ينمي بعد صاحبه إلى يوم القيامة، وبه تمتحن طاعة الخالق على المخلوق، وكل الأعمال عاطلة لا خلوق لها وهو المختص دونها برتبة الخلوق، ولولا فضله لما كان محسوباً بشطر الإيمان، ولما جعل الله الجنة له ثمناً وليست لغيره من الأثمان، وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى، والذي يبلغك وتبلغه عيناً وأذناً، ولا تكون للإسلام نعم الجار حتى تكون له بئس الجار، ولا عذر لك في ترك جهاده بنفسك ومالك إذا قامت لغيرك الأعذار، وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مُكافحاً، أو تطرق أرضه مماسياً أو مُصَابحاً، بل يريد أن تقصد البلاد التي في يده قصد المستنقذ لا قصد المغير، وأن تحكم فيها بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني قُرَيْظَة والنَّضير، وعلى الخصوص البيت المقدس فإنه تلاد الإسلام القديم، وأخو البيت الحرام في شرف التعظيم، والذي توجَّهَتْ إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم، وقد أصبح وهو يشكـو طول المـدة في أسر رقبتـه، وأصبحت كلمة التوحيد وهي تشكو طول الوحشة في غربتها عنه وغربته، فانْهَضْ إليه نَهْضَة توغل في قرحه، وتُبَدّل صَعْب قياده بسمحه، وإن كان له عام حديبية فأتبعه بعام فتحه، وهذه الاستزادة إنما تكون بعد سَدَاد ما في اليد من ثغـر كان مهملاً فحميت موارده، أو متهدماً فرفعت قواعده، ومن أهمها ما كان حاضر البحر فإنه عورة مكشوفة، وخطة مخوفة، والعدو قريب منه على بُعْدِه، وكثيراً ما يأتيه فجأة حتى يسبق برقه برَعْده، فينبغي أن يرتب بهذه الثغور رابطة تكثر شجاعتهـا وتقل أقرانها، ويكون قتالها لأن تكون كلمة الله هي العليا لا لأن يرى مكانها، وحينئذ يصبح كل منها وله من الرجال أسْوَار، ويعلم أهله أن بناء السيف أمنـع من بناء الأحجار، ومع هذا لا بد لها من أصطول يكثر عدده، ويقوي مدده، فإنه العدة التي

تستعين بها على كشف الغَمَّاء، والاستكثار من سبايا العبيد والإماء، وجيشه أخو الجيش السليماني فذاك يسير على متن الريح وهذا على متن الماء، ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والمـطار، وتساوت أقـدار خلقها على اختـلاف مدة الأعمار؛ فإذا أشرعت قيل جبال متعلقة بقطع من الغيوم، وإذا نظر إلى أشكالها قيل إنها أهلة غير أنها تهتدي في مسيرها بالنجوم، ومثل هذه الخيل ينبغي أن يغالى في جيادها، ويستكثر من قيادها، وليؤمر عليها أمير يلقى البحر بمثله من سعة صدره، ويسلك طرقه سلوك من لم تقتله بجهلها ولكن قتلها بُخْبره، وكذلك فليكن ممن أفنت الأيام تجاربه وزحمتها مناكِبُهْ، وممن يـذل الصعب إذا هو ساسه وإن لان جانبه، وهذا هو الرجل يرأس على القوم فلا يجد هزة بالرياسة، وإن كان في الساقة ففي الساقة أو كان في الحراسة ففي الحراسة، ولقد أفلحت عصابة اعتصبت من ورائه وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنصر من رأيه.

واعلم أنه قد أخل من الجهاد بركن يقدح في عمله، وهو تمامه الذي يأتي في آخره كما أن صدق النية تأتي في أوله، وذلك هو قَسْم الغنائم فإن الأيدي قد تداولته بالإجحاف، وخلطت جهادها فيه بغلوها فلم ترجع بالكَفَاف، والله قد جعل الظلم في تعدِّي حدوده المحدودة، وجعل الاستئثار بالمغنم من أشراط الساعة الموعودة، ونحن نعوذ به أن يكون زماننا هذا زمانه وبأسه شرباس، ولم يستخلفنا على حفظ أركان دينه ثم نُهْمِله إهمَالَ مُضيع ولا إهْمَال ناسٍ، والذي نأمرك به أن تجري هذا الأمر المنصوص من حكمه، وتبرىء ذمتك مما يكون غيرك الفائز بفـوائده وأنت المطالب بإثمه، وفي أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يغنيهم عن هذه الأكلة التي تكون غداً أنكالاً وجحيماً، وطعاماً ذَا غصةٍ وعذاباً أليماً.

فتصفح ما سطرنا لك في هذه الأساطير التي هي عزائم مُبرَمات، بل آيات محكمات، وتحبب إلى الله وإلى أمير المؤمنين باقتفاء كلمـاتها، وابْنِ لـك منها مَجْداً يبقى في عقبك إذا أصيبت البيوت في أعقابها، وهذا التقليد ينطق عليك بأنه لم يأل في الوصايا التي أوصاها، وأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ثم إنه قد ختم بدعوات دعا بها أمير المؤمنين عند ختامه، وسأل فيها خيرة الله التي تتنزل من كل أمر بمنزلة نظامه، ثم قال: اللهم إني أشهدك على من قلدته شهادةً تكون

عليه رقيبة، وله حسيبة، فإني لم آمره إلا بأوامر الحق التي فيها موعظة وذكرى، وهي لمن تبعها هدى ورحمة وبشرى، وإذا أخذ بها بَلَجَ بحجته يوم يسأل عن الحجج، ولم يختلج دون رسول الله ﷺ على الحوض في جملة من يختلج، وقيل لا حرج عليك ولا إثم إن نجوت من وَرَطات الاسم والحرج، والسلام.

وهذا الذي ذكرته من كلامي وكلام الصابي في هذه التقاليد الأربعة لم أقصد به الْوَضْع من الرجل، وإنما ذكرت ما ذكرته لبيان موضع السجع الذي يثبت على المحك، ولا شك أن هذا الوصف المشار إليه في فقر الأسجاع لم يكن مقصوداً في الزمن القديم، إما لمكان عسره، أو لأنه لم يتنبه له، وكيف أضع من الصابي وعلم الكتابة قد رفعه وهو إمام هذا الفن والواحد فيه؟ ولقد اعتبرت مكاتباته فوجدته قد أجاد في السلطانيات كل الإجادة، وأحسن كل الإحسان، ولو لم يكن له سوى كتابه الذي كتبه عن عز الدولة بختيار بن بويه إلى سبكتكين عند خروجه عليه ومجاهرته إياه بالعصيان لاستحق بِهِ فضيلة التقدم، كيف وله من السلطانيات ما أتى فيه بكل عجيبة؟ لكنه في الإخوانيات مُقصّر وكذلك في كتب التعازي.

وعندي فيه رأي لم يره أحد غيري، ولي فيه قول لم يقله أحد سواي، وذاك أن عقل الرجل في كتابته زَائد على فصاحته وبلاغته، وسأبين ذلك فأقول: لينظر الناظر في هذين التقليدين اللذين أروردتهما له، فإنه يرى وصايا وشروطاً واستدراكات، وأوامر ما بين أصل وفرع وكل وجزء وقليل وكثير، ولا نرى ذلك في كلام غيره من الكتاب، إلا أنه عَبَّرَ عن تلك الوصايا والأوامر والشروط والاستدراكات بعبارة في بعضها ما فيه من الضعف والركة، وقد قيل: إن زيادة العلم عَلَى المنطق هجنة، وزيادة المنطق على علم خدعة، ومع هذا فإني أُقِرُّ للرجل بالتقدم، وأشهد له بالفضل.

وإذ فرغت مما أردت تحقيقه في هذا الموضع، فإني أرجع إلى ما كنت بصدد ذكره من الكلام على السجع، وقد تقدم من ذلك ما تقدم، وبقي ما أنا ذاكر ههنا. وهو أن السجع قد ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون الفصلان متساويين لا يزيد أحدهما على الآخر، كقوله

تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ ألا ترى كيف جاءت هذه الفصول متساوية الأجزاء حتى كأنها أفرغت في قالب واحد، وأمثال ذلك في القرآن الكريم كثيرة، وهو أشرف السجع منزلة؛ للاعتدال الذي فيه.

القسم الثاني: أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول، لا طولاً يخرج به عن الاعتدال خروجاً كثيراً؛ فإنه يقبح عند ذلك ويستكره ويعد عيباً.

فمما جاء من ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً، إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً، وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ ألا ترى أن الفصل الأول ثمان لفظات، والفصل الثاني والثالث تسع تسع.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً،لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا، تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ وأمثال هذا في القرآن كثيرة.

ويستثنى من هذا القسم ما كان من السجع على ثلاثة فِقَرٍ؛ فإن الفقرتين الأوليين يُحْسَبان في عدة واحدة، ثم باقي الثلاثة فينبغي أن تكون طويلة طولاً يزيد عليهما؛ فإذا كانت الأولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون الثالثة عشر لفظات أو إحدى عشرة.

مثال ذلك ما ذكرته في وصف صديق فقلت: الصديق من لم يَعْتَضْ عنك بخالف، ولم يُعَاملك معاملة حَالِف، وإذا بَلَّغته أذنه وِشَايةً أقام عليها حد سارق أو قاذف؛ فالأولى والثانية ههنا أربع لفظات أربع لفظات لأن الأولى: «لم يعتض عنك بخالف» والثانية: «ولم يعاملك معاملة حالف» وجاءت الثالثة عشر لفظات. وهكذا ينبغي أن يستعمل ما كان من هذا القبيل؛ وإن زادت الأولى والثانية عن هذه العدة

فتزاد الثالثة بالحساب، وكذلك إذا نقصت الأولى والثانية عن هذه العدة، فافهم ذلك وقس عليه.

إلا أنه لا ينبغي أن تجعله قياساً مطرداً في السجعات الثلاث أين وقعت من الكلام، بل تعلم أن الجواز يعم الجانبين من التساوي في السجعات الثلاث ومن زيادة السجعة الثالثة، ألا ترى أنه قد ورد ثلاث سجعات متساويات في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ، فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ، وَظِلٍ مَمْدُودٍ﴾ فهذه السجعات كلها من لفظتين لفظتين، ولو جعلت الثالثة منها خمس لفظات أو ستاً لما كان ذلك معيبها.

القسم الثالث: أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول، وهو عندي عيب فاحش، وسبب ذلك أن السجع يكون قد استوفى أمده من الفصل الأول بحكم طوله، ثم يجيء الفصل الثاني قصيراً عن الأول، فيكون كالشيء المبتور؛ فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها.

وإذ انتهينا إلى ههنا وَبَيَّنَّا أقسام السجع ولُبَّه وقُشُوره فسنقول فيه قولاً كُلِّيًا، وهو أن السجع على اختلاف أقسامه ضربان:

أحدهما: يسمى السجع القصير، وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين مؤلفة من ألفاظ قليلة، وكلما قلّت الألفاظ كان أحسن، لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع، وهذا الضرب أوعر السجع مذهباً، وأبعده مُتَنَاوَلاً، ولا يكاد استعماله يقع إلا نادراً.

والضرب الآخر: يسمى السجع الطويل، وهو ضد الأول؛ لأنه أسهل مُتَناولاً.

وإنما القصير من السجع أوعر مسلكاً من الطويل لأن المعنى إذا صيغ بألفاظ قصيرة عَزَّ مُوَاتاة السجع فيه؛ لقصر تلك الألفاظ، وضيق المجال في استجلابه، وأما الطويل فإن الألفاظ تطول فيه ويستجلب له السجع من حيث وليس، كما يقال، وكان ذلك سهلاً.

وكل واحد من هذين الضربين تتفاوت درجاته في عدة ألفاظ.

وأما السجع القصير فأحسنه ما كان مؤلفاً من لفظتين لفظتين، كقوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً﴾ وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، ومنه ما يكون مؤلفاً من ثلاثة ألفاظ وأربعة وخمسة، وكذلك إلى العشرة.

وما زاد على ذلك فهو من السجع الطويل.

فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ وقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ، وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾.

وأما السجع الطويل فإن درجاته تتفاوت أيضاً في الطول؛ فمنه ما يقرب من السجع القصير، وهو أن يكون تأليفه من إحدى عشرة إلى اثنتي عشرة لفظة، وأكثره خمس عشرة لفظة.

كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ فالأولى إحدى عشرة لفظة، والثانية ثلاث عشرة لفظة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

ومن السجع الطويل ما يكون تأليفه من العشرين لفظة فما حولها؛ كقوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾.

ومن السجع الطويل أيضاً ما يزيد على هذه العدة المذكورة، وهو غير مضبوط.

واعلم أن التصريع في الشعر بمنزلة السجع في الفصلين من الكلام المنثور، وفائدته في الشعر أنه قبل كمال البيت الأول من القصيدة تعلم قافيتها، وشبه البيت الْمُصَرَّع بباب له مصراعان متشاكلان.

وقد فعل ذلك القدماء والمحدثون، وفيه دلالة على سعة القدرة في أفانين الكلام؛ فأما إذا كثر التصريع في القيدة فلستُ أراه مختاراً؛ إلا أنّ هذه الأصناف من التصريع والترصيع والتجنيس وغيرها إنما يحسن منها في الكلام ما قلّ وجرى مَجْرَى الْغُرّة من الوجه، أو كان كالطراز من الثوب، فأما إذا تواترت وكثرت فإنها لا تكون مرضية؛ لما فيها من أمارات الكلفة وهو عندي ينقسم إلى سبع مراتب، وذلك شيء لم يذكره على هذا الوجه أحد غيري:

فالمرتبة الأولى: ـ وهي أعلى التصريع درجة ـ أن يكون كل مصراع من البيت مستقلاً بنفسه في فهم معناه غير محتاج إلى صاحبه الذي يليه، ويسمى التصريع الكامل، وذلك كقول امرىء القيس[١]:

أَفَـاطِمَ مَهْـلاً بَعْضَ هـذَا التَّـدَلُّـلِ وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ هَجْراً فَأَجْمِلِي

فإن كل مصراع من هذا البيت مفهوم المعنى بنفسه غير محتاج إلى ما يليه.

وعليه ورد قول المتنبي[٢]:

إِذَا كَـانَ مَـدْحٌ فَـالنَّسِيبُ المُقَـدَّمُ أَكُـلُّ فَصيـحٍ قَـالَ شِعْـراً مُتَيَّمُ

(١) هو بيت من معلقته المعروفة التي أولها «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» وسيأتي هذا المطلع بعد هذا البيت، وقد استعمل امرؤ القيس التصريع كثيراً في أوائل قصائده وفي أثنائها.

(٢) هو مطلع قصيدة من مدائحه في سيف الدولة.

المرتبة الثانية: أن يكون المصراع الأول مستقلاً بنفسه غير محتاج إلى الذي يليه، فإذا جاء الذي يليه كان مرتبطاً به، كقول امرىء القيس[١]:

قِفَـانَبْكِ مِنْ ذِكْـرَى حَبِيبٍ وَمَنْـزِلِ   بِسُقْطِ ٱللِّوَى بَيْنَ ٱلدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فالمصراع الأول غير محتاج إلى الثاني في فهم معناه، لكن لما جاء الثاني صار مرتبطاً به.

وكذلك ورد قول أبي تمام[٢]:

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ تُـرْوى الظِّمَاءُ الْحَـوَائِمُ   وَأَنْ يَنْـظِمَ الشَّمْـلَ الْمُبَـدَّدَ نَـاظِمُ

وعليه ورد قول المتنبي[٣]:

الـرَّأْيُ قَبْـلَ شَجَـاعَـةِ الـشُّـجْعَـانِ   هُـوَ أَوَّلٌ وَهِـيَ الـمَـحَـلُّ الـثَّـانِـي

المرتبة الثالثة: أن يكون الشاعر مخيراً في وضع كل مصراع موضع صاحبه، ويسمى التصريع الموجّه، وذلك كقول ابن الحجاج البغدادي:

مِنْ شُرُوطِ الصَّبُوحِ في الْمِهْـرَجَانِ   خِفَّـةُ الشُّـرْبِ مَـعْ خُلُوِّ المَكَـانِ

فإن هذا البيت يجعل مصراعه الأول ثانياً ومصراعه الثاني أولاً؛ وهذه المرتبة كالثانية في الجودة.

المرتبة الرابعة: أن يكون المصراع الأول غير مستقل بنفسه، ولا يفهم معناه إلا بالثاني، ويسمى التصريع الناقص، وليس بمرضيّ ولا حسن.

---

(١) هذا مطلع القصيدة المعلقة التي تقدم بيت منها.

(٢) هذا مطلع قصيدة يمدح فيها أحمد بن أبي داود، ويقول فيها:

إِلَى أَحْمَـدَ المَحْمُـودِ أَمَّتْ بِنَـا السُّرَى   نَـوَاعِـبُ فِي عُـرْضِ الْـفَـلاَ وَرَوَاسِـمُ

(٣) هو مطلع قصيدة من مدائحه في سيف الدولة، وبعده قوله:

فَـإِذَا هُـمَـا ٱجْـتَـمَـعَـا لِـنَـفْسٍ مِـرَّةٍ   بَـلَـغَـتْ مِـنَ الْـعَـلْـيَـاءِ كُـلَّ مَـكَـانِ

فمما ورد منه قول المتنبي[1]:

مَغَانِي الشِّعْبِ طِيباً فِي المَغَانِي ... بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

فإن المصراع الأول لا يستقل بنفسه في فهم معناه دون أن يذكر المصراع الثاني.

المرتبة الخامسة: أن يكون التصريع في البيت بلفظة واحدة وسطاً وقافية، ويسمى التصريع المكرر، وهو ينقسم قسمين: أحدهما: أقرب حالاً من الآخر، فالأول أن يكون بلفظة حقيقية لا مجاز فيها، وهو أنزل الدرجتين؛ كقول عَبيد بن الأبرَص[2]:

فَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَئُوبُ ... وَغَائِبُ ٱلْمَوْتِ لَا يَئُوبُ

القسم الآخر: أن يكون التصريع بلفظة مجازية يختلف المعنى فيها؛ كقول أبي تمام[3]:

فَتًى كَانَ شُرْباً لِلْعُفَاةِ وَمَرْتَعَا ... فَأَصْبَحَ لِلْهِنْدِيَّةِ الْبِيضِ مَرْتَعَا

المرتبة السادسة: أن يذكر المصراع الأول ويكون معلقاً على صفة يأتي ذكرها

---

(١) هو مطلع قصيدة يمدح فيها عضد الدولة وولديه أبا الفوارس وأبا دلف، ويصف فيها شعب بوان وبعده قوله:

وَلٰكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا ... غَرِيبُ ٱلْوَجْهِ وَالْيَدِ وَٱللِّسَانِ

مَلَاعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا ... سُلَيْمَانٌ لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ

(٢) هو من أثناء قصيدة له تعتبر من المطولات المسماة بالمعلقات، وذلك عند من يعدها عشراً، وأولها:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ ... فَالْقُطَّبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ

(٣) هو من أثناء قصيدة له يرثي فيها أبا نصر محمد بن حميد الطائي، وأولها قوله:

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَعَا ... وَأَصْبَحَ مَغْنَى ٱلْجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

في أول المصراع الثاني، ويسمى التصريع المعلَّق؛ فمما ورد منه قول امرىء القيس[1]:

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

فإن المصراع الأول معلق على قوله: «بصبح»؛ وهذا معيب جداً.

وعليه ورد قول المتنبي[2]:

قَدْ عَلَّمَ الْبَيْنُ مِنَّا الْبَيْنَ أَجْفَانَا تَدْمَى وَأَلَّفَ فِي ذَا الْقَلْبِ أَحْزَانَا

فإن المصراع الأول معلق على قوله: «تدمى».

المرتبة السابعة: أن يكون التصريع في البيت مخالفاً لقافيته، ويسمى التصريع المشطور، وهو أنزل درجات التصريع وأقبحها.

فمن ذلك قول أبي نواس:

أَقِلْنِي قَدْ نَدِمْتُ عَلَى الذُّنُوبِ وَبِالْإِقْرَارِ عُدْتُ عَنِ الْجُحُودِ

فصرع بحرف الباء في وسط البيت، ثم قفاه بحرف الدال، وهذا لا يكاد يستعمل إلا قليلاً نادراً.

---

(١) هو من أثناء طويلته المعلقة وقد تقدم مطلعها وبيت منها قريباً.

(٢) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها أبا سهل سعيد بن عبدالله، والبين: الفراق والبعد، والإجفان: جمع جفن، و «تدمى» في محل نصب صفة لأجفاناً، كأنه قال: أجفاناً دامية، وذهب الخطيب إلى أن تدمى على حذف أن المصدرية فيكون مفعولاً ثانياً لعلم: أي علم أجفاننا أن تدمى.

النوع الثاني
في التجنيس

اعلم أن التجنيس غُرَّة شادخة في وجه الكلام، وقد تصرّف العلماء من أرباب هذه الصناعة فيه فَغَرَّبوا وشَرَّقوا، لا سيما المحدثين منهم، وصنف الناس فيه كتباً كثيرة، وجعلوه أبواباً متعددة، واختلفوا في ذلك، وأدخلوا بعض تلك الأبواب في بعض؛ فمنهم عبدالله بن المعتز، وأبو علي الحاتمي، والقاضي أبو الحسين الْجُرْجَاني، وقُدَامة بن جعفر الكاتب، وغيرهم.

وإنما سمي هذا النوع من الكلام مجانساً لأن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد.

وحقيقته أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً، وعلى هذا فإنه هو: اللفظ المشترك، وما عداه فليس من التجنيس الحقيقي في شيء، إلا أنه قد خرج من ذلك ما يسمى تجنيساً، وتلك تسمية بالمشابهة لا لأنها دالة على حقيقة المسمى بعينه.

وعلى هذا فإني نظرت في التجنيس وما شُبِّه به فأجرى مجراه فوجدته ينقسم إلى سبعة أقسام: واحد منها يدل على حقيقة التجنيس؛ لأن لفظه واحد لا يختلف، وستة أقسام مشبهة.

فأما القسم الأول فهو أن تتساوى حروف ألفاظه في تركيبها ووزنها، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ وليس في القرآن الكريم سوى هذه الآية، فاعرفها، ويروى في الأخبار النبوية أن الصحابة نازعوا جرير بن عبدالله البجلي زمامه فقال رسول الله ﷺ: «خَلُّوا بَيْنَ جَرِيرٍ والْجَرِيرِ» أي: دعوا زِمَامه.

ومما جاء منه في الشعر قول أبي تمام(١):

فَـأَصْبَحَتْ غُـرَرُ الأَيَّـامِ مُشْـرِقَـةً بِالنَّصْرِ تَضْحَـكُ عَنْ أَيَّامِـكَ الْغُرَرِ

فالغرر الأولى اسْتعارة من غرر الوجه، والغرر الثانية مأخوذة من غرة الشيء أكرمه؛ فاللفظ إذاً واحد والمعنى مختلف.

وكذلك قوله(٢):

مِنَ الْقَوْمِ جَعْدٌ أَبْيَضُ الْـوَجْهِ وَالنَّـدَى وَلَيْسَ بَنَـانٌ يُجْتَـدَى مِنْـهُ بِـالْجَعْـدِ

فالجعد: السيد، والبنان الجعد: ضد السَّبْط؛ فأحدهما يوصف به السخي، والآخر يوصف به البخيل.

وكذلك قوله(٣):

بِكُـلِّ فَتًى ضَـرْبٍ يُعَـرِّضُ لِلْقَنَـا مُحَيًّى مُحَلًّى حَلْيُهُ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ

فالضَّرْب: الرجل الخفيف، والضَّرْب بالسيف في الحرب.

وكذلك قوله(٤):

عَدَاكَ حَرُّ الثُّغُـورِ الْمُسْتَضَامَـةِ عَن بَرْدِ الثُّغُورِ وَعَنْ سَلْسَالِهَا الْخَصِبِ

---

(١) لم أجد هذا البيت في ديوان أبي تمام، ولا في أخباره التي ألفها الصولي، ولا في مختار شعره للجرجاني.

(٢) من قصيدة له يمدح فيها حفص بن عمر الأزدي، ومطلعها قوله:

عَفَتْ أَرْبُـعُ الْحِلَّاتِ لِـلأَرْبُـعِ المُلْدِ لِكُـلِّ هَضِيمِ الْكَشْحِ مَجْـدُولَـةِ الْقَـدِّ

وانظر الديوان (١٣٠ بيروت).

(٣) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، وأولها قوله:

لَقَـدْ أَخَـذَتْ مِنْ دَارِ مَـاوِيَّـةَ الْحُقْـبُ أَنُحْـلُ المَـغَـانِي لِـلْبِلَى هِـيَ أَمْ نَهْـبُ

وانظر الديوان (ص ٣٠ بيروت).

(٤) من قصيدته التي يمدح فيها المعتصم ويهنئه بمدح عمورية، والتي أولها:

السـيف أصـدق أنبـاء مِنَ الـكـتـب في حـده الحـد بـين الـجـد واللعب =

فالثغور: جمع ثغر، وهو واحد الأسنان، وهو أيضاً البَلَد الذي على تخوم العدو.

ثم قال في هذه القصيدة:

كَمْ أحْرَزَتْ قُضُبُ الْهِنْدِيِّ مُصْلَتَةً ... تَهْتَــزُّ مِنْ قُضْبٍ تَهْتَــزُّ في كُـثُبِ

بِيضٌ إذَا انْتُضِيَتْ مِنْ حُجْبِهَا رَجَعَتْ ... أَحَقَّ بِـالْبِيضِ أَبْدَانـاً مِنَ الْحُجُبِ

فـالقُضُب: السيـوف، والقُضُب: القـدود على حكم الاستعـارة، وكـذلـك البيض: السيوف، والبيض: النساء، وهذا من النادر الذي لا يتعلق به أحد.

وكذلـك قولـه(١):

إذَا الْخَيْلُ جَابَتْ قَسْطَلَ الْحَرْبِ صَدَّعُوا ... صُـدُورَ الْعَوَالِي في صُـدُور الْكَتَـائِبِ

فلفظ الصدور في هذا البيت واحد، والمعنى مختلف.

وكذلـك قولـه(٢):

عَــامِي وَعـامُ الْعِيسِ بَيْنَ وَدِيقَــةٍ ... مَسْجُــورَةٍ وَتَنُــوفَــةٍ صَيْـهُــودِ(٣)

= وعداك: صرفك، والثغور الثانية: مواضع المخافة في البلاد، والثغور الأولى: جمع ثغر، وهو الفم، والخصب: وقع في بعض نسخ الديوان بالخاء المعجمة، وفي بعضها بالحاء المهملة، وفسرت تفسيراً بعيداً.

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي، وأولها قوله:

عَـلَى مِثْـلِهـا مِـنْ أرْبُـعٍ وَمَـلاَعِـبِ ... تُـذَالُ مَصُونَـاتُ الـدُّمُـوعِ السَّـواكِبِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا عبدالله أحمد بن أبي داود، وأولها قوله:

أرَأَيْــتَ أيُّ سَــوَالِــفٍ وَخُــدُودِ ... عَـنَّـتْ لَنَـا بَيْـنَ الـلِّـوى فَــزَرُودِ

(٣) الوديقة: شدة الحر، ومسجورة: متقدة، والتنوفة: الفلاة البعيدة الأطراف. وصيهود - بالهاء - الفلاة التي لا ينال ماؤها. وفي بعض نسخ الديوان «صيخود» بالخاء المعجمة - وهي المحماة كثيراً من شدة الحر.

حَتَّى أُغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِالْفَلاَ ... لِلطَّيْرِ عِيداً مِنْ بَنَاتِ الْعِيدِ[١]

فالعيد: فحل من فحول الإبل، والعيد: اليوم المعروف من الأيام.

وقد أكثر أبو تَمّام من التجنيس في شعره؛ فمنه ما أغرب فيه فأحسن؛ كالذي ذكرته، ومنه ما أتى به كريهاً مستثقلاً، كقوله[٢]:

وَيَوْمَ أَرْشَقَ وَالْهَيْجَاءُ قَدْ رَشَقَتْ ... مِنَ المَنِيَّةِ رَشْقاً وَابِلاً قَصِفَا[٣]

وكقوله[٤]:

يَا مُضْغِناً خَالِداً لَكَ الثُّكْلُ إِنْ ... خَلَّدَ حِقْداً عَلَيْكَ في خَلَدِهْ[٥]

وكقوله[٦]:

وَأَهْلُ مُوقَانَ إِذْ مَاقُوا فَلاَ وَزَرٌ ... أَنْجَاهُمُ مِنْكَ في الْهَيْجَا وَلاَ سَنَدُ[٧]

---

(١) أغادر: أترك. عيداً: يعني به وليمة، وبنات العيد: النوق المنسوبة إلى عيد، وهو فحل منجب.

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي، وأولها قوله:

أَمَّا الرُّسُومُ فَقَدْ أَذْكَرْنَ مَا سَلَفَا ... فَلاَ تَكُفَّنَّ عَنْ شَأْنَيْكَ أَوْ يَكِفَا

(٣) أرشق: اسم موضع وقعت فيه واقعة مشهورة ضد بابك. ورشق السهم: رماه. والوابل: المطر الغزير. وقصفاً: شديداً كقصف الرعد، يريد أنه رشق سهامه على العدو في هذه الواقعة كوابل المطر.

(٤) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد الشيباني، وأولها قوله:

مَا لِكَثِيبِ ٱلْحِمَى إِلَى عَقَدِهْ ... مَا بَالُ جَرْعَائِهِ إِلَى جَرَدِهْ

والكثيب: ما ارتفع من الرمل، والعقد: الرمل المنعقد، والجرعاء: الأرض فيها انبساط، والجرد: السهل.

(٥) المضغن: الحاقد؛ والثكل: الفقد، والخلد ـ بفتح الخاء واللام ـ النفس والقلب.

(٦) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي، وأولها قوله:

يَا بُعْدَ غَايَةِ دَمْعِ الْعَيْنِ إِنْ بَعُدُوا ... هِيَ الصَّبَابَةُ طُولَ ٱلدَّهْرِ وَالسُّهُدُ

(٧) ماقوا: حمقوا وجهلوا، والوزر: الملجأ والحصن، والهيجاء: الحرب.

وكقولـه[١]:

مَهْلاً بَنِي مَالِـكٍ لَا تَجْلُبُنَّ إِلَـى حَيِّ الأَرَاقِمِ دُؤْلُولَ ابْنَةَ الـرَّقِمِ[٢]

ثم قال فيها:

مِنَ الرُّدَيْنِيَّـةِ الـلَّائِي إِذَا عَـسَلَتْ تُشِمُّ بَـوَّ الصَّغَـارِ الأَنْفَ ذَا الشَّمَمِ[٣]

وكقـولـه[٤]:

قَـرَّتْ بِقِرَّانَ عَيْنُ الـدِّينِ وَاشْتَتَرَتْ بِالأَشْتَرَيْنِ عُيُونُ الشِّرْكِ فَاصْطُلِمَا[٥]

وله من هذا الغث البارد المتكلف شيء كثير لا حاجة إلى آستقصائه، بل قد أوردنا منه قليلاً يستدلّ به على أمثاله.

ومن الحسن في هذا الباب قول أبي نُوَاس:

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا احْتَـدَمَ الْـوَغَى وَالْفَضْـلُ فَضْلٌ وَالـرَّبِيـعُ رَبِيـعُ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها مالك بن طوق، وأولها قوله:

سَلِّمْ عَلَى آلـرَّبْعِ مِنْ سَلْمَى بِـذِي سَلَمِ عَـلَيْـهِ وَسْمٌ مِـنَ الأَيَّـامِ وَالْـقِـدَمِ

(٢) وقع هذا البيت في أ، ب، ج محرفاً غاية التحريف؛ فقد جاء فيها هكذا:

مَهْـلاً بَنِـي مـالِـكٍ لَا تَحْـلئن إلـى حَـيِّ الأَرَاقِـمِ دؤلـول الله الـرقـم

والأراقم: من بني تغلب، والدؤلول والرقم: من أسماء الداهية.

(٣) الردينية: الرماح، منسوبة إلى ردينة. ووقع في أ، ب، ج «إن الردينية» وما أثبتناه عن الديوان. وعسلت: اشتد اهتزازها. والبو: ولد الناقة، أو جلدة يحشى تبناً ثم يقرب من أمه لتدر عليه. والشمم: ارتفاع قصبة الأنف، وهو من علامة العظمة عندهم.

(٤) من قصيدة له يمدح فيها إسحاق بن إبراهيم المصعبي، وأولها قوله:

أَصْغَى إِلَى الْبَيْنِ مُـغْتَـرًّا فَـلَا جَـرَمَـا إِنَّ الـنَّـوَى أَسْـأَرَتْ فِي عَـقْـلِهِ لِـمَـمَـا

(٥) قران: اسم مكان. واشتترت: انشقت. واصطلم: قطع من أصله.

وكذلك قوله:

فَقُلْ لأبي الْعَبَّاسِ إنْ كُنْتُ مُذْنِباً ... فأنْتَ أحَقُّ النَّاسِ بالأخْذِ بالْفَضْلِ

فَلاَ تَجْحَدُونِي وُدَّ عِشْرِينَ حِجَّةً ... وَلاَ تُفْسِدُوا مَا كَانَ مِنْكُمْ مِنَ الْفَضْلِ

وعلى هذا النَّهْج ورد قول البحتري(١):

إذَا الْعَيْنُ رَاحَتْ وَهْيَ عَيْن عَلَى الْهَوى ... فَلَيْسَ بِسِرٍّ مَا تُسِرُّ الأضَالِعُ

فالعين: الجاسوس؛ والعين: معروفة.

وكذلك ورد قول بعضهم:

وَتَرَى سَوَابِقَ دَمْعِهَا فَتَوَاكَفَتْ ... سَاق تجاوب فَوْقَ سَاقٍ سَاقَا

فالساق: ساق الشجرة، والساق: القمري من الطيور.

وعلى هذا الأسلوب جاء قول بعض المتأخرين، وهو الشاعر المعروف بالْمَعَرِّي في قصيدة قصد بها التجنيس في كثير من أبياتها، فمن ذلك ما أورده في مطلعها:

لَوْ زَارَنَا طَيْفُ ذَاتِ الْخَالِ أحْيَانَا ... وَنَحْنُ فِي حُفَرِ الأجْدَاثِ أحْيَانَا

ثم قال في أبياتها:

تَقُولُ: أنْتَ امْرُؤٌ جَافٍ مُغَالَطَةً ... فَقُلْتُ: لاَ هَوَّمَتْ أجْفَانُ أجْفَانَا(٢)

وكذا قال في آخرها:

لَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ إنْسَاناً يُلاَذُ بِهِ ... فَلاَ بَرِحْتَ لِعَيْنِ الدَّهْرِ إنْسَانَا

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان، وأولها قوله:

ألَمَّتْ، وَهَلْ إلْمَامُهَا لَكَ نَافِعُ؟ ... وَزَارَتْ خَيَالاً وَالْعُيُونُ هَوَاجِعُ

(٢) الأجفان: جمع جفن العين. و «أجفانا» هو أفضل تفضيل من الجفاء مضاف إلى «نا».

ورأيت الغانمي قد ذكر في كتابه باباً، وسماه «رد الأعجاز على الصدور» خارجاً عن باب التجنيس، وهو ضرب منه، وقسم من جملة أقسامه، كالذي نحن بصدد ذكره هٰهنا، فمما أورده الغانمي من الأمثلة في ذلك قول بعضهم:

وَنَشْرِي بِجَمِيلِ الصُّنْعِ ذِكْراً طَيِّبَ النَّشْرِ
وَنَفْرِي بِسُيُوفِ الْهِنْدِ مَنْ أَسْرَفَ فِي النَّفْرِ
وَبَحْرِي فِي شِرَى الْحَمْدِ عَلَى شَاكِلَةِ الْبَحْرِ

وكذلك قول بعضهم في الشيب:

يَا بَيَاضاً أَذْرَى دُمُوعِيَ حَتَّى ... عَادَ مِنْهَا سَوَادُ عَيْنِي بَيَاضَا

وكذلك قول البحتري:

وَأَغَرَّ فِي الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ ... قَدْ رُحْتُ مِنْهُ عَلَى أَغَرَّ مُحَجَّلِ
كَالْهَيْكَلِ الْمَبْنِيِّ إِلَّا أَنَّهُ ... فِي الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلِ

وليس الأخذ على المعاني في ذلك مناقشة على الأسماء، وإنما المناقشة على أن ينصب نفسه لإيراد علم البيان وتفصيل أبوابه، ويكون أحد الأبواب التي[1] ذكرناها داخلاً في الآخر؛ فيذهب عليه ذلك، ويخفى عنه، وهو أشهر من فَلَق الصباح.

وربما جهل بعض الناس فأدخل في التجنيس ما ليس منه؛ نظراً إلى مساواة اللفظ دون اختلاف المعنى؛ فمن ذلك قول أبي تمام[2]:

أَظُنُّ الدَّمْعَ فِي خَدِّي سَيُبْقِي ... رُسُوماً مِنْ بُكَائِي فِي الرُّسُومِ

وهذا ليس من التجنيس في شيء؛ إذا حَدُّ التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف

(١) ورد في ب، ج «الذي ذكرناها» وهو تحريف.

(٢) من قصيدة له يمدح فيها بعض بني عبد الكريم الطائيين، وأولها قوله:

أَرَامَةُ، كُنْتِ مَأْلَفَ كُلِّ رِيمٍ ... لَوِ اسْتَمْتَعْتِ بِالأُنْسِ الْمُقِيمِ

المعنى، وهذا البيت المشار إليه هو اتفاق اللفظ والمعنى معاً، وهذا مما ينبغي أن ينبه عليه ليعرف.

ومن علماء البيان من جعل له اسماً سَمَّاه به، وهو الترديد: أي أن اللفظة الواحدة رُدِّدَتْ فيه.

وحيث نبهت عليه ههنا فلا أحتاج أن أعقد له باباً أفرده بالذكر فيه.

وأما الأقسام الستة المشبهة بالتجنيس؛ فالقسم الأول منها: أن تكون الحروف متساوية في تركيبها مختلفة في وزنها، فمما جاءَ من ذلك قول النبي ﷺ: «اَللَّهُمَّ كما حَسَّنْتَ خَلْقِي حَسِّنْ خُلُقِي» ألا ترى أن هاتين اللفظتين متساويتان في التركيب، مختلفتان في الوزن؛ لأن تركيب الْخَلْق والخُلُق من ثلاثة أحرف، وهي الخاء واللام والقاف، إلا أنهما قد اختلفا في الوزن، إذ وزن الْخَلْق فَعْلٌ بفتح الفاء، ووزن الخُلُق فعل بضم الفاء.

ومن هذا القسم قول بعضهم: «لَا تُنَالُ غُرَرُ الْمَعَالِي إلَّا بِرُكُوبِ الْغَرَر وَاهْتِبَالِ الغرر».

وقال البحتري(١):

وَفَرَّ الْحَائِنُ الْمَغْرُورُ يَرْجُو أَمَاناً أيُّ سَاعَةِ مَا أَمَانِ(٢)

يَهَابُ الإِلْتِفَاتَ وَقَدْ تَهَيَّا لِلَحْظَةِ طَرْفِهِ طَرَفُ السِّنَانِ(٣)

وكذلك ورد قول الآخر:

قَدْ ذُبْتُ بَيْنَ حُشَاشَةٍ وذَمَاءِ مَا بَيْنَ حَرِّ هَوًى وَحَرِّ هَوَاءِ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها الهيثم الغنوي، وأولها قوله:

رُوَيْدَكَ؛ إنَّ شَأنَكَ غَيْرُ شَانِي وَقَصْرُكَ لَسْتُ طَاعَةَ مَنْ نَهَانِي

(٢) في أ، ب، ج «الخائن» بالخاء المعجمة، وصوابه «الحائن» بالحاء المهملة، وهو كذلك في الديوان، والحائن: الذي قرب حينه، وهو الموت.

(٣) قطع همزة الوصل في «الالتفات» حين اضطر لإقامة الوزن.

القسم الثاني من المشبه بالتجنيس، وهو أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير، وإن زاد على ذلك خرج من باب التجنيس.

فمما جاء قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ۝إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فإن هاتين اللفظتين على وزن واحد؛ إلا أن تركيبهما مختلف في حرف واحد، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿ذٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾.

وعلى نحو من هذا ورد قول النبي ﷺ: «اَلْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيها الْخَيْرُ» وقال بعضهم: لَا تُنَالُ الْمَكَارِمَ إلاَّ بِالْمَكَارِهِ.

وقال أبو تمام(١):

يَمُدُّونَ مِنْ أيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ ... تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ(٢)

وقال البحتري(٣):

مِنْ كُلِّ سَاجِي الطَّرْفِ أغْيَدَ أجْيَدٍ ... وَمُهَفْهَفِ الْكَشْحَيْنِ أحْوَى أحْوَرِ(٤)

---

(١) من قصيدته التي يمدح فيها أبا دلف العجلي، والتي أولها:

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ ... تُذَالُ مَصُونَاتُ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ

وقد تقدم بيت منها قريباً (انظر ص ٢٤٣).

(٢) في ب، ج «قواض قواصم» وهو تحريف؛ فقد عرفت أن القصيدة بائية، وانظر الديوان (ص ٤٣ بيروت)، وقد ورد في أ على الصواب.

(٣) هو ثاني بيت في قصيدة له يمدح فيها المتوكل على الله، ومطلعها قوله:

إنَّ الظِّبَاءَ غَدَاةَ سَفْحِ مُحَجَّرِ ... هَيَّجْنَ حَرَّ جَوًى وَفَرْطَ تَذَكُّرِ

(٤) في أ، ب، ج «أغيد أحيد» بالحاء المهملة، والصواب «أغيد أجيد» بالجيم.

وكذلك قوله(١):

شَـوَاجِـرُ أرْمَـاحٍ تُقَـطِّعُ بَيْنَهُـمْ ... شَوَاجِنَ أرْحَامٍ مَلُومٍ قَـطُوعُهَا

القسم الثالث من المشبه بالتجنيس، وهو أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ وكذلك ورد قوله ﷺ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ».

ودخل ثعلب صاحب كتاب الفصيح على أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، ومجلسه غَاصٌّ، فجلس إلى جانبه، ثم أقبل عليه، وقال: أخاف أن أكون ضَيَّقْت عليك، عَلَى أنه لا يضيق مجلس بمتحابين ولا تسع الدنيا بأسرها متباغضين؛ فقال له أحمد: الصَّدِيق لا يُحَاسب والعَدُوُّ لا يحتسب له، وهذا كلام حسن من كلا الرجلين، والتجنيس في كلام أحمد رحمه الله في قوله: «يحاسب ويحتسب له».

وقد جاءني شيء من ذلك عليه خِفَّةُ الطبع؛ لا ثقل التطبع.

فمنه ما ذكرته في فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة يتضمن ذكر الجهاد فقلت: وخيل الله قد اشتاقت أن يقال لها اركبي، وسيوفه قد تَطَلَّعَتْ أن يقال لها اضربي، ومواطن الجهاد قد بَعُدَ عهدها باستسقاء شآبيب النحور، وإنبات ربيع الذباب والنسور، وما ذاك إلا لأن العدو إذا طلب تقمص ثوب إذلاله، وتَنَصَّل من صحة نصاله، واعتصم بمَعاقله التي لا فرق بينها وبين عِقَاله.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها المتوكل على الله، وأولها قوله:

مُنَى النَّفْس فِي أسْمَاءَ لَوْ تَسْتَطِيعُهَا ... بهَا وَجْدُهَا مِنْ غَادَةٍ وَوَلُوعُهَا

وقبل البيت المستشهد به قوله:

وَفُرْسَانِ هَيْجَاءٍ تَجِيشُ صُدُورُهَا ... بأَحْقَادِهَا حَتَّى تَضِيق درُوعُهَا

تُقَتِّلُ مِنْ وِتْرٍ أعَزَّ نُفُوسِهَا ... عَلَيْهَا بِأَيْدٍ مَا تَكَادُ تُطِيعُهَا

إذَا احْتَرَبَتْ يَوْماً فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا ... تَذَكَّرَتِ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهَا

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كريم؛ فقلت: وقد جعل الله حرمه مَلْقَى الْجِفان، وَمُلْتَقى الأجفان، فهو حِمًى لمن جَنى عليه زَمَانُه، وجَارٌ لمن بعد عنه جِيرَانُه.

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة، وهو: ولقد استبان الخادم من بَرَكة طاعته ما يعمى عنه غيره فما يراه، ووَجَد من أثره في صلاح دنياه ما استدل به على صلاح أخْرَاه، فهو المركب المُنَجِّي، والعمل المَرْجُوُّ لا المُرَجِّي، والمعنى المراد بهداية الصراط المستقيم، وتأويل قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ومن ذلك ما ذكرته في أثناء كتاب إلى بعض الإخوان وذلك وصف بعض المنعمين، فقلت: نحن من حُسْن شِيَمه وفَوَاصِل إحسانه بين هِنْد وهُنَيْدة، ومن يُمْن نقيبته وأمانة غَيْبه بين أمِّ مَعْبَد وأبي عبيدة.

ومن ذلك ما ذكرته في مطلع كتاب إلى بعض الإخوان، فقلت: الكُتُبُ وإن عَدَّهَا قوم عرضاً من الأعراض، وتَقَالَوْهَا حتى قالوا هي سَواد في بياض؛ فإن لها عند الإخوان وَجْهاً وَسِيماً، ومحلًا كريما، وهي حَمائم القلوب إذا فارق حَميمٌ حميماً، ومن أحسنها كتاب سيدنا... ثم مضيت على هذا النهج إلى آخر الكتاب.

ومن هذا القسم قول أبي تمام(١):

أَيَّامَ تُدْمِي عَيْنَهُ تِلْكَ الدُّمَا فِيهَا وَتُقْمِرُ لُبَّهُ الأَقْمَارُ

وكذلك قوله(٢):

---

(١) من قصيدة يمدح فيها أبا سعيد الثغري، وأولها قوله:

لَا أَنْتَ أَنْتَ وَلَا الدِّيَارُ دِيَارُ خَفَّ الْهَوَى وَتَوَلَّتِ الأَوْطَارُ

(٢) هذا البيت والذي قبله من قصيدة واحدة وليس بينهما إلا بيت واحد، وهو:

إِذْ لَا صَدُوقِ وَلَا كَنُودَ اسْمَاهُمَا كَالْمَعْنَيَيْنِ وَلَا النَّوَارُ نَوَّارُ

بيضٌ فَهُنَّ إذا رُمِقْنَ سَوَافِراً صُورٌ وَهُنَّ إذا رُمِقْنَ صِوَارُ(١)

وكذلك قوله(٢):

بَدْرٌ أطالَتْ فيكَ بادِرَةَ النَّوَى وَلَعاً وَشَمْسٌ أُولِعَتْ بِشِماسُ(٣)

وكذلك قوله(٤):

كادُوا النُّبُوَّةَ وَالهُدى فَتَقَطَّعَتْ أعْنَاقُهُمْ في ذٰلِكَ المِضْمَارِ
جَهِلُوا فَلَمْ يَسْتَكْثِروا مِنْ طَاعَةٍ مَعْروفَةٍ بِعِمَارَةِ الأَعْمَارِ

وكذلك قوله(٥):

إنَّ الرِّمَاحَ إذا غُرِسْنَ بِمَشْهَدٍ فَجَنَى الْعَوالي في ذَرَاهُ مَعَالِي

---

(١) رمقن: أطيل النظر إليهنّ، وسوافر: جمع سافرة، وهي التي لم تستتر. والصوار: القطيع من بقر الوحش.

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن المعتصم، وأولها قوله:

ما في وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسِ تَقْضِي ذِمَامَ الأَرْبُعِ الأَدْرَاسِ

(٣) قبل هذا البيت قوله:

إنَّ الْمَنَازِلَ سَاوَرَتْها فُرْقَةٌ أخْلَتْ مِنَ الآرَامِ كُلَّ كِنَاسِ
مِنْ كُلِّ ضاحِكَةِ التَّرَائِبِ أرْهِفَتْ إرْهَافَ خوطِ الْبَانَةِ المَيَّاسِ

وفي الديوان «خطأ وشمس أولعت بشماس». وبادرة النوى: أول ما خطر في بالها من الهجران. والشماس: النفار وعدم الانقياد.

(٤) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ويذكر إحراق الأفشين، وأولها قوله:

الْحَقُّ أبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوارِ فَحَذَارِ مِنْ أُسْدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

(٥) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم، ويذكر أخذ بابك، وأولها قوله:

آلَتْ أُمُورُ الشِّرْكِ شَرَّ مَآلِ وَأَقَرَّ بَعْدَ تَخَمُّطٍ وَصِيَالِ

وآلت: رجعت، والتخمط: التكبر، والصيال: المصاولة، وأراد التسلط والغلبة.

وكذلك قوله[1]:

إذَا أَحْسَنَ الأَقْوَامُ أنْ يَتَطَاوَلُوا   بِلاَ نِعْمَةٍ أَحْسَنْتَ أنْ تَتَطَوَّلاَ[2]

وكذلك قوله[3]:

أيُّ رَبْعٍ يُكَذِّبُ الدَّهْرُ عَنْهُ   وَهْوَ مُلْقى عَلَى طَرِيقِ اللَّيَالِي
بَيْنَ حَالٍ جَنَتْ عَلَيْهِ وَحَوْلٍ   فَهْوَ نِضْوُ الأَحْوَالِ وَالأَحْوَالِ
شَدَّ مَا اسْتَنْزَلَتْكَ عَنْ دَمْعِكَ الأَظْعَانُ حَتَّى اسْتَهَلَّ صَوْبُ الْعَزَالِي
أيُّ حُسْنٍ فِي الذَّاهِبِينَ تَوَلَّى   وَجَمَالٍ عَلَى ظُهُورِ الْجِمَالِ
وَدَلاَلٍ مُخَيِّمٍ فِي ذُرَى الْخَيْمِ   وَحْجْلٍ مُعَصَّمٍ فِي الْحِجَالِ

فالبيت الثاني والخامس هما المقصودان بالتمثيل ههنا، والأبيات الباقية جاءت تبعاً.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات، وأولها قوله:

لَهَانَ عَلَيْنَا أنْ نَقُولَ وَتَفْعَلاَ   وَنَذْكُرَ بَعْضَ الْفَضْلِ مِنْكَ فَتُفْضِلاَ

(٢) في الديوان (ص ٢٥٢) «بلا منة». والتطاول: الاعتداد والامتنان، والتطول: التفضل والإنعام.

(٣) في الديوان قطعة فيها من هذه الأبيات الخمسة ثلاثة أبيات وهي الثالث والرابع والخامس، وترتيبها فيه غير هذا الترتيب، وهاك القطعة كلها برواية الديوان:

شَدَّ مَا اسْتَنْزَلَتْكَ مِنْ رَبْعِكَ الأَظْعَانُ حَتَّى اسْتَهَلَّ دَمْعُ الْغَزَالِ
أيُّ حُسْنٍ فِي الذَّاهِبِينَ تَوَلَّى   وَجَمَالٍ عَلَى ظُهُورِ الْجِمَالِ
وَدَلاَلٍ مُخَيَّمٍ فِي ذُرَى الخيمِ   وَحِجْلٍ مُعَذَّبٍ فِي الْحِجَالِ
وَمَهاً مِنْ مَهَا الْخُدُورِ وَآجَا   لِ ظِبَاءٍ يُسْرِعْنَ فِي الأَجَالِ
عَادَكَ الزَّوْرُ لَيْلَةَ الرَّمْلِ مِنْ رَمْلَةَ بَيْنَ الْحِمَى وَبَيْنَ الْمِطَالِ
ثم فَمَا زَارَكَ الْخَيَالُ وَلكِنَّكَ بِالْفِكْرِ زُرْتَ طَيْفَ الْخَيَالِ

ومما جاء من ذلك قول علي بن جَبَلَةَ:

وَكَمْ لَكَ مِنْ يَوْمٍ رَفَعْتَ بِنَاءَهُ بِذَاتِ جُفُونٍ أَوْ بِذَاتِ جِفَانِ

وكذلك قول محمد بن وهيبْ الحميري:

قَسَمْتَ صُرُوفَ الدَّهْرِ بأْساً وَنَائِلاً فَمَالُكَ مَوْتُورٌ وَسَيْفُكَ وَاتِرُ

وهذا من المليح النادر.

ومن هذا القسم قول البحتري[1]:

جَدِيرٌ بِأَنْ تَنْشَقَّ عَنْ ضَوْءِ وَجْهِهِ ضَبَابَةُ نَقْعٍ تَحْتَها المَوْتُ نَاقِعُ

وكذلك قوله[2]:

نَسِيمُ الرَّوْضِ فِي رِيحٍ شَمَالٍ وَصَوْبُ المُزْنِ فِي رَاحٍ شَمُولِ

وذم أعرابي رجلاً فقال: كان إذا سأل أَلْحَفَ، وإذا سُئِل سَوَّف، يَحْسُد على الفضل، ويَزْهَدُ في الإفضال.

القسم الرابع من المشبه بالتجنيس، ويسمى المعكوس، وذلك ضربان:

أحدهما: عكس الألفاظ، والآخر عكس الحروف.

فالأول كقول بعضهم: عادَاتُ السَّادَاتِ ساداتُ الْعَادَاتِ؛ وكقول الآخر: شِيَمُ الأَحْرَارِ أَحْرَارُ الشيم.

---

(١) من قصيدة له في مدح الفتح بن خاقان أولها قوله:

أَلَمَّتْ وَهَلْ إِلْمَامُهَا لَكَ نَافِعُ وَزَارَتْ خَيَالاً وَالْعُيُونُ هَوَاجِعُ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها المتوكل، وأولها:

أَكُنْتَ مُعَنِّفِي يَوْمَ الرَّحِيلِ وَقَدْ لَجَّتْ دُمُوعِي فِي الْهُمُولِ

وقبل البيت المستشهد به قوله:

وَذَكَّرَ فِيكَ وَالذِّكْرَى عَنَاءٌ مَشَابِهُ فِيكَ بَيِّنَةُ الشُّكُولِ

ومن هذا النوع مما ورد شعراً قول الأضبط بن قُرَيْع من شعراء الجاهلية[١]:

قَـدْ يَجْمَـعُ الْـمَـالَ غَيْـرُ آكِـلِهِ وَيَـأْكُـلُ المَـالَ غَيْـرُ مَنْ جَمَعَـهْ
وَيَـقْـطَعُ الثَّـوْبَ غَـيْـرُ لَابِـسِـهِ وَيَلْبَسُ الثَّـوْبَ غَيْرُ مَنْ قَـطَعَـهْ

وكذلك ورد قول أبي الطيب المتنبي[٢]:

فَلَا مَجْدَ فِي ٱلـدُّنْيَا لِمَنْ قَـلَّ مَالُـهُ وَلَا مَـالَ فِي الدُّنْيَـا لِمَنْ قَلَّ مَجْـدُهُ

وكذلك قول الشريف الرضي من أبيات يذم فيها الزمان:

أَسَفَّ بِمَنْ يَـطِيـرُ إِلَى المَعَـالِي وَطَـارَ بِمَنْ يُسِفُّ إِلَى ٱلـدَّنَـايَـا

وكذلك قول الآخر:

إِنَّ اللَّيَـالِيَ لِـلْأَنَـامِ مَـنَـاهِـلٌ تُـطْوَى وَتُنْشَـرُ بَيْنَهَـا الأَعْمَـارُ
فَقِصَـارُهُنَّ مِنَ الْهُمُـومِ طَـوِيلَةٌ وَطِـوَالُهُنَّ مِـنَ السُّـرُورِ قِـصَـارُ

وأحسن من هذا كله وألطف قول ابن الزقاق الأندلسي:

غَـيَّـرَتْـنَـا يَـدُ الـزَّمَـا نِ فَـقَـدْ شِبْـتُ وَالْتَـحَـى
فَـاسْـتَحَـالَ الـضُّحَـى دُجـاً وَاسْـتَحَـالَ الـدُّجَـا ضُـحَـى

وهذا الضرب من التجنيس له حلاوة، وعليه رَوْنَق، وقد سماه قُدَامة بن جعفر الكاتب التَّبْدِيل، وذلك اسم مناسب لمسماه؛ لأن مؤلِّف الكلام يأتي بما كان مقدَّماً في جزء كلامه الأول مؤخَّراً في الثاني، وبما كان مؤخراً في الأول مقدَّماً في الثاني، ومثله قدامة بقول بعضهم: اشْكُرْ لمن أَنْعَمَ عليك وأَنْعِمْ على من شكرك.

---

(١) من كلمة له أولها:

لِكُـلِّ هَـمٍ مِنَ الْـهُـمُـومِ سَـعَـهْ وَالـصُّبْـحُ وَالْـمُسْيُ لَا فَـلَاحَ مَعَـهْ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها كافوراً، وأولها قوله:

أَوَدُّ مِـنَ الأَيَّـامِ مَـا لَا تَـوَدُّهُ وَأَشْكُـو إِلَيْـهَـا بَيْنَنَـا وَهْـيَ جُنْـدُهُ

ومن هذا القسم قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ وكذلك ورد قول النبي ﷺ: «جَارُ الدَّارِ أَحَقُّ بدَارِ الجارِ».

وكتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى عبدالله بن عباس رضي الله عنه كتاباً؛ فقال: أما بعد فإن الإنسان يَسُرُّه دَرَك ما لم يكن لِيَفُوتَه، ويسوءه فَوْتُ ما لم يكن ليدركه؛ فلا تكن بما نِلْتَ من دُنْياك فَرِحاً، ولا بما فاتك منها تَرِحاً، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة بطول أمل، وكأن قَدِ؛ والسلام.

وروي عن أبي تمام أنه لما قصد عبدالله بن طاهر بن الحسين بخُرَاسان وامتدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها:

أهُنَّ عَوَادِي يُوسُفٍ وَصَوَاحِبُهْ

أنكر عليه أبو سَعيد الضَّرِيرُ وأبو الْعَمَيْثَل هذا الابتداء. وقالا: لم لا يقول ما يفهم؟ فقال: لم لا يفهما ما يقال؟ فاستحسن منه هذا الجواب على الْفَوْر، وهو من التجنيس المشار إليه.

وقد جاءني شيء منه، كقولي في فصل من كتاب يتضمن فتحاً، وهو: فكم كان من افتِرَاعِ عذرة الحِصْنِ من افتراع عذرة حَصَان، وكم حِيزَ به من سِنَان لَحْظٍ اسْتَرَقَّهُ لَحْظُ سنان.

وكذلك قولي في صدر كتاب إلى ديوان الخلافة، وهو: الخادم يبلغ خدمته إلى ذلك الجناب التي تمطره الشفاه قُبَلاَ، وتوسعه الْعُفَاةُ أَمَلاَ، وترى الخَوَلَ به ملوكاً والملوكَ خَوَلاً، وطاعته هي مِحَكُّ الأعمال التي أشير إليها بقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُم أَحْسَنُ عَملاً﴾.

وكذلك ورد قولي أيضاً، وهو فصل من تقليد وزير، فقلت: وقد صَدَّقَ الله لَهْجَةَ المَثْنِي عليك أن يقول: إنك الرجل الذي تضرب به الأمثال، والمهذب الذي لا يقال معه: أيُّ الرجال، وإذا وازرت مملكة فقد حظيت منك بشد أزرها، وسد ثغرها، وأصْبَحَتْ وأنت صدر لِقَلْبِهَا وقلب لصدرها، فهي مُـزْدَانة منك بالفضل المتين، مُعَانة بالقَوِيِّ الأمين.

وأما الضرب الثاني من هذا القسم، وهو عكس الحروف، فهو كقول بعضهم:

أَهْــدَيْتُ شَيْئاً يَقِـلُّ لَــوْلاَ أُحْــدُوثَــةُ الْفَــالِ وَالتَّبَــرُّكْ
كُــرْسِي تَفَــاءَلْتُ فِيــهِ لَــمَّــا رَأَيْــتُ مَــقْــلُوبَــه يَــسُــرُّكْ

وكذلك قول الآخر:

كَيْفَ السُّــرُورُ بِــإِقْبَــالٍ وَآخِــرُهُ إِذَا تَــأَمَّـلْتَــهُ مَقْـلُوبُ إِقْبَــالِ[1]

وأجود من هذا كله قول الآخر:

جَـاذَبْتُهَا وَالـرِّيحُ تَجْـذِبُ عَقْـرَبـاً مِنْ فَـوْقِ خَـد مِثْـلَ قَلْبِ الْعَقْـرَبِ
وَطَفِقْتُ أَلْثِمُ ثَغْــرَهَــا فَـتَمَـنَّعَـتْ وَتَحَجَّبَتْ عَـنِّي بِـقَلْبِ الْـعَقْــرَبِ

وإذا قلب لفظ عقرب صار بُرْقَعاً.

وهذا الضرب نادر الاستعمال[2]؛ لأنه قَلَّ ما يقع كلمة تقلب حروفها فيجيء معناها صواباً.

القسم الخامس من المشبه بـالتجنيس، ويسمى المُجَنَّب، وذاك أن يجمع مؤلف الكلام بين كلمتين إحداهما كالتبع للأخرى والجنيبة لها، كقول بعضهم:

أَبَــا الْعَبَّــاسِ لاَ تَـحْسَـبْ بِــأَنِّي لِشَيْءٍ مِنْ حُلَى الأَشْعَــارِ عَــارِي
فَـلِي طَبْــعٌ كَـسْلَـســالٍ مَـعِـيـنٍ زُلاَلٍ مِـنْ ذُرَا الأَحْـجَــارِ جَــارِي

وهذا القسم عندي فيه نظر؛ لأنه بلزوم ما لا يلزم أولى منه بالتجنيس، ألا ترى أن التجنيس هو اتِّفاقُ اللفظ واختلاف المعنى، وههنا لم يتفق إلا جزء من اللفظ، وهو أقله، وأما اللزوم في الكلام المنثور فهو تَساوي الحـروف التي قبل

---

(١) مقلوب الإقبال هو قولك: «لاَ بَقَاءَ».

(٢) للمرحوم الشيخ الحلواني الخليجي رسالة جمع فيها الشيء الكثير من هذا النوع.

الفواصل المسجوعة، وهذا هو كذلك؛ لأن العين والراء تساوَيَا في البيت الأول في قوله الأشعار وعار والجيم والراء في البيت الثاني في قوله الأحجار وجار.

القسم السادس من المشبه بالتجنيس، وهو ما يساوي وزنه تركيبه غير أن حُروفه تتقدم وتتأخر، وذلك كقول أبي تمام[1]:

بيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي مُتُــونِهِنَّ جِـلَاءُ الشَّــكِّ وَالـرِّيَبِ

فالصفائح والصحائف مما تقدمت حروفه وتأخرت.

وقد ورد في الكلام المنثور، كقوله ﷺ في فضيلة تلاوة القرآن الكريم: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيةٍ تَقْرَأُ» فقوله ﷺ: «اقرأ وارق» من التجنيس المشار إليه في هذا القسم.

النوع الثالث
في الترصيع

وهو مأخوذ من ترصيع العقد، وذاك أن يكون فى أحد جانبي العقد من اللآلىء مثل ما في الجانب الآخر، وكذلك نجعل هذا في الألفاظ المنثورة من الأسجاع، وهو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساويةً لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية، وهذا لا يوجد في كتاب الله تعالى؛ لما هو عليه من زيادة التكلف؛ فأما قول من ذهب إلى أن في كتاب الله منه شيئاً ومثله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ فليس الأمر كما وقع له؛ فإن لفظه (لفي) قد وردت في الفقرتين معاً، وهذا يخالف شرط الترصيع الذي شرطناه، لكنه قريب منه، وأما الشعر فإني كنت أقول: إنه لا يَتَّزِن على هذه الشريطة، ولم أجده في أشعار العرب؛ لما فيه من تَعَمُّق الصنعة وتعسف الكلفة، وإذا جيء به في الشعر لم يكن عليه مَحْضُ الطلاوة التي تكون إذا جيء به في

(١) من قصيدته التي يمدح فيها المعتصم ويهنئه بفتح عمورية؛ وقد سبق ذكرها مراراً.

الكلام المنثور، ثم إني عثرت عليه في شعر المحدثين، ولكنه قليل جداً؛ فمن ذلك قول بعضهم:

فَمَكَـارِمٌ أَوْلَيْتَهـا مُتَبَـرِّعـاً وَجَـرَائِمٌ أَلْغَيْتَهـا مُتَـوَرِّعـاً[1]

فمكارم بإزاء جرائم، وأوليتها بإزاء ألغيتها، ومتبرعاً بإزاء متورعاً.

وقد أجاز بعضهم أن يكون أحد ألفاظ الفصل الأول مخالفاً لما يقابله من الفصل الثاني، وهذا ليس بشيء؛ لمخالفته حقيقة الترصيع.

فمما جاء من هذا النوع منثوراً قول الحريري في مقاماته: «فَهُوَ يَطْبَعُ الأَسْجَاعَ بِجَواهِرِ لَفْظِهِ، وَيَقْرَعُ الأَسْمَاعَ بِزَوَاجِرِ وَعْظِهِ»؛ فإنه جعل ألفاظ الفصل الأول مساوية لألفاظ الفصل الثاني وَزْناً وَقافية؛ فجعل يَطْبع بإزاء يَقْرع، والأسجاع بإزاء الأسماع، وجواهر بإزاء زواجر، ولفظه بإزاء وعظه.

ومما جاءني من هذا النوع ما ذكرته في جواب كتاب إلى بعض الإخوان، وهو: قد أعدت الجواب ولم أَسْتَعِرْ له نظماً مُلَفَّقاً، ولا جلبت إليه حُسْناً مُنَمَّقاً، بل أخرجته على رسله، وغنيت بِصِقَال حسنه عن صَقْله، فجاء كما تراه غير ممشوط ولا مخطوط، فهو يَرْفُلُ في أثوابِ بِذْلَتِه، وقد حَوَى الجمال بجُمْلَته، والحسن ما وَشَتْه فِطْرة التصوير، لا ما حشته فكرة التزوير.

والترصيع في قولي: «وَشَتْه فطرة التصوير» و «حَشَتْه فكرة التزوير».

وكذلك ورد قولي في فصل من الكلام يتضمن تثقيف الأولاد؛ فقلت: مَنْ قَوَّمَ أَوَدَ أولاده، ضَرَّمَ كَمَد حُسَّاده؛ فهذه الألفاظ متكافئة في ترصيعها، فقَوَّم بإزاء ضَرَّم، وأودَ بإزاء كَمَد، وأولاده بإزاء حساده.

وكذلك قول بعضهم في الأمثال المولدة التي لم ترد عن العرب، وهو: مَنْ أَطَاعَ غَضَبَه أَضَاعَ أَدَبَه؛ فأطاع بإزاء أضاع، وغضبه بإزاء أدبه.

---

(١) «الغيتها» بالغين المعجمة في أ، وفي ب، ج «ألفيتها» بالفاء وهو تحريف، وفي د «ألقيتها» بالقاف، ولها وجه.

وقد ورد هذا الضرب كثيراً في الخطب التي أنشأها الشيخ الخطيب عبد الرحيم بن نُباتة رحمه الله:

فمن ذلك قوله في أول خطبة: الحمدُ لله عاقِدِ أزِمَّة الأمور بعزائم أمره، وحاصِد أئمة الغُرُور بقَوَاصِمِ مَكْره، ومُوَفِّق عبيده لمغانم ذكره، ومحَقِّق مواعيده بلوازم شكره؛ فالألفاظ التي جاءت في الفصلين الأولين متساوية وزناً وقافية، والتي جاءت في الفصلين الآخرين فيها تخالف في الوزن؛ فإن مواعيد تخالف وزن عبيد، ولا تخالف قافيتها التي هي الدال.

ومن ذلك قوله أيضاً في جملة خطبة: أُولئِكَ الذين أفَلُوا فَنَجَمْتُم، ورَحَلُوا فأقمتم، وأبَادَهُمُ الموت كما علمتم، وأنتم الطامعون في البقاء بعدهم كما زعمتم، كلا! والله ما أُشْخِصُوا لتقروا، ولا نُغِّصُوا لِتُسَرُّوا، ولا بد أن تمروا حيث مروا، فلا تَثِقُوا بِخُدَعِ الدنيا ولا تغتروا؛ وهذا الكلام فيه أيضاً ما في الذي قبله من صحة الوزن والقافية وصحة القافية دون الوزن.

وكذلك قوله أيضاً في خطبة أخرى: أيها الناس، أسِيمُوا الْقُلُوبَ في رياض الْحِكَم، وأدِيمُوا النَّحِيبَ على ابيضاض اللِّمَم، وأطيلوا الاعتبار بانتقاص النعم، وأجيلوا الأفكار في انقراض الأمم.

وأما ما ورد في الشعر على مخالفة بعض الألفاظ بعضاً فكقول ذي الرمة[١]:

كَحْلاءُ في بَرَجٍ صَفْرَاءُ في دَعَجٍ كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّها ذَهَبُ[٢]

وصدر هذا البيت مرصع، وعجزه خال من الترصيع؛ وعذر الشاعر في ذلك واضح؛ لأنه مقيد بالوقوف مع الوزن والقافية، ألا ترى أن ذا الرمة بنى قصيدته على

---

(١) من قصيدة له مطلعها قوله:

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ

(٢) رواية الديوان:

كَحْلاءُ فِي دَعَجٍ صَفْرَاءُ فِي نَعَجٍ كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبُ

حرف الباء؛ ولو رصع هذا البيت الترصيع الحقيقي لكان يلزمه أن يأتي بألفاظه على حرفين حرفين أحدهما الباء، أو كان يقسم البيت نصفين ويماثل بين ألفاظ هذا النصف وهذا النصف، وذلك مما يعسر وقوعه في الشعر.

وأرباب هذه الصناعات قد قسموا الترصيع إلى هذين القسمين المذكورين، وهذه القسمة لا أراها صواباً؛ لأن حقيقة الترصيع موجودة في القسم الأول دون الثاني.

ومما جاء من هذا القسم الثاني قول الخنساء[1]:

حَامِي الْحَقِيقَةِ مَحْمُودُ الْخَلِيقَةِ مَهْـ ـدِيُّ الطَّرِيقَةِ نَفَّاعٌ وَضَرَّارُ

وكذلك قول الآخر[2]:

سُودٌ ذَوَائِبُهَا بِيضٌ تَرَائِبُهَا مَحْضٌ ضَرَائِبُهَا صِيغَتْ مِنَ الْكَرَمِ

النوع الرابع
في لزوم ما لا يلزم

وهو من أشقِّ هذه الصناعة مذهباً، وأبْعَدِها مسلكاً، وذاك لأن مؤلفه يلتزم ما لا يلزمه، فإن اللازم في هذا الموضع وما جرى مجراه إنما هو السجع الذي هو تساوي أجزاء الفواصل من الكلام المنثور في قوافيها، وهذا فيه زيادة على ذلك،

(١) من قصيدتها التي ترثي فيها أخاها صخراً، والتي أولها قولها:

قَذًى بِعَيْنِكِ أَمْ بِالْعَيْنِ عُوّارُ أَمْ أَقْفَرَتْ إِذْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ

وبعد البيت الذي ذكره المؤلف قولها:

جَوَابُ قَاصِيَةٍ جَزَّازُ نَاصِيَةٍ عَقَّادُ أَلْوِيَةٍ لِلْخَيْلِ جَرَّارُ

حُلْوٌ حَلَاوَتُهُ فَصْلٌ مَقَالَتُهُ فَاشٍ حِمَالَتُهُ لِلْعَظْمِ جَبَّارُ

(٢) البيت لأبي صخر الهندلي.

وهو أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفاً واحداً، وهو في الشعر أن تتساوى الحروف التي قبل روى الأبيات الشعرية.

وقد جمع أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان في ذلك كتاباً، وسماه كتاب اللزوم، فأتى فيه بالجيد الذي يحمد، والرديء الذي يذم.

وسأذكر في كتابي هذا في هذا الموضع أمثلة من المنثور والمنظوم يهتدى بها.

فمن ذلك ما ذكرته في جملة كتاب في فصلٍ يتضمن ذم جبان، فقلت: إذَا نَزَلَ به خَطْب مَلَكه الْفَرَق، وإذا ضلَّ في أمْرٍ لم يُؤْمِن إلا إذا أدركه الْغَرَق.

ومن ذلك ما ذكرته في مبدأ كتاب إلى بعض الإخوان، فقلت: الخادم يُهْدِي من دعائه وثنائه ما يسلك أحدهما سماء والآخر أرضاً، ويَصُون أحدهما نفساً والآخر عِرْضاً، وأَعجَب ما فيهما أنهما تَوْأَمَان، غير أن هذا مُسْتَنْتَج من ضمير القلب وهذا من نُطْقِ اللسان؛ فاللزوم ههنا في الراء والضاد.

وكذلك ورد قولي في جملة كتاب إلى ديوان الخلافة، فقلت: وقد علم من شيم الديوان العزيز أنه يُسَرُّ بامتداد الأيْدِي إلى بابه، وإذا أغبّ أحدها في المسألة نهاه عن إغْبَابه، حتى لا يخلو حَرَمُه الكريم من المَطاف، ولا يَدُه الكريمة من الإسعاف؛ فاللزوم ههنا في لفظتي «بابه» و «إغبابه».

ومن ذلك ما كتبته في جملة كتاب إلى ديوان الخلافة أيضاً، وهو: وَمَهْمَا شُدَّ به عضد الخادم من الإنعام فإنه قوة لليد التي خَوَّلَتْه، ولا يقوى تَصَعُّد السحب إلا بكثرة غَيْثها الذي أنْزَلَتْه، وغير خاف أن عبيد الدولة لها كالعُمُد من طِرَافِهَا، ومركز الدائرة من أطرافها، ولا يؤيَّدُ السيف إلا بقائمه، ولا ينهض الجناح إلا بقوادمه؛ فاللزوم في هذا الموضع في الراء والفاء في قولي «طراف» و «أطراف».

ومن ذلك ما كتبته في صدر كتاب إلى الملك الأفضل علي بن يوسف أهنئه بملك مصر في سنة خمس وتسعين وخمسمائة، فقلت: المملوك يهنىء مولانا بنعمة الله المؤذنة باستخلاصه واحتِبائه، وتمكينه حتى بلغ أشُدَّه واسْتَخْرَج كنز

آبائه، ولو أنصف لَهَنَّأ الأرض منه بوابلها، والأمة بكافلها، وخصوصاً أرض مصر التي خصت بشرف سُكْنَاه، وغدت بين بحرين من فيض البحر وفيض يمناه.

وكل هذه الفصول المذكورة من هذه المكتوبات التي أنشأتها لا كلفة على كلمات اللزوم فيها.

وقرأت في كتاب الأغاني لأبي الفرج: أن لَقِيط بن زُرَارة تزوج بنت قَيْس بن خالد بن ذي الجدين، فحظيت عنده وحظي عندها، ثم قتل فَآمَتْ بعده وتزوجت زوجاً غيره، فكانت كثيراً ما تذكر لقيطاً، فلامها على ذلك؛ فقالت: إنه خَرَج في يوم دَجْن وقد تَطَيَّب وشرب، فطرد البقر فصرع منها، ثم أتاني وبه نضح دم، فضمَّني ضماً، وشَمَّني شَمَّة، فليتني مِتُّ ثَمَّة، فلم أرَ مَنْظَراً كان أحسن من لقيط، فقولها: «ضمني ضمة، وشمني شمة، فليتني مت ثمة» من الكلام الحلو في باب اللزوم، ولا كلفة عليه.

وهكذا فليكن؛ فإن الكلفة وحشة تذهب برَوْنَق الصنعة، وما ينبغي لمؤلف الكلام أن يستعمل هذا النوع حتى يجيء به متكلفاً؛ ومثاله في هذا المقام كمن أخذ موضوعاً رديئاً فأجاد فيه صنعته؛ فإنه يكون عند ذلك قد راعى الفرع وأهمل الأصل، فأضاع جودة الصنعة في رداءة الموضوع.

وقد سلك ذلك أبو العلاء المعري أحمد بن عبدالله بن سليمان؛ فمما جاء من ذلك قوله في حرف التاء مع الخاء:

بِنْتُ عَنِ ٱلدُّنْيَا وَلَا بِنْتَ لِي ... فِيهَا وَلَا عِرْسَ وَلَا أُخْتُ
وَقَدْ تَحَمَّلْتُ مِنَ ٱلْوِزْرِ مَا ... تَعْجِزُ أَنْ تَحْمِلَهُ الْبُخْتُ
إِنْ مَدَحُونِي سَاءَنِي مَدْحُهُمْ ... وَخِلْتُ أَنِّي فِي الثَّرَى سِخْتُ

وله من ذلك الجيد، كقوله:

لَا تَطْلُبَنَّ بِآلَةٍ لَكَ حَاجَةً ... قَلَمُ الْبَلِيغِ بِغَيْرِ جَدٍ مِغْزَلُ
سَكَنَ السِّمَاكَانِ السَّمَاءَ كِلَاهُمَا ... هَذَا لَهُ رُمْحٌ وَهَذَا أَعْزَلُ

وهذا بين الاسترسال وبين الكلفة.

وأما ما تكلف له تكلفاً ظاهراً وإن أجاد فقوله:

تُنَازِعُ في ٱلدُّنْيا سِوَاكَ وَمَا لَهُ ... وَلاَ لَكَ شَيْءٌ في ٱلْحَقِيقَةِ فِيهَا(١)
وَلٰكِنَّهَا مِلْكٌ لِرَبٍّ مُقَدِّرٍ ... يُعِيرُ جُنُوبَ الأَرْضِ مُرْتَدِفِيهَا
وَلَمْ تَحْظَ مِنْ ذَاكَ النِّزَاعِ بِطَائِلٍ ... مِنَ ٱلأَمْرِ إِلاَّ أَنْ تُعَدَّ سَفِيهَاً(٢)
فَيَا نَفْس لاَ تَعْظُمْ عَلَيْكِ خُطُوبُهَا ... فَمُتَّفِقُوهَا مِثْلُ مُخْتَلِفِيهَا(٣)
تَدَاعَوْا إِلَى النَّزْرِ الْقَلِيلِ فَجَالَدُوا ... عَلَيْهِ وَخَلَّوْهَا لِمُغْتَرِفِيهَا
وَمَا أَمُّ صِلٍّ أَوْ حَلِيلَةُ ضَيْغَمٍ ... بِأَظْلَمَ مِنْ دُنْيَاكِ فَاعْتَرِفِيهَا
تُلاَقِي الْوُفُودَ الْقَادِمِيهَا بِفَرْحَةٍ ... وَتَبْكِي عَلَى آثَارِ مُنْصَرِفِيهَا(٤)
وَمَا هِيَ إِلاَّ شَوْكَةٌ لَيْسَ عِنْدَهَا ... وَجَدِّكَ إِرْطَابٌ لِمُخْتَرِفِيهَا(٥)
كَمَا نَبَذَتْ لِلطَّيْرِ وَٱلْوَحْشِ رَازِمٌ ... فَأَلْقَتْ شُرُوراً بَيْنَ مُخْتَطِفِيهَا
تَنَاءَتْ عَنِ ٱلإِنْصَافِ مَنْ ضِيمَ لَمْ ... يَجِدْ سَبِيلاً إِلَى غَايَاتِ مُنْتَصِفِيهَا(٦)

(١) في اللزوميات «ولا لك شيء بالحقيقة».

(٢) في اللزوميات «ولم تحظ في ذاك النزاع».

(٣) سقط بيت بين هذا البيت والذي بعده، وهو في اللزوميات:

وَصَفْتِ لِقَوْمٍ رَحْمَةً أَزَلِيَّةً ... وَلَمْ تُدْرِكِي بِالْقَوْلِ أَنْ تَصِفِيهَا

(٤) في ب «على آثارها» وهو خطأ، والذي أثبتناه عن أ، ج واللزوميات وبين هذا البيت والذي بعده بيتان، وهما عن اللزوميات:

وَلَمْ يَتَوازَنْ في الْقِيَاسِ نَعِيمُهَا ... وَسَيِّئَةٌ أَوْدَتْ بِمُقْتَرِفِيهَا
وَأَرْزَاقُهَا تَغْشَى أُنَاساً بِفَتْرَةٍ ... وَتَقْصُرُ حِيناً دُونَ مُحْتَرِفِيهَا

(٥) في اللزوميات «وما هي إلا شاكلة»، وبين هذا البيت والذي بعده بيت وهو:

فَقَالَتْ عَلَى الْخَضْرَاءِ شُرْبُ كُمَيْتِهَا ... وَغَالَتْ عَلَى الْغَبْرَاءِ مُعْتَسِفِيهَا

(٦) في ب، ج «يبات عن الإنصاف» وما أثبتناه عن اللزوميات ويحتمله ما في أ.

فـأطْبِقْ فَمَـاً عَنْهـا وَكَفًّـا ومُقْلَةً وَقُـلْ لِغَوِيِّ النَّاسِ فـاكَ لِفِيهَـا[١]

ومـن ذلـك[٢]:

أَرَى الـدُّنْيَـا وَمَـا وُصِفَتْ بِبِـرٍّ إِذَا أَغْـنَـتْ فَـقِيـراً أَرْهَـقَـتْـهُ[٣]
إِذَا خُـشِيَـتْ لِشَـرٍ عَـجَّـلَتْـهُ وَإِنْ رُجِـيَتْ لِـخَيْـرٍ عَـوَّقَـتْـهُ[٤]
حَيَـاة كَـالْحُبَـالَـةِ ذَاتُ مَكْـرٍ وَنَـفْسُ المَـرْءِ صَيْـدٌ أَعْـلَقَـتْـهُ
فَـلاَ يُـخْـدَعْ بِحِـيْلَتِـهَـا أَرِيـبٌ وَإِنْ هِـيَ سَـوَّرَتْـهُ وَنَـطَّقَـتْـهُ[٥]
أَذَاقَـتْـهُ شَـهِـيًّـا مِنْ جَـنَـاهـا وَصَـدَّتْ فَـاهُ عَـمَّـا ذَوَّقَـتْـهُ

وقد ورد للعرب شيء من ذلك إلا أنه قليل؛ فمما جاءَ منه قول بعضهم في أبيات الحماسة[٦]:

إِنَّ الَّـتِي زَعَـمَـتْ فُـؤَادَكَ مَـلَّهـا خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَـوًى لَهَا
بَيْضَـاءُ بَـاكَـرَهَـا النَّعِيمُ فَصَـاغَهـا بِـلَبَـاقَـةٍ فَـأَدَقَّـهـا وَأَجَـلَّهـا
حَجَبَتْ تَحِيَّتَهَـا فَقُلْتُ لِصَـاحِبِي مَـا كَـانَ أَكْثَـرَهَـا لَنَـا وَأَقلها
وَإِذَا وَجَـدْتُ لَهَـا وَسَـاوِسَ سَلْوَةٍ شَفَـعَ الضَّمِيـرُ إِلَى الفُـؤَادِ فَسَلَّهـا

وهذا من اللطافة على ما يشهد لنفسه:

ومما يجري هذا المجرى قـول حُجْر بن حَيَّـة العَبْسي من شعر الحمـاسة أيضاً[٧]:

(١) في ج «فأطبقوا فما عنها» وهو تحريف وما أثبتناه عن أ، ب واللزوميات.
(٢) هذه الأبيات في اللزوميات غير متصلة كما هنا فانظر (ج ٢ ص ٣٣٨ مصر).
(٣) في اللزوميات «متى أغنت فقيراً».
(٤) عوقته: أخرته.
(٥) سورته: ألبسته السوار، ونطقته: ألبسته المنطقة أو النطاق.
(٦) الأبيات لعروة بن أذينة، وقد سبق ذكرها في هذا الكتاب (انظر ص ١٧٧).
(٧) انظر شرح التبريزي (٤ ـ ٢٠٠).

وَلاَ أُدَوِّمُ قِـدْرِي بَعْـدَمَـا نَضِجَتْ بُخْـلاً فَتَمْنَـعَ مَـا فِيهـا أَثَـافِيهَـا(١)
حَتَّى تُقَسَّمَ شَتَّى بَيْـنَ مَـا وَسِعَـتْ وَلاَ يُـؤَنَّبُ تَحْتَ اللَّيْـلِ عَـافِيهـا

ومما ورد من ذلك أيضاً قول طَرَفَة بن الْعَبْدِ البَكْرِي(٢):

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ المَـالَ يَـكْسِبُ أَهْلَهُ فُضُـوحـاً إِذَا لَمْ يُعْطَ مِنْهُ نَـوَاسِبُـهْ
أَرَى كُـلَّ مَـالٍ لاَ مَحَـالَـةَ ذَاهِبـاً وَأَفْضَلُهُ مَـا وُرِّثَ الحمـدَ كَـاسِبُـهْ

وكذلك قول الفرزدق(٣):

وَغَيَّـرَ لَـوْنَ رَاحِـلَتِـي وَلَـوْنِـي تَـرَدِّيَّ الهَـوَاجِـرَ وَاعْتِمَـامِي(٤)
أَقُـولُ لَهَـا إِذَا ضَجِـرَتْ وَعَضَّتْ بِمُـورِكَـةِ الْـوِرَاكِ مَعَ الـزِّمَـامِ(٥)
عَـلاَمَ تَـلَفَّـتِيـنَ وَأَنْـتِ تَـحْـتِـي وَخَيْـرُ النَّـاسِ كُلِّهِمِ أَمَـامِي(٦)

وكذلك قوله أيضاً(٧):

(١) في الحماسة «بخلاً لتمنع».
(٢) لم أجد هذين البيتين في ديوان طرفة بن العبد، ولا عثرت على نسبتهما إليه في مرجع آخر، وقد وجدت أبياتاً نحلت طرفة على هذا الروى وأولها:

فَكَيْفَ يُـرَجِّي الْمَـرْءُ دَهْـراً مُخَـلَّداً وَأَعْمَـالُـهُ عَمَّـا قَلِيـلٍ تُحَـاسِبُـهْ

انظر (شعراء النصرانية ص ٣١٧).
(٣) من قصيدة له يمدح فيها هشام بن عبد الملك بن مروان؛ وأولها قوله:

أَلَـسْتُـمْ عَـائِجِيـنَ بِـنَـا لَـعَـنَّـا نَـرَى الْعَرَصَـاتِ أَوْ أَثَـرَ الْخِيَـامِ

والبيت الأول مما هنا غير متصل بالثاني في رواية الديوان.
(٤) في أ «واعتمادي» وهو تحريف.
(٥) في أ، ب، ج «أقول لها إذا ضجرت وغصت» وفي الديوان «أقول لها إذا عطفت وعضت» ولعله أنس بقوله «علام تلفتين - إلخ».
(٦) في الديوان «إلام تلفتين وأنت - إلخ».
(٧) روى أبو الفرج هذين البيتين مع ثالث، وهو:

خَـرَجَتْ إِلَيْـكَ وَلَمْ تَكُنْ خَـرَّاجَـةً فَـأُصِيبَ صَـدْعُ فُـؤَادِكَ أَنْهَـاضِ

مَنَعَ الْحَيَاةَ مِنَ الرِّجَالِ وَنَفْعَها حَدَقٌ تُقَلِّبُهَا النِّسَاءُ مِرَاضُ
وَكَأَنَّ أَفْئِدَةَ الرِّجَالِ إِذَا رَأَوْا حَدَقَ النِّسَاءِ لِنَبْلِهَا أغْرَاضُ

وإذا شئت أن تعلم مقادير الكلام وكان لك ذَوْق صحيح فانظر إلى هذا العربي في كلامه السهل الذي كأنه ماء جار، وانظر إلى ما أوردته لأبي العلاء المعري؛ فإن أثر الكلفة عليه باد ظاهر.

وممن قصد من العرب قصيدة كله من اللزوم كُثَيِّر عَزَّة، وهي القصيدة التي أولها:

خَلِيلَيَّ هٰذَا رَبْعُ عَزَّةَ فَاعْقِلاَ قَلُوصَيْكُمَا ثُمَّ احْلُلاَ حَيْثُ حَلَّتِ[1]

وهذه القصيدة تزيد على عشرين بيتاً، وهي مع ذلك سهلة لينة تكاد تَتَرَقرق من لينها وسهولتها، وليس عليها من أثر الكلفة شيء، ولولا خوف الإطالة لأوردتها بجملتها.

وقد ذكر بعضهم من هذا النوع ما ورد في أبيات الحماسة، وهو[2]:

وَفَيْشَةٍ لَيْسَتْ كَهٰذِي الْفَيْشِ قَدْ مُلِئَتْ مِنْ تَرَفٍ وَطَيْشِ[3]
إِذَا بَدَتْ قُلْتَ أَمِيرُ الْجَيْشِ مَنْ ذَاقَهَا يَعْرِفُ طَعْمَ الْعَيْشِ

وهذا ليس من باب اللزوم؛ لأن اللزوم هو أن يلتزم الناظم والناثر ما لا يلزمه؛ كقولنا: شرق، وفرق؛ مثلاً؛ فإنه لو قيل بدلاً من ذلك شرق وحنق لجاز ذلك، وفي

(١) كذا وقع هذا البيت في أ، ب، ج، وفي الديوان وغيره «ثم انزلا حيث حلت» وهو خير مما في أصول الكتاب؛ فإنه لا يقال «احللا» ولا «اشددا» ولا «اظللا» وهكذا من كل مضعف أسند إلى ألف الاثنين، وإنما يقالُ «حلا» و «شدا» و «ظلا»، وما أشبه ذلك.

(٢) انظر التبريزي (٤ - ٣٤٠).

(٣) في الحماسة:

قَدْ مُلِئَتْ مِنْ خُرُقٍ وَطَيْشِ

هذه الأبيات لا يقع الأمر كذلك؛ لأنه لو قيل: طَيْش وعَرْش لما جاز، وهذا يقال له الردف في الشعر، وهو الياء والواو قبل حرف الروي، وإذا جيء بذلك في الشعر وفي الكلام المنثور لا يقال إنه التزام ما لا يلزم؛ لأن الملتزم ما لا يلزم له مندوحة في العدول إلى غيره، وههنا لا مندوحة.

ومن لطيف ذلك ما يروى لامرأة من البصرة مَجَنَتْ بأبي نواس، فقالت:

إنَّ حِـرِي حـزنبـل حـزابيـه إذا قَعَـدْت فَـوْقَـهُ نَبَـابِيَـهْ
كَـالأَرْنَـبِ الْجَـاثِـمِ فَـوْقَ الـرَّابِيَـهْ

وكذلك ورد قول أبي تمام[١]، وهو:

خَـدَمَ الْعُـلا فَخَـدَمْنَهُ وَهْيَ الَّتِي لاَ تَخْـدِمُ الأَقْـوَامَ مَـا لَمْ تُخْـدَمِ
فَـإِذَا ارْتَـقَى فِـي قُـلَّةٍ مِـنْ سُـودَدٍ قَـالَتْ لَـهُ الأُخْـرَى بَلَغْت تَقَـدَّمِ

وعلى هذا الأسلوب قوله أيضاً[٢]:

وَلَـوْ جَـرَّبْتَنِي لَـوَجَدْتَ خَـرْقـاً يُصَـافِي الأَكْـرَمِينَ وَلاَ يُصَـادِي[٣]
جَـدِيـراً أَنْ يَكـرَّ الـطَّرْفَ شَـزْراً إِلَى بَعْضِ الْمَوَارِدِ وَهْوَ صَـادِي[٤]

وله من أبيات تتضمن مرثية[٥]:

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة، وأولها:

نَثَـرَتْ فَـرِيـدَ مَـدَامِـعٍ لَمْ تُنْـظَمِ وَالـدَّمْعُ يَحْمِـلُ بَعْضَ شَجْوِ المُغْـرَمِ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا عبدالله أحمد بن أبي داود، وأولها قوله:

سَقَى عَهْـدَ الْحِمَى سَيْـلُ الْعِهَـادِ وَرُوِّضَ حَـاضِـرٌ مِـنْـهُ وَبَـادِ

(٣) الخرق: السخي، أو الظريف. ويصادي: يعارض.

(٤) جدير: خليق. وصاد: عطشان.

(٥) هي مرثية يرثي فيها القاسم بن طوق، وأولها قوله:

جَـوًى سَـاوَرَ الأَحْشَـاءَ وَالْقَلْبُ وَاغِلُهْ وَدَمْـعٌ يَضِيمُ الْعَيْنَ وَالْـجَفْـنُ هَـامِلُهْ

لَقَـدْ فُجِعَتْ عَـتَّـابـهُ وَزُهَيْـرُهُ وَتَغْلِبُـهُ أخْـرَى اللَّيَـالِي وَوَائِلُهْ[1]
وَمُبْتَـدِرُ الْمَعْـرُوفِ تَسْـرِي هِبَـاتُـهُ إلَيْهِمْ وَلاَ تَسْـرِي إِلَـيْهِـمْ غَـوَائِلُهْ
طَـوَاهُ الـرَّدَى طَيَّ الـرِّدَاءِ وَغُيِّبَتْ فَضَـائِلُهُ عَـنْ قَـوْمِـهِ وَفَـوَاضِلُهْ
طَـوى شِيمَاً كَـانَتْ تَرُوحُ وَتَغْتَـدِي وَسَـائِـلَ مَنْ أعْيَتْ عَلَيْـهِ وَسَائِلُهْ
فَيَـا عَـاضَـاً لِلْعُـرْفِ أَقْلَعَ مُـزْنُـهُ وَيَـا وَادِيـاً لِلْجُـودِ جَفَّتْ مَسَايِلُهْ
أَلَمْ تَـرَنِي أنْـزَفْتُ عَيْنِي عَلَى أبِي مُحَمَّـدٍ النَّجْمِ الْمُشَـرِّقِ آفِلُهْ[2]
وَأَخْضَلْتُهَـا فِيْهِ كَمَـا لَـوْ أتَيْتُـهُ طَـرِيدَ اللَّيَـالِي أَخْضَلَتْنِي نَوَافِلُهْ[3]

وهذا من أحسن ما يجيء في هذا الباب، وليس بمتكلف كشعر أبي العلاء؛ فإن حسن هذا مطبوع، وحسن ذاك مصنوع، وكذلك أقول في غير اللزوم من الأنواع المذكورة أولاً؛ فإن الألفاظ إذا صدرت فيها عن سهولة خاطر وسلاسة طبع وكانت غير مُسْتَجْلَبَة ولا متكلفة جاءت غير محتاجة إلى التألف، ولا شك أن صورة الخلقة غير صورة التخلق.

فإن قيل: ما الفرق بين المتكلَّف من هذا الأنواع وغير المتكلف؟.

قلت في الجواب: أما المتكلف فهو الذي يأتي بالفكرة والروية، وذلك أن يُنْضَى الخاطر في طلبه، ويُبْعَث على تتبعه واقتصاص أثره، وغير المتكلف يأتي مستريحاً من ذلك كله، وهو أن يكون الشاعر في نظم قصيدته أو الخطيب أو الكاتب في إنشاء خطبته أو كتابته، فبينا هو كذلك إذا سنح له نوع من هذه الأنواع بالاتفاق لا بالسعي والطلب؛ ألا ترى أن قول أبي نُوَاس في مثل هذا الموضع:

أَتْـرُكِ الأَطْـلاَلَ لاَ تَـعْبَـأْ بِـهَـا إِنَّـهَـا مِـنْ كُـلِّ بُـؤْسٍ دَانِـيَـهْ
وَانْعَتِ الـرَّاحَ عَلَى تَحْـرِيـمِهَـا إِنَّـمَـا دُنْـيَـاكَ دَارٌ فَـانِـيَـهْ

(١) «وتغلبه» كذا في الديوان. وفي أ، ب، ج «وثعلبة» وهو تحريف.
(٢) في الديوان «المغيب آفله».
(٣) كذا في الديوان، وفي أ، ب، ج «وأخلصتها» و «أخلصتني» وهو تحريف.

مِنْ عُقَارٍ مَنْ رَآهَا قَالَ لِي صِيدَتِ الشَّمْسُ لَنَا في آنِيَهْ

وعلى هذه السهولة واللطافة ورد قوله أيضاً:

كَمْ مِنْ غُلَامٍ ذِي تَحَاسِين أَفْسَدَهُ نَاطِفُ يَاسِين

وهذا ياسين كان يبيع الناطف ببغداد.

وحكى إبراهيم البندنيجي قال: رأيت شيخاً ضعيفاً يبيع ناطفاً، فقلت له: يا شيخ، أما زلت في الصناعة؟ قال: مذ كنت، ولكن الحال كانت واسعة والسلعة نافقة، وكنت ممن يشار إليّ، حتى قال أبو نواس فيّ، وأنشد هذا البيت.

فانظر أيها المتأمل ما أحلى لفظ أبي نواس في لزومه، وما أعراه عن الكلفة، وكذلك فلتكن الألفاظ في اللزوم وغيره.

واعلم أنه إذا صُغِّرَتْ الكلمة الأخيرة من الشعر أو من فواصل الكلام المنثور فإن ذلك ملحق باللزوم، ويكون التصغير عوضاً عن تساوي الحروف التي قبل روي الأبيات الشعرية والحروف التي قبل الفاصلة من النثر؛ فمن ذلك قول بعضهم:

عَزَّ عَلَى لَيْلَى بِذِي سُدَيْرِ سُوءُ مَبِيتي لَيْلَةَ الْغُمَيْرِ
مُقَضَّباً نَفْسِيَ في طُمَيْرِ تَنْتَهِزُ الرِّعْدَةُ في ظُهَيْرِي[1]
يَهْفُو إِلَيَّ الزَّورَ مِنْ صُدَيْرِي ظَمْآنَ في رِيحٍ وَفِي مُطَيْرِ
وَازِرَ قَرٍ لَيْسَ بِالْغُرَيْرِ مِنْ لَدُ مَا ظُهْرٍ إِلَى سُحَيْرِ[2]
حَتَّى بَدَتْ لِي جَبْهَةُ الْقُمَيْرِ لأَرْبَعٍ خَلَوْنَ مِنْ شُهَيْرِ

---

(١) هذا البيت ورد في شواهد العيني:

تَنْتَهِضُ الرِّعْدَةُ في ظُهَيْرِي

(٢) ورد في شواهد العيني:

مِنْ لَدُنِ الظُّهْرِ إِلَى الْعُصَيْرِ

وهذا من محاسن الصنعة في هذا الباب فاعرفه.

وأحسن منه ما ورد عن أبي نـواس وعن عنان جـارية النـطاف، وله معهـا حكايات كثيرة غير هذه، فقال أبو نواس:

أَمَـا تَـرِقِّـي لِـصَـب يَكْفِيـهِ مِنْـكِ نُـظَيْـرَهْ[1]

فقالـت عنـان:

إِيَّـايَ تَـعْـنِـي بِـهٰـذَا عَـلَيْـكَ فـاجْلِدْ عُـمَيْـرَهْ

فقال أبو نواس:

أَخـافُ إِنْ رُمْـتُ هٰـذَا عَـلَى يَـدِي مِنْـكِ غَـيْـرَهْ

فالبيتان الأول والثاني من هذا الباب، والثالث جاء تبعاً.

وقد ورد في القرآن الكريم شيء من اللزوم إلا أنه يسير جداً.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ وكذلك ورد قوله تعالى في هذه السورة: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ، أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾.

وربما وقع بعض الجهال في هذا الموضع؛ فأدخل فيه ما ليس منه؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ، فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وهذا لا يدخل في باب اللزوم؛ لأن الأصل فيه نعم وجحم. والياء هي من حروف المد واللين، فلا يعتد بها ههنا.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ، فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾.

---

(١) في أ، ب، ج «قطيره».

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فاعْلَمُـوا أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا، قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيْمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.

وعلى نحو هذا جاء قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ، قالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾.

ولا تجد أمثال ذلك في القرآن إلا قليلاً.

النوع الخامس
في الموازنة

وهي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن، وأن يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساوي الألفاظ وزناً، وللكلام بذلك طلاوة ورونق، وسببه الاعتدال؛ لأنه مطلوب في جميع الأشياء، وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلةً وقعت من النفس موقع الاستحسان، وهذا لا مراء فيه لوضوحه.

وهذا النوع من الكلام هو أخو السجع في المعادلة دون المماثلة؛ لأن في السجع اعتدالاً وزيادة على الاعتدال، وهي تماثل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد، وأما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود في السجع، ولا تماثل في فواصلها؛ فيقال إذاً: كل سجع موازنة، وليس كل موازنة سجعاً، وعلى هذا فالسجع أخص من الموازنة.

فمما جاء منها قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ، وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فالمستبين والمستقيم على وزن واحد.

وكذلك قوله تعالى في سورة مريم عليها السلام: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا، أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا، فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾.

وكذلك قوله تعالى في سورة طه: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً، خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾.

وكذلك ورد قوله تعالى في سورة حم عسق: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ، يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ، اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ، أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾، وهذه الآيات جميعها على وزن واحد؛ فإن «شديد» و «قريب» و «بعيد» و «عزيز» و «نصيب» و «أليم» و «كبير» كل ذلك على وزن فَعِيل، وإن اختلف حروف المقاطع التي هي فواصلها.

وأمثال هذا في القرآن كثير، بل معظم آياته جارية على هذا النهج، حتى إنه لا تخلو منه سورة من السور، ولقد تَصَفَّحْتُهُ فوجدته لا يكاد يخرج منه شيء عن السجع والموازنة.

وأما ما جاء من هذا النوع شعراً فقول ربيعة بن ذؤابة[١]:

إنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَلْتَ عُرُوشَهُمْ بِعُتَيْبَةَ بْنِ ٱلْحرِثِ بْنِ شِهَابِ
بِأَشَدِّهِمْ بَأْساً عَلَى أَصْحَابِهِ وَأَعَزِّهِمْ فَقْداً عَلَى الأَصْحَابِ[٢]

فالبيت الثاني هو المختص بالموازنة؛ فإن بأساً وفَقْداً على وزن واحد.

النوع السادس
في اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها

وهو من هذه الصناعة بمنزلة علية، ومكانة شريفة، وجُلّ الألفاظ اللفظية مَنُوطة به، ولقد لقيت جماعة من مدّعي فن الفصاحة، وفاوضتهم وفَاوضوني، وسألتهم وسألوني، فما وجدت أحداً منهم تَيَقَّنَ معرفة هذا الموضع كما ينبغي، وقد استخرجت فيه أشياء لم أسبق إليها، وسيأتي ذكرها هٰهنا.

أما اختلاف صيغ الألفاظ فإنها إذا نقلت من هيئة إلى هيئة؛ كنقلها مثلاً من وزن من الأوزان إلى وزن آخر وإن كانت اللفظة واحدة، أو كنقلها من صيغة الاسم إلى صيغة الفعل، أو من صيغة الفعل إلى صيغة الاسم، أو كنقلها من الماضي إلى المستقبل أو من المستقبل إلى الماضي، أو من الواحد إلى التثنية أو إلى الجمع أو إلى النسب أو إلى غير ذلك؛ انتقل قُبْحُها فصار حسناً، وحسنها صار قبحاً.

فمن ذلك لفظة «خَوْد» فإنها عبارة عن المرأة الناعمة، وإذا نقلت إلى صيغة الفعل قيل خَوَّدَ على وزن فَعَّل ـ بتشديد العين ـ ومعناها أسرع، يقال: خَوَّدَ

(١) كذا وقع في أ،ب،ج. والذي في شرح الحماسة للتبريزي (٢ ـ ٣٢٢) أن اسم الشاعر رُبَيِّعَة بن عُبَيْد بن سعد بن جذيمة بن مالك بن نصر بن قُعَيْن، وهو أبو ذؤاب الأسدي.

(٢) في الحماسة:

بِأَشَدِّهِمْ كَلَباً عَلَى أَعْدَائِهِمْ

البعيرُ؛ إذا أسرع؛ فهي على صيغة الاسم حسنة رائقة، وقد وردت في النظم والنثر كثيراً، وإذا جاءت على صيغة الفعل لم تكن حسنة، كقول أبي تمام[١]:

وَإِلَى بَنِي عَبْدِ الْكَرِيمِ تَـواهَقَتْ رَتَـكَ النِّعَـامِ رَأَى الـظَّلَامَ فَخَـوَّدَا

وهذا يقال عليه أشباهه وأنظاره، إلا أن هذه اللفظة التي هي خود قد نقلت عن الحقيقة إلى المجاز، فخف عنها ذلك القبح قليلاً؛ كقول بعض شعراء الحماسة[٢]:

أَقُـولُ لِنَفْسِي حِينَ خَـوَّدَ رَأْلُـهَـا رُوَيْـدَكِ لَمَّـا تُشْفِقِي حِينَ مُشْفَقِ
رُوَيْـدَكِ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلي غَيَـابَـةُ هَـذَا الْبَارِقِ الْمُتَـأَلِّقِ[٣]

والرَّأْل: النعام، والمراد به ههنا أن نفسه فَرَّتْ وفَزِعت، وشبه ذلك بإسراع النعام في فراره وفزعه، ولما أورده على حكم المجاز خفَّ بعضُ القبح الذي على لفظة خَوَّد، وهذا يدرك بالذوق الصحيح، ولا خفاء بما بين هذه اللفظة في إيرادها ههنا وإيرادها في بيت أبي تمام؛ فإنها وردت في بيت أبي تمام قبيحة سمجة، ووردت ههنا بين بين.

ومن هذا النوع لفظة وَدَعَ وهي فعل ماض ثلاثي لا ثقل بها على اللسان، ومع ذلك فلا تستعمل على صيغتها الماضية إلا جاءت غير مستحسنة، ولكنها تستعمل مستقبلة، وعلى صيغة الأمر، فتجيء حسنة، أما الأمر فكقوله تعالى: ﴿فَـدَعْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾[٤] ولم تأت في القرآن الكريم إلا على هذه الصيغة؛ وأما كونها

(١) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن عبد الكريم، وأولها قوله:

يَـا دَارَ عَـلَيْـكِ إِرْهَـامُ الـنَّـدَى وَٱهْتَـزَّ رَوْضُـكِ في الثَّـرَى فتَـأَوَّدَا

(٢) نسبهما أبو تمام لرجل من بني أسد ولم يعينه (انظر شرح التبريزي: ١ ـ ١٤١).

(٣) في الحماسـة:

عَـمَـايَـةُ هَـذَا الْـعَـارِضِ الْـمُـتَـأَلِّـقِ

(٤) القرآن الكريم: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾.

مستقبلة فكقول النبي ﷺ وقد واصل في شهر رمضان فواصل معه قوم: «لَوْ مُدَّ لَنَا الشَّهْرُ لَوَاصَلْنَا وِصَالاً يَدَعُ لَهُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ» وقال أبو الطيب المتنبي[١]:

تَشُقُّكُمْ بِقَنَاهَا كُلُّ سَلْهَبَةٍ وَالضَّرْبُ يَأْخُذُ مِنْكُمْ فَوْقَ مَا يَدَعُ[٢]

وأما الماضي من هذه اللفظة فلم يستعمل إلا شاذاً ولا حسن له، كقول أبي العتاهية:

أَثْرَوْا فَلَمْ يُدْخِلُوا قُبُورَهُمُ شَيْئاً مِنَ الثَّرْوَةِ الَّتي جَمَعُوا
وَكَانَ مَا قَدَّمُوا لأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ نَفْعاً مِنَ الَّذِي وَدَعُوا

وهذا غير حسن في الاستعمال، ولا عليه من الطلاوة شيء، وهذه لفظة واحدة لم يتغير من حالها شيء، سوى أنها نقلت من الماضي إلى المستقبل لا غير.

وكذلك لفظة وذَرَ، فإنها لا تستعمل ماضية، وتستعمل على صيغة الأمر، كقوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ وتستعمل مستقبلة أيضاً، كقوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ، لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ فهي لم ترد في القرآن إلا على هاتين الصيغتين، وكذلك في فصيح الكلام غير القرآن، وأما إذا جاءت على صيغة الماضي فإنها لا تستعمل، وهي أقبح من لفظة ودع، لأن لفظة وَدَعَ قد استعملت ماضية، وهذه لم تستعمل.

وههنا فلينعم الخائضون في هذا الفن نظرهم، ويعلموا أن في الزوايا خبايا، وإذا أنعموا الفكر في أسرار الألفاظ عند الاستعمال، وأغرقوا في الاعتبار والكشف؛ وجدوا غرائب وعجائب.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة، وأولها قوله:

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هٰذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

(٢) وقع في أ، ب، ج «يشقكم بفتاها» وهو تحريف، والذي أثبتناه عن الديوان.

ومن هذا النوع لفظة الأخْدَع، فإنها وردت في بيتين من الشعر، وهي في أحدهما حسنة رائقة، وفي الآخر ثقيلة مستكرهـة، كقول الصِّمَّـة بن عبدالله من شعراء الحماسة(١):

تَلَفَّتُّ نَحْـوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي وَجِعْتُ مِنَ الإصْغَـاءِ لِيتاً وَأَخْـدَعَـا(٢)

وكقول أبي تمام(٣):

يَـا دَهْـرُ قَـوِّمْ مِنْ أَخْـدَعَيْـكَ فَقَـدْ أَضْجَجْتَ هـٰذَا الأَنَامَ مِنْ خُـرُقِكْ

ألا تـرى أنه وجـد لهذه اللفـظة في بيت أبي تمام من الثقـل على السمع والكراهة في النفس أضعاف ما وجد لها من بيت الصمـة بن عبدالله من الـروح والخفة والإيناس والبهجة، وليس سبب ذلك إلا أنها جاءت مُوَحَّدة في أحدهما مُثَنَّاة في الآخر، وكانت حسنة في حالة الإفراد، مستكرهة في حالة التثنية، وإلا فاللفظة واحدة، وإنما اختلاف صيغتها فعل بها ما ترى.

ومن هذا النوع ألفاظ يعدل عن استعمالها من عير دليل يقوم على العدول عنها، ولا يستفتي في ذلك إلا الذوق السليم، وهذا موضع عجيب لا يعلم كنه سره.

فمن ذلك لفظة اللب الذي هو العقل، لا لفظة اللب الذي تحت القشر، فإنها لا تحسن في الاستعمال إلا مجموعة، وكذلك وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيـرة وهي مجموعـة، ولم ترد مفـردة، كقولـه تعالى: ﴿وَلِيَتَـذَكَّرَ أُولُـو

---

(١) وقع في أ، ب، ج «ابن الصمة عبدالله» والصواب أنه «الصمة بن عبدالله القشيري» والبيت من أبيات اختارها أبو تمام في باب النسيب من ديوان الحماسة، وأول هذه الأبيات قوله:

حَنَنْتَ إِلَى رَيَّـا وَنَفْسُـكَ بَـاعَـدَتْ مَـزَارَكَ مِنْ رَيَّـا وَشَعْبَـاكُمَـا مَـعَـا

(٢) وقع في ب، ج، «ليناً وأخدعا» وهو تحريف.

(٣) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن الهيثم، وأولها قوله:

قَـدْ مَـاتَ مَحْـلُ الـزَّمَـانِ مِنْ فَـرَقِـكْ وَاكْتَنَّ أَهْـلُ الإِعْـدَامِ مِـنْ وَرِقِـكْ

الأَلْبَابِ﴾ و ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ وأشباه ذلك، وهذه اللفظة الثلاثية خفيفة على النطق، ومخارجها بعيدة، وليست بمستثقلة ولا مكروهة وقد تستعمل مفردة بشرط أن تكون مضافة أو مضافاً إليها؛ أما كونها مضافاً إليها فكقولنا: لا يعلم ذلك إلا ذو لُب، وإن في ذلك لعبرة لذي لب، وعليه ورد قول جرير:

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ ... قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلَانَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّى لَا حِرَاكَ بِهِ ... وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا

وأما كونها مضافة فكقول النبي ﷺ في ذكر النساء: «مَا رَأَيْتُ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ»؛ فإن كانت هذه اللفظة عارية عن الجمع أو الإضافة فإنها لا تأتي حسنة؛ ولا تجد دليلاً على ذلك إلا مجرد الذوق الصحيح، وإذا تأملت القرآن الكريم ودققت النظر في رموزه وأسراره وجدت مثل هذه اللفظة قد روعي فيها الجمع دون الإفراد كلفظة كُوب، فإنها وردت في القرآن مجموعة، ولم ترد مفردة، وهي وإن لم تكن مستقبحة في حال إفرادها فإن الجمع فيها أحسن، لكن قد ترد مفردة مع ألفاظ أخر تندرج معهن فيكسوها ذلك حسناً ليس لها؛ وذلك كقولي في جملة أبيات أصف بها الخمر وما يجري معها من آلاتها:

ثَلَاثَةٌ تُعْطِي الْفَرَحْ ... كَأْسٌ وَكُوبٌ وَقَدَحْ
مَا ذَبَحَ الذَّوْقُ بِهَا ... إِلَّا وَلِلْهَمِّ ذَبَحْ

فلما وردت لفظة الكوب مع الكأس والقدح على هذا الأسلوب حسنها، وكأنه جلاها في غير لباسها الذي كان لها إذ جاءت بمفردها.

وكذلك وردت لفظة رَجَا بالقصر، والرَّجَا: الجانب، فإنها لم تستعمل مُوَحَّدَة وإنما استعملت مجموعة، كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ فلما وردت هذه اللفظة مجموعة ألبسها الجمع ثوباً من الحسن لم يكن لها في حال كونها مُوَحَّدة، وقد تستعمل موحدة بشرط الإضافة، كقولنا: رَجَا الْبِئْرِ.

ولربما أخطأ بعض الناس في هذا الموضع وقَاسَ عليه ما ليس بمقيس؛ وذلك أنه وقف على ما ذكرته ههنا واقف؛ وكذلك قد وردت لفظة الصوف في القرآن الكريم، ولم ترد إلا مجموعة، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ وهذا بخلاف ما وردت عليه في شعر أبي تمام[1]:

كَانُوا بُرُودَ زَمَانِهِمْ فَتَصَدَّعُوا فكأَنَّمَا لَبِسَ الزَّمَانُ الصُّوفَا

وهذا ليس كالذي أشرت إليه؛ فإن لفظة الصوف لفظة حسنة مفردة ومجموعة، وإنما أَزْرَى بها في قول أبي تمام أنها جاءت مجازِيَّة في نسبتها إلى الزمان.

وعلى هذا النهج وردت لفظة خبر وأَخْبَار؛ فإن هذه اللفظة مجموعة أحسن منها مفردة، ولم ترد في القرآن إلا مجموعة.

وفي ضد ذلك ما ورد استعماله من الألفاظ مفرداً ولم يرد مجموعاً، كلفظة الأرض؛ فإنها لم ترد في القرآن إلا مفردة فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة معها في كل موضع من القرآن، ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

ومما ورد من الألفاظ مفرداً فكان أحسن مما يرد مجموعاً لفظة الْبُقْعة، قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ والأحسن استعمالها مفردة لا مجموعة، وإن استعملت مجموعة فالأولى أن تكون مضافة كقولنا: بِقاع الأرض، أو ما جرى مجراها.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد يوسف، وأولها قوله:

أَطْلاَلُهُمْ سُلِبَتْ دُمَاهَا الْهِيفَا وَاسْتَبْدَلَتْ وَحْشاً بِهِنَّ عُكُوفَا

وكذلك لفظة طَيْف، في ذكر طَيْفِ الخيال؛ فإنها لم تستعمل إلا مفردة، وقد استعملها الشعراء قديماً وحديثاً فلم يأتوا بها إلا مفردة، لأن جمعها جمع قبيح؛ فإذا قيل طُيُوف كان من أقبح الألفاظ وأشدها كراهة على السمع، ويا لله العجب من هذه اللفظة ومن أختها عدة ووزناً وهي لفظة ضَيْف؛ فإنها تستعمل مفردة ومجموعةً، وكلاهما في الاستعمال حسن رائق، وهذا مما لا يعلم السر فيه؛ والذوق السليم هو الحاكم في الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجري مجراهما.

وأما جمع المصادر فإنه لا يجيء حسناً، والإفراد فيه هو الحسن، ومما جاء في المصادر مجموعاً قول عنترة(١):

فَإنْ يَبْرَأْ فَلَمْ أَنْفُثْ عَلَيْهِ وَإنْ يُفْقَدْ فَحُقَّ لَهُ الْفُقُودُ

قوله: الفقود جمع مصدر من قولنا: فَقَدَ يَفْقِدُ فَقْداً، واستعمال مثل هذه اللفظة غير سائغ ولا لذيذ، وإن كان جائزاً، ونحن في استعمال ما نستعمله من الألفاظ واقفون مع الحسن، لا مع الجواز.

وهذا كله يرجع إلى حاكم الذوق السليم؛ فإن صاحب هذه الصناعة يصرف الألفاظ بضروب التصريف، فما عذب في فَمِهِ منها استعمله، وما لَفَظَه فَمُهُ تركه، ألا ترى أنه يقال: الأمَّة بالضم عبارة عن الجمع الكثير من الناس، ويقال: الإمة بالكسر وهي النعمة، فإن الأُمة بالضم لفظة حسنة، وبالكسر ليست بحسنة، واستعمالها قبيح.

ورأيت صاحب كتاب الفصيح قد ذكرها فيما اختاره من الألفاظ الفصيحة؛ ويا ليت شعري! ما الذي رآه من فصاحتها حتى اختارها؟ وكذلك قد اختار ألفاظاً أخر ليست بفصيحة، ولا لَوْمَ عليه؛ لأن صدور مثل ذلك الكتاب عنه كثير، وأسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية، وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية أو تصريفية، أو

---

(١) من أبيات له أولها قوله:

تَرَكْتُ بَنِي ٱلْهُجَيْمِ لَهُمْ دَوَارٌ إذَا تَمْضِي جَمَاعَتُهُمْ تَعُودُ

نقل كلمة لغوية، وما جرى هذا المجرى؛ وأما أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها. وإذا شذ عن صاحب كتاب الفصيح ألفاظ معدودة ليست بفصيحة في جملة كثيرة ذكرها من الفصيح فإن هذا منه كثير.

ومما يذكر في هذا الباب أنه يقال: سَهْم صائب؛ فإذا جمع الجمع الحسن الذي يعذب في الفم قيل: سِهَام صَوَائب وصَائِبات وصُيَّب؛ فإذا جمع الجمع الذي يقبح قيل: سهام صُيُب، على وزن كُتُب، قال أبو نواس:

مَـا أَحَـلَّ اللَّهُ مَـا صَنَعَتْ عَـيْنُـهُ تِـلْكَ الْعَشِيَّـةَ بِـي
قَتَلَتْ إِنْسَـانُهَـا كَبِـدِي بِسِهَـامٍ لِلرَّدَى صُيُـبِ

فقوله: «سهامٍ صُيبِ» من اللفظ الذي ينبو عنه السمع، ويحيد عنه اللسان، ومثله ورد قول عُوَيف القوافي[1] من أبيات الحماسة:

ذَهَبَ الـرُّقَـادُ فَمَـا يُحَسُّ رُقَـادُ مِـمَّـا شَجَـاكَ وَنَـامَـتِ الْعُـوَّادُ
لَـمَّـا أَتَـانِي مِـنْ عُـيَيْـنَـةَ أَنَّـهُ أَمْسَتْ عَلَيْـهِ تَـظَاهَـرُ الأَقْيَـادُ[2]

فقوله: «أقياد» في جمع قَيْد مما لا يحسن استعماله، بل الحسن أن يقال في جمعه: قُيُود، وكذلك قول مرة بن مَحْكَان التميمي من أبيات الحماسة، وذلك من جملة الأبيات المشهورة التي أولها[3]:

يَـا رَبَّةَ الْبَيْتِ قُـومِي غَيْـرَ صَـاغِـرَةٍ ضُمِّي إِلَيْكِ رِحَالَ الْقَـوْمِ وَالْقُرُبَـا

فقـال فيهـا:

مَـاذَا تَـرَيْنَ أَنُـدْنِيهِمْ لأَرْحُـلِنَـا فِي جَـانِبِ الْبَيْتِ أَمْ نَبْنِي لَهُمْ قُبَبَـا

---

(١) في أ، ب، ج «عريف القوافي» وهو تحريف. والبيتان في ديوان الحماسة وليسا بمتصلين (انظر شرح التبريزي: ١ - ٢٥٣).
(٢) في أ، ب، ج «بظاهر أقياد» وهو تحريف، والتصويب عن الحماسة.
(٣) انظر شرح التبريزي على الحماسة (٤ - ١٢٣).

فإنه جمع قُبَّةً على قُبَب، وذلك من المستبشع الكريه، والأحسن المستعمل هو قِبَاب لا قُبَب، وكذلك يجري الأمر في غير هذا.

ومن المجموع ما يختلف استعماله، وإن كان متفقاً في لفظة واحدة، كالعين الناظرة وعين الناس وهو النبيه فيهم؛ فإن العين الناظرة تجمع على عُيُون، وعَيْن الناس تجمع على أعْيَان، وهذا يرجع فيه إلى الاستحسان، لا إلى جائز الوضع اللغوي.

وقد شذ هذا الموضع عن أبي الطيب المتنبي في قوله[1]:

وَالْقَوْمُ فِي أَعْيَانِهِمْ خَزَرٌ وَالْخَيْلُ فِي أَعْيَانِهَا قَبَلُ

فجمع العين الناظرة على أعيان، وكان الذوق يأبى ذلك، ولا تجد له على اللسان حلاوة وإن كان جائزاً.

ولولا خوف الإطالة لأوردت من هذا النوع وأمثاله أشياء كثيرة، وكشفت عن رموز وأسرار تخفى على كثير من متعاطي هذا الفن؛ لكن في الذي أشرت إليه مُنَبِّه لأهل الفطانة والذكاء أن يحملوه على أشباهه وأنظاره.

وأعجب من ذلك كله أنك ترى وزناً واحداً من الألفاظ؛ فتارةً تجد مفرده حسناً، وتارة تجد جمعه حسناً، وتارة تجدهما جميعاً حسنين؛ فالأول نحو حُبْرُور وهو فَرْخُ ٱلْحُبَارَى؛ فإن هذه اللفظة يحسن مفردها لا مجموعها؛ لأن جمعها على حَبَارِير، وكذلك طُنْبُور وطنابير، وعرقوب وعراقيب؛ وأما الثاني فنحو بُهْلُول وبَهَالِيل، ولُهْمُوم ولَهَاميم، وهذا ضد الأول؛ وأما الثالث فنحو جُمْهُور وجماهير، وعُرْجُون وعَرَاجين، فانظر إلى الوزن الواحد كيف يختلف في أحواله مفرداً ومجموعاً؟ وهذا من أعجب ما يجيء في هذا الباب.

وهكذا قد جاءت ألفاظ على وزن واحد ثلاثية مسكنة الوسط وجميعها حسن في الاستعمال، وإذا أردنا أن نثقل وسطها حسن منها شيء دون شيء.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها عضد الدولة، وأولها قوله:

إِثْلِثْ فَإِنَّا أَيُّهَا الطَّلَلُ نَبْكِي وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الإِبِلُ

فمن ذلك لفظة الثُّلْث والرُّبْع إلى العُشْر فإن الجميع على وزن واحد، وإذا ثقلنا أوساطها فقلنا ثُلُث ورُبُع وخُمُس، وكذلك إلى عُشُر؛ فإن الْحَسَن من ذلك جميعه ثلاثة، وهي الثُّلُث والْخُمُس والسُّدُس، والباقي وهو الرُّبُع والسُّبُع والثُّمُن والتُّسُع والعُشُر، ليس كالأول في حسنه، هذا، والجميع على وزن واحد وصيغة واحدة، والجميع حسن في الاستعمال قبل أن يثقل وسطه، ولما ثقل صار بعضه حسناً وبعضه غير حسن.

وكذلك تجد الأمر في أسماء الفاعلين كالثلاثي منها نحو فَعَل بفتح الفاء والعين وفَعِلَ بفتح الفاءِ وكسر العين وفَعُل بفتح الفاء وضم العين، فإن هذه الأوزان الثلاثة لها أسماء فاعلين، أما فَعَل بفتح الفاء والعين فليس له إلا آسم واحد أيضاً وهو فاعِل، لا غير، ولا يقع فيه اختلاف، وكذلك فَعُل بفتح الفاء وضم العين فليس له إلا اسم واحد أيضاً، وهو فَعِيل، ولا يقع فيه اختلاف إلا ما شذ، لكن فَعِل بفتح الفاء وكسر العين يقع في اسم فاعله الاختلاف استحساناً واستقباحاً، لأن له ثلاثة أوزان نحو فاعِل وفَعِل وفَعْلان، تقول منه: حَمِد فهو حَامِد وحَمِد وَحَمْدان، وقد جاء على وزنه فَرِحَ، تقول منه: فَرِحَ زيد فهو فَرِح، وهو الأحسن، ولا يحسن أن يقال: فَارِح، ولا فَرْحَان، وإن كان جائِزاً، لكن فَرْحان أحسن من فارح، وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم فلا تستعمل إلا على فَرِح لا غير، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبِ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ وقد جاءت هذه اللفظة في شعر بعض شعراء الحماسة في باب المراثي[1]:

فَمَا أَنَا مِنْ حُزْنٍ وَإِنْ جَلَّ جَازِعٌ ... وَلَا بِسُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ

وهذا غير حسن، وإن جاز استعماله.

وعلى نحو منه يقال: غَضِب وهو غَضْبَان، ولا يقال: غَاضِب، وإن كان

---

(١) البيت لأشجع بن عمرو السلمي، من كلمة اختارها أبو تمام في الحماسة وأولها قوله:

مَضَى ابْنُ سَعِيدٍ حِينَ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقٌ ... وَلَا مَغْرِبٌ إِلَّا لَهُ فِيهِ مَادِحُ

(انظر شرح التبريزي: ٢ ـ ٣٢٨).

جائِزاً، وقد تقدم القول أَنَّا في تأليف الكلام بصَدَد استعمال الحسن والأحسن. لا بصدد استعمال الجائِز وغير الجائِز.

ومما يجري هذا المجرى قولنا: فَعَلَ وافْتَعَلَ، فإن لفظة فعل لها موضع تستعمل فيه، ألا ترى أنك تقول: قَعَدْت إلى فلان أحَدِّثه، ولا تقول: اقْتَعدت إليه، وكذلك تقول: اقْتَعَدْتُ غاربَ الجمل، ولا تقول: قَعَدْت عَلَى غارِب الجمل، وإن جاز ذلك، لكن الأول أحسن، وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم، فإنه لا يمكن أن يقام عليه دليل.

وأما فعل وافْعَوْعَلَ فإنا نقول: أَعْشَبَ الْمَكَانُ[1]، فإذا كثر عشبه قلنا: اعْشَوْشَبَ، فلفظة افْعَوْعَلَ للتكثير، على أني استقريت هذه اللفظة في كثير من الألفاظ فوجدتها عَذبة طيبة على تكرار حروفها، كقولنا: اخْشَوْشَنَ المكان، واغْرَوْرَقَتْ العين، واحْلَوْلَى الطعم، وأشباهها.

وأما فُعَلَة نحو هُمْزَة وَلُمَزة وجُثَمَة ونُومَة ولُكَنَة ولُجَنَة، وأشباه ذلك؛ فالغالب على هذه اللفظة أن تكون حسنة، وهذا أخذته بالاستقراء، وفي اللغة مواضع كثيرة هكذا لا يمكن استقصاؤها.

فانظر إلى ما يفعله اختلاف الصيغة بالألفاظ، وعليك أن تَتَفَقَّد أمثال هذه المواضع، لتعلم كيف تضع يدك في استعمالها، فكثيراً ما يقع فحول الشعراء، والخطباء في مثلها، ومؤلف الكلام من كاتب وشاعر إذا مرّت به ألفاظ عَرَضَها على ذوقه الصحيح، فما يجد الحسن منها مجموعاً جمعه، وكذلك يجري الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ.

(١) كذا في جميع أصول الكتاب، وهو صحيح لغة، ولكنه لا يوافق ما قبله.

النوع السابع
في المعاظلة اللفظية

والمعاظلة معاظلتان: لفظية، ومعنوية.

أما المعنوية: فسيأتي ذكرها في باب التقديم والتأخير من المقالة الثانية، فليؤخذ من هناك.

وأما المعاظلة اللفظية: ـ وهي المخصوصة بالذكر ههنا في باب صناعة الألفاظ ـ وحقيقتها مأخوذة من قولهم: تَعَاظَلَتِ الجرادتان؛ إذا ركبت إحداهما الأخرى، فسمي الكلام المتراكب في ألفاظه أو في معانيه المعاظلة مأخوذاً من ذلك، وهو اسم لائق بمسماه.

ووصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه زُهَيْر بن أبي سلمى فقال: كَانَ لَا يُعَاظِلُ بَيْنَ الْكَلَامِ.

وقد اختلف علماء البيان في حقيقة المعاظلة:

فقال قدامة بن جعفر الكاتب[١]: التعاظل في الكلام هو أن يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه، ولا أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة، كقول أوْس بن حجر[٢]:

وَذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا تُصْمِتُ بِالْمَاءِ تَوْلَباً جَدِعَا[٣]

---

(١) انظر نقد الشعر لقدامة بن جعفر الكاتب (ص ٦٩ الجوائب).

(٢) البيت من قصيدة له يمدح فيها فضالة بن كلدة في حياته ويرثيه بعد وفاته وهي في كثير من مراجع الأدب (انظر ذيل الأمالي ٣٤ دار الكتب) وأول هذه القصيدة قوله:

أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعاً إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

(٣) الهدم ـ بكسر فسكون ـ الأخلاق من الثياب، والنواشر: عروق ظاهر الكف. والجدع ـ بفتح الجيم وكسر الدال ـ السيء الغذاء. ولهذا البيت قصة ظريفة انظرها في ترجمة المفضل الضبي.

فسمي الظبي تولباً، والتولب: ولد الحمار.

هذا ما ذكره قدامة بن جعفر، وهو خطأ؛ إذ لو كان ما ذهب إليه صواباً لكانت حقيقة المعاظلة دخول الكلام فيما ليس من جنسه، وليست حقيقتها هذه، بل حقيقتها ما تقدم، وهو التراكب، من قولهم: تَعَاظَلَتِ الجرادتان، إذا ركبت إحداهما الأخرى، وهذا المثال الذي مثل به قُدَامة لا تركّب في ألفاظه ولا في معانيه.

وأما غير قدامة فإنه خالفه فيما ذهب إليه، إلا أنه لم يقسم المعاظلة إلى لفظية ومعنوية، ولكنه ضرب لها مثالاً، كقول الفرزدق[1]:

وَمَا مِثْلُهُ في النَّاسِ إلَّا مُمَلَّكاً أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

وهذا من القسم المعنوي، لا من القسم اللفظي، ألا ترى إلى تراكب معانيه بتقديم ما كان يجب تأخيره وتأخير ما كان يجب تقديمه؛ لأن الأصل في معناه: وما مثله في الناس حيٌّ يقاربه إلا مملكاً أبو أمه أبوه، وسيجيء شرح ذلك مستوفى في بابه من المقالة الثانية؛ إن شاء الله تعالى.

وإذ حققت القول في بيان المعاظلة والكشف عن حقيقتها فإني أتبع ذلك بتقسيم القسم اللفظي منها الذي أنا بصدد ذكره هٰهنا، فأقول:

إني تأملته بالاستقراء من الأشعار قديمها وَمُحْدَثها، ومن النظر في حقيقتها نفسها، فوجدتها تنقسم إلى خمسة أقسام:

الأول منها: يختص بأدوات الكلام، نحو مِنْ وإلى وعَنْ وعلى، وأشباهها؛ فإن منها ما يسهل النطق به إذا ورد مع أخواته، ومنها ما لا يسهل، بل يرد ثقيلاً على اللسان، ولكل موضعٌ يخصه من السبك.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي خال هشام بن عبد الملك بن مروان. كذا قاله العباسي في معاهد التنصيص (ص ٢١ بولاق) ولم أعثر على هذه القصيدة في الديوان.

فمما جاء منه قول أبي تمام[١]:

إِلَى خَـالِـدٍ رَاحَتْ بِنَـا أَرْحَبِيَّـةٌ ... مَرَافِقُهَا مِنْ عَنْ كَـرَاكِرِهَـا نُكْبُ[٢]

فقوله: «من عن كراكرها» من الكلام المتعاظل الذي يثقل النطق به، على أنه قد وردت هاتان اللفظتان، وهما مِنْ وَعَنْ، في موضع آخر فلم يثقل النطق بهما، كقول القائل: مِنْ عَنْ يَمينِ الطَّـريق، والسبب في ذلك أنهما وردتا في بيت أبي تمام مضافتين إلى لفظة الْكَرَاكر، فثقّلت منهما، وجعلتهما مكروهتين كما ترى، وإلا فقد وردتا في شعر قَطَرِيّ بن الفُجَاءة فكانتا خفيفتين، كقوله[٣]:

وَلَـقَــدْ أَرَانِـي لِـلـرِّمَــاحِ دَرِيئَـةً ... مِـنْ عَنْ يَـمِـيـنِـي مَـرَّةً وَأَمَــامِـي

والأصل في ذلك راجع إلى السبك، فإذا سبكت هاتان اللفظتان أو ما يجري مجراهما مع ألفاظ تسهل منهما لم يكن بهما من ثقل، كما جاءتا في بيت قطري، وإذا سبكتا مع ألفاظ تثقل منهما جاءتا كما جاءتا في بيت أبي تمام.

ومن هذا القسم قول أبي تمام أيضاً[٤]:

كَـأَنَّـه لاجْتِمَـاعِ الـرُّوحِ فِيـهِ لَـهُ ... فِي كُـلِّ جَـارِحَـةٍ مِنْ جِسْمِـهِ رُوحُ

فقوله في بعد قوله فيه له مما لا يحسن وروده.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، وأولها قوله:

لَقَـدْ أَخَـذَتْ مِنْ دَارِ مَـاوِيَّـةَ الْحُقْبُ ... أَنُحْـلُ المَعَـانِي لِـلْبِلَى هِـيَ أَمْ نَهْـبُ

(٢) الأرحبية: ناقة منسوبة إلى أرحب، وهو فحل من فحولة الإبل الكريمة، والكراكر: جمع كركرة، وهي رحى صدرها وخواصرها، والنكب: جمع نكباء، وهي المائلة.

(٣) من كلمة لها اختارها أبو تمام في الحماسة (انظر شرح التبريزي: ١ - ١٣٠)، وأولها قوله:

لَا يَـرْكَـنَـنْ أَحَـدٌ إِلَـى الإِحْـجَـامِ ... يَـوْمَ الْـوَغَـى مُتَخَـوِّفـاً لِحِـمَـامِ

(٤) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري، وأولها قوله:

قُـلْ لِـلأَمِيـرِ لَقَـدْ قَلَّدْتَنِي نِعَـمـاً ... فُتَّ الثَّنَـاءَ بِهَـا مَـا هَبَّتِ الـرِّيـحُ

وكذلك ورد قول أبي الطيب المتنبي:

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

فقوله: «لها منها عليها» من الثقيل الثقيل.

وكذلك قوله[1]:

تَبِيتُ وُفُودُهُمْ تَسْرِي إِلَيْهِ وَجَدْوَاهُ الَّتِي سَأَلُوا اغْتِفَارُ
فَخَلَّفَهُمْ بِرَدِّ الْبِيضِ عَنْهُمْ وَهَامُهُمْ لَهُ مَعَهُمْ مُعَارُ

وقوله: «وهامهم له معهم» مما يثقل النطق به، ويتعثّر اللسان فيه، لكنه أقرب حالاً من الأول.

ومن الحسن في هذا الموضع قول أبي تمام[2]:

دَارٌ أُجِلُّ ٱلْهَوَى عَنْ أَنْ أُلِمَّ بِهَا فِي ٱلرَّكْبِ إِلَّا وَعَيْنِي مِنْ مَنَائِحِهَا

فقوله: «عن أن» في هذا البيت من الخفيف الحسن الذي لا بأس به.

القسم الثاني من المعاظلة اللفظية، تختص بتكرير الحروف، وليس ذلك مما يتعلق بتكرير الألفاظ، ولا بتكرير المعاني، مما يأتي ذكره في باب التكرير في المقالة الثانية، وإنما هو تكرير حرف واحد أو حرفين في كل لفظة من ألفاظ الكلام المنثور أو المنظوم، فيثقل حينئذ النطق به.

فمن ذلك قول بعضهم[3]:

---

(١) من قصيدة له في سيف الدولة، وأولها قوله:

طِوَالُ قَنًا تُطَاعِنُهَا قِصَارُ وَقَطْرُكَ فِي نَدًى وَوَغًى بِحَارُ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها الفضل بن صالح الهاشمي، وأولها قوله:

أَهْدِي الدُّمُوعَ إِلَى دَارٍ وَمَاصِحِهَا فللمنازِلِ سَهْمٌ مِنْ سَوَافِحِهَا

(٣) زعموا أن الجنّ قتلوا حرب بن أمية بن عبد شمس في بادية بعيدة وأنهم قالوا هذا البيت فيه.

وَقَبْـرُ حَـرْبٍ بِـمَـكَـانٍ قَـفْـرِ   وَلَـيْسَ قُـرْبَ قَبْـرِ حَـرْبٍ قَـبْـر

فهذه القافات والراآت كأنها في تتابعها سلسلة، ولا خفاء بما في ذلك من الثقل.

وكذا ورد قول الحريري في مقاماته:

وَازْوَرَّ مَـنْ كَـانَ لَـهُ زَائِـراً   وَعَـافَ عَـافِي الْعُـرْفِ عِـرْفَـانَـهُ

فقوله: «وعاف عافى العرف عرفانه» من التكرير المشار إليه.

وكذلك ورد قوله أيضاً في رسالتيه اللتين صاغهما على حرف السين والشين، فإنه أتى في إحداهما بالسين في كل لفظة من ألفاظها وأتى في الأخرى بالشين في كل لفظة من ألفاظها، فجاءتا كأنهما رُقَّى الْعَقَارب، أو خُذْرُوفَة العزائم، وما أعلم كيف خفي ما فيهما من القبح على مثل الحريري مع معرفته بالجيد والرديء من الكلام.

ويحكى عن بعض الوعاظ أنه قال في جملة كلام أورده: جَنَى جَنَّاتِ وَجَنَاتِ الْحَبِيبِ، فصاح رجل من الحاضرين في المجلس وماد وتغاشى، فقال له رجل كان إلى جانبه: ما الذي سمعت حتى حدث بك هذا؟ فقال: سمعت جيماً في جيم في جيم فصحت.

وهذا من أقبح عيوب الألفاظ.

ومما جاء منه قول أبي الطيب المتنبي في قصيدته التي مطلعها:

أَتُـرَاهَـا لِـكَـثْـرَةِ الْـعُـشَّـاقِ(١)

كَيْفَ تَـرْثِي الَّتِي تَـرَى كُـلَّ جَفْنٍ   رَاءَهَـا غَيْـرَ جَفْنِهَـا غَيْـرَ رَاقِي(٢)

---

(١) هذا صدر البيت، وعجزه قوله:

تَـحْـسَـبُ الـدَّمْـعَ خِـلْقَـةً فِـي الْـمَـآقِـي

(٢) «راءها» أراد رآها، فقلب الكلمة قلباً مكانياً.

وهذا وأمثاله إنما يعرض لقائله في نوبة الصرع التي تنوب في بعض الأيام.

ومن هذا القسم قول الشاعر المعروف بكُشَاجم في قصيدته التي مطلعها:

دَاوِ خُمَارِي بِكَأْسِ خَمْرِ[١]

وَٱلزَّهْرُ وَٱلْقَطْرُ فِي رُبَاهَا ... مَا بَيْنَ نَظْمٍ وَبَيْنَ نَشْرِ[٢]

حَدَائِقُ كَفُّ كُلِّ رِيحٍ ... خَلَّ بِهَا خَيْطُ كُلِّ قَطْرِ[٣]

وهذا البيت يحتاج الناطق به إلى بركار يضعه في شدقه حتى يديره له.

وعلى هذا الأسلوب ورد قول بعضهم وهو البيت المشهور الذي يتذاكره الناس:

مَلِلْتُ مِطَالَ مَوْلُودٍ مُفَدًّى ... مَلِيحٍ مَانِعٍ مِنِّي مُرَادِي

وهذه الميمات كأنها عقد متصلة بعضها ببعض.

وكان بعض أهل الأدب من أهل مصرنا هذا يستعمل هذا القسم في ألفاظه كثيراً في كلامه نثراً ونظماً، وذلك لعدم معرفته بسلوك الطريق.

وأنا أذكر نبذة من ذلك، كقوله في وصف رجل سخي: أنت المديح كبداً تريح، والمليح إن تجهَّم المليح بالتَّكليح، عند سائل تلوح، بل يفوق إذ يروق مرأى لوح، يا مَغْبُوقَ كأس الحمد يا مصبوح، ضاق عن نداك اللوح، وببابك الْمفتوح تستريح، وتريح ذا التبريح، وترفّه الطليح.

---

(١) هذا صدر البيت، وعجزه قوله:

وَأَحْيِ سُكْرَ ٱلْهَوَى بِسُكْرِ

(٢) رواية الديوان:

فَالنَّوْرُ وَالطَّلُّ فِي رُبَاهُ ... مَا بَيْنَ نَظْمٍ وَبَيْنَ نَشْرِ

(٣) رواية الديوان:

حَكَتْ أَكُفُّ الرِّيَاحِ لَيْلاً ... بِرَوْضِهِ خيط كُلِّ قَطْرِ

فانظر إلى حرف الحاء كيف قد لزمه في كل لفظة من هذه الألفاظ فجاءكما تراءه من الثقل والغثاثة؟.

واعلم أن العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة قد عَدَلوا عن تكرير الحروف في كثير من كلامهم، وذاك أنه إذا تكرر الحرف عندهم أدغموه استحساناً فقالوا في جَعَلَ لَكَ: جَعَلّك، وفي تضربونَنِي: تَضْرِبونِّي، وكذلك قالوا: اسْتَعَدَّ فلان للأمر؛ إذا تأهَّبَ له، والأصل فيه اسْتَعْدَدَ، واسْتَتَبَّ الأمر؛ إذا تهيأ، والأصل فيه اسْتَتْبَب، وأشباه ذلك كثير في كلامهم، حتى إنهم لشدة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا أحد الحرفين المكررين حرفاً آخر غيره، فقالوا: أَمْلَيْتُ الكتابَ، والأصل فيه أمْلَلْتُ، فأبدلوا اللام ياء طلباً للخفة، وفراراً من الثقل، وإذا كان قد فعلوا ذلك في اللفظة الواحدة فما ظنك بالألفاظ الكثيرة التي يتبع بعضها بعضاً؟.

القسم الثالث من المعاظلة: أن ترد ألفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضاً؛ فمنها ما يختلف بين ماض ومستقبل، ومنها ما لا يختلف.

فالأول كقول القاضي الأرَّجَاني في أبيات يصف فيها الشمعة، وفيها مَعْنًى هو له مُبْتَدَع، ولم يسمع من غيره، وذلك أنه قال عن لسان الشمع: إنه ألف العسل وهو أخوه الذي رُبِّيَ معه في بيت واحد، وإن النار فرقت بينه وبينه، وإنه نذر أن يقتل نفسه بالنار أيضاً من ألم الفراق، إلا أنه أساء العبارة؛ فقال(1):

بِالنَّارِ فَرَّقَتِ الحَوَادِثُ بَيْنَنا ... وَبِهَا نَذَرْتُ أعُودُ أَقْتُلُ رُوحِي

---

(١) قبل هذا البيت من أول الكلمة قوله:

وَلَقَدْ أَقُولُ لِشَمْعَةٍ نُصِبَتْ لَنَا ... وَسُتُورُ جِنْحِ اللَّيْلِ ذَاتُ جُنُوحِ
أَنَا مَنْ يَحِنُّ إِلَى الأَحِبَّةِ قَلْبُهُ ... وَلَكِ الْبُكَاءُ بِدَمْعِكِ الْمَسْفُوحِ
قَالَتْ: عَجِلْتَ إِلَى المَلَامِ مُسَارِعاً ... فَاسْمَعْ بَيَانَ حَدِيثِيَ الْمَشْرُوحِ
أُفْرِدْتُ مِنْ إِلْفٍ شَهِي وَصْلُهُ ... حُلْوِ الْجَنَى عَذْبِ المَذَاقِ صَرِيحِ

وبعده البيت، وهو آخر القطعة، وانظر الديوان (ص ٨٣ بيروت).

فقوله «نذرت أعود [أقتل]» من المعاظلة المشار إليها.

وأما ما يرد على نهج واحد من الصيغة الفعلية: فكقول أبي الطيب المتنبي[١]:

أقِلْ أنِلْ أقْطِع آحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أعِدْ   زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ أدْنِ سُرَّ صِلِ[٢]

فهذه ألفاظ جاءت على صيغة واحدة، وهي صيغة الأمر، كأنه قال: افْعَلْ افْعَلْ، هكذا إلى آخر البيت، وهذا تكرير للصيغة وإن لم يكن تكريراً للحروف، إلا أنه أخوه، ولا أقول ابن عمه، وهذه ألفاظ متراكبة متداخلة، ولو عطفها بالواو لكانت أقرب حالاً، كما قال عبد السلام بن رَغْبان[٣]:

فَسَدَ النَّاسُ فاطْلُبِ الرِّزْقَ بالسَّيْفِ وَإلاَّ فَمُتْ شَدِيدَ الهُزَالِ
احْلُ وَامْرُرْ وَضُرَّ وَانْفَعْ وَلِنْ وَاخْشُنْ وَأبْرِزْ ثُمَّ انْتَدِبْ لِلْمَعَالِي

---

(١) من قصيدة له أولها قوله:

أجَابَ دَمْعِي وَمَا آلدَّاعِي سِوَى طَلَلِ   دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ وَالإبِلِ

(٢) هكذا ورد في الديوان وفي أصول الكتاب، ويروى على وجه آخر، وهو هكذا:

أقِلْ أنِلْ أنْ صُنِ آحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أعِدْ
زِدْ هَشَّ بَشَّ هَبِ آغْفِرْ أدْنِ سُرَّ صِلِ

وله بيت آخر من هذا القبيل، وهو قوله:

عِشِ ابْقَ آسْمُ سُدْ قُدْ جُدْ مُرِ انْهَ رِفِ آسْرِ نِلْ
غِظِ آرْمِ صِبِ آحْمِ آغْزُ آسْبِ رُعْ زَعْ دِلِ آثْنِ نُلْ
وَهٰذَا دُعَاءٌ لَوْ سَكَتُّ كُفِيتُهُ   لأنِّي سَألْتُ آللّٰهَ فِيكَ وَقَدْ فَعَلْ

وبديع الزمان الهمذاني يسمي هذا «حماقات المتنبي».

(٣) هو المعروف بديك الجن، ووقع في أ، ب، ج «بن رعبان» بالعين المهملة في اسم أبيه، وصوابه بالغين المعجمة، وانظر (ص ١٢٦ هـ ١ من هذا الجزء).

ألا ترى أنه لما عطف ههنا بالواو لم تتراكب الألفاظ كتراكبها في بيت أبي الطيب المتقدم ذكره.

فإن قيل: إنك جعلت ما كان وارداً على صيغة واحدة على سبيل التكرار معاظلةً، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ**﴾ ولو كان معاظلة لما ورد في القرآن الكريم مثله.

فالجواب عن ذلك أني أقول: هذه الآية ليست كالذي أنكرته؛ فإن هذا الموضع ينظر فيه إلى الكثير والقليل، فإذا كثر كان تعاظلاً؛ لتراكبه وثقله على النطق، وقد عرّفتك أن ما يفصل بين صيغه بواو العطف يكون أقل ثقلاً مما لا يفصل، والذي أنكرته من ذلك هو أن تأتي ألفاظ مكررة على صيغة واحدة كأنها عُقَد متصلة، فحينئذ يثقل المنطق بها، ويكره موقعها من السمع، كبيت أبي الطيب المتنبي، وأما هٰذه الآية المشار إليها فإنها خارجة عن هذا الحكم، ألا ترى أنها لما وردت ألفاظها على صيغة واحدة فرق بينها بواو العطف، ثم مع التفريق بينها بواو العطف لم يرد التكرير فيها إلا بين ثنتين، وهما ﴿**خُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ**﴾، وأما الصيغة الأولى فإنها أضيف إليها كلام آخر، فقيل: ﴿**اقتلوا المشركينَ حيث وَجدتموهُمْ**﴾ ولم يقل اقتلوا المشركين وخذوهم، ثم لما جاءت الصيغة الرابعة أضيف إليها كلام آخر أيضاً فقيل: ﴿**وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ**﴾ لا جَرَم أن الآية جاءت غير ثقيلة على النطق مع توارد صيغة الأمر فيها أربع مرار، وهذه رموز ينبغي أن يتنبه لها في استعمال الألفاظ إذا جاءت هكذا.

القسم الرابع من المعاظلة: وهو الذي يتضمن مضافات كثيرة، كقولهم: سَرْجُ فَرَسِ غُلَامِ زَيْدٍ، وإن زِيدَ على ذلك قيل: لبدُ سَرْجِ فرس غُلَامِ زَيْدٍ، وهذا أشد قبحاً وأثقل على اللسان، وعليه ورد قول ابن بابك الشاعر في مُفْتَتَح قصيدة له:

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ الْجَنْدَلِ اسْجَعِي   فَأَنْتِ بِمَرْأًى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ

القسم الخامس من المعاظلة: أن ترد صفات متعددة على نحو واحد، كقول أبي تمام في قصيدته التي مطلعها:

مَـا لِـكَـثِـيـبِ ٱلْـحِـمَـى إِلَـى عَـقَـدِهْ[١]

فقال يصف جملاً:

سَـأَخْـرِقُ الْخَـرْقَ بِـابْنِ خَـرْقَـاءَ كَـالهَيْقِ إِذَا مَـا اسْتَحَمَّ مِنْ نَجَـدِهْ[٢]
مُقَـابَلٌ فِي الْجَدِيـلِ صُلْبُ الْقَـرَا لَـوْ حُـكَّ مِنْ عَجْبِـهِ إِلَى كَتَـدِهْ[٣]
تَـامِـكِـهِ نَـهْـدِهِ مُـدَاخَـلِهِ مَـلْمُـومِـهِ مُـحْـزَئِـلِّهِ أُجُـدِهْ[٤]

فالبيت الثالث من المعاظلة التي قَلْع الأسنان دون إيرادها.

وكذلك قال من هذه القصيدة يصف رمحاً:

وَمَـرَّ تَـهْـفُـو ذُؤَابَـتَـاهُ عَـلَـى أَسْمَـرِ مَتْنٍ يَـوْمَ ٱلْـوَغَى جَسِـدِهْ[٥]

---

(١) هذا صدر مطلع القصيدة، وعجزه قوله:

مَـا بَـالُ جَـرْعَـائِـهِ إِلَـى جَـرَدِهْ

وهي قصيدة يمدح فيها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني (انظر الديوان ٩١ بيروت).

(٢) سأخرق: يريد سأقطع، والخرق ـ بفتح فسكون ـ الفلاة الواسعة، وابن الخرقاء: الجمل، والخرقاء: الناقة التي تشبه بالريح؛ والهيق: ذكر النعام، والنجد: العرق.

(٣) مقابل: يريد كريم الأبوين، والجديل: فحل نجيب مشهور عند العرب، والقرا: الظهر، والعجب: طرف السلسلة الفقارية مما يلي الذنب، والكتد: مجتمع الأكتاف، والمراد بقوله «لوحك إلخ» أنه لو امتحن وجرب.

(٤) التامك: السنام، والنهد: الشدي، والمداخل: المحكم الجدل، والملموم: المجتمع، والمحزئل: المرتفع في سيره. والأجد: فقار الظهر.

(٥) تهفو: تخفق، والذؤابة: ضفيرة الشعر المرسلة، وجسد ـ بفتح فكسر صفة مشبهة من قولك: جسد الدم يجسد فهو جاسد وجسد؛ إذا لصق، وأراد بالأسمر الرمح الذي عليه اللواء.

مَــارِنِــهِ لَــدْنِــهِ مُــثَــقَّــفِــهِ عَــرَّاصِــهِ فِي الأَكُفِّ مُــطَّرِدِهِ[١]

وهذا كالأول في قبحه وثقله، فقاتله الله!! ما أمتن شعره! وما أسخفه في بعض الأحوال!.

وعلى هذا جاء من هذه القصيدة أيضاً يصف الممدوح:

إِلَيْـكَ عَنْ سَيْلِ عَـارِضٍ خَضِـلِ الشُّـؤْبُـوبِ يَـأْتِي الْحِمَـامُ مِنْ نَضَـدِهْ[٢]

مُـسِفِّــهِ ثَـرِّهِ مُـسَـحْـسِـحِــهِ وَابِـلِهِ مُـسْـتَـهَـلِّهِ جَـرَدِهْ[٣]

ولو لم يكن لأبي تمام من القبيح الشنيع إلا هذه الأبيات لَحَطَّت من قدره.

وعلى هذا ورد قول أبي الطيب المتنبي[٤]:

دَانٍ بَعِيــدٍ مُحِب مُبْغِضٍ بَــهِـجٍ أَغَــرَّ حُلْو مُمِــرٍّ لَيِّــنٍ شَــرِسِ[٥]

---

(١) مارنه: هو من أوصاف الرمح، وهو الصلب اللين، واللدن: اللين، والمثقف: المهذب المقوم بالثقاف، والعراص: الذي يهتز أو يضطرب، والمطرد: الذي أنابيبه بنسبة واحدة، ووقع «عراضه» بكسر العين المهملة وبعد الألف ضاد معجمة، في بعض نسخ الديوان، وهو صفحته، وما أثبتناه أليق بما قبله وبما بعده، وهو موافق لنسخة من الديوان وهو الثابت في أ، ب، ج.

(٢) الخضل: النديّ، والشؤبوب: الدفعة القوية من المطر، والحمام: الموت، والنضد: المتراكم. يصفه بالشدّة والقوة العظيمة التي تجلب الموت لمن حلت به.

(٣) المسف: القريب من الأرض، والثر: الكثير الماء، والمسحسح: الذي يسيل من فوق، والوابل: المطر الغزير، والمستهل: المنصب، وكل هذه نعوت للعارض في البيت الذي قبله.

(٤) من قصيدة له يمدح فيها عبيدالله الطرابلسي، وأولها قوله:

أَظَبْيَــةَ الْـوَحْشِ لَـوْلَا ظَـبْيَــةُ الأَنَسِ لَمَــا غَــدَوْتُ بِجَــدٍ فِي الْهَــوَى تَـعِسِ

(٥) البهج ـ بالباء الموحدة ـ الفرح، وورد في أ، ب، ج «نهج» بالنون، والشرس الصعب، ويراد به السيىء الخلق في غير هذا المكان، يريد أنه قريب ممن يقصده، بعيد عمن ينازله، محب للفضل وأهله، ومبغض للنقص وأهله، يبهج بالقصاد، حلو لأوليائه مر على أعدائه، لين حسن الخلق على الأولياء صعب الشكيمة على الأعداء.

نَـدٍ أَبِـيٍّ غَـرٍ وَافٍ أَخِي ثِـقَـةٍ جَعْـدٍ سَرِيٍّ نَـدْبٍ رِضًى نَدُسٍ (١)

وهذا كأنه سلسلة بلا شك، وقليلاً ما يوجد في أشعار الشعراء، ولم أجده كثيراً إلا في شعر الفرزدق، وتلك معاظلة معنوية، وسيأتي بيانها في بابها، وهذه معاظلة لفظية، وهي توجد في شعر أبي الطيب كثيراً.

النوع الثامن
في المنافرة بين الألفاظ في السبك

وهذا النوع لم يحقق أحد من علماء البيان القول فيه، وغاية ما يقال: إنه ينبغي ألَّا تكون الألفاظ نافرة عن مواضعها، ثم يكتفي بها القول، من غير بيان ولا تفصيل، حتى إنه قد خلط هذا النوع بالمعاظلة، وكل منهما نوع مفرد برأسه له حقيقة تخصّه، إلا أنهما قد اشتبها على علماء البيان، فكيف على جاهل لا يعلم.

وقد بَيَّنْتُ هذا النوع وفَصَّلته عن المعاظلة، وضربت له أمثلة يستدلّ بها على أخواتها وما يجري مجراها.

وجملة الأمر أن مَدَار سَبْك الألفاظ على هذا النوع والذي قبله دون غيرهما من تلك الأنواع المذكورة؛ لأن هٰذين النوعين أصْلاً سَبْكِ الألفاظ، وما عداهما فرع عليهما، وإذا لم يكن الناثر أو الناظم عارفاً بهما فإن مَقَاتله تبدو كثيراً.

وحقيقة هذا النوع الذي هو المنافرة: أن يذكر لفظ أو ألفاظ يكون غيرها مما هو في معناها أولى بالذكر.

---

(١) الندى: الجواد، والأبي: الذي يمتنع من الدنايا، والوافي: الذي يفي بما يؤمل فيه، والغري: المولع بفعل الجميل، والجعد: الماضي في الأمر ههنا، والسري: الشريف ذو المروءة، والنهي: ذو النهية وهي العقل، والندب: السريع فيما يندب له من الأمور، والندس - بضم الدال أو كسرها -: الذي يعرف حقائق الأمور لكثرة ما يبحث عنها.

وعلى هذا فإن الفرق بينه وبين المعاظلة أن المعاظلة هي التراكب والتداخل إما في الألفاظ أو في المعاني، على ما أشرت إليه، وهذا النوع لا تراكب فيه، وإنما هو إيراد ألفاظ غير لائقة بموضعها الذي ترد فيه.

وهو ينقسم قسمين: أحدها: يوجد في اللفظة الواحدة، والآخر: في الألفاظ المتعددة.

فأما الذي يوجد في اللفظة الواحد فإنه إذا أورد في الكلام أمكن تبديله بغيره مما هو في معناه، سواء كان ذلك نثراً أو نظماً.

وأما الذي يوجد في الألفاظ المتعددة فإنه لا يمكن تبديله بغيره في الشعر، بل يمكن ذلك في النثر خاصة؛ لأنه يعسر في الشعر من أجل الوزن.

فمما جاء من القسم الأول قول أبي الطيب المتنبي(١):

فَلَا يُبْرَمُ الأَمْرُ الَّذي هُوَ حَالِلٌ ... وَلَا يُحْلَلُ الأَمْرُ الَّذِي هُوَ يُبْرِمُ

فلفظة «حالل» نافرة عن موضعها، وكانت له مَنْدُوحة عنها؛ لأنه لو استعمل عوضاً عنها لفظة «ناقض» فقال:

فَلَا يُبْرَمُ الأَمْرُ الَّذي هُوَ نَاقِضٌ ... وَلَا يُنْقَضُ الأَمْرُ الَّذي هُوَ يُبْرِم

لجاءت اللفظة قارَّةً في مكانها، غير قلقة ولا نافرة.

وبلغني عن أبي العلاء بن سليمان المعرّي أنه كان يَتَعَصَّب لأبي الطيب، حتى إنه كان يسميه «الشاعر» ويسمي غيره من الشعراء باسمه، وكان يقول: ليس في شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو في معناها فيجيء حسناً مثلها؛ فيا ليت شعري أما وقف على هذا البيت المشار إليه، لكن الْهَوَى كما يقال أعمى؛ وكان أبو العلاءِ أعمى العين خِلْقَةً وأعماها عَصَبِيَّةً، فاجتمع له العمى من جهتين.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها عمر بن سليمان الشرابي، وأولها قوله:

نَرَى عِظَماً بِالْبَيْنِ، وَالصَّدُّ أَعْظَمُ ... وَنَتَّهِمُ الْوَاشِينَ، وَالدَّمْعُ مِنْهُمُ

وهذه اللفظة التي هي «حالل» وما يجري مجراها قبيحة الاستعمال، وهي فكّ الإدغام في الفعل الثلاثي، ونقله إلى اسم الفاعل، وعلى هذا فلا يحسن أن يقال: بَلَّ الثوب فهو بَالِل، ولا سَلَّ السيفَ فهو سَالِل، ولا أن يقال: هَمّ بالأمر فهو هامِمٌ، ولا خَطَّ الكتابَ فهو خاطِط، ولا حَنَّ إلىٰ كذا فهو حَانِن، وهذا لو عرض على من لا ذوق له لأدركه وفهمه، فكيف من له ذوق صحيح كأبي الطيب، لكن لا بد لكل جواد من كَبْوَة.

وأنشد بعض الأدباء بيتاً لِدِعْبِل، وهو:

شَفِيْعَكَ فَاشكُرْ في الْحَوائِجِ إِنَّهُ يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهْوَ يخْلقُ

فقلت له: عجز هذا البيت حسن، وأما صدره فقبيح؛ لأنه سبكه قلقاً نافراً، وتلك الفاء التي في قوله: «شفيك فاشكر» كأنها ركبة البعير، وهي في زيادتها كزيادة الكرش، فقال: لهذه الفاء في كتاب الله أشباه، كقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ.وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ.وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فقلت له: بين هذه الفاء وتلك الفاء فرق ظاهر يدرك بالعلم، أولاً، وبالذوق ثانياً؛ أما العلم فإن الفاء في (وربك فكبر وثيابك فطهر) هي الفاء العاطفة؛ فإنها واردة بعد (قم فأنذر) وهي مثل قولك: امْشِ فَأَسْرِع، وَقُلْ فَأَبْلغ ، وليست الفاء التي في «شفيعك فاشكر» كهذه الفاء؛ لأن تلك زائدة لا موضع لها، ولو جاءت في السورة كما جاءت دعبل ـ وَحَاشَ لِلَّه من ذلك ـ لابتدىء الكلام، فقيل: ربك فكبر وثيابك فطهر؛ لكنها لما جاءت بعد (قم فأنذر) حسن ذكرها فيما يأتي بعدها (وربك فكبر وثيابك فطهر)؛ وأما الذوق فإنه ينبو عن الفاء الواردة في قول دعبل ويستثقلها، ولا يوحد ذلك في الفاء الواردة في السورة، فلما سمع ما ذكرته أذْعَنَ بالتسليم.

ومثل هذه الدقائق التي ترد في الكلام نظماً كان أو نثراً لا يتفطن لها إلا الراسخ في علم الفصاحة والبلاغة.

ومن هذا القسم وَصْلُ همزة القطع، وهو محسوب من جائزات الشعر التي لا تجوز في الكلام المنثور، وكذلك قطع همزة الوصل، لكن وصل همزة القطع أقبح؛ لأنه أثقل على االسان.

فمما ورد من ذلك قول أبي تمام(١):

قَرَاني اللُّهَا وَالْوُدَّ حَتَّى كَأَنَّمَا ... أَفَادَ الْغِنَى مِنْ نَائِلِي وَفَوَائِدِي

فَأَصْبَحَ يَلْقَانِي الزَّمَانُ مِنَ آجْلِهِ ... بِإِعْظَامِ مَوْلُودٍ وَرَأْفَةِ وَالِدِ(٢)

فقوله: «مِنَ آجله» وصل الهمزة القطع.

وعليه ورد قول أبي الطيب المتنبي(٣):

تُوَسِّطُهُ الْمَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ ... طِلَابُ الطَّالِبِينَ لَا ٱلانْتِظَارُ

فقوله: «لا الانتظار» كلام نافر عن موضعه.

ومن هذا القسم أن يفرق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدم ذكره، كقول البحتري(٤):

حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ يَوْمَ التَّفَرُّقِ ... وَبِالْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهَا الْمُتَعَلِّقِ

تقديره: «من قلبي المتعلق بها» فلما فصل بين الموصوف الذي هو قلبي والصفة التي هي المتعلِّق بالضمير الذي هو بها قبح ذلك، ولو كان قال: «من قلبٍ بهَا مُتَعَلِّقِ» لزال ذلك القبح وذهبت تلك الهجنة.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن الهيثم بن شبابة، وأولها قوله:

قِفُوا جَدِّدُوا مِنْ عَهْدِكُمْ بِالْمَعَاهِدِ ... وَإِنْ هِيَ لَمْ تَسْمَعْ لِنِشْدَانِ نَاشِدِ

(٢) في جميع نسخ الديوان التي بين يدي:

فَأَصْبَحَ يَلْقَانِي الزَّمَانُ لأَجْلِهِ

ولا شيء في هذه الرواية.

(٣) من قصيدة له في سيف الدولة، وأولها قوله:

طِوَالُ قَناً تُطَاعِنُهَا قِصَارُ ... وَقَطْرُكَ فِي نَدًى وَوَغًى بِحَارُ

(٤) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان، وبعده قوله:

وَبِالْعَهْدِ مَا الْبَذْلُ الْقَلِيلُ بِضَائِعٍ ... لَدَيَّ وَلَا الْعَهْدُ الْقَدِيمُ بِمُخْلَقِ

ومن هذا القسم أيضاً أن تزاد الألف واللام في اسم الفاعل، ويقام الضمير فيه مقام المفعول، كقول أبي تمام[1]:

فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ وَالزَّائِرِيهِمْ لَمَا مِزْتَ الْبَعِيدَ مِنَ الْحَمِيمِ[2]

فقوله: «الزائري» اسم فاعل، وقوله: «هم» الذي هو الضمير في موضع المفعول، تقديره الزائرين أرضهم أو دارهم أو الزائرين إياهم؛ فاستعمال هذا مع الألف واللام قبيح جداً، وإذا حذفتا زال ذلك القبح، وقد استعملها الشعراء المتقدمون كثيراً.

ومما جاء من القسم الثاني الذي يوجد في الألفاظ المتعددة قول أبي الطيب أيضاً[3]:

لَا خَلْقَ أَكْرَمُ مِنْكَ إِلَّا عَارِفٌ بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا[4]

فإن عجز هذا البيت نافر عن مواضعه، وأمثال هذا في الأشعار كثير.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها بني عبد الكريم الطائيين، وأولها قوله:

أَرَامَةُ، كُنْتِ مَأْلَفَ كُلِّ رِيمِ لَوِ ٱسْتَمْتَعْتِ بِالْأُنْسِ الْمُقِيمِ

(٢) الذي في نسخ الديوان:

فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ مَعَ زَائِرِيهِمْ

ولا شيء في هذه الرواية.

(٣) من قصيدة له يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران، وأولها قوله:

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا دَانِي الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا

(٤) في رواية الديوان «لا خلق أسمح منك»؛ وقد سمع أبو الطيب قول أبي تمام في مدح المعتصم:

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ سَائِلُهْ

فأخذ منه هذا المعنى

المقالة الثانية
في الصناعة المعنوية

وهي تنقسم إلى قسمين: الأول منها في الكلام على المعاني مجملاً، والثاني في الكلام عليها مفصلاً.

وقبل الكلام على ذلك لا بد من توطِئَة تكون شاملةً لما نحن بصدد ذكره ههنا، فأقول:

آعلم أن المعاني الْخَطَابية قد حصرت أصولها، وأول من تكلم في ذلك حُكماء اليونان، غير أن ذلك الْحَصْرَ كليٌّ لا جزئي، ومحال أن تحصر جزئيات المعاني وما يتفرع عليها من التفريعات التي لا نهاية لها، لا جَرَم أن ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم، ولا يفتقر إليه؛ فإن البدوي البادي رَاعِي الإبل ما كان يمرُّ شيء من ذلك بفهمه، ولا يخطر بباله، ومع هذا فإنه كان يأتي بالسحر الحَلَال إن قال شعراً أو تكلم نثراً.

فإن قيل: إن ذلك البدويّ كان له ذلك طَبْعاً وخليقةً، والله فطره عليه كما فطر ضروبَ نوع الآدمي على فِطَرٍ مختلفة هي لهم في أصل الخلقة؛ فإنه فطر الترك على الإحسان في الرمي والإصابة فيه من غير تعليم، وكذلك فطر أهل الصين على الإحسان في صنعة اليد فيما يباشرونه من مَصُوغ أو خشب أو فخّار أو غير ذلك، وكذلك فطر أهل المغرب على الشجاعة، وهذا لا نزاع فيه، فإنه مشاهد.

فالجواب عن ذلك أني أقول: إن سلمت إليك أن الشعر والخطابة كانا للعرب بالطبع والفطرة فماذا تقول فيمن جاء بعدهم من شاعر وخطيب تحضَّرُوا وسكنوا البلاد، ولم يَرَوُا البادية ولا خلقوا بها، وقد أجادوا في تأليف النظم والشعر، وجاءوا بمعانٍ كثيرة ما جاءت في شعر العرب ولا نطقوا بها.

فإن قلت: إن هؤلاء وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منه.

قلت لك في الجواب: هذا شيء لم يكن، ولا عَلِمَ أبو نواس شيئاً منه، ولا مسلم بن الوليد، ولا أبو تمام، ولا البحتري، ولا أبو الطيب المتنبي، ولا غيرهم، وكذلك جرى الحكم في أهل الكتابة كعبد الحميد، وابن العميد، والصابي، وغيرهم، فإن ادعيت أن هؤلاء تعلموا ذلك من كتب علماء اليونان قلت لك في الجواب: هذا باطل بي أنا؛ فإني لم أعلم شيئاً مما ذكره حكماء اليونان، ولا عرفته، ومع هذا فانظر إلى كلامي، فقد أوردت لك نبذة منه في هذا الكتاب، وإذا وقفت على رسائلي ومكاتباتي وهي عِدَّةُ مجلدات، وعَرَفْتَ أني لم أتعرض لشيء مما ذكره حكماء اليونان في حصر المعاني عَلِمْتَ حينئذ أن صاحب هذا العلم من النظم والنثر بنَجْوَةٍ من ذلك كله، وأنه لا يحتاج إليه أبداً؛ وفي كتابي هذا ما يغنيك، وهو كافٍ.

ولقد فاوضني بعض المتفلسفين في هذا، وانساق الكلام إلى شيء ذكر لأبي علي بن سنا في الخطابة والشعر، وذكر ضرباً من ضروب الشعر اليوناني يسمى اللاغوذيا، وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبي علي، ووَقَفَني على ما ذكره، فلما وقفت عليه استجهلته؛ فإنه طَوَّل فيه وعرض، كأنه يخاطب بعض اليونان، وكل الذي ذكره لَغْوٌ لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئاً، ثم مع هذا جميعه فإن مُعَوَّل القوم فيما يذكر من الكلام الخطابي أنه يورد على مقدمتين ونتيجة، وهذا مما لم يخطر لأبي علي بن سينا ببال فما صاغه من شعر أو كلام مسجوع، فإن له شيئاً من ذلك في كلامه، وعند إفاضته في صوغ ما صاغه لم تخطر المقدمتان والنتيجة له ببال، ولو أنه أفكر أولاً في المقدمتين والنتيجة ثم أتى بنظم أو نثر بعد ذلك لما أتى بشيء ينتفع به، ولطال الخطب عليه، بل أقول شيئاً آخر، وهو: أن اليونان أنفسهم لما نظموا ما نظموه من أشعارهم لم ينظموه في وقت نظمه وعندهم فكرة في مقدمتين ولا نتيجة، وإنما هذه أوضاع توضع ويطول بها مصنفات كتبهم في الخطابة والشعر، وهي كما يقال: فقاقع ليس لها طائل، كأنها شعر الأبِيوَرْدِي.

وحيث أوردت هذه المقدمة قبل الخوض في تقسيم المعاني فإني راجع إلى شرح ما أجملته، فأقول:

أما القسم الأول: فإن المعاني فيه على ضربين: أحدهما: يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدي فيه بمن سبقه، وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة، ويتنبه له عند الأمور الطارئة، ولنشر في هذا الموضع إلى نبذة لتكون مثالاً للمتوشح لهذه الصناعة.

فمن ذلك ما ورد في شعر أبي تمام في وصف مصلبين(١):

بَكَرُوا وَأَسْرَوْا فِي مُتُونِ ضَوَامِرٍ ... قِيدَتْ لَهُمْ مِنْ مَرْبِطِ النَّجَّارِ
لَا يَبْرَحُونَ وَمَنْ رَآهُمْ خَالَهُمْ ... أَبَداً عَلَى سَفَرٍ مِنَ الْأَسْفَارِ

وهذا المعنى مما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة، والخاطر في مثل هذا المقام ينساق إلى المعنى المخترع من غير كبير كلفة؛ لشاهد الحال الحاضرة.

وكذلك قال في هذه القصيدة في صفة من أحرق بالنار:

مَا زَالَ سِرُّ الْكُفْرِ بَيْنَ ضُلُوعِهِ ... حَتَّى اصْطَلَى سِرَّ الزِّنَادِ الْوَارِي
نَاراً يُسَاوِرُ جِسْمَهُ مِنْ حَرِّهَا ... لَهَبٌ كَمَا عَصْفَرْتَ شِقَّ إِزَارِ
طَارَتْ لَهَا شُعَلٌ يُهَدِّمُ لَفْحُهَا ... أَرْكَانَهُ هَدْماً بِغَيْرِ غُبَارِ
فَصَّلْنَ مِنْهُ كُلَّ مَجْمَعِ مَفْصِلٍ ... وَفَعَلْنَ فَاقِرَةً بِكُلِّ فِقَارِ
مَشْبُوبَةً رُفِعَتْ لِأَعْظَمِ مُشْرِكٍ ... مَا كَانَ يُرْفَعُ ضَوءُهَا لِلسَّارِي
صَلَّى لَهَا حَيًّا وَكَانَ وَقُودَهَا ... مَيْتاً وَيَدْخُلُهَا مَعَ الْفُجَّارِ

وهذا مما يعين على استخراج المعاني فيه شاهد الحال.

وقد ذيل البحتري على ما ذكره أبو تمام في وصف المصلبين فقال:

كَمْ عَزِيزٍ أَبَادَهُ فَغَدا يَرْ ... كَبُ عُوداً مُرَكَّباً فِي عُودِ

(١) هذه الأبيات من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ويذكر إحراق الأفشين، وأولها قوله:

اَلْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارِ ... فَحَذَارِ مِنْ أُسْدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

أَسْلَمَتْهُ إِلَى الرُّقَادِ رِجَالٌ لَمْ يَكُونُوا عَنْ وِتْرِهِمْ بِرُقُودِ
تَحْسُدُ الطَّيْرُ فِيهِ ضَبْعَ الْبَوَادِي وَهْوَ فِي غَيْرِ حَالَةِ الْمَحْسُودِ
غَابَ عَنْ صَحْبِهِ فَلاَ هُوَ مَوْجُو دُ لَدَيْهِمْ وَلَيْسَ بِالْمَفْقُودِ
وَكَأَنَّ امْتِدَادَ كَفَّيْهِ فَوْقَ الْـ ـجِذْعِ فِي مَحْفِلِ الرَّدَى الْمَشْهُودِ
طَائِرٌ مَدَّ مُسْتَرِيحاً جَنَاحَيْـ ـهِ اسْتِرَاحَاتِ مُتْعَبٍ مَكْدُودِ
أَخْطَبُ النَّاسِ رَاكِباً فَإِذَا أُرْ جِلَ خَاطَبْتَ مِنْهُ عَيْنَ الْبَلِيدِ

وهذه أبيات حسنة قد استوعبت أقسام هذا المعنى المقصود، إلا أن فيها مأخوذاً من شعر مسلم بن الوليد الأنصاري، وهو قوله[1]:

نَصَبْتُهُ حَيْثُ تَرْتَابُ الرِّيَاحُ بِهِ وَتَحْسُدُ الطَّيْرُ فِيهِ أَضْبُعَ الْبِيدِ[2]

لكن البحتري زاد في ذلك زيادة حسنة، وهي قوله: «وهو في غير حالة المحسود».

ومن هذا الضرب ما جاء في شعر أبي الطيب المتنبي في وصفه الحمى، وهو قوله[3]:

وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها داود بن يزيد بن حاتم بن خالد بن المهلب، وأولها قوله:

لَا تَدْعُ بِي الشَّوْقَ إِنِّي غَيْرُ مَعْمُودِ نَهَى النُّهَى عَنْ هَوَى الْهِيفِ الرَّعَادِيدِ

انظر الديوان (ص ١٢١ ليدن).

(٢) رواية الديوان «وضعته حيث ترتاب الرياح به» وذكر الناشر أنه يروى «نصبته» كما هنا، وفي بعض روايات الديوان «ويحسد الطير» بياء المضارعة، وفي بعضها «أسبع البيد».

(٣) من قصيدة يذكر فيها الحمى التي كانت تنتابه وهو بمصر، وأولها قوله:

مَلُومُكُمَا يَجِلُّ عَنِ الْمَلَامِ وَوَقْعُ فَعَالِهِ فَوْقَ الْكَلَامِ

كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِي ... مَدَامِعُهَا بِأَرْبَعَةٍ سِجَامِ
أُرَاقِبُ وَقْتَهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ ... مُرَاقَبَةَ الْمَشُوقِ الْمُسْتَهَامِ

وقد شرح أبو الطيب بهذه الأبيات حاله مع الحمى.

ومن بديع ما أتى به في هذا الموضع أن سيف الدولة بن حَمْدَان كان مخيماً بأرض ديار بكر على مدينة مَيَّافَارِقين، فعصفت الريح بخَيْمَته، فَتَطَيَّر الناس لذلك، وقالوا فيه أقوالاً، فمدحه أبو الطيب بقصيدة يعتذر فيها عن سقوط الخيمة أولها:

أَيَنْفَعُ فِي الْخَيْمَةِ الْعُذَّلُ(١)

فمنه ما أحسن فيه كل الإحسان، وهو قوله:

تَضِيقُ بِشَخْصِكَ أَرْجَاؤُهَا ... وَيَرْكُضُ فِي آلْوَاحِدِ الْجَحْفَلُ
وَتَقْصُرُ مَا كُنْتَ فِي جَوْفِهَا ... وَتُرْكَزُ فِيهَا الْقَنَا الذُّبَّلُ
وَكَيْفَ تَقُومُ عَلَى رَاحَةٍ ... كَأَنَّ الْبِحَارَ لَهَا أَنْمُلُ
فَلَيْتَ وَقَارَكَ فَرَّقْتَهُ ... وَحَمَّلْتَ أَرْضَكَ مَا تَحْمِلُ
فَصَارَ الأَنَامُ بِهِ سَادَةً ... وَسُدْتَهُمُ بِالَّذِي يَفْضُلُ
رَأَتْ لَوْنَ نُورِكَ فِي لَوْنِهَا ... كَلَوْنِ الْغَزَالَةِ لَا يُغْسَلُ
وَأَنَّ لَهَا شَرَفاً بَاذِخاً ... وَأَنَّ آلْخِيَامَ بِهَا تَخْجَلُ
فَلَا تُنْكِرَنَّ لَهَا صَرْعَةً ... فَمِنْ فَرَحِ النَّفْسِ مَا يَقْتُلُ
وَلَوْ بُلِّغَ النَّاسُ مَا بُلِّغَتْ ... لَخَانَتْهُمُ حَوْلَكَ الأَرْجُلُ
وَلَمَّا أَمَرْتَ بِتَطْنِيبِهَا ... أُشِيعَ بِأَنَّكَ لَا تَرْحَلُ
فَمَا اعْتَمَدَ اللَّهُ تَقْوِيضَهَا ... وَلَكِنْ أَشَارَ بِمَا تَفْعَلُ
وَعَرَّفَ أَنَّكَ مِنْ هَمِّهِ ... وَأَنَّكَ فِي نَصْرِهِ تَرْفُلُ

(١) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

وَتَشْمَلُ مَنْ دَهْرَهَا يَشْمَلُ

فَـمَـا الْـعَـانِـدُونَ وَمَـا أَمَّـلُوا   وَمَـا الْحَـاسِـدُونَ وَمَـا قَـوَّلُـوا
هُـمُ يَـطْلُبُـونَ فَـمَـنْ أَدْرَكُـوا   وَهُـمْ يَـكْـذِبُـونَ فَـمَـنْ يَـقْبَـلُ
وَهُـمْ يَتَـمَـنَّـوْنَ مَـا يَشْـتَهُـونَ   وَمِـنْ دُونِـهِ جَـدُّكَ الْـمُـقْبِـلُ

هذه الأبيات قد اشتملت على معانٍ بديعة، وكفى المتنبي فضلاً أن يأتي بِمثلها، وهذا مقام يظهر في مثله براعة الناظم والناثر.

وقرأت في كتاب الروضة لأبي العباس المبرد، وهو كتاب جمعه واختار فيه أشعار شعراء بدأ فيه بأبي نواس، ثم بمن كان في زمانه، وآنسحب على ذيله، فقال فيما أورده من شعره: وله معنى لم يسبق إليه بإجماع، وهو قوله[١]:

تُـدَارُ عَلَيْنَـا الـرَّاحُ في عَسْجَـدِيَّـةٍ   حَبَتْهَـا بـأَنْـوَاعِ التَّصَـاوِيـرِ فَـارِسُ
قَـرَارَتُهَـا كِسْـرَى وَفِي جَنَبَـاتِهَـا   مَهـاً تَدَّرِيهَـا بِـالْقِسِيِّ الْفَـوَارِسُ[٢]
فَلِلرَّاحِ مَـا زُرَّتْ عَلَيْـهِ جُيُـوبُهَـا   وَلِلْمَـاءِ مَـا دَارَتْ عَلَيْـهِ الْقَـلَانِسُ

وقد أكثر العلماء من وصف هذا المعنى وقولهم فيه: إنه معنى مبتدع.

ويحكى عن الجاحظ أنه قال: ما زال الشعراء يتناقلون المعنى قديماً وحديثاً، إلا هذا المعنى، فإن أبا نواس انفرد بابداعه، وما أعلم أنا ما أقول لها ولأبي[٣] سوى أن أقول: قد تجاوز بهم حد الإكثار، ومن الأمثال السائرة: بدون هذا يباع الحمار، وفصاحة هذا الشعر عندي هي الموصوفة، لا هذا المعنى؛ فإنه لا كبير كلفة فيه؛ لأن أبا نوس رأى كأساً من الذهب ذات تصاوير فحكاها في شعره، والذي عندي في هذا أنه من المعاني المشاهدة؛ فإن هذه الخمر لم تحمل إلا ماءً

(١) قد كرر المؤلف اختيار هذه الأبيات في غير ما مناسبة، وأكثر من التمدح بها.
(٢) في أ، ب، ج «ثورتها بالعشيّ» وما أثبتناه عن الديوان، وتدريها: تختلها لتصطادها.
(٣) كذا؛ ولعل أصل العبارة «لها ولأبي نواس».

يسيراً، وكانت تستغرق صور هذا الكأس إلى مكان جيوبها، وكان الماء فيها قليلاً بقدر القلانس التي على رءوسها، وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر.

وكذلك ورد قوله في الخمر أيضاً:

يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمِ ... نِمْتَ عَنْ لَيْلِي وَلَمْ تَنِمِ
فَاسْقِنِي الْخَمْرَ الَّتِي اخْتَمَرَتْ ... بِخِمَارِ الشَّيْبِ في الرَّحِمِ

وهذا معنى مخترع لم يسبق إليه، وهو دقيق يكاد لدقته أن يلتحق بالمعاني التي تستخرج من غير شاهد حال متصور.

وبلغني أنه اختلف في هذا المعنى بحضرة الرشيد هٰرون رحمه الله، فقيل: إنه يريد بخمار الشيب في الرحم أن الخمر تكون في جوانبها ذات زبد أبيض على وجهها، فقال الأصمعي: إن أبا نواس ألطف خاطراً من هذا، وأسد غرضاً، فاسألوه، فأحضر وسئل، فقال: إن الكَرْم أول ما يجري فيه الماء يخرج شبيهاً بالقطنة، وهي أصل العنقود؛ فقال الأصمعي: ألم أقل لكم إن الرجل ألطف خاطراً وأسد غرضاً.

وقد جاء لابن حَمْديس الصقلي في الهلال لآخر الشهر ما لم يأت به غيره، وهو من الحسن واللطافة في الغاية القصوى، وذلك قوله:

كأنَّما أدْهَمُ الظَّلْمَاءِ حِينَ نَجَا ... مِنْ أشْهَبِ الصُّبحِ ألْقَى نَعْلَ حَافِرِهِ

وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر، إلا أنه أبدع في التشبيه.

وأمثال هذا كثيرة في أقوال المجيدين من الشعراءِ.

وجملة الأمر في ذلك أن الشاعر أو الكاتب ينظر إلى الحال الحاضرة ثم يستنبط لها ما يناسبها من المعاني، كما فعل النابغة في مدح النعمان وقد أتاه وفد من الوفود فمات رجل منهم قبل أن يرفدهم[1]، فلما رفدهم جعل عطاء ذلك الميت

(١) في أ، ب، ج «يوفدهم فلما وفدهم» بالواو، ورفده: أعطاه، ولعل أدنى تأمل يدل على أن الصواب ما أثبتناه.

على قبره، حتى جاء أهله وأخذوه، فقال النابغة في ذلك(١):

حِبَـاءُ شَقِيق فَـوْقَ أَحْجَـارِ قَبْـرِهِ ... وَمَـا كَـانَ يُحْبَى قَبْلَهُ قَبْـرُ وَافِـدِ

وهذا بيت من جملة أبيات، فانظر كيف فعل النابغة في هذا المعنى؟.

وكذلك ورد قول أخت جَسَّاس زوجة كُلَيْب؛ فإنه لما قَتَل جساسٌ كليباً اجتمع النساء إليها وندبنه، فتحدث بعضهم إلى بعض، وقلن: هذه ليست ثاكلة، وإنما هي شامتة؛ فإنَّ أخاها هو القاتل، فَنُمَّ ذلك إليها، فقالت:

يَـا ٱبْنَـةَ الأَقْـوَامِ إنْ شِئْتِ فَـلَا ... تَـعْجَـلِي بِـاللَّوْمِ حَـتَّى تَسْـأَلِي

فَـإِذَا أَنْـتِ تَـبَـيَّـنْـتِ الَّـذِي ... يُـوجِـبُ اللَّوْمَ فَـلُومِي وَاعْـذِلِـي

إنَّ أُخْتـاً لِامْـرِئٍ لِيـمَتْ عَـلَى ... شَـفَقٍ مِـنْهـا عَـلَيْـهِ فَـافْعَـلِي(٢)

جَـلَّ عِنْـدِي فِعْـلُ جَسَّاسٍ فَـوَا ... حَسْـرَتَـا عَمَّ انْجَلَتْ أَوْ تَـنْجَـلِي

فِعْـلُ جَسَّـاسٍ عَلَى وَجْـدِي بِـهِ ... قَـاطِـعٌ ظَـهْـرِي وَمُـدْنٍ أَجَلِي

لَـوْ بِـعَيْـنٍ فُـقِئَتْ عَـيْنٌ سِـوَى ... أُخْتِهَـا فَـانْـفَقَـأَتْ لَـمْ أَحْفِـلِ

يَـا قَـتِيـلاً قَـوَّضَ الـدَّهْـرُ بِـهِ ... سـقْفَ بَـيْتَـيَّ جَمِيعـاً مِـنْ عَـلِ

هَـدَّمَ الْبَيْتَ الَّـذِي اسْتَحْـدَثْتُـهُ ... وَانْـثَنَـى فِي هَـدْمِ بَـيْـتِي الأَوَّلِ

يَشْتَـفِي الْـمُـدْرِكُ بِـالثَّـأْرِ وَفِـي ... دَرَكِـي ثَـأْرِيَ ثُـكْـلٌ مُـثْـكِـلِي

---

(١) قبل هذا البيت قوله:

أَبْقَيْـتَ لِلْعَبْسِـيِّ فَـضْـلاً وِنِـعْـمَـةً ... وَمَحْمَـدَةً مِنْ بَـاقِيَـاتِ الْمَحَـامِـدِ

وبعـده قولـه:

أَتَـى أَهْلَهُ مِـنْـهُ حِبَـاءٌ وَنِـعْـمَـةٌ ... وَرُبَّ ٱمْـرِئٍ يَسْعَى لآخَـرَ قَـاعِـدِ

(٢) في أخبار كليب وائل، وفي أخبار المهلهل أخيه، يروى هذا البيت:

إنْ تَـكُـنْ أُخْـتُ امْـرِئٍ لِيَـمتْ عَـلَى ... شَـفَـقٍ مِـنْـهَـا عَـلَيْـهِ فَـافْـعَـلِي

وهي أوضح مما في أصل هذا الكتاب.

إنَّــنــي قــاتِـلَةٌ مَـقْـتُـولَـةٌ وَلَـعَـلَّ الـلَّـهَ أنْ يَـرْتَـاحَ لِـي

وهذه الأبيات لو نطق بها الفحول المعدودون من الشعراء لاستعظمت، فكيف امرأة وهي حزينة في شرح تلك الحال المشار إليها.

واعلم أنه قد يستخرج من المعنى الذي ليس بمبتدع معنى مبتدع.

فمن ذلك قول الشاعر المعروف بابن السراج في الفهد:

تَنَـافَسَ اللَّيْـلُ فِيـهِ وَالنَّهَـارُ مَعَـاً فَقَمَّصَـاهُ بِجِلْبَـابٍ مِنَ الـمُقَـلِ

وليس هذا من المعاني الغريبة، ولكنه تشبيه حسن واقع في موقعه.

وقد جاء بعده شاعر من أهل الموصل يقال له ابن مسهر فاستخرج من هذا البيت معنى غريباً، فقال:

وَنَقَّـطَتْـهُ حِبَـاءً كَيْ يُسَـالِمَهَـا عَلَى المَنَايَا نِعَاجُ الرَّمْـلِ بِالْحَـدَقِ

وهذا معنى غريب لم أسمع بمثله في مقصده الذي قصد من أجله، وقليلاً ما يقع هذا في الكلام المنظوم والمنثور، وهو موضع ينبغي أن توضع اليد عليه، ويتنبه له، وكذلك فلتكن سياقة ما جرى هذا المجرى.

وقد جاءني شيء من ذلك في الكلام المنثور.

فمن ذلك ما ذكرته في وصف نساء حسان، وهو: أقبلت رَبائبُ الكِناس، في مُخْضَرّ اللِّباس، فقيل: إنما يَخْتَرْنَ الخضرة من الألوان، ليصح تشبيههن بالأغصان.

وهذا معنى غريب، وربما يكون قد سبقت إليه، إلا أنه لم يبلغني، بل ابتدعته ابتداعاً.

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن منازلة بلد؛ فذكرت القتال بالمنجنيق، وهو: فنزلنا بمَرْأى منه ومسمع، واسْتَدَرْنا به استدارة الخاتم بالإصْبَع، ونصبت المنجنيقات فأنشأت سُحُباً صعبة القياد، مختصَّة بالرُّبا دون الوِهَاد، فلم تزل تقذف السور بوَبْلٍ من جُلْمُودِها، وتَفْجَؤُه برعودها قبل بروقها وبروقُ السحب قبل رعودها، حتى غادرت الحزْنَ منه سَهْلاً، والعامر بَلْقَعاً مخلى.

وفي هذا معنيان غريبان: أحدهما: أن هذه السحب تخصُّ الربا دون الوهاد، والآخر: أن رعودها قبل بروقها، وكل ذلك يتفطن له بالمشاهدة.

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب، فقلت: إذا تَخَلَّق المرء بخلق البأس والندى لم يخف عرضُه دَنَسا، كما أن الماءَ إذا بلغ قُلَّتين لم يحمل نجَساً.

وهذا المعنى مبتدع لي، وهو مستخرج من الحديث النبوي في قوله ﷺ: «إِذَا بَلَغَ المَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَحْمِلْ خَبثاً».

ومن ذلك ما ذكرته في وصف مَفازة، فقلت: مَفازة لا توطأ بأجفان ساهر، ولا تقتل باقتحام خابر، ولولا مسير الهلال من فوقها لما عرفت تمثال حافر.

ومن ذلك ما ذكرته في كتاب أصف فيه نزول العدو على حصار بلد من بلاد المكتوب عنه، وكان ذلك في زمن الشتـاء فسقط على العدو ثلج كثيـر صار به محصوراً، فقلت:

وقد عاجله قِتال البروق قبل البَوارق، وأحاط به الثلجُ فصار خَنادق تحول بينه وبين الخنادق، والشتاء قد لقي عسكره من البرد بعسكره، والسماء قد قابلته بأغبر وجهها لا بأخضره، والأرض كأنها قُرْصَةُ النَّقيِّ وعسى أن تكون أرض محشره.

والمعنى المخترع من هذا الكلام قولي: «والأرض كأنها قُرْصَةُ النَّقيِّ وعسى أن تكون أرض محشره» وهو مستخرج من الحديث النبوي في قوله ﷺ: «إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ» يريد الخبزة البيضاء[1] ولما كان الثلج على الأرض مُمَاثِلاً لذلك ومشابهاً له استنبطت أنا له هذا المعنى المخترع، فجاء كما تراه، وهو من المعاني التي يدل عليها شاهد الحل.

وأحسن من هذا كله ما كتبته في فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة ببغداد، فقلت: ودولته هي الضاحكة وإن كان نَسَبُهَا إلى الْعَبَّاس، وهي خير دولة أخرجت للزمن كما أن رعاياها خير أمة أخرجت للناس، ولم يجعل شعارها من لون الشَّبَاب

(١) في النهاية (ن ق ي) بعد ذكر الحديث قال: «هو الخبز الحواري».

إلا تفاؤلاً بأنها لا تَهْرَم، وأنها لا تزال مَخْبُوَّة من أبكار السعادة بالحبِّ الذي لا يُسْلَى والوصْلِ الذي لا يُصْرَم، وهذا معنى استنبطه الخادم للدولة وشعارها، وهو مما لم تخطّ به الأقلام في خطها ولا أجالته الخواطر في أفكارها.

وغرابة هذا المعنى ظاهرة، ولم يأتِ بها أحد قبلي.

وبلغني من المعاني المخترعة أن عبد الملك بن مروان بنى باباً من أبواب المسجد الأقصى بالبيت المقدس، وبنى الحجاج باباً إلى جانبه، فجاءت صاعقة فأحرقت الباب الذي بناه عبد الملك، فتطير لذلك، وشقّ عليه، فبلغ ذلك الحجاج فكتب إليه كتاباً: بلغني كذا وكذا، فليهن أمير المؤمنين أن الله تَقَبَّل منه، وما مَثَلي ومَثَلُه إلا كابْنَيْ آدم إذْ قَرَّبا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخر؛ فلما وقف عبد الملك على كتابه سُرِّيَ عنه. وهذا معنى غريب استخرجه الحجاج من القرآن الكريم، وهو من المعاني المناسبة لما ذكرت فيه؛ ويكفي الحجاج من فطانة الفكرة أن يكون عنده استعداد لاستخراج مثل ذلك.

وأما المعاني التي تستخرج من غير شاهد حال متصورة فإنها أصعب مثالاً مما يستخرج بشاهد الحال، ولأمرٍ مّا كان لأبكارها سِرٌّ لا يهجم على مكامنه إلا جَنَان الشَّهْم، ولا يفوز بمحاسنه إلا من دَقَّ فهمه حتى جَلَّ عن دقة الفهم، ولَلْهُجُومُ على عَذَارَى المعاني المحميَّة بحجُب الْبَوَاتر أَيْسَرُ من الهجوم على عذارى المعاني المحمية بحجب الخواطر، وما ذلك مما يلقيه إليك الأستاذ، وليس يقوم به إلا الفذ ولا أقول الأفذاذ، وأين الذي ينشىء فيحسن فيها الإنشاء، ويبرز فيها صُوَراً يركبها كيف يشاء؟ ومن نظر إلى هذا الموضع حق النظر، وأخذ فيه بالعين دون الأثر، عَلِمَ أنه مقام يزلق بمعارف الأفهام، فكيف بمواقف الأقدام، وليست المعاني فيه إلا كالأرواح، ولا الألفاظ إلا كالأجسام، فمن شاء أن يخلق خلقاً من الكلام فليأت به على صورة الأناسيّ لا على صورة الأنعام، فإن من القول الغانية التي هي أحسن من الغانية، ومنه البهيمة التي لا تشبه إلا بالسانية.

فمما جاء في هذا الباب قول أبي نواس[1]:

(١) لم أجد هذين البيتين في باب الهجاء من ديوان أبي نواس.

شَرَابُكَ فِي السَّرَابِ إِذَا عَطِشْنَا وَخُبْزُكَ عِنْدَ مُنْقَطَعِ التُّرَابِ
وَمَا رَوَّحْتَنَا لِتَذُبَّ عَنَّا وَلٰكِنْ خِفْتَ مَرْزِئَةَ الذُّبَابِ

فالبيت الثاني من هذين البيتين هو المشار إليه بأنه معنى مبتدع، ويُحْكَى عن الرشيد هٰرون رحمه الله أنه قال: لم يُهْجَ بادٍ ولا حاضر بمثل هذا الهجاء.

ومن هذا الباب قول مسلم بن الوليد(١):

تَنَالُ بِالرِّفْقِ مَا تَعْيَا الرِّجَالُ بِهِ كَالْمَوْتِ مُسْتَعْجِلاً يأتِي عَلَى مَهْلِ

ومن هذا الباب قول علي بن جبلة:

تَكَفَّلَ سَاكِنَ الدُّنْيَا حُمَيْدٌ فَقَدْ أَضْحَتْ لَهُ الدُّنْيَا عِيَالاَ
كَأَنَّ أَبَاهُ آدَمَ كَانَ أَوْصَى إِلَيْهِ أَنْ يَعُولَهُمُ فَعَالاً

وهذا معنى دَنْدَن حوله الشعراء، وفاز علي بن جبلة بالإفصاح عنه.

وقد قيل: إن أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعاً للمعاني، وقد عُدَّت معانيهِ المبتدعة فوجدت ما يزيد على عشرين معنى.

وأهل هذه الصناعة يكبرون ذلك، وما هذا من مثل أبي تمام بكبير؛ فإني أنا عددت مَعَانِيَّ المبتدعة التي وردت في مكاتباتي فوجدتها أكثر من هذه العدة، وهي مما لا أنازع فيه، ولا أدافع عنه؛ فأما ما ورد لأبي تمام فمن ذلك قوله(٢):

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن مزيد الشيباني، وأولها قوله:

أَجْرَرْتُ حَبْلَ خَلِيعٍ فِي ٱلْهَوَى غَزِلِ وَشَمَّرَتْ هِمَمُ الْعُذَّالِ فِي الْعَذَلِ

(٢) البيتان من أربعة أبيات يعاتب فيها أبا دلف العجلي، واللذان قبلهما قوله:

صَبْراً عَلَى المَطْلِ مَا لَمْ يَتْلُهُ الكَذِبُ فَلِلْخُطُوبِ إِذَا سَامَحْتَهَا عَقِبُ
عَلَى الْمَقَادِيرِ لَوْمٌ إِنْ مُنِيتُ بِهِ مِنْ عَاذِلٍ وَعَلَيَّ السَّعْيُ وَالطَّلَبُ

وانظر الديوان (ص ٢٢ بيروت).

يـاأيُّهَـا الْمَلِكُ النَّـائِي بِـرُؤْيَتِـهِ وَجُـودُهُ لِـمُـراعِي جُـودِهِ كَـثَبُ
لَيْسَ الْحِجَابُ بِمُقْصٍ عَنْكَ لِي أَمَلاً إنَّ السَّمَـاءَ تُـرَجَّي حِينَ تَحْتَجِبُ

وكذلـك قولـه[1]:

رَأَيْنَـا الْجُـودَ فِيـكَ وَمَـا عَـرَضْنَـا لِسَجْـلٍ مِـنْـهُ بَعْـدُ وَلاَ ذَنُـوبِ
وَلٰـكِنْ دَارَةُ الْـقَـمَـرِ اسْـتَـتَـمَّـتْ فَـدَلَّـتْـنَـا عَـلَى مَـطَرٍ قَـرِيـبِ

وكذلك قوله في الهجاء[2]:

وَأَنْتَ تُـدِيـرُ قُـطْبَ رَحـاً عَلِيًّـا وَلَمْ نَـرَ لِلرَّحَـا الْعَلْيَـاءِ قُـطْبَـا
تَـرَى ظَفـراً بِكُـلِّ صِـرَاعِ قِـرْنٍ إذَا مَـا كُنْتَ أَسْفَـلَ مِنْـهُ جَنْبَـا[3]

وكذلـك قولـه[4]:

وَإِذَا أَرَادَ الـلَّهُ نَـشْـرَ فَـضِـيـلَةٍ طُـوِيَتْ أَتَـاحَ لَهَـا لِسَـانَ حَسُـودِ
لَـوْلاَ اشْتِعَـالُ النَّـارِ فِيمـا جَـاوَرَتْ مَـا كَانَ يُعْـرَفُ طِيبُ عَـرْفِ الْعُـودِ

وكذلـك قولـه[5]:

لاَ تُنْكِـرُوا ضَـرْبِي لَـهُ مَنْ دُونَـهُ مَثَـلاً شَـرُوداً في النَّـدَى وَالْبَـاسِ

---

(١) لم أجد هذين البيتين في ديوان أبي تمام.

(٢) من كلمة له يهجو فيها عتبة بن أبي عاصم، وأولها قوله:

أعُـتْبَـةُ أَجْـبَـنَ الـثَّـقَـلَيْـنِ عُـتْـبَـا بِجَهْـلِكَ صِـرْتَ لِلْمَـكْـرُوهِ نُصْـبَـا

(٣) في أ، ب، ج «ترى قطر بكل صراع قرن» وما أثبتناه عن الديوان (ص ٤٨٦ بيروت).

(٤) من قصيدة له يمدح فيها أبا عبدالله أحمد بن أبي داود، وأولها قوله:

أَرَأَيْـتَ أَيَّ سَـوَالِـفٍ وَخُـدُودِ عَـنَّـتْ لَـنَـا بَـيْـنَ الـلِّوَى فَـزَرُودِ

(٥) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن المعتصم، وأولها قوله:

مَـا فِي وُقُـوفِـكَ سَـاعَـةً مِنْ بَـأسِ نَـقْـضِـي ذِمَـامَ الأَرْبُـعِ الأَدْرَاسِ

فَــاللَّهُ قَـدْ ضَــرَبَ الأَقَـلَّ لِنُــورِهِ مَثَــلاً مِنَ الْمِشْكَــاةِ وَالنِّبْــرَاسِ

وكذلـك قولـه(١):

لاَ تُنْكِرِي عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى فَـالسَّيْـلُ حَـرْبٌ لِلْمَكَـانِ الْعَــالِي

وكذلك له في الشيب(٢):

شُعْلَةٌ فِي الْمَغَــارِقِ اسْتَــوْدَعَتْنِي فِي صَمِيمِ الْفُــؤَادِ ثُكْـلاً صَمِيمَــا
يَسْتَثِيــرُ الْهُمُــومَ مَــا اكْتَنَّ مِنْهَــا صُعُــداً وَهْيَ تَسْتَثِيــرُ الْهُمُــومَــا

فالبيت الثاني من المعاني المخترعة، وقد تفقه فيه فجعله مسألة من مسائل الدور، وهذا من إغراب أبي تمام المعروف.

وهذا القدر كاف من جملة معانيه؛ فإنا لم نستقصها ههنا.

ومن هذا الباب قول ابن الرومي(٣):

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن رجاء، وأولها قوله:

يَـكْفِـي وَغَــاكَ فَــإِنَّنِـي لَـكَ قَــالِ لَـيْسَـتْ هَــوَادِي عَـزْمَـتِي بِـتَــوَالِ

انظر الديوان (ص ٢٤٦ بيروت).

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد، وأولها قوله:

إِنَّ عَـهْــداً لَــوْ تَعْـلَمَــانِ عَــظِيـمَــا أَنْ تَـنَــامَــا عَنْ لَـيْـلَتِي أَوْ تُـنِـيـمَــا

انظر الديوان (ص ٢٩٠ بيروت).

(٣) البيتان من أربعة أبيات في الديوان (ص ٩٧ ج ١) وبعدهما قوله:

غَيْــرِي فَــإِنِّي لاَ أُطِيــلُ مَــدَائِحِي إِلاَّ لأُوفِــيَ مَــنْ مَــدَحْــتُ ثَــنَــاءَهُ
وَأَعُــدُّ ظُــلْـمــاً أَنْ أُقِــلَّ مَــدِيـحَــهُ عَــمْــداً، وَأَسْـخَطُ أَنْ أُقِــلَّ عَــطَاءَهُ

وهذا المعنى مما كثر في شعر ابن الرومي؛ فمن ذلك قوله في إسماعيل بن بلبل:

أَتَيْتُـكَ لَمْ أَشْفَـعْ إِلَيْـكَ بِشَــافِـعٍ وَلَــوْ شِئْتُ كَـانَ النَّــاسُ لِي شُفَعَــاءَ =

كُـلُّ امْـرِىءٍ مَـدَحَ امـرأً لِنَـوالِـهِ ... وَأَطَـالَ فِيـهِ فَقَـدْ أَسَـاءَ هِجَـاءَهُ
لَـوْ لَمْ يُقَـدِّرْ فيـهِ بُعْـدَ الْمُسْتَقى ... عِنْـدَ الْـوُرُودِ لَمَـا أَطَـالَ رِشَـاءَهُ

وكذلـك قولـه[1]:

عَـدُوُّكَ مِنْ صَـدِيقِـكَ مُسْتَفَـادُ ... فَـلاَ تَسْتَكْثِـرَنَّ مِـنَ الصِّحَـابِ
فَـإِنَّ الـدَّاءَ أَكْـثَـرُ مَـا تَـرَاهُ ... يَكُـونُ مِنَ الطَّعَـامِ أَوِ الشَّرَابِ

وكذلـك قولـه:

لِمَـا تُؤْذِنُ الـدُّنْيَا بِـهِ مِنْ صُـرُوفِهَـا ... يَكُـونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَـاعَةَ يُـولَـدُ
وَإِلاَّ فَمَـا يُبْكِيـهِ مِنْهَـا وَإِنَّـهُ ... لأَوْسَـعُ مِمَّـا كَـانَ فِيـهِ وَأَرْغَـدُ
إِذَا أَبْصَـرَ الـدُّنْيَـا اسْتَهَـلَّ كَـأَنَّـهُ ... بِمَـا هُـوَ لاَقٍ مِنْ أَذَاهَـا يُـهَـدَّدُ

= وَلٰكِنَّنِي وَفَّـرْتُ حَـمْـدِي بِـأَسْـرِهِ ... عَلَيْـكَ وَلَمْ أُشْـرِكْ بِـهِ الشُّـرَكَـاءَ
نَـدَاكَ مَعِينٌ كَـالَّـذِي قَـدْ عَلِمتـه ... وَلَـوْ كَـانَ غَـوْراً لاَلْتَمَسْتُ رِشَـاءَ
وَهٰـذا شِـتَـاءٌ قَـدْ أَظَـلَّ رِوَاقُـهُ ... وَجَـارُكَ جَـارٌ لاَ يَـخَـافُ شِـتَـاءَ

وكقوله يعتذر إلى صاعد من طول قصيدته:

لَـمْ أُطِـلْهَـا كَـمَـا أَطَـالَ رِشَـاءً ... مَـاتِـحٌ سَـاءَ ظَـنُّـهُ بِـقَـلِيـبِ
حَـاشَ لِـلَّهِ! لَـيْسَ مِـثْـلِي تَـظَنَّـى ... ظَـنَّ سُـوءٍ بِمُسْتَـقَـاكَ الْقَـرِيـبِ
غَـيْـرَ أَنِّـي آمْـرُؤٌ وَجَـدْتُ مَـقَـالاً ... مُـسْتَـتِـبًّـا فِـي كُـلِّ قَـرْمٍ نَـجِـيـبِ
فَـأَطَلْتُ المَـدِيـحَ مَـا طَـالَ فِيهِمْ ... مَـعَ أَنِّـي قَـصَّـرْتُ غَـيْـرَ مَـعِـيـبِ

(١) البيتان أول كلمة له في الحث على مجانبة الناس (انظر الديوان: ١ ـ ٣١٣). وبعدهما قوله:

إِذَا آنْـقَلَبَ الـصَّـدِيـقُ غَـدَا عَـدُوًّا ... مُـبِـيـنـاً وَالأُمُـورُ إِلَـى آنْـقِـلاَبِ
وَلَـوح كَـانَ الْكَثِيـرُ يَـطِيبُ كَـانَتْ ... مُـصَـاحَـبَـةُ الْكَثِيـرِ مِنَ الـصَّـوَابِ

وكذلك قوله:

رَدَدْتَ عَلَيَّ مَدْحِي بَعْدَ مَطْلٍ وَقَدْ دَنَسْتَ مَلْبَسَهُ الْجَدِيدَا
وقُلْتَ امْدَحْ بِهِ مَنْ شِئْتَ غَيْرِي وَمَنْ ذَا يَقْبَلُ الْمَدْح الرَّدِيدَا
وَهَلْ لِلْحَيِّ فِي أَكْفَانِ مَيْتٍ لَبُوسُ بَعْدَمَا امْتَلأَتْ صَدِيدَا

وقد ورد لأبي الطيب المتنبي من ذلك كقوله[١]:

أَجِزْنِي إِذَا أُنْشِدْتَ مَدْحاً فَإِنَّمَا بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدَّدَا
وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ بَعْدَ صَوْتِي فَإِنَّنِي أَنَا الصَّائِحُ الْمَحْكِيُّ وَالْآخَرُ الصَّدَى

فالبيت الأول قد توارد على معناه الشعراء قديماً وحديثاً، لكن البيت الثاني في التمثيل الذي مثله ليس لأحد إلا له.

وكذلك قوله[٢]:

بِهَجْرِ سُيُوفِكَ أَغْمَادَهَا تَمَنَّى الطُّلَى أَنْ تَكُونَ الْغُمُودَا[٣]
إِلَى الْهَامِ تَصْدُرُ عَنْ مِثْلِهِ تَرَى صَدَراً عَنْ وُرُودٍ وُرُودَا[٤]

---

(١) البيتان من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ويهنئه بعيد الأضحى، وأولها قوله:

لِكُلِّ آمْرِىءٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا وَعادَاتُ سَيْفِ آلدَّوْلَةِ الطَّعْنُ في الْعِدَى

(٢) البيتان من قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار الأسدي، وأولها قوله:

أَحُلْماً نَرَى أَمْ زَمَاناً جَدِيداً أَمِ آلخَلْقُ فِي شَخْصِ حَي أُعِيدَا

(٣) تمنى: أصله تتمنى. فحذف إحدى التاءين، والطلى: الأعناق، والغمود: جمع غمد، وهو قراب السيف.

(٤) الهام: اسم جنس جمعي، واحده هامةً، وهي الرأس، والصدر: الخروج من الماء بعد الري، والورود: الدخول إلى الماء للشرب منه.

وكذلك قوله في بدر بن عمار يهنيه ببرئه من مرض[١]:

قُصِـدْتَ مِنْ شَـرْقِهَـا وَمَغْـرِبِهَـا حَتَّى اشْتَكَتْـكَ الـرِّكَـابُ وَالسُّبُـلُ
لَـمْ تُبْـقِ إِلاَّ قَـلِيـلَ عَـافِـيَـةٍ قَـدْ وَفَـدَتْ تَجْتَـدِيكَهَـا الْعِلَلُ

وقد وقفت على ما شاء الله من أشعار الفحول من الشعراء قديماً وحديثاً فلم أجد لأحد منهم في ذكر المرض ما يعدّ معنًى مخترعًا، لا، بل لم أجد من أقوالهم شيئاً مرضياً، ما عدا المتنبي؛ فإنه ذكر المرضَ في عدة مواضع من شعره فأجاد، وهذا البيت الثاني من هذين البيتين معنًى مخترع له؛ وقد أحسن فيه كل الإحسان.

ومما ابتدعه بإجماعٍ قولُه في مدح عَضُد الدولة في قصيدته النونية التي مطلعها:

مَغَـانِي الشِّعْبِ طيبـاً في المَغَـانِـي[٢]

قال عند ذكره:

فَعَـاشَـا عِيْشَـةَ الْقَمَـرَيْنِ يُحْيَـا بِـضَـوْئِهِـمَـا وَلاَ يَتَـحَـاسَـدَانِ
وَلاَ مَلَكَـا سِـوَى مُلْكِ الأَعَـادِي وَلاَ وَرِثَـا سِـوَى مَـنْ يَقْـتُـلاَنِ
وَكَـانَ ابْـنَـا عَـدُوٍّ كَـاثَـرَاهُ لَـهُ يَـاءَيْ حُـرُوفِ أُنَيْسِيَـانِ

أي: جعل الله ابني عدو كاثَراه يعني ابني عضد الدولة كياءي حروف تصغير إنسان؛ فإن ذلك زيادة، وهو نقص في المقدار، إلا أن سبك هذا البيت قد شَوَّهه وأذهب طلاوة المعنى المندرج تحته.

---

(١) البيتان من قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار، وأولها قوله:

أَبْعَـدُ نَـأيِ المَلِيحَـةِ الْبَخَـلُ في الْبُـعْـدِ مَـا لاَ تُكَـلَّفُ الإِبِـلُ

(٢) هذا صدر المطلع، وعجزه قوله:

بِـمَـنْـزِلَـةِ الـرَّبِـيـعِ مِـنَ الـزَّمَـانِ

ومن معانيه المبتدعة قوله(١):

فَـإنْ تَـفُقِ الأَنَـامَ وَأَنْـتَ مِـنْـهُـمْ ... فَـإنَّ الْمِسْـكَ بَعْضُ دَمِ الْغَـزَالِ

وأحسن من ذلك قوله(٢):

صَـدَمْتَهُمْ بِخَمِيسٍ أنْتَ غُـرَّتُـهُ ... وَسَمْهَـرِيَّتُـهُ فِي وَجْهِـهِ غَمَـمُ

فَكَـانَ أثْبَتَ مَـا فِيهِمْ جُسُـومُهُمُ ... يَسْقُـطْنَ حَـوْلَـكَ وَالأَرْوَاحُ تَنْهَـزِمُ

وهذا من أعاجيب أبي الطيب التي بَرَّز فيها على الشعراء.

ومن الإحسان في هذا الباب قول بعضهم:

وَقَدْ أشُقُّ الْحِجَابَ الصَّعْبَ مَأْرَبُهُ ... دُونِي وَآبَى وَلُـوجاً فِيـهِ إنْ طُرِقَـا(٣)

كالطَّيْفِ يَأبَى دُخُولَ الْجَفْنِ مُنْفَتِحاً ... وَلَـيْسَ يَـدْخُـلُهُ إلَّا إذَا انْـطَبَقَـا

ورأيت ابن حمدون البغدادي صاحب كتاب التذكرة قد أورد هٰذين البيتين في كتابه، وقال: قد أغرب هذا الشاعر، ولكنه خلط وجرى على عادة الشعراء؛ لأن

---

(١) البيت آخر قصيدة له يرثي فيها والدة سيف الدولة، وأولها قوله:

نُـعِـدُّ المَـشْـرَفِيَّـةَ وَالْـعَـوَالِي ... وَتَـقْتُـلُنَـا المَنُـونُ بِـلاَ قِتَـالِ

وقبل البيت الذي أنشده المؤلف قوله:

وَحَـالاَتُ الـزَّمَـانِ عَـلَيْـكَ شَتَّـى ... وَحَـالُـكَ وَاحِـدٌ فِي كُـلِّ حَـالِ

فَـلاَ غِيضَتْ بِحَـارُكَ يَـا جَمُـومـاً ... عَـلَى عَلَلِ الْـغَـرَائِـبِ وَالـدِّخَـالِ

رَأيْتُـكَ فِـي الَّـذِيـنَ أَرَى مُلُوكـاً ... كَـأنَّـكَ مُـسْتَقِـيمٌ فِي مُـحَـالِ

(٢) البيتان من قصيدة له هي آخر ما قاله بحضرة سيف الدولة، وأولها قوله:

عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْـوَغَى نَـدَمُ ... مَـاذا يَـزِيـدُكَ فِي إقْـدَامِـكَ الْقَسَمُ

(٣) في أ، ب، ج «الصعب ماذيه» وهو تحريف.

الطيف لا يدخل الجفن، وإنما يتخيل إلى النفس؛ وهذا كلام من لم يَطْعَمْ من شجرة الفصاحة والبلاغة، وليس مثله عندي إلا كما يحكى عن ملك الروم إذ أنشد عنده بيت المتنبي الذي هو[1]:

كـأنَّ الْعِيسَ كَـانَتْ فَـوْقَ جَفْنِي ... مُـنَـاخَـاةً فَـلَمَّـا ثُـرْنَ سَـالاَ

فسأل عن المعنى ففسر له، فقال: ما سمعت بأعذب من هذا الشاعر: أرأيت من أناخ الجمل على عينه لا يهلكه.

ومن محاسن هذا القسم قول بعضهم:

تَـخَـيَّـرَهُ الـلَّهُ مِـنْ آدمٍ ... فَـمَـا زَالَ مُنْـحَـدِراً يَـرْتَقِي

وكذلك قول الآخر:

بِـأَبِي غَـزَالٌ غَـازَلَتْـهُ مُـقْلَتِي ... بَيْنَ الْغُـوَيْـرِ وَبَيْنَ شَـطَّيْ بَـارِقِ
عَـاطَيْتُـهُ وَاللَّيْـلُ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ ... صَهْبَاءَ كَـالْمِسْـكِ الْفَتِيقِ لِنَـاشِقِ
وَضَمَمْتُـهُ ضَمَّ الْكَمِيِّ لِسَيْفِـهِ ... وَذُؤَابَتَـاهُ حَمَـائِـلٌ فِي عَـاتِقِـي
حتَّى إذَا مَـالَتْ بِـهِ سِنَـةُ الْكَرَى ... زَحْـزَحْتُـهُ شَيْئـاً وَكَـانَ مُعَـانِقِي
أَبْعَـدْتُـهُ عَنْ أَضْـلُعٍ تَشْـتَـاقُـهُ ... كَيْ لاَ يَنَـامَ عَـلَى وَسَـادٍ خَـافِقِ

وهذا من الحسن والملاحة بالمكان الأقصى، ولقد خَفَّت معانيه على القلوب حتى كادت ترقص رقصاً، والبيت الأخير منه هو الموصوف بالإبداع، وبه وبأمثاله أقرَّت الأبصار بفضل الأسماع.

ومن هذا الضرب قولُ بعض المصريين يهجو إنساناً يقال له ابن طليل احترقت داره:

---

(١) البيت من قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار، وأولها قوله:

بَـقَـائِي شَـاءَ لَيْسَ هُـمُ ارْتِحَـالاَ ... وَحُسْنَ الـصَّبْـرِ زَمُّـوا لاَ الْـجِمَـالاَ

انْـظُرْ إِلَى الأَيَّامِ كَيْفَ تَسُـوقُنَا   طَـوْعـاً إِلَى الإِقْـرَارِ بِـالأَقْـدَارِ
مَـا أَوْقَـدَ ابْنُ طُلَيْـلٍ قَطُّ بِـدَارِهِ   نَـاراً وَكَـانَ هَـلاَكُهَـا بِـالنَّـارِ

وكذلك ورد قول ابن قلاقس من شعراء مصر:

زِدْ رِفْـعَـةً إِنْ قِـيـلَ أَنْـغـ - ـضَ وَانْخَفِضْ إِنْ قِيلَ أَثْرَى
كَـالغُصْنِ يَـدْنُـو مَـا اكْتَسَى   ثَـمَـراً وَيَنْـأَى مَـا تَـعَـرَّى

وهذا من المعاني الدقيقة.

ومن هذا الأسلوب قول الشاعر المعروف بالحافظ في تشبيه البهار، وهو:

عُـيُـونُ تِبْـرٍ كَـأَنَّـمَـا سَـرَقَـتْ   سَـوَادَ أَحْـدَاقِـهَـا مِنَ الْـغَـسَـقِ
فَـإِنْ دَجَـا لَـيْـلُهَـا بِـظُلْمَـتِـهِ   ضَمَمْنَ مِنْ خَوْفِهَا عَلَى السَّـرَقِ

وهذا تشبيه بديع لم يسمع بمثله، وهو من اللطافة على ما لا خفاء به.

ومن هذا القسم قول بعض المتأخرين من أهل زماننا:

لاَ تَضَعْ مِنْ عَظِيمِ قَـدْرٍ وَإِنْ كُنْـ - ـتَ مُشَـاراً إِلَيْـهِ بِـالتَّعْـظِيمِ
فَـالشَّـرِيْفُ الْعَـظِيمُ يَنْقُصُ قَـدْراً   بِـالتَّعَدِّي عَلَى الشَّرِيفِ الْعَظِيمِ
وَلَـعُ الْخَمْرِ بِـالْعُقُـولِ رَمَى الْخَمْـ - ـرِ بِتَنْجِيسِهَـا وَبِـالتَّحْـرِيمِ

ومن غريب ما سمعته في هذا الباب قول بعض الشعراء المغاربة يرثي قتيلاً:

غَـدَرَتْ بِـهِ زُرْقُ الأَسِنَّـةِ بَعْـدَمَـا   قَـدْ كُنَّ طَـوْعَ يَمِينِـهِ وَشِمَـالِـهِ
فَلْيَحْـذَرِ الْبَـدْرُ المُنِيـرُ نُجُـومَـهُ   إِذْ بَـانَ غَـدْرُ مِثَـالِهَـا بِمِثَـالِـهِ

وكذلك جاء قول بعض المغاربة في الخمر وكاساتها:

ثَقُلَتْ زُجَـاجَـاتٌ أَتَتْنَـا فُـرَّغـاً   حَتَّى إِذَا مُلِئَتْ بِصَـرْفِ الـرَّاحِ
خَفَّتْ فَكَـادَتْ أَنْ تَطِيـرَ بِمَا حَـوَتْ   وَكَـذَا الْجُسُـومُ تَخِفُّ بِـالأَرْوَاحِ

وهذا معنى مبتدع أشهد أنه يفعل بالعقول فعل الخمر سكراً، ويـروق كما رقت لطفاً، ويفوح كما فاحت نشراً.

وكذلك ورد قول ابن حَمْديس الصقلي:

يَـا سَـالِبـاً قَمَـرَ السَّمَـاءِ جَمَـالَـهُ ... أَلْبَسْتَنِي لِلْحُـزْنِ ثَـوْبَ سَمَـائِـهِ
أَضْـرَمْتَ قَلْبِي فَـارْتَمَى بِشَـرَارَةٍ ... وَقَعَتْ بِخَـدِّكَ فَـانْطَفَتْ مِنْ مَـائِـهِ

وهذا المعنى دقيق جداً.

وقد سمعت في الخال ما شاء الله أن أسمع، فلم أُجد مثل هذا.

وقد جاءني في الكلام المنثور من هذا الضرب شيء، وسأذكر ههنا منه نبذة.

فمن ذلك ما ذكرته في وصف صورة مليحة، فقلت: ألبس من الحسن أنضر لباس، وخلق من طينة غير طينة الناس، وكما زاد حسناً فكذلك ازداد طيباً، واتفقت فيه الأهواء حتى صار إلى كل قلب حبيباً، فلو صافح الورد لتعطرت أوراقه، أو مر على النَّيْلوفر ليلاً لتفتحت أحداقه.

والمعنى الغريب ههنا أن الشمس إذا طلعت على النيلوفر تفتَّح أوراقه، وإذا غربت عنه انضم، ثم إني سمعت هذا في شعر الفرس لبعض شعرائهم، فحصل عندي منه تعجب.

ومن ذلك ما ذكرته في ذم الشيب، فقلت: الشيب إعدام للإيسار، وظَلاَم للأنوار؛ وهو الموت الأول الذي يصلى ناراً من الهم أشد وقوداً من النار، ولئن قال قوم إنه جَلاَلة فإنهم دَقّوا به وما جَلّوا، وأفْتَوا في وصفه بغير علم فَضَلُّوا وأَضَلّوا، وما أَرَاه إلا محراثاً للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار قوم إلا ذَلّوا، ومن عجيب شأنه أنه المملول الذي يشفق من بُعْدِهِ، والخلق الذي يكره نزع برده، ولما فقد الشباب كان عنه عوضاً ولا عوض عنه في فقده.

والمعنى المخترع ههنا في قولي: «وما أُرَاهُ إلا محراثاً للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار قوم إلا ذلوا» وهو مستنبط من الحديث النبوي، وذاك أن النبي ﷺ رأى

آلة حرث فقال: «ما دَخَلَتْ هٰذِهِ دَارَ قَوْمٍ إلاَّ ذَلُّوا» فأخذت أنا هذا ونقلته إلى الشيب، فجاء كما تراه في أعلى درجات الحسن، وذلك لما بينه وبين الشيب من المناسبة الشبيهة؛ لأن الشيب يفعل في البدن ما يفعله المحراث في الأرض، وإذا نزل بالإنسان أحدث عنه ذلاً.

ومن هذا الباب ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الناس أعبث به، فقلت: وإذا كتبتُ مَثَالبه في كتاب اجتمع عليه بنات وردان، وحرم على أن أبدأ فيه بالبسملة لأنها من القرآن.

وهذا معنى لطيف في غاية اللطافة، وهو مخترع لي.

وكذلك كتبت إلى بعض الناس كتاباً من هذا الجنس أهزل معه، فقلت في فصل منه ما أذكره، وهو: ينبغي له أن يشكرني على وَسْمِه بهجائي دون امتداحي، فإني لم أسمه إلا لتحرم به الأضحية في يوم الأضاحي، ولا شك أن سيدنا معدود في جملة الأنعام، غير أنه من ذوات القرون والقرن عدوه عند الخصام.

وهذا معنى ابتدعته ابتداعاً، ولم أسمعه لأحد من قبلي.

ومن ذلك ما ذكرته في جملة كتاب يتضمن هزيمة الكفار، وذلك فصل منه، فقلت: وكانت الوقعة يوم الأحد منتصف شهر كذا وكذا، وهذا هو اليوم الذي تخيره الكفار من أيام الأسبوع، ونصبوه موسماً لشرع كفرهم المشروع، فحصل ارتيابهم به إذ تضمَّن للإسلام مزيداً، وقالوا: هذا يوم قد أسلم فلا نجعله لنا عيداً، وقد أفصح لهم لسانه لو كانوا يعلمون، بأن الدين عند الله هو الإسلام وأن أولياءه هم المسلمون.

وهذا معنى انفردت بابتداعه، ولم يأت به أحد ممن تقدمني.

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة ببغداد، وهو في وصف القلم، ففلت: وقَلَمُ الديوان العزيز هو الذي يخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، وهو المطاع لِجَدْعِ أنفه وسواد لباسه وقد ورد الأمر بطاعة الحبشي الأجدع، ومن أحسن صفاته أن شِعَارِه من شعار مولاه، فهو يخلع على عبيده من الكرامة ما يخلع.

في هذه الأوصاف معانٍ حسنة لطيفة، ومنها معنى غريب لم أسبق إليه، وهو قولي: «إنه المطاع لجدع أنفه وسواد لباسه وقد ورد الأمر بطاعة الحبشي الأجدع» فإن هذا مما ابتكرته، وهو مستخرج من الحديث النبوي في ذكر الطاعة والجماعة، فقال ﷺ: «أطِعْ وَلَوْ عَبْداً حَبَشِيًّا مُجَدَّعاً مَا أَقَامَ عَلَيْكَ كِتَابَ اللَّهِ» فاستخرجت أنا للقلم معنى من ذلك، وهو أن القلم يجدع ويقمص لباس السواد فصار حبشياً أجدع، وهذا كما فعل أبو تمام حبيب بن أوس الطائي في قصيدته السينية، فإنه استخرج المعنى المخترع من القرآن الكريم، وأنا استخرجت المعنى من الخبر النبوي كما أريتك، وهذا المعنى المشار إليه في وصف القلم أوردته بعبارة أخرى على وجه آخر ونبهت عليه في كتاب «الوشي المرقوم في حل المنظوم» وهذا كتاب ألفته في صناعة حل الشعر وغيره.

وبعد هذا فسأقول لك في هذا الموضع قولاً لم يقله أحد غيري، وهو أن المعاني المبتدعة شبيهة بمسائل الحساب المجهول من الجبر والمقابلة، فكما أنك إذا وردت عليك مسألة من المجهولات تأخذها وتقلبها ظهراً لبطن، وتنظر إلى أوائلها وأواخرها، وتعتبر أطرافها وأوساطها، وعند ذلك تخرج بك الفكرة إلى معلوم؛ فكذلك إذا ورد عليك معنًى من المعاني ينبغي لك أن تنظرفيه كنظرك في المجهولات الحسابية، إلا أن هذا لا يقع في كل معنى؛ فإن أكثر المعاني قد طرق وسبق إليه، والإبداع إنما يقع في معنى غريب لم يطرق، ولا يكوَن ذلك إلا في أمر غريب لم يأت مثله، وحينئذ إذا كتب فيه كتاب أو نظم فيه شعر فإن الكاتب والشاعر يعثران على مظنة الإبداع فيه، وقد لَابَسْتُ ذلك في مواضع كثيرة وسأورد ههنا ما يُحْذَى حذوه لمن استطاع إليه سبيلاً.

ومن ذلك ما كتبته عن نفسي إلى بعض ملوك الشام، وأهديت إليه رطباً، وهو: خَلَّدَ الله دولة مولانا، وعَمَرَ لها مجداً وجناناً، وخَوّلها السعادة عطاء حساباً، وأنشأ الليالي لخدمتها عُرُباً أتْرَاباً، وأبقى شبيهتها بقاءً لا يستحدث معه خِضَاباً، ولا جَعَلَ لها في محاسن الدول السابقة أشباهاً ولا أَضْرَاباً، وألقى البأسَ بين أعدائِها وحسادها حتى يبعث لهم في الأرض غراباً، إذا أراد العبيد أن يُهْدُوا لمواليهم قَصّرت بهم يَدُ وُجْدِهِم، وعلموا أن كل ما عندهم من عندهم، لكن في الأشياء

المستطرفة ما يهدي وإن كان قدره خفيفاً، ولولا اختلاف البلاد فيما يوجد بها لما كان شيء من الأشياء طريفاً، وقد أهدى المملوكُ من الرطب ما يتجلّى في صفة الوارس، ويُزْهَى بحسنه حتى كأنه لم يُدَنَّسْ بيد لامس، وما سمي رطباً إلا لاشتقاقه من الرطب الذي هو ضد اليابس، وقد أثنى رسول الله ﷺ عليه ثناء جماً، وفَضَّلَ شجرته على الشجر بأن سَمَّاها أمّاً، ولئن عدم عَرْفاً لذيذاً فإنه لم يعد منظراً لذيذاً ولا طعماً، وله أوصاف أخرى هي لفضله بمنزلة الشهود، فمنها أنه أول غذاء يفطر عليه الصائِم وأول غذاء يدخل بطن المولود، وأحسن من ذلك أنه معدود من الحلواء وإن كان من ذوات الغراس، ولا فرق بينهما سوى أنه من خلق الله وتلك من خلق الناس، وإذا أنصف واصفه قال: ما من ثمرة إلا وهي عنه قاصرة، ولو تفاخرت البلاد بمحاسن ثمارها لقامت أرض العراق به فاخرة، وها قد سار إلى باب مولانا وهو مجني المنابت سار إلى مجني الكرم، وملك الفاكهة وفد على ملك الشِّيَم، ولما استقلّت به الطريق أنشأ الحسد لغيره من الفواكه أرباً، وما منها إلا من قال: يا ليتني كنت رطباً، ولئن كان من الثمرات التي تختلف في الصور والأسماء، ويفضل بعضها على بعض ويسقي بشراب واحد من الماء، فكذلك تلك الشيم العريقة تتحد في عنصرها وهي مختلفة الوتيرة، ومن أفضلها شيمةُ السماح التي تَقْبَلُ القليلَ من عبيدها، وتسمَحُ لهم بالعطايا الكثيرة، وقد ضرب لها المملوك مثالاً فقال هي: كجنَّة برَبْوَة، بل ضرب لها ما ضرب للمثل النبوي، وهي نخلة بكبوة، ولا يختم كتابه بأحسن من هذا القول الذي طاب سمعاً، وزكا أصلاً وفرعاً، وتصرف في أساليب البلاغة فجاء به وتراً وشفعاً؛ والسلام.

وهذا كتاب غريب في معناه، وقد اشتمل على معان كثيرة؛ فمن جملتها أن الرطب مشتق من الرطب الذي هو ضد اليابس، ومن جملتها أن النبي ﷺ سمى النخلة أماً فقال: «أمكم النخلة»، ومن جملتها أنه كان ﷺ يفطر على رُطَبات فإن لم يجد فتمرات، ومن جملتها أنه كان يَلُوك التمرةَ ويُحَنِّكُ بها المولود عند ميلاده، ولما ولد عبدالله بن الزبير جاءت أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنه ووضعته في حجر رسول الله ﷺ فلاك تمرة ووضعها في فيه، ومن جملتها أنه والحلواء شيء واحد، إلا أنه من خلق الله وتلك من خلق الناس، ومن جملتها أن

العباس رضي الله عنه قال: يا رسول الله؛ إن قريشاً تذاكرت أحسابها فضربوا لك مثالاً بنخلة بكبوة، وكل هذه المعاني حسنة واردة في موضعها، ومن كتب في معنى من المعاني حسنة واردة في موضعها، ومن كتب في معنى من المعاني فليكتبه هكذا، وإلاّ فَلْيَدَعْ.

ومن ذلك رقعة كتبتها إلى بعض حُجّاب السلطان في حاجة عرضت لي، وأرسلت معها هدية من ثياب ودراهم، وهي:

مَا مِنْ صَدِيقٍ وَإِنْ صَحَّتْ صَدَاقَتُهُ ... يَوْماً بِأَنْجَحَ فِي الْحَاجَاتِ مِنْ طَبَقِ
إِذَا تَلَثَّمَ بِالْمِنْدِيلِ مُنْطَلِقاً ... لَمْ يَخْشَ نَبْوَةَ بَوَّابٍ وَلاَ غَلَقِ

الهديَّةُ مشتقة من الهُدَى، غير أنها ترفّ إلى القلب لا إلى الندى، وصهارتها أنفع من الصهارة، وكلما تردَّدت كانت بكراً فهي لا تنفك عن البكارة، ومن خصائصها أنها تمسك بمعروف أَمِنَ من السراح، وإذا رامت فتح باب لا تفتقر في علاجه إلى مفتاح، وقد قيل: إنها الحسناء المتأنقة في عمارة بيتها، التي توصَفُ بأن القِنْدِيل يضيء بزيْتها، وقد أرسلتها إلى المولى وهي تَتهادى في إعجابها، وتُدِلُّ بكثرة دراهمها وثيابها، وتقول: أنا الكريمة في قومها الشريفة في أنسابها، وأحسن ما فيها أنها جاءت سِرًّا، لم تعلم بها اليد اليمنى من اليسرى؛ فخذها يا مولاي واكشف نقابها، وأمِطْ عنها جلْبَابَها، وقد كانت منك حرة وهي الآن في حيِّز المملكة، ومن السنة في مثلها أن تؤخذ بالناصية ويدعى [لها] بالبركة، والسائر بها فلان وهو في الجهل بها حامل أسفار، وناقل لها من دار إلى دار، ولربما نطق لسان حالها الذي هو أفصح من نطق اللسان، وأذكرت بحاجة مرسلها وحاش فطانة الكريم من النسيان، وليس المطلوب إلا فضيلة من الجاه تسفر بين السائل والمسئول، وتَنْقُل البعيد إلى درجة القريب والممنوعَ إلى درجة المبذول، فإذا فعل المولى ذلك كان له منة السِّفارة ومنة الإنعام، وإن سمع بأن سعياً واحداً فاز بشكرين اثنين ففي مثل هذا المقام، ومن الناس من يقول: ليس على جانب السلطان ثقل في صُنْعِه، وهل هُهنا إلا كلمات تِقال والكلامَ ماعُونٌ لا رُخْصَةَ في مَنْعِه، ولم يَدْرِ أن ملاطفة الخطاب ضرب من الاحتيال، وأن نقل الخطوات فيه أثقل من نقل

الجبال، وأن صاحب الحاجة يحظى بحلاوة النجاح والحاجب يلقى مرارة السؤال. وهذا يقوله الخادم إيجاباً لإحسان المولى الذي هو إحسان شامل، ولا يعلمه إلا عالم بفضله ولا يجهله إلا جاهل، والله تعالى يجعل الحاجات مغدوقة ببابه، حتى لا تنفك في الدنيا من إمداد شكره وفي الآخرة من إمداد ثوابه؛ والسلام.

فتأمل أيها الناظر في كتابي هذا إلى ما اشتملت عليه هذه الرقعة من المعاني حتى تعلم كيف تضع يدك(١) فيما تكتبه.

ومن ذلك رقعة أخرى كتبتها في هذا المعنى المتقدم ذكره، وأرسلت معها هدية من المسك، وهي: الهدية رَسُولٌ يخاطِبُ عن مرسله بغير لسان، ويدخل على القلوب من غير استئذان، وقد قيل: أخت السحر في ملاطفة قصدها، غير أنها لا تحتاج إلى نَفْثِها ولا إلى عَقْدِها، وما من قلب إلا وصورتها تجلي عليه في سرَقَة، ولولا شرف مكانها لما حُلِّلَتْ للنبي ﷺ مع تحريم الصدقة، ولها صفات غير هذه كريمة الأخطار، حسنة لدى الأسماع والأبصار، ومن أحسنها أنها تستجدّ وُدًّا، وتجعل قرباً ما كان بعداً(٢). وتقول لنا الإحنة: يا نار كوني برداً، ولهذا قيل: تَهَادَوْا تحابُّوا، ولا شك أنها وُصْلَة بين المودات فإذا تواصل الناس تقاربوا، وقد أرسل الخادم منها شيئاً إذا كتمه ذاع، وإذا خزنه ضاع، وقد شُبِّه به الجليس الصالح بعدد أسباب الانتفاع، ومما زاد مزية على مزيته أنه وَشِيَمَ المولى توأمان، غير أن شيمته تَنْتَمِي إلى كرم مَحْتِدِها وهو ينتمي إلى سُرَر الغِزْلان، فإذا ورد على مجلسه قيل: هذا عطر ورد على جونة عطار، وعرف له حق المشاركة فإن أدنى الشرك في الشيم جِوَار، وقد نطق الخبر النبوي بأنه أحد الثلاثة التي لا تُرَدُّ على من أهْدَاها، وإذا نظر إلى محصول بقائها وفائدتها وجد أطولها عمراً وأَجْدَاها، وهذا يحكم على المولى بقبول ما استرسل الخادم في إرساله، وإذا سأل غيره في قبول هديته كفاه نص الخبر مؤنة سؤاله؛ والسلام.

---

(١) في أ، ب، ج «حتى تعلم كيف تصنع يدك».

(٢) في ب، ج «وتجعل قرباً مكان بعداً» وهو تحريف، وما أثبتناه عن أ.

وهذه الرقعة أحسن من التي قبلها؛ فمما اشتملت عليه من المعاني قولي: «وما من قلب إلا وصورتها تجلى عليه في سَرَقَة، ولولا شرف مكانها لما حللت للنبي ﷺ مع تحريم الصدقة» وهذا المعنيان مستخرَجان من خبرين نبويين: أحدهما: أن النبي ﷺ قال: «جاءنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ وَمَعَهُ سَرَقَة مِنْ حَرِيرٍ» يعني حريرة بيضاء «وَفِيها صُورَةُ عائشَةَ» رضي الله تعالى عنها وَقالَ: «هٰذِهِ زَوجَتُكَ في الدُّنْيَا وَالآخِرَة» والخبر الآخر أن النبي ﷺ قال: «حُرِّمَتْ عَلَيَّ الصَّدَقَةُ، وَأُحِلَّتْ لِي الهَدِيَّةُ».

ومما اشتملت عليه أيضاً قولي: «وقد أرسل الخادم منها شيئاً إذا كتمه ذاع وإذا خزنه ضاع» وهذه مغالطة حسنة؛ لأن المسك إذا كتم ذاعت رائحته، وإذا خُزِنَ ضَاعَ: أي فاحَ، ويقال: ضاعَ الشيء؛ إذا ذهب، فالمغالطة ههنا في الجمع بين الضدين.

وكذلك قولي: «وقد شبه الجليس الصالح» وهذا مستخرج من الخبر النبوي أيضاً، وذاك أنه قال ﷺ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ حامِلِ المِسْكِ، إمَّا أنْ يَحْذِيَكَ، وَإمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإمَّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ عَرْفاً طَيِّباً، وَمَثَلُ جَلِيسِ السوءِ مَثَلُ نَافِخِ الْكِيرِ، إمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثَوْبَكَ، وَإمَّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيْهَةً».

ومما اشتملت عليه من المعاني أيضاً قولي: «إنه أحد الثلاثة التي لا ترد على من أهداها» وهذا مستخرج من الخبر النبوي أيضاً، وهو قوله ﷺ: «ثَلاثَةٌ لاَ تُرَدُّ: الطِّيبُ، والرَّيْحَانُ، وَالدُّهْنُ».

ومن ذلك رقعة كلفني بعضُ أصدقائي إمْلاَءَها عليه، وهي رقعة من عاشق إلى معشوق، وهي:

وَإذَا قِيلَ مَنْ نُحِبُّ تَخَطَّا ... كَ لِسَانِي وَأنْتَ في الْقَلْبِ ذَاكَا

يا من لا أسميه، ولا أكنيه، وأذكر غَيْرَه وهو الذي أعنيه، لا تكن ممن أوتي ملكاً فلم ينظر في زواله، وعَرَفَ مكانه من القلوب فجار في إدلاله، ولا تَغْتَرَّ بقول

من رأى الْحُسْنَ للاساءة ماحياً[1]، واعلم أن اللاحي يقول: كفى بالتذلل لاحِياً، وكثيراً ما يزول العشق بجنايات الصدود، والزيادةُ في الحد نقصان في المحدود، وقد قيل: إن الحسن عليه زكاة كزكاة المال، وليست زكاته عند علماء المحبة إلا عبارة عنِ الوصال، وهذه صَدَقة تقسَّم على أربابها، ولا ينتظر أن يحول الحول في إيجابها، فهي مستمرة على تجدد الأيام، والمستحقُّون لها قِسْمٌ واحد ولا يقال: إنهم ثمانية أقسام، وهؤلاء هم المخصوصون بفك الرقاب، ورقبة العشق أشدّ أسراً من رقبة تَتَحَرّرُ بالكتاب، فأخْرِجْ يا مولاي من هذا الحق الواجب، وإلا فتأتَّ لطالب مُنًى ومَطَالب، ولا تقل هذا غريم أكثر عد الليالي في مَطْلِه، وأعِدْه والمواعيد زَادُ لمثله، فهذه سِلْعَة قد عاملتني بها مرة ساخراً ومرة ساحراً، ومن الأقوال السائِرة أن الغرّ تجعله التجربة ماهراً، ولعمري إن ممارسة الحب تجدد لصاحبه علماً، وتبصِّره وإن كان كما يقال أعمى، وقد كذب القائل:

عَـرَّضَـنْ لِلَّذِي تُـحِبُّ بِحُـبٍّ ثُـمّ دَعْـهُ يَـرُوضُـهُ إبْـلِيسُ

فإنْ كانت الرياضة كما قيل لإبليس فما أراه صَنَعاً في الذي صنع، وأراك استعصيت عليه استعصاء القارح وأنْتَ جَذَع، ولا شك أنك تهدم ما يشيده من البناء، أو أنك مستثنًى في جملة من دخل في حكم الاستثناء، وأنا الآن له عائب، وعليه عاتب، فأينَ نَفَثَاته التي هي أخدع من الحبائل، وأين قوله: لآتِيَنَّهُمْ عَنِ الأيْمَانِ والشمائل، وأين جنوده المسترقة ما في السَّماء، التي تجري من بني آدم مجرى الدماء، وكل هذا قد بطل عندي خَبَرُه، كما بطل عندي أَثَرُه؛ فإن أدركته النخوة بأني أستهزىء بتصديق أفعاله، فَلْيَحْلُلْ معقولَ حاجتي هذه حتى أعلم أنه قادر على حل عِقَاله، وإلاّ فليخف رأسه، وليمح وسواسه، وإن كان له عرش على البحر فَلْيُقَوِّض من عرشه، وليعلم أن السحر ليس في عقده ونفثه ولكنه في الأصفر ونَقْشِهِ، وها أنا قد بعثت منه ما يجعل العزم محلولاً، والود مبذولاً، وما أقول إلا

(١) مثل قول الشاعر:

وَإِذَا ٱلْـحَبِيـبُ أَتَـى بِـذَنْـبٍ وَاحِـدٍ تَـأْتِي مَحَـاسِنُـهُ بِـأَلْفِ شَفِيـعِ

أني بعثت معشوقاً إلى معشوق، وكلاهما محلّه القلبُ بل القلب من حبهما مخلوق، وما أكرمه وهو وسيلة إلى مثله، وحسنه من حسنه وإن لم يكن شكله من شكله، وما وصف واصف إلا كان ما رآه منه فوق ما رواه، ومن أغرب أوصافه وأحسنها أنه لم يُرَ ذو وجهين وَجِيهاً سواه، لا جرم أنه إذا سَفَرَ في أمر[1] تلطّف في فتح أبوابه، وتناول وَعْرَه بسهله وبُعْدَه فبدله باقترابه، ولو بعثت غيره لخفت ألّا يكون في سِفَارته صادقاً، أو أنه كان يمضي سفيراً ويعود عاشقاً، فليس على الحسن أمانة، وفي مثله تُعذر الخيانة، ولا لوم على العقول إذا نسيت هناك عزيمة رشدها، ورأت مالاً يحتمله كاهل جهدها، ومَنِ الذي يَقْوَى درعه على تلك السهام، أوْ يروم النجاة منها وقد حيل بينه وبين المرام، وهذا الذي مَنَعَنِي أن أرسل إلا كِيساً وكتاباً، فأحدهما يكون في السفارة والآخر على السر حجاباً، والسلام إن شاء الله تعالى.

وفي هذه الرقعة من المعاني الغريبة ما أذكره؛ فالأول: ما ذكرته في قَسْمِ الصدقات وفَكِّ الرقاب، والثاني: ما ذكرته في وصف الدينار وهو أنه وجيه ذو وجهين؛ وقال النبي ﷺ: «ذُو الْوَجْهَيْنِ لاَ يَكُونُ وَجِيهاً» وهذا معنى لم يسبقني أحد إليه، وقد وصف الحريري الدينار في مقامة من مقاماته ولم يظفر بهذا المعنى ولا جاء من الأوصاف التي ذكرها بمثله، والثالث أني بعثت معشوقاً إلى معشوق.

ومن ذلك ما كتبته، وكان توفيت زوجة بعض الملوك وتوفي معها ولد لها وهو طفل صغير، وكان بينهما يومان، وتلك المرأة بنت ملك من الملوك أيضاً، فكتب إليه من الأطراف المجاورة يعزونه، وحضر عندي بعض الأدباء ممن يجب أن يكون كاتباً، وعرض عليّ نسخة ما كوتب به ذلك الملك في التعزية بزوجته وولدها، فوجدتها كتباً باردة غثة لا تعرب عن الحادثة، بل بينها وبينها بعد المشرقين، ومن شرط الكتاب أن يكون الكتاب مضمناً فض المعنى المقصود، والتعازي مختلفة الأنحاء: فتعازي النساء غير تعازي الرجال، وهي من مستصعبات فنّ الكتابة والشعر، وتعازي الرجال أيضاً تختلف، فلا يُعَزَّى بالميت على فراشه كما يعزّى بالميت قتيلاً، ولا يعزّى بالقتيل كما يعزّى بالغريق، وهكذا يجري الحكم في

---

(١) في أ، ب، ج «إذا أسفر في أمر».

المعاني جميعها، وهذا شيء لا يتنبه له إلا الراسخون في هذا الفن من أرباب النثر والنظم، وسألني ذلك الرجل عن هذه التعزية المشار إليها في المرأة وولدها الصغير، وقال: أحب أن أعلم كيف تكون، فأمليت عليه ثلاثة كتب، كل كتاب يتضمَّن معنى لا يتضمنه الكتاب الآخر.

فمما جاء منها كتاب أنا ذاكره ههنا، وهو: أشْجَى التعازي ما أتبع فيه المفقود بمفقود، لا سيما إذا جمع بين سعد الأخبية وسَعْد السُّعُود، وكل منهما يعظم حزناً كما يعظم مكاناً، وهذا يحسر عن الوجوه خُمراً وهذا يلقي عن الرءُوس تيجاناً، ولم يوفّهما حَقَّهما مَنْ بَكِيَ ولا مَنْ نَدَب، ولا من شعر ولا من كتب، وليت فدى أحدهما بصاحبه فعاش درهما المفدي بالذهب.

وَلَـوْ كَانَ خَـطْباً وَاحِـداً خَفَّ كَلْمُهُ وَلٰكِنَّـهُ خَـطْبٌ أُعِيـدَ عَلَى خَـطْبِ

وقد أصدر الخادم كتابه هذا ومن حقه أن يخرج في ثوب من الحداد، وأن يتعثر في أذيال كلمه والكتابُ عنوان الفؤاد، وغاية ما يقول: أحسن الله عزاءَ المجلس السامي الملك الأجل السيد، على أن هذا الدعاء قد شهدت الحال بلحنه، وكيف يملك قلبه عزاء وقد أوثقه الهم في سجنه، وصار له ولداً دون ولده وخدناً دون خدنه، لكن يُدْعَى له بامتداد البقاء، وأن تعامله الحوادث بعد هذه معاملة الإبقاء، ثم نتبع ذلك بطلب الجنة لمن نقلته المنايا عن أرائك الخدور، وجعلته في بطون القبور، ولمن فاجأت الأيام غصنه فقصفته، ولم يعش حتى عرف الدنيا ولا عرفته؛ فَوَاهاً لهما وقد نزلا بمنزل عديم الإيناس، وإن كان مأهولاً بأكثر الناس؛ فهو القريب داراً، البعيد مَزَاراً، الذي حجب من اليأس بأمنع حجاب، وذهب عن الوجوه المنعمة لذل التراب، فمن كان مُسْعِداً للمجلس فليأخذ بِوَلَه الجزع لا بعزيمة الاصطبار، وليقل: هذا حادث بَانَ فيه تحامل الأقدار، وجرت همومه مجرى الخواطر من القلوب والرقاد من الأبصار، فَالأُسْوَة إلا فيه معدودة من الإحسان، والسُّلْوة إلا عنه داخلة في حَيِّز الإمكان، والخادم أولى من لقي المجلس فيه بالإسعاد، وقام بما يجب من قضاء حق الوداد، وفعل ما يفعله القريب الحاضر وإن كان على شقة من البعاد، وقد أرسل مَنْ ينوب عنه في التعزية وإن لم يَكْفِ

فيها المناب، وكما رخص العذر في قصر الصلاة فكذلك رخص في الاقتصار على الرسول والكتاب، وقد وَدَّ لو حضر بنفسه فاستسقى لذلك الضريح سحاباً، وعَقَرَ عنده ركاباً، وسأل الله له مغفرة وثواباً؛ والسلام.

في هذا الكتاب معنى غريب، وهو قولي: «سعد الأخبية» كناية عن المرأة، و «سعد السود» كناية عن ولدها؛ لأن سعد الأخبية اسم منزلة من منازل القمر، والأخبية: جمع خِبَاء، ومن شأن المرأة أن تحتجب في الأخبية، فهي سعدها، وهذا من المعاني الغريبة في مثل هذا المقصد، وقد اتفق سعد الأخبية وسعد السعود معاً، وهذا أيضاً غريب.

ومن ذلك أني كتبت كتاباً عن الملك الأفضل علي بن يوسف إلى أخيه الملك الظاهر غازي بن يوسف صاحب حلب، في أمر شخص كان أبوه صاحب مدينة تكريت، وتكريت هذه كان يتولاها قديماً الأمير أيوب جد الملك الأفضل والملك الظاهر، وأولد بها ولده صلاح الدين يوسف أباهما، وعلى عقب ولادته انتقل والده عن تكريت هو وعشيرته لأمر طرأ لهم، وجاء إلى الموصل، ثم إلى الشام، وهناك سعدوا، وكانت السعادة على يد صلاح الدين يوسف، فلما أردت أن أكتب هذا الكتاب علمت أنه مظنة المعاني المبتدعة؛ لأن الأمر المكتوب فيه غريب لم يقع مثله، فحينئذ كتبت هذا الكتاب، وهو: رفع الله شأن مولانا الملك الظاهر ولا زال الدهر فاخراً بمآثر سلطانه، ناظماً مناقبه في جيده ومحامده في لسانه، ناسخاً بمساعي دولته ما تقدم من مساعي آل بويه وآل حَمْدَانِه، كتاب الخادم هذا واردٌ من يد الأمير شمس الدين ابن صاحب تكريت، وهي أولُ أرض مسَّ جلدُ الوالد تُرَابها، ورقمت بها السعادة على جبينه كتابَهَا، ومنها ظَهَرَ نور البيت الأيوبي مشرقاً، وأشام إذا خرج مُعْرِقاً، وكفاه بذلك وسيلة يكتنفها الإحسان والإرعاء، ويكفي صاحبَهَا أن يقول لا أسْقي حتى يُصْدِر الرِّعاء، وقد قرنها بوسيلة قصد الخدمة التي توجب لقاصدها ذِمَاماً، وتقول له: سلاماً إذا قال سلاماً، ثم ثلث هاتين الوسيلتين بكتاب الخادم أخْذاً بالسنة النبوية في الدعاء وعدده، وتفاؤلاً بتثليث النجوم فيما يقصده المرء من سعادة مقصده، ولا قدح في كرم الكريم إذا استكثر طالبه من الأسباب؛ فإن الله على كره قد استكثر إليه من أعمال الثواب، وكتاب

الخادم على انفراده كافٍ لحامله، ومكثر من حقوق وسائله، وقد صدر مخاطباً عن فحوى ضميره، فإنما تحقّ السفارة إذا قعد بكل طالبٍ سَعْيُ سفيره، وهو مع ذلك خفيفة صَفْحَتُه، وَجِيزة لَمْحَتُهُ، وإذا وجد لدى مولانا معولاً، فليس عليه أن يرد مطولاً، إذ التعويل على نجح مصدره، لا على كثرة أسطره.

فانظر أيها المتأمل إلى هذا الكتاب، وأعطه حقه من التأمل، حتى ترى ما اشتمل عليه من المعاني، وانظر كيف ذكرت الأول، ثم الثاني، ثم الثالث؛ أما المعنى الأول: فإنه يختص بذكر سعادة البيت الأيوبي ومنشئها وأنها ولدت بتكريت، وهذا الرجل ينبغي أن يرعى بسببها، إذ كان أبوه صاحبها، وأما المعنى الثاني: فإنه قصد الخدمة الظاهرية، وهذا وسيلة ثانية توجب له ذماماً، وأما المعنى الثالث: فإنه حرمة الكتاب الصادر على يده، ثم إني مثلت ذلك بالدعاء النبوي وبتثليث النجوم، فإن النبي ﷺ كان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإنما مثلت ذلك بالدعاء لأمرين: أحدهما: أنه موضع سؤال وضراعة، والآخر: أن الكتاب وسيلةٌ ثالثة، والدعاء ثلاث مرار، وأما تثليث النجوم فإن التثليث سعد، والتربيع نحس، وأحسن المعاني الثلاثة التي تضمنها هذا الكتاب هو الأول والثالث، وأما الثاني فإنه متداول، فتأمل ما أشرت إليه، وإذا شئت أن تكتب كتاباً فافعل كما فعلت في هذا الكتاب إن كان الأمر الذي تكتب فيه غريب الوقوع.

واعلم أنه قد يقع المعنى المبتدع في غير أمر غريب الوقوع، وذلك يكون قليلاً بالنسبة إلى الوقائع الغريبة التي هي مَظِنَّة المعاني المبتدعة.

ومن هذا الباب ما أوردته في جملة رسالة طردية في وصف قسي البندق وحامليها، وهو: فإذا تناولوها في أيديهم قيل: أهِلةٌ طالعة من أكف أقمار، وإذا مثل غناؤها وغناؤهم قيل: منايا مَسُوقة بأيدي أقدار، وتلك قِسيّ وضعت لِلَّعب لا للنضال، ولِرَدَى الأطيار لا لِرَدَى الرجال، وإذا نعتها ناعت قال: إنها جمعت بين وصفي اللين والصلابة، وصنعت من نوعين غريبين فحازت معنى الغرابة، فهي مركبة من حيوان ونبات، مؤلفة منهما على بعد الشَّتَات، فهذا من سكان البحر وسواحله، وهذا من سكان البر ومَجَاهله، ومن صفاتها أنها لا تتمكن من البطش إلا

حين تُشَدّ، ولا تنطلق في شأنها إلا حين تُعْطف وتُرَدّ، ولها نثار أحكم تصويرها، وصحح تدويرها، فهي في لونها صَنْدَلية الإهاب، وكأنما صيغت لقوتها من حجر لا من تراب، فإذا قذفتها إلى الأطيار قيل ويصعد من الأرض من جبال فيها من برد، ولا يرى حينئذ إلا قتيل ولكن بالمثقل الذي لا يجب في مثله قَوَد، فهي كافلة من تلك الأطيار بقبض نفوسها، منزلة لها من جو السماء على أم رُءُوسها.

هذا الفصل يشتمل على معان غريبة، منها قولي: «إنها لا تتمكن من البطش إلا حين تشد، ولا تنطلق في شأنها إلا حين تعطف وترد» ومنها قولي: «ويصعد من الأرض من جبال فيها من برد»؛ وكل هذا من المعاني التي تبتدع بالنظر إلى المقصد المكتوب فيه، فإنَّ الكاتب إذا أفكر فيما لديه وتأمله وكان قادراً على استخراج المعنى والمناسبة بينه وبين مقصده جاء هكذا كما تراه، إلا أن القادر على ذلك من أقدره الله عليه؛ فما كان خاطر بحكيم، ولا كل من أوحى إليه بكليم، وفي الأقلام هاشم لمن ناوأه ومنها هَشِيم.

وسأنبه في هذا الموضع على طريق يسلك إلى شيء من المعاني المخترعة، وهو ما استخرجته وانفردت باستخراجه دون غيري، فإن المعاني المخترعة لم يتكلم فيها أحد بالإشارة إلى طريق يسلك فيها؛ لأن ذلك مما لا يمكن، ومن ههنا أضرب علماء البيان عنه، ولم يتكلموا فيه كما تكلموا في غيره، وكيف تتقيَّد المعاني المخترعة بقيد أو يفتح إليها طريق تسلك وهي تأتي من فَيْض إلهي بغير تعليم؟ ولهذا اختص بها بعض الناثرين والناظمين دون بعض، والذي يخص بها يكون فذاً واحداً يوجد في الزمن المتطاول، ولما مارست أنا هذا الفن ـ أعني فن الكتاب ـ وقلبته ظهراً لبطن، وفتشت عن دفائنه وخباياه، وأكثرت من تحصيل مواده والأسباب الموصلة إلى الغاية منه؛ سَنَحَ لي في شيء من المعاني المخترعة طريقٌ سلكته، وهو يستخرج من كتاب الله تعالى وأحاديث نبيه صلوات الله عليه وسلامه، وقد تقدَّم لي منه أمثلة في هذا الكتاب، وذلك أنه ترد الآية من كتاب الله، أو الحديث النبوي، والمراد بهما معنًى من المعاني، فآخذ أنا ذلك وأنقله إلى معنى آخر؛ فيصير مخترعاً لي.

وسأورد ههنا منه نبذة يسيرة يعلم منها كيف فعلت حتى يسلك إليها في الطريق الذي سلكته.

فمن ذلك قصةُ أصحاب الكهف والرقيم؛ فإني أخذت ذلك ونقلته إلى الإحسان والشكر، ألا ترى أن الإحسان يستعار له كَهْف وكَنَف وظِلٌّ، وأشباه ذلك، والشكر كلمات تقال في التّنْوِيه بذكر المحسن وإحسانه، والرَّقيم هو الكتاب المكتوب، فهو والشكر متماثلان، والذي أتيت به قد أوردته، وهو فصل من كتاب إلى بعض المنعمين:

الخادم يشكر إحسان المولى الذي ظلّ عنده مقيماً، وغدا بمطالبه زعيماً، وأصبح بتواليه إليه مغرماً كما أصبح له غريماً، ولما تَمَثَّل في الاشتمال عليه كهفاً صار شكره فيه رقيماً.

فانظر كيف فعلت فيه في هذا الموضع؛ لتعلم أني قد فتحت لك فيه طريقاً تسلكه.

وأما الحديث النبوي فإني أخذت قصة قَتْلَى بدر كأبي جهل وعُتْبة وشَيْبة وغيرهم ونقلتها إلى القلم، وذاك أن النبي ﷺ وَقفَ على الْقَلِيب الذي ألقاهم فيه وناداهم بأسمائهم فقال: يا عتبة، يا شيبة، يا أبا جهل، يا فلان، يا فلان؛ والحديث مشهور فلا حاجة إلى استقصائه، والذي أتيت به في وصف القلم هو أني قلت:

ولقد مَرِحَ القلم في يدي وحُقَّ له أن يَمْرَح، وأبدع فيما أتى به وكُلُّ إناءٍ بالَّذِي فيهِ يَنْضَحُ، ومن شأنه أن يستقل على أعواد المنبر فلا ينتهي من خطبتها إلى فَصْلها، وَيَقِفَ على جَانب القليب إلا أنه لا ينادِي من المعاني أبا جَهْلها.

فالدَّوَاة قليبٌ، والقلم يقف عليه، والمعاني التي ينشئها من باب العلم، لا من باب الجهل؛ فتأمل هذه الكلمات التي ذكرتها فإنها لطيفة جداً، وهي مخترعة لي.

وهذا القدر كافٍ في طريق التعليم؛ فليحذ حذوه إن أمكن، والله الموفق للصواب.

وأما الضرب الآخر من المعاني: ـ وهو الذي يُحْتَذَى فيه على مثال سابق، ومنهج مطروق ـ فذلك جلُّ ما يستعمله أرباب هذه الصناعة، ولذلك قال عنترة:

هَـلْ غَـادَرَ الـشُّعَـرَاءُ مِنْ مُتَـرَدَّمِ (١)

إلا أنه لا ينبغي أن يرسخ هذا القول في الأذهان؛ لئلا يُؤْيِس من الترقي إلى درجة الاختراع، بل يعول على القول المطمع في ذلك، وهو قول أبي تمام(٢):

لَا زِلْـتَ مِـنْ شُـكْـرِيَ فـي حُـلَّةٍ   لَابِـسُـهَـا ذُو سَـلَبٍ فـاخِـرِ
يَـقُـولُ مَـنْ تَـقْـرَعُ أَسْـمَـاعَـهُ   كَـمْ تَـرَكَ الأَوَّلُ لِـلآخِـرِ

وعلى الحقيقة فإن في زوايا الأفكار خبايا، وفي أبكار الخواطر سَبَايا، لكن قد تَقاصَرت الهِمَم ونَكَصت العزائم، وصار قُصَارى الآخر أن يتبع الأول، وليته تَبِعه ولم يُقَصِّر عنه تقصيراً فاحشاً.

ووقفت على كتاب يقال له «مقدمة ابن أفلح البغدادي» قد قَصَرَها على تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة، وللعراقيين بها عناية، وهم واصفون لها، ومكبون عليها، ولما تأمّلْتُها وجدتها قشوراً لا لبَّ تحتها؛ لأن غاية ما عند الرجل أن يقول: وأما الفصاحة فإنها كقول النابغة مثلاً، أو كقول الأعشى، أو غيرهما، ثم يذكر بيتاً من الشعر أو أبياتاً، وما بهذا تعرف حقيقة الفصاحة، حتى إذا وردت في

---

(١) هذا صدر مطلع معلقته، وعجزه قوله:

أَمْ هَـلْ عَـرَفْـتَ الـدَّارَ بَـعْـدَ تَـوَهُّـمِ

(٢) من كلمة له في أبي سعيد، وأولها قوله:

قُـلْ لِـلأَمِيـرِ الأَرْيَحِيِّ الَّـذِي   كَـفَّـاهُ لِلْبَـادِي وَلِـلْحَـاضِـرِ
لِـتَـجْـزِكَ الأَيَّـامُ مَـنْـدُوحَـةً   وَنُـضْـرَةً عَنْ عُـودِيَ الـنَّـاضِـرِ

كلامٍ عرفنا أنه فصيح بما عرفنا من حقيقتها الموجودة فيه، وكذلك يقول في غير الفصاحة.

ومن أعجب ما وجدته في كتاب أنه قال: أما المعاني المبتدعة فليس للعرب منها شيء، وإنما اختصَّ بها المحدَثُون، ثم ذكر للمحدثين معاني، وقال: هذا المعنى لفلان، وهو غريب، وهذا القول لفلان، وهو غريب، وتلك الأقوال التي خَصَّ قائليها بأنهم ابتدعوها قد سُبِقوا إليها؛ فإما أن يكون غير عارف بالمعنى الغريب، وإما أنه لم يَقِفْ على أقوال الناظمين والناثرين ولا تَبَحَّرَ فيها حتى عرف ما قاله المتقدم، مما قاله المتأخر، وأما قوله: «إنه ليس للعرب معنى مبتدع وإنما هو للمحدثين» فيا ليت شعري مَنِ السابقُ إلى المعاني؟ مَنْ تَقَدَّم زمانه أم من تأخر زمانه؟!.

وأنا أورد ههنا ما يستدل به على بطلان ما ذكره، وذاك أنه قد ورد من المعاني أن صُوَر المنازل تَمَثَّلَت في القلوب فإذا عفت آثارها لم تَعْفُ صورها من القلوب، وأول من أتى بذلك العرب، فقال الحرث بن خالد من أبيات الحماسة(١):

إِنِّي وَمَا نَحَرُوا غَدَاةَ مِنًى عِنْدَ الْجِمَارِ يَؤُدُهَا الْعُقْلُ(٢)
لَوْ بُدِّلَتْ أَعْلَى مَسَاكِنِهَا سِفْلاً وَأَصْبَحَ سِفْلُهَا يَعْلُو
لَعَرَفْتُ مَغْنَاهَا بِمَا ضَمِنَتْ مِنِّي الضُّلُوعُ لِأَهْلِهَا قَبْلُ(٣)

ثم جاء المحدثون من بعده فانسحبوا على ذَيْله وحَذَوْا حذوه؛ فقال أبو تمام(٤):

---

(١) انظر شرح التبريزي على الحماسة (٣ ـ ٢٤٥).
(٢) في أ، ب، ج «إني وإن نحروا» والتصويب عن الحماسة.
(٣) في ج «معناها» بعين مهملة، وهو تحريف، وصوابه عن أ، ب، والحماسة. وفي الحماسة «لما ضمنت» ومعناهما واحد.
(٤) هو ثاني بيت من قصيدة له يمدح فيها المعتصم، وقبله وهو المطلع قوله:

أَجَلْ أَيُّهَا الرَّبْعُ الَّذِي خَفَّ آهِلُهْ لَقَدْ أَدْرَكَتْ فِيكَ النَّوَى مَا تُحَاوِلُهْ

وَقَفْتُ وَأَحْشَائِي مَنَازِلُ لِلأَسَى ... بِهِ وَهْوَ قَفْرٌ قَدْ تَعَفَّتْ مَنَازِلُهْ

وقال البحتري[١]:

عَفَتِ الرُّسُومُ وَمَا عَفَتْ أَحْشَاؤُهُ ... مِنْ عَهْدِ شَوْقٍ مَا تَحُولُ فَتَذْهَبُ

وقال المتنبي[٢]:

لَكِ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ ... أَقْفَرْتِ أَنْتِ وَهُنَّ مِنْكِ أَوَاهِلُ

وهذا المعنى قد تداوله الشعراء، حتى إنه ما من شاعر إلاَّ ويأتي بهِ في شِعره.

وكذلك ورد لبعضهم من شعراء الحماسة[٣]:

أَنَاخَ اللُّؤْمُ وَسْطَ بَنِي رِيَاحٍ ... مَطِيَّتَهُ وَأَقْسَمَ لاَ يَرِيمُ[٤]
كَذَلِكَ كُلُّ ذِي سَفَرٍ إِذَا مَا ... تَنَاهَى عِنْدَ غَايَتِهِ يُقِيمُ

وهذان البيتان من أبيات المعاني المبتدعة، وعلى أثرهما مشى الشعراء.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، وأولها قوله:

عَارَضْنَنَا أُصُلاً فَقُلْنَا الرَّبْرَبُ ... حَتَّى أَضَاءَ الأُقْحُوَانُ الأَشْنَبُ

(٢) هو مطلع قصيدة له يمدح فيها أبا الفضل أحمد بن عبدالله الأنطاكي، وبعده قوله:

يَعْلَمْنَ ذَاكِ وَمَا عَلِمْتِ وَإِنَّمَا ... أَوْلاَ كَمَا يُبْكَى عَلَيْهِ الْعَاقِلُ

ومثل ذلك قول ابن المعتز:

بُؤْساً لِدَهْرٍ غَيَّرَتْكَ صُرُوفُهُ ... لَمْ يَمْحُ مِنْ قَلْبِي الْهَوَى وَمَحَاكَا

(٣) انظر شرح التبريزي (٤ ـ ١٠٠) فهما بيتان اختارهما أبو تمام ولم ينسبهما التبريزي.

(٤) في أ، ب، ج «بني رماح» بالميم، والتصويب عن الحماسة.

وكذلك ورد لبعضهم في شعر الحماسة[١]:

تَرَكْتُ ضَأْنِي تَوَدُّ الذِّئْبَ رَاعِيَهَا وَأَنَّهَا لَا تَرَانِي آخِرَ الأَبَدِ
ٱلذِّئْبُ يَطْرُقُهَا في الدَّهْرِ وَاحِدَةً وَكُلَّ يَوْمٍ تَرَانِي مُدْيَةٌ بِيَدِي

وكذلك ورد قول الآخر:

قَوْمٌ إِذَا مَا جَنَى جَانِيهِمُ أَمِنُوا لِلُؤْمِ أَحْسَابِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا قَوَدَا

وكم للعرب من هذه المعاني التي سبقوا إليها.

ومن أدلّ الدليل على فساد ما ذهب إليه من أن المحدثين هم المختصمون بابتداع المعاني أو أول من بكى على الديار في شعره رجل يقال له ابن حزام، وكان هو المبتدي لهذا المعنى أولاً، وقد ذكره امرؤ القيس في شعره فقال:

عُوجاً عَلَى الطَّلَلِ المُحِيلِ لَعَلَّنَا نَبْكِي ٱلدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ حزَام[٢]

وقد أجمع نقلة الأشعار أن لامرىء القيس في صفات الفرس أشياء كثيرة لم يُسْبَق إليها ولا قيلت من قبله.

ويكفي من هذا كله ما قدمت القول فيه، وهو أن العرب السابقون بالشعر، وزمانُهم هو الأول، فكيف يقال: إن المتأخرين هم السابقون إلى المعاني؟ وفي هذه الأمثلة التي أوردتها كفاية في نقض ما ذكره، ولو قال: إن المحدثين أكثر ابتداعاً للمعاني، وألطف مأخذاً، وأدق نظراً؛ لكان قوله صواباً؛ لأن المحدثين عظم الملك الإسلامي في زمانهم، ورأوا ما لم يره المتقدمون، وقد قيل: إن اللُّهَا تَفْتَحُ اللَّهَا؛ وهو كذلك فإن نَفَاق السوق جَلَّاب.

---

(١) هما بيتان مفردان اختارهما أبو تمام ولم ينسبهما ولا نسبهما شراحه (انظر شرح التبريزي: ٤ ـ ١٣٠).

(٢) الطلل المحيل: المتغير، وهو بالحاء المهملة، ووقع في أ، ب، ج «المخيل» بالخاء المعجمة ـ وهي غير المعروف في رواية البيت، ولكن لها وجهاً. وابن حذام قد اختلف في ضبط اسمه على وجوه كثيرة.

وقد رأيت جماعة من متخلقي هذه الصناعة يجعلون هَمَّهم مقصوراً على الألفاظ التي لا حاصل وراءها، ولا كبير معنى تحتها، وإذا أتى أحده بلفظ مسجوع على أي وجه كان من الغَثَاثة والبرد يعتقد أنه قد أتى بأمر عظيم، ولا يشك في أنه صار كاتباً مُفْلقاً، وإذا نظر إلى كُتَّاب زماننا وجدوا كذلك؛ فقاتل الله القلم الذي يمشي في أيدي الجهال الأغمار، ولا يعلم أنه كجواد يمشي تحت حمار، ولو أنه لا يتطاول إليه إلا أهله لَبَان الفاضل من الناقص، على أنه كالرمح الذي إذا اعتقله حامله بين الصَّفَّيْن بَانَ به المقدم من الناكص، وقد أصبح اليوم في يدِ قومٍ هم أحوج من صبيان الكاتب إلى التعليم، وقد قيل: إن الجهل بالجهل داء لا ينتهي إليه سقم السقيم، وهؤلاء لا ذنب لهم؛ لأنهم لو لم يستخدموا في الدول ويستكتبوا، وإلا ما ظهرت جهالتهم، وفي أمثال العوام: لا تُعِرِ الأحمق شيئاً فيظنه له، وكذلك يجري الأمر مع هؤلاء؛ فإنهم استكتبوا في الدول فظنوا أن الكتابة قد صارت لهم بأمر حق واجب.

ومن أعجب الأشياء أني لا أرى إلا طامعاً في هذا الفن، مُدَّعياً له على خلوه عن تحصيل آلاته وأسبابه، ولا أرى أحداً يطمع في فن من الفنون غيره ولا يدعيه، هذا، وهو بحر لا ساحل له، يحتاج صاحبه إلى تحصيل علوم كثيرة حتى ينتهي إليه، ويحتوي عليه؛ فسبحان الله! فسبحان الله! هل يدعى بعض هؤلاء أنه فقيه أو طبيب أو حاسب أو غير ذلك من غير أن يحصل آلات ذلك ويتقن معرفتها؟

فإذا كان العلم الواحد من هذه العلوم الذي يمكن تحصيله في سنة أو سنتين من الزمان لا يدعيه أحد من هٰؤلَاء فكيف يجيء إلى فن الكتاب وهو ما لا تحصل معرفته إلا في سنين كثيرة فيدعيه وهو جاهل به؟.

ومما رأيته من المدَّعين لهذا الفن الذين حصلوا منه على القشور، وقصروا معرفتهم على الألفاظ المسجوعة الغثة التي لا حاصل وراءها؛ أنهم إذا أنكرت هذه الحال عليهم، وقيل لهم: إن الكلام المسجوع ليس عبارة عن تواطؤ الْفِقَر على حرف واحد فقط؛ إذ لو كان عبارة عن هذا وحده لأمكن أكثر الناس أنْ يأتوا به من غير كلفة، وإنما هو أمر وراء هذا، وله شروط متعددة؛ فإذا سمعوا ذلك أنكروه؛

لخلوهم عن معرفته، ثم لَوْ عرفوه وأتَوْا به على الوجه الحسن من اختيار الألفاظ المسجوعة لاحْتَاجُوا إلى شرْط آخر قد نبهت عليه في باب السجع؛ وإذا أنكر عليهم الاقتصار على الألفاظ المسجوعة، وهُدُوا إلى طريق المعاني؛ يقولون: لنا أُسْوَة بالعرب الذين هم أرباب الفصاحة، فإنهم إنما اعتنوا بالألفاظ ولم يعتنوا بالمعاني اعتناءكم بها، فلم يكفهم جهلهم فيما ارتكبوه حتى ادّعَوا الأُسْوَة بالعرب فيه، فصارت جهالتهم جهالتين.

ولنذكر ههنا في الرد عليهم ما إذا تأمله الناظر في كتابنا عرف منه ما يؤنقه، ويذهب به الاستحسان كل مذهب؛ فنقول:

اعلم أن العرب كما كانت تعتني بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فإن المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها، وأشرف قدراً في نفوسها؛ فأول ذلك عنايتها بألفاظها، لأنها لما كانت عنوان معانيها وطريقَهَا إلى اظهار أغراضها أصلحوها وزينوها، وبالغوا في تحسينها؛ ليكون ذلك أوقع لها في النفس، وأذهب بها في الدلالة على القصد، ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعاً لَذَّ لسامعه فحفظه، وإذا لم يكن مسجوعاً لم يأنس به أنسه في حالة السجع، فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحَسَّنُوها، ورَقَّقوا حواشيها، وصَقَلُوا أطرافها، فلا تظن أن العناية إذا ذاك إنما هي بألفاظ فقط، بل هي خدمة منهم للمعاني، ونظير ذلك إبراز صورة الحسناء في الحلل الْمَوْشيَّة والأثواب الْمُحَبَّرة؛ فإنا قد نجد من المعاني الفاخرة ما يشوه من حسنه بذاذة لفظه وسوء العبارة عنه.

فإن قيل: إنا نرى من ألفاظ العرب ما قد حسنوه وزخرفوه، ولسنا نرى تحته مع ذلك معنى شريفاً، فمما جاء منه قول بعضهم[1]:

---

(١) بين البيتين بيت آخر، وهو:

وَشُــدَّتْ عَلَى دُهْمِ المَهَارَى رِحَــالُنــا ... وَلَمْ يَنْــظُرِ الْغَــادِي ٱلَّــذِي هُــوَ رَائِــحِ

وللإمام عبد القاهر الجرجاني بحث في هذه الأبيات وهو خليق بأن تعود إليه وتقرأه وتقارن بينه وبين ما ذكره المؤلف ههنا (انظر أسرار البلاغة ص ١٥) والأبيات تنسب لكثير عزة، وتنسب ليزيد بن الطثرية، وتنسب لعقبة بن كعب بن زهير.

وَلَمَّـا قَضَيْنَـا مِنْ منًى كُـلَّ حَـاجَـةٍ وَمَسَّـحَ بِـالأَرْكَـانِ مَنْ هُـوَ مَـاسِـحُ
أَخَـذْنَا بِـأَطْـرَافِ الأَحَـادِيثِ بَيْنَنَـا وَسَـالَتْ بأَعْنَـاقِ الْمَطِيِّ الأَبَـاطِـحُ

ألا ترى إلى حسن هذا اللفظ وصَقالته، وتدبيج أجزائه، ومعناه مع ذلك ليس مدانياً له ولا مقارباً، فإنه إنما هو لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الإبل، ولهذا نظائِر شريفة الألفاظ خسيسة المعاني.

فالجواب عن ذلك أنا نقول: هذا الموضع قد سبق إلى التشبث به من لم يُنْعِمِ النظر فيه، ولا رأى ما رآه القوم، وإنمـا ذلك لجفـاء طبع النـاظر، وعـدم معرفته، وهو أن في قول هذا الشاعر «كل حاجة» مما يستفيد منه أهل النسيب والرقة والأهواء والْمِقَة ما لا يستفيد غيرهم، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم، ألا ترى أن حوائج مِنًى أشياء كثيرة: فمنها التلاقي، ومنها التشاكي، ومنها التخلي للاجتماع، إلى غير ذلك مما هو تالٍ له ومعقود الكون به، فكأنّ الشاعر صانَعَ عن هذا الموضع الذي أومأ له وعقد غَرَضَه عليه بقوله في آخر البيت «ومَسَّحَ بالأركان من هو ماسح» أي: إنما كانت حوائجنا التي قضيناها وآرابنا التي بلغناها من هذا النحو الذي هو مسح الأركان وما هو لاحق به وجارٍ في القرية من الله مَجْراه: أي لم نتعدَّ هذا القدر المذكور إلى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجاري مجرى التصريح، وأما البيت الثاني فإن فيه: «أخذنا بـأطراف الأحـاديث بيننا» وفي هـذا ما نـذكره لتعجب به وبمن عجب منه ووضع من معناه، وذلك أنه لو قال أخذنا في أحاديثنا أو نحو ذلك لكان فيه ما يكبره أهل النسيب؛ فإنه قد شاع عنهم واتَّسَع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الإلْفَيْن والجذل بجمع شمل المتواصلين، ألا ترى إلى قول بعضهم:

وَحَـدِيثُهَـا يَـا سَعْـدُ عَنْهَـا فَـزِدْتَنِي جُنُوناً فَـزِدْنِي مِنْ حَدِيثِـكَ يَا سَعْـدُ

وقـول الآخـر:

وَحَـدِيثُهَا السِّحْـرُ الْحَـلاَلُ لَـوْ أَنَّـهُ لَمْ يَجْنِ قَتْـلَ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَـرِّزِ

فإذا كان قَدْرُ الحديث عندهم على ما ترى فكيف به إذا قَيَّده بقوله: «أخذنا

بأطراف الأحاديث»؟ فإن في ذلك وَحْياً خَفِيًّا، ورَمْزاً حلواً، ألا ترى أنه قد يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة من التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح، وذلك أحلى وأطيب، وأغزل وأنسب، من أن يكون كشفاً ومصارحة وجهراً، وإن كان الأمر كذلك فَمَعْنَى هذين البيتين أعلى عندهم، وأشد تقدماً في نفوسهم، من لفظهما، وإن عذب ولذ مستمعه، نعم في قول الشاعر:

وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المطِيِّ الأَبَاطِحُ

من لطافة المعنى وحسنه ما لا خفاء به، وسأنبه على ذلك فأقول: إن هؤلاء القوم لما تحدَّثوا وهم سائرون على المَطَايا شغلتهم لذة الحديث عن إمساك الأزِمَّة فاسْتَرْخَتْ عن أيديهم، وكذلك شأن من يَشْرَه وتغلبه الشهوة في أمر من الأمور، ولما كان الأمر كذلك وارتخت الأزِمَّة عن الأيدي أسرعت المطايا في المسير، فشبهت أعناقها بمرور السيل على وجه الأرض في سرعته، وهذا موضع كريم حسن لا مزيد على حسنه، والذي لا ينعم نظره فيه لا يعلم ما اشتمل عليه من المعنى، فالعرب إنما تحسِّن ألفاظها وتزخرفها عنايةً منها بالمعاني التي تحتها، فالألفاظ إذاً خَدَمُ المعاني، والمخدوم لا شك أشرف من الخادم، فاعرف ذلك وقسَ عليه.

النوع الأول
في الاستعارة

ولنقدم قبل الكلام في هذا الموضع قولاً جامعاً، فنقول: اعلم أن للفصاحة والبلاغة أوصافاً خاصة، وأوصافاً عامة؛ فالخاصة كالتجنيس فيما يرجع إلى اللفظ، وكالمطابقة فيما يرجع إلى المعنى، وأما العامة فكالسَّجْع فيما يرجع إلى اللفظ، وكالاستعارة فيما يرجع إلى المعنى، وهذا الموضع الذي نحن بصدد ذكره ـ وهو الاستعارة ـ كثير الإشكال، غامض الخفاء.

وسأورد في كتابي هذا ما استخرجته، ولم أسمع فيه قولاً لغيري؛ وكنت قدمت القول في الفصل السابع من مُقَدِّمة الكتاب فيما يختص بإثبات المجاز، والرد

على من ذهب إلى أنّ الكلام كله حقيقة لا مجاز فيه، وأقمت الدليل على ذلك، ولا حاجة إلى إعادته ههنا، بل الذي أذكره ههنا هو ما يختص بالاستعارة التي هي جزء من المجاز، ولم سميت بهذا الاسم، وكشفت عن حقيقتها، وميزتها عن التشبيه المضمر الأداة، والكلام في هذا يحتاج إلى إعادة ذكر المجاز، وإدخاله فيه، ليتقرر ويتبين.

والذي انكشف لي بالنظر الصحيح أن المجاز ينقسم قسمين: توسع في الكلام، وتشبيه، والتشبيه ضربان: تشبيه تام، وتشبيه محذوف؛ فالتشبيه التام: أن يذكر المشبه والمشبه به والتشبيه المحذوف: أن يذكر المشبه به، ويسمى استعارة، وهذا الاسم وضع للفرق بينه وبين التشبيه التام، وإلا فكلاهما يجوز أن يطلق عليه آسم التشبيه، ويجوز أن يطلق عليه آسم الاستعارة؛ لاشتراكهما في المعنى، وأما التوسع فإنه يذكر للتَّصَرُّف في اللغة، لا لفائدة أخرى، وإن شئت قلت: إن المجاز ينقسم إلى: توسع في الكلام، وتشبيه، واستعارة، ولا يخرج عن أحد هذه الأقسام الثلاثة، فأيها وجد كان مجازاً.

فإن قيل: إن التوسع شامل لهذه الأقسام الثلاثة؛ لأن الخروج من الحقيقة إلى المجاز اتساع في الاستعمال.

قلت في الجواب: إن التوسع في التشبيه والاستعارة جاء ضمناً وتبعاً، وإن لم يكن هو السبب الموجب لاستعمالهما؛ وأما القسم الآخر الذي هو لا تشبيه ولا استعارة فإن النسب في استماله هو طلب التوسع لا غير، وبيان ذلك أنه قد ثبت أن المجاز فرع عن الحقيقة، وأن الحقيقة هي الأصل، وإنما يعدل عن الأصل إلى الفرع لسبب اقتضاه، وذلك السبب الذي يعدل فيه عن الحقيقة إلى المجاز: إما أن يكون لمشاركة بين المنقول إليه في وصف من الأوصاف، وإما أن يكون لغير مشاركة؛ فإن كان لمشاركة: فإما أن يذكر المنقول والمنقول إليه معاً، وإما أن يذكر المنقول إليه دون المنقول؛ فإن ذكر المنقول والمنقول إليه معاً كان ذلك تشبيهاً، والتشبيه تشبيهان: تشبيه مظهر الأداة؛ كقولنا: زيد كالأسد، وتشبيه مضمر الأداة،

كقولنا: زيد أسد، وهذا التشبيه المضمر الأداة قد خَلَطَه قوم بالاستعارة، ولم يفرقوا بينهما، وذلك خطأ محض.

وسأوضح وجه الخطأ فيه، وأحقق القول في الفرق بينهما تحقيقاً جلياً، فأقول: أما التشبيه المظهر الأداة فلا حاجة بنا إلى ذكره ههنا؛ لأنه معلوم لا خلاف فيه، لكن نذكر التشبيه المضمر الأداة الذي وقع فيه الخلاف، فنقول: إذا ذكر المنقول والمنقول إليه على أنه تشبيه مضمر الأداة قيل فيه: زيد أسد، أي كالأسد، فأداة التشبيه فيه مضمرة، وإذا أظهرت حسن ظهورها، ولم تقدح في الكلام الذي أظهرت فيه، ولا تزيل عنه فصاحة ولا بلاغة، وهذا بخلاف ما إذا ذكر المنقول إليه دون المنقول، فإنه لا يحسن فيه ظهور أداة التشبيه، ومتى أظهرت أزالت عن ذلك الكلام ما كان متصفاً به من جنس فصاحة وبلاغة، وهذا هو الاستعارة، ولنضرب لك مثالاً نوضحه، فنقول: قد ورد هذا البيت لبعض الشعراء، وهو:

فَـرْعَـاءُ إِنْ نَهَضَتْ لِحَـاجَـتِهَـا عَجِـلَ الْقَضِيبُ وَأَبْطَأَ الـدِّعْص

وهذا قد ذكر فيه المنقول إليه دون المنقول؛ لأن تقديره عَجِلَ قَدٌ كالقضيب وأبطأ رِدْفٌ كالدِّعْص، وبين إيراده على هذا التقدير وبين إيراده على هيئته في البيت بَوْنٌ بعيد في الحسن والملاحة، والفرق إذاً أنَّ التشبيه المضمر الأداة يحسن إظهار أداة التشبيه فيه، والاستعارة لا يحسن ذلك فيها، وعلى هذا فإن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يُطْوَى ذكر المستعار له الذي هو المنقول إليه ويكتفي بذكر المستعار الذي هو المنقول.

فإن قيل: لا نسلم أن الفرق بين التشبيه وبين الاستعارة ما ذهبت إليه، بل الفرق بينهما أن التشبيه إنما يكون بأداته كالكاف وكأنَّ وما جرى مَجْرَاها؛ فما لم يظهر فيه أداة التشبيه لا يكون تشبيهاً، وإنما يكون استعارة، فإذا قلنا: زيد أسد، كان ذلك استعارة، وإذا قلنا: زيدٌ كالأسد، كان ذلك تشبيهاً.

قلت في الجواب عن ذلك: إذا لم نجعل قولنا: «يد أسد» تشبيهاً مضمر الأداء استحال المعنى؛ لأن زيداً ليس أسداً، وإنما هو كالأسد في شجاعته؛ فأداة التشبيه تقدر ههنا ضرورة كي لا يستحيل المعنى.

فإن قيل: وكذلك أيضاً إذا لم تقدّر أداة التشبيه في الاستعارة استحال المعنى؛ لأنا إذا قلنا: «عَجِلَ القضيبُ وأبطأ الدِّعْصُ» فما لم نقدّر فيه أداة التشبيه وإلا استحال المعنى.

قلت في الجواب عن ذلك: تقدير أداة التشبيه لا بد منه في الموضعين؛ لكن يحسن إظهارها في التشبيه، دون الاستعارة، وجملة الأمر أنا نرى أداة التشبيه يحسن إظهارها في موضع دون موضع؛ فعلمنا أن الموضع الذي يحسن إظهارها فيه غير الموضع الذي لا يحسن إظهارها فيه، فسمينا المواضع الذي يحسن إظهارها فيه تشبيهاً مضمر الأداء، والذي لا يحسن إظهارها فيه استعارة، وإنما فعلنا ذلك لأن تسمية ما يحسن إظهار أداة التشبيه فيه بالتشبيه أليق، وتسمية ما لا يحسن إظهار أداة التشبيه فيه بالاستعارة أليق، فإذا قلنا: «زيدٌ أسد» حسن إظهار أداة التشبيه فيه، بأن نقول: زيد كالأسد، وإذا قلنا كما قال الشاعر:

فَرْعَاءُ إِنْ نَهَضَتْ لِحَاجَتِهَا عَجِلَ الْقَضِيبُ وَأَبْطَأَ الدِّعْصُ

لا يحسن إظهار أداة التشبيه فيه، على ما تقدم من ذكر ذلك أولاً.

فإن قيل: إذا أجزت إضمار أداة التشبيه وقدّرت إظهارها في قولك: «زيد أسد» أي: كالأسد، فنحن نضمر أيضاً المستعار له ونقدر إظهاره؛ فإنه لما قال الشاعر: «عجل القضيب وأبطأ الدعص» أضمر المستعار له، وهو الْقَدُّ والرِّدْف، وإذا أظهر قيل: عجل قَدٌّ كالقضيب، وأبطأ رِدْفٌ كالدِّعْص؛ ولا فرق بين الإضمارين، فكما يَسَعُكَ إضمار أداة التشبيه في قولك «زيد أسد» فكذلك يسعنا نحن إضمار المستعار له في قول الشاعر.

فالجواب عن ذلك أني أقول: نحن في هذا المقام واقفون مع الاستحسان لامع الجواز، ولو تأملت ما أوردته في أول كلامي بالعَيْن الصحيحة لما أوردت عليّ هذا الاعتراض ههنا؛ فإني قلت: التشبيه المضمر الأداة يحسن إظهار أداء التشبيه فيه، والاستعارة لا يحسن إظهار أداة التشبيه فيها، ولو قلت: يجوز أو لا يجوز لَوَرَدَ عليّ هذا الاعتراض الذي ذكرته، وقد علم وتحقق أن من الواجب في حكم

الفصاحة والبلاغة ألاَّ يظهرَ المستعار له، وإذا أظهر ذهب ما على الكلام من الحسن والرونق، ألا ترى أنا إذا أوردنا هذا البيت الذي هو:

فَـأَمْـطَرَتْ لُؤْلُؤًا مِنْ نَـرْجِسٍ وَسَقَتْ وَرْداً وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَّـابِ بِـالْبَــرَدِ

وجد عليه من الحسن والرونق ما لا خفاء به، وهو من باب الاستعارة، فإذا أظهرنا المستعار له صرنا إلى كلام غَثٍّ، وذاك أنا نقول: فأمطرت دَمْعاً كاللؤلؤ من عين كالنرجس وسَقَتْ خداً كالورد وعضَّت عَلَى أنامِلَ مخضوبةٍ كالعُنَّاب بأسنـان كالبَرَدِ،د وفَرْقٌ بين هذين الكلامين للمتأمل واسع.

فَـرْعَـاءُ إنْ نَهَضَتْ لِحَـاجَتِهـا عجِلَ الْقَضِيبُ وَأَبْطَأَ الـدِّعْصُ

فإن هذا البيت لا خفاء بما عليه من الحسن، وإذا ظهر فيه المستعار له زال ذلك الحسن عنه، لا، بل تبدل بضده، وليس كذلك التشبيه المضمر الأداة، فإنا إذا أظهرنا أداة التشبيه وأضمرناها كان ذلك سواء؛ إذ لا فرق بين قولنا: «زيد أسد» وبين قولنا: «زيد كالأسد» وهذا لا يخفى على جاهل بعلم الفصاحة والبلاغة، فضلاً عن عالم، والمعوَّلُ عليه في تأليف الكلام من المنثور والمنـظوم إنما هـو حسنه وطلاوته، فإذا ذهب ذلك عنه فليس بشيء، ونحن في الذي نورده في هذا الكتاب واقفون مع الحسن، لا مع الجواز.

ثم لو تَنَزَّلْنَا معك أيها المعترض عن درجـة الحسن إلى درجة الجـواز لما استقام لك ما ذكرته، وذاك أن إضمار إداة التشبيه ظاهر في قولنا: «يد أسد» أي كالأسد، وهو مضمر واحد، وأما قول الشاعر: «فرعاء إن نهضت لحاجتها» فإنه لا يضمر فيه أداة التشبيه إلا بعد أن يظهر المستعار له، وحينئذ يكون فيه إضماران: أحدهما: المستعار له، والآخر: أداة التشبيه، وإضمار واحد أيسر من إضمارين: أحدهما معلق على الآخر، وإذا كان الأكر كذلك فالفرق بين الاستعارة والتشبيه هو ما قدمت القول فيه من أنّ الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له،

فتأمل ما أشرت إليه وتدبره حتى تعلم أني ذكرت ما لم يذكره أحد غيري على هذا الوجه.

وإنما سمي هذا القسم من الكلام استعارة لأن الأصل في الاستعارة المجازية مأخوذ من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة، وهي أن يستعير بعض الناس من بعض شيئاً من الأشياء، ولا يقع ذلك إلا من شَخْصَيْن بينهما سبب معرفةٍ مَا يقتضي استعارةَ أحدهما من الآخر شيئاً، وإذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر شيئاً؛ إذ لا يعرفه حتى يستعير منه، وهذا الحكم جار في استعارة الألفاظ بعضها من بعض، فالمشاركة بين اللفظين في نقل المعنى من أحدهما إلى الآخر كالمعرفة بين الشخصين في نقل الشيء المستعار من أحدهما إلى الآخر.

واعلم أنه قد ورد من الكلام ما يجوز حمله على الاستعارة وعلى التشبيه المضمر الأداة معاً، باختلاف القرينة، وذاك أن يرد الكلام محمولاً على ضمير من تقدم ذكره فينتقل عن ذلك إلى غيره ويرتجل ارتجالاً.

فمما جاء منه قول البحتري(١):

إِذَا سَفَـرَتْ أَضَـاءَتْ شَمْسَ دَجْنٍ وَمَـالَتْ في التَّعَـطُّفِ غُصْنَ بَـانِ

فلما قال: «أضاءت شمسَ دَجْنٍ» بنصب الشمس كان ذلك محمولاً على الضمير في قوله: «أضاءت» كأنه قال أضاءت هي، وهذا تشبيه؛ لأن المشبه مذكور، وهو الضمير في «أضاءت» الذي نابت عنه التاء، ويجوز حمله على الاستعارة بأن يقال: «أضاءت شمْسُ دجن» برفع الشمس، ولا يعود الضمير حينئذ إلى من تقدم ذكره، وإنما يكون الكلام مرتجلاً، ويكون البيت:

إِذَا سَفَـرَتْ أَضـاءَتْ شَمْسُ دَجْنٍ وَمَـالَ مِنَ التَّعَـطُّفِ غُصْـنُ بَـانِ

(١) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن المدبر، وأخاه إبراهيم، وأولها قوله:

عَنَـانِي مِنْ صُدُودِكَ مَـا عَنَـانِي وَعَـاوَدَنِي هَـوَاكَ كَمَـا بَـدَانِي

وهذا الموضع فيه دقة غموض، وحرف التشبيه يحسن في الأول دون الثاني.

وأما القسم الذي يكون العدول فيه عن الحقيقة إلى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول إليه فذلك لا يكون إلا لطلب التوسع في الكلام، وهو سبب صالح؛ إذ التوسع في الكلام مطلوب.

وهو ضربان: أحدهما: يرد على وجه الإضافة، واستعماله قبيح؛ لبعد ما بين المضاف والمضاف إليه، وذاك لأنه يلتحق بالتشبيه المضمر الأداة، وإذا ورد التشبيه ولا مناسبة بين المشبه والمشبه به كان ذلك قبيحاً، ولا يستعمل هذا الضربَ من التوسع إلا جاهل بأسرار الفصاحة والبلاغة، أو ساهٍ غافل يذهب به خاطره إلى استعمال ما لا يجوز ولا يحسن، كقول أبي نواس[١]:

بُحَّ صَوْتُ المَالِ مِمَّا ... مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ

فقوله: «بح صوت المال» من الكلام النازل بالمرة، ومراده من ذلك أن المال يتظلم من إهانتك إياه بالتمزيق، فالمعنى حسن، والتعبير عنه قبيح، وما أحسن ما قال مسلم بن الوليد في هذا المعنى[٢]:

تَظَلَّمَ المَالُ والأَعْدَاءُ مِنْ يَدِهِ ... لا زَالَ لِلْمَالِ وَالأَعْدَاءِ ظَلاماً

وكذلك ورد قول أبي نواس أيضاً[٣]:

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها العباس بن عبيدالله بن أبي جعفر المنصور، وأولها قوله:

غَرَّدَ ٱلدِّيكُ الصَّدُوحُ ... فَاسْقِنِي طَابَ الصَّبُوحُ

انظر الديوان (ص ٦٨).

(٢) من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن مزيد الشيباني، وأولها قوله:

طَيْفَ ٱلْخَيالِ حَمِدْنَا مِنْكَ إِلْمَامَا ... دَاوَيْتَ سُقْماً وَقَدْ هَيَّجْتَ أَسْقَامَا

(٣) من قصيدة له يمدح فيها إبراهيم بن عبيدالله الحجبي، وأولها قوله:

هَلْ عَرَفْتَ ٱلرَّبْعَ أَجْلَى ... أَهْلَهُ عَنْهُ فَزَالا

انظر الديوان (ص ١١٨).

مَـا لِـرَجْـلِ المَـالِ أَمْسَتْ تَـشْـتَـكِـي مِـنْـكَ الـكَـلَالَا

فإضافة الرِّجْل إلى المال أقبح من إضافة الصوت.

ومن هذا الضرب قول أبي تمام[1]:

وَكَمْ أَحْـرَزَتْ مِنْكُمْ عَلَى قُبْحِ قَـدِّهـا صُـرُوفُ النوَى مِنْ مُـرْهَفٍ حَسَنِ الْقَدِّ

فإضافة القدّ إلى النوى من التشبيه البعيد البعيد، وإنما أوقعه فيه المماثلة بين القد والقد، وهذا أدب الرجل في تتبع المماثلة تارة والتجنيس أخرى، حتى إنه ليخرج إلى بناءٍ يعاب به أقبح عيب وأفحشه.

وكذلك ورد قوله[2]:

بَلَوْنَـاكَ أَمَّا كَعْبُ عِـرْضِـكَ فِي الْعُـلَا فَعَـالٍ وَأَمَّـا خَـدُّ مَـالِـكَ أَسْفَـلُ[3]

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها موسى بن إبراهيم الرافقي ويعتذر إليه، وأولها قوله:

شَهِـدْتُ لَقَـدْ أَقْـوَتْ مَغَـانِيكُمْ بَعْـدِي ومحَّتْ كمـا محَّتْ وَشَـائِـعُ مِنْ بُـرْدِ

وله بيت آخر شبيه بهذا من قصيدة له يمدح فيها أبا العباس نصر بن منصور بن بسام، وأولها قوله:

أَأَطْـلَالَ هِنْـدٍ سَـاءَ مَـا اعْتَضْتِ مِنْ هِنْـدِ أَقَـايَضْتِ حُـورَ الْعِينِ بِـالْعُـورِ وَآلـرُّبْـدِ

والبيت المشار إليه هو قوله:

وَمَـقْـدُودَةٍ رُودٍ تَـكَـادُ تَـقُـدُّهَـا إِصَـابَتُهَـا بِـالْعَيْنِ مِنْ حَسَنِ الْـقَـدِّ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا المستهلّ محمد بن شقيق الطائي، وأولها قوله:

تَحَمَّـلَ عَنْـهُ الصَّبْـرُ يَـوْمَ تَحَـمَّلُوا وَعَـادَتْ صَبَاهُ فِي الصِّبَـا وَهْيَ شَمْـأَلُ

(٣) رواية الديوان في عجز البيت:

فَـعَـالٍ، وَلَـكِـنْ جَـدُّ مَـالِـكَ أَسْـفَـلُ

ورواية «لكن» خير من رواية «وأما»؛ لأن أما يلزم بعدما بعدها الفاء كما قال: «أما كعب عرضك في العلا فعال».

فقوله: كعب عرضك وخد مالك مما يستقبح ويستنكر، ومراده من ذلك أن عرضك مصون ومالك مبتذل، إلا أنه عبر عنه أقبح تعبير، وأبو تمام يقع في مثل ذلك كثيراً.

وأما الضرب الآخر من التوسع فإنه يرد على غير وجه الإضافة، وهو حسن لا عيب فيه، وقد ورد في القرآن الكريم؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فنسبة القول إلى السماء والأرض من باب التوسع؛ لأنهما جماد، والنطق إنما هو للإنسان لا للجماد، ولا مشاركة هٰهنا بين المنقول والمنقول إليه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾.

وعليه ورد قول النبي ﷺ؛ فإنه نظر إلى أُحُدٍ يوماً فقال: «هٰذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ» فإضافة المحبة إلى الجبل من باب التوسع؛ إذ لا مشاركة بينه وبين الجبل الذي هو جماد.

وعلى هذا ورد مخاطبة الطلول، ومساءلة الأحجار، كقول أبي تمام(١):

أَمِيْدَانَ لَهْوِي مَنْ أَتَاحَ لَكَ الْبِلَى ... فَأَصْبَحْتَ مَيْدَانَ الصَّبَا وَالْجَنَائِبِ

وكقول أبي الطيب المتنبي(٢):

إِثْلِثْ فَإِنَّا أَيُّهَا الطَّلَلُ ... نَبْكِي وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الإِبِلُ(٣)

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي، وأولها قوله:

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ ... تُذَالُ مَصُونَاتُ ٱلدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ

(٢) هذا مطلع قصيدة يمدح فيها عضد الدولة، وبعده قوله:

أَوْلَا فَلَا عَتْبٌ عَلَى طَلَلٍ ... إِنَّ الطُّلُولَ لِمِثْلِهَا فُعُلُ

(٣) يريدكن أيها الطلل ثالثاً في البكاء على فقد الأحبة؛ فنحن نبكي والإبل من تحتنا تساعدنا بحنينها، وهو قريب من قول البحتري:

أُطْلُبَا ثَالِثاً سِوَايَ فَإِنِّي ... رَابِعُ الْعِيسِ وَٱلدُّجَى وَالْبِيدِ

فأبو تمام سائل ربوعاً عافية وأحجاراً دارسة، ولا وجه لها هٰهنا إلا مساءلة الأهل؛ كالذي في قوله تعالى: ﴿وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: أهل القرية، وكل هذا توسع في العبارة؛ إذ لا مشاركة بين رسوم الديار وبين فهم السؤال والجواب، وكذلك قال أبو الطيب المتنبي في أمره الطلل بأن يكون ثالثاً لهما: أي الركب والإبل، وهذا واضح لا نزاع فيه.

فإذا قد تبين وتحقق ما أشرت إليه من هذا الموضع فالمجاز لا يخرج عن هذه الأقسام الثلاثة: إما توسع، أو تشبيه، أو استعارة، وإذا حققنا النظر في الاستعارة والتشبيه وجدناهما أمراً قياسياً في حمل فَرْعٍ على أصل لمناسبة بينهما، وإن كانا يفترقان بحدهما وحقيقتهما.

فأما حَدُّ الاستعارة فقيل: إنه نقل المعنى من لفظ إلى لفظ بسبب مشاركة بينهما، وهذا الحد فاسد؛ لأن التشبيه يشارك الاستعارة فيه، ألا ترى أنا إذا قلنا: «زيد أسد» أي كأنه أسد، وهذا نقل المعنى من لفظ إلى لفظ بسبب مشاركة بينهما؛ لأنا نقلنا حقيقة الأسد إلى زيد فصار مجازاً، وإنما نقلناه لمشاركة بين زيد وبين الأسد في وصف الشجاعة.

والذي عندي من ذلك أن يقال: حَدُّ الاستعارة نَقْلُ المعنى من لفظ إلى لفظ المشاركة بينهما مع طيٍّ ذكر المنقول إليه؛ لأنه إذا احترز فيه هذا الاحتراز اختصّ الاستعارة، وكان حدًّا لها دون التشبيه، وطريقة أنك تـريد تشبيـه الشيء بالشيء مظهراً ومضمراً، وتجيء إلى المشبه فتعيره اسم المشبه به، وتجريه عليه، مثال ذلك أن تقول: رأيت أسداً، وهذا كالبيت الشعر المقدم ذكره، وهو:

فَـرْعَـاءُ إِنْ نَهَضَتْ لِحَـاجَـتِهـا عَجِـلَ الْقَضِيبُ وَأَبْـطَأَ الـدِّعْصُ

فإن هذا الشاعر أراد تشبيه القدّ بالقضيب، والرِّدْف بالدِّعص الذي هو كثيب الرمل؛ فترك ذكر التشبيه مظهراً ومضمراً، وجاء إلى المشبه ـ وهو القدُّ [والرِّدْف] ـ فأعاره المشبه به ـ وهو القضيب والدعص ـ وأجراه عليه.

إلا أن هذا الموضع لا بدَّ له من قرينة تفهم من فحوى اللفظ؛ لأنه إذا قال

القائل: رأيت أسداً، وهو يريد رجلاً شجاعاً؛ فإن هذا القول لا يفهم منه ما أراد، وإنما يفهم منه أنه أراد الحيوان المعروف بالأسد، لكن إذا اقْتَرَنَ بقوله: هذا قرينة تدل على أنه أراد رجلاً شجاعاً اخْتَصَّ الكلام بما أراد، ألا ترى إلى قول الشاعر: «عَجِلَ الْقَضِيبُ وأبطأ الدِّعْصُ» فإنه دل عليه من نفس؛ لأن قوله: «فرعاء إن نهضت» دليل على أن المراد هو القدّ والردف[١]؛ لأن القضيب والدِّعص لا يكونان لامرأة فرعاء تنهض لحاجتها، وكذلك كل ما يجيء على هذا الأسلوب؛ لأن المستعار له وهو المنقول إليه مَطْوِيُّ الذكر.

وكنت تصفحت كتاب «الخصائص» لأبي الفتح عثمان بن جني، فوجدته قد ذكر في المجاز شيئاً يتطرق إليه النظر، وذلك أنه قال: لا يُعْدَل عن الحقيقة إلى المجاز إلا لمعان ثلاثة، وهي الاتساع، والتشبيه، والتوكيد؛ فإن عدمت الثلاثة كانت الحقيقة ألبتة.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ فهذا مجاز، وفيه الثلاثة المذكورة: أما الاتِّساع فهو أنه زاد في أسماء الجهات والمحالّ اسماً، وهو الرحمة، وأما التشبيه فإنه شَبَّه الرحمة وإن لم يَصِحَّ دخولها بما يصحّ دخوله، وأما التوكيد فهو أنه أخبر عما لا يُدْرَك بالحاسة بما يدرك بالحاسة؛ تعالياً بالمخبر عنه، وتفخيماً له إذا صير بمنزلة ما يشاهد ويعاين.

هذا مجموع قول أبي الفتح رحمه الله من غير زيادة ولا نقص.

والنظر يتطرق إليه من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه جعل وجود هذه المعاني الثلاثة سبباً لوجود المجاز، بل وجود واحد منها سبباً لوجوده؛ ألا ترى أنه إذا وجد التشبيه وحده كان ذلك مجازاً، وإذا وجد الاتساع وحده كان ذلك مجازاً، ثم إن كان وجود هذه المعاني الثلاثة سبباً

---

(١) وشيء آخر في هذا البيت يدل على أن المراد القد والردف؛ لا القضيب الحقيقي والدعص الحقيقي، وهو قوله «عجل» و «أبطأ»؛ فإن الذي يعجل ويبطىء هما المشبهان لا القضيب والدعص المشبه بهما.

لوجود المجاز كان عدم واحد منها سبباً لعدمه، ألا ترى أنّا إذا قلنا: لا يوجد الإنسان إلا بأن يكون حيواناً ناطقاً؛ فالحيوانية والنطق سبب لوجود الإنسان، وإذا عدم واحد منهما بطل أن يكون إنساناً، وكذلك كل صفات تكون متقدمة لوجود الشيء؛ فإن وجودها بوجوده، وعدم واحد منها يوجب عدمه.

وأما الوجه الثاني: فإنه ذكر التوكيد والتشبيه، وكلاهما شيء واحد على الوجه الذي ذكره؛ لأنه لما شبهت الرحمة، وهي معنى لا يدرك بالبصر، بمكان يُدْخَل، وهو صورة تدرك بالبصر، دخل تحته التوكيد الذي هو إخبار عما لا يدرك بالحاسة بما قد يدرك بالحاسة، على أن التوكيد ههنا، على وجه ما أورده في تمثيله، لا أعلم ما الذي أراد به، لأنه لا يؤتى به في اللغة العربية إلا لمعنيين: أحدهما: أنه يرد أبداً فيما استقري بألفاظ محصورة نحو نفسه وعينه وكله، وما أضيف إليها مما استقري، وهو مذكور في كتب النحاة، وقد كفيت مؤنته، الآخر: أنه يريد على وجه التكرير، نحو: قام زيد قام زيد، كرر اللفظ في ذلك تحقيقاً للمعنى المقصود: أي توكيداً، والذي ذكره أبو الفتح رحمه الله تعالى لا يدل على أن المراد به أحد هذين المعنيين المشار إليهما، ولا شك أنه أراد به المبالغة والمغالاة في إبراز المعنى الموهوم إلى الصورة المشاهدة، فعبر عن ذلك بالتوكيد، ولا مُشَاحَّة له في تعبيره، وإذا أراد به ذلك فهو والتشبيه سواء على ما ذكره، ولا حاجة إلى ذكر التوكيد مع ذكر التشبيه.

وأما الوجه الثالث: فإنه قال: «أما الاتساع فهو أنه زاد في أسماء الجهات والمحال كذا وكذا» وهذا القول مضطرب شديد الاضطراب؛ لأنه ينبغي على قياسه أن يكون جَناح الذل في قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ زيادة في أسماء الطيور، وذلك أنه زاد في أسماء الطيور اسماً هو الذل، وهكذا يجري الحكم في الأقوال الشعرية كقول أبي تمام[1]:

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي، وأولها قوله:

أَظُنُّ دُمُوعَهَا سَنَنَ الْفَرِيدِ وَهَي سِلْكَاهُ مِنْ نَحْرٍ وَجِيدِ

انظر الديوان (ص ١٠٤).

لَبِسْتُ سِوَاهُ أقْوَاماً فكَانُوا كَمَا أغْنَى التَّيَمُّمُ بِالصَّعِيدِ

فزاد في أسماء اللباس اسماً، هو الآدمي، وهذا مما يضحك منك، نعوذ بالله من الخطل!! والاتساع في المجال لا يقال فيه كذا، وإنما يقال: هو أن تجرى صفة من الصفات على موصوف ليس أهلاً لأن تجرى عليه؛ لبعد ما بينه وبينها؛ كقول أبي الطيب المتنبي:

إثْلِثْ فَإنَّا أيُّهَا الطَّلَلُ نَبْكِي وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الإبِلُ[1]

فإنه أجري الكلام على ذلك، وإنما يستعمل طلباً للاتساع في أساليب الكلام، لا لمناسبة بين الصفة والموصوف؛ إذ لو كان لمناسبة لما كان ذلك اتساعاً، وإنما كان ضرباً من القياس في حمل الشيء على ما يناسبه ويشاكله، وحينئذ يكون ذلك تشبيهاً أو استعارة، على ما أشرت إليه من قبل.

وكنت اطلعت في كتاب من مصنفات أبي حامد الغزالي رحمه الله ألفه في أصول الفقه، ووجدته قد ذكر الحقيقة والمجاز، وقسم المجاز إلى أربعة عشر[2]

(١) سبق قريباً ذكر هذا البيت (انظر ص ٣٥٠ من هذا الجزء).

(٢) هذا الذي ذكره المؤلف من الاعتراض علي أبي حامد ليس سديداً؛ ونحن نذكر لك شيئاً من التفصيل في التقسيم؛ فنقول: هب أنك تريد أن تقسم الموجودات؛ فقلت في التقسيم: الموجودات تنقسم إلى ثلاثة أقسام: حيوان، ونبات، وجماد؛ فهذه أقسام ثلاثة تحصر جميع الموجودات، وكل قسم منها يقابل الآخر ولا يجتمع معه في شيء؛ فإذا قلت: الموجودات تنقسم إلى أقسام كثيرة؛ منها الجماد، ومنها النبات، ومنها الإنسان، ومنها الأسد، ومنها الفرس، ومنها الجمل؛ فهذا تقسيم صحيح أيضاً، والفرق بينه وبين التقسيم الأول أنه فصل النوع الثالث في التقسيم الأول بعض التفصيل؛ فلو أنه ذكر جميع أنواع الحيوان فلم يترك منها شيئاً كان في الاستيعاب والصحة مثل الأول تماماً، فإن ترك منها شيئاً ولم يقل في العبارة ما يدل على أنه لا يستقرىء كان التقسيم غير حاصر. وتقسيم أبي حامد رحمه الله من النوع الثاني؛ فإنه عدد بعض أنواع القسم الذي سماه المؤلف ههنا التوسع، وهو نوع من المجاز يسميه المتأخرون المجاز المرسل. والذي ذكره أبو حامد أولى مما ذكره المؤلف؛ لاشتماله على تفصيل المجمل في كلامه؛ فتدبر ذلك وتفهمه جيداً.

قسماً، وتلك الأربعة عشر ترجع إلى الثلاثة التي أشرت إليها، وهي: التوسع، والتشبيه، والاستعارة، ولا تخرج عنها؛ والتقسيم لا يصح في شيء من الأشياء إلا إذا اختص كل قسم من الأقسام بصفة لا يختص بها غيره، وإلا كان التقسيم لغواً لا فائدة فيه.

وسأورد ما ذكره وأبيّن فساده.

فالقسم الأول من الأقسام التي ذكرها هو: ما جعل للشيء بسبب المشاركة في خاصة، كقولهم للشجاع: أسد، وللبليد: حمار، وهذا القسم داخل في الاستعارة، إن ذكر المنقول وحده، مثل أن يقول القائل: رأيت أسداً، ومراده رجلا شجاعاً، أو رأيت حماراً، ومراده رجلًا بليداً، وداخل في التشبيه المضمر الأداة، إن ذكر المنقول والمنقول إليه معاً، كقول القائل: زيد أسد: أي كالأسد، أو حمار: أي كالحمار.

القسم الثاني: تسمية الشيء باسم ما يئول إليه، كقوله تعالى: ﴿**إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمراً**﴾ وإنما كان يَعْصِرُ عنباً، وهذا القسم داخل في القسم الأول؛ لصفة المشابهة بين المنقول والمنقول إليه، وهو من باب الاستعارة[1]، لا، بل أوغل في المشابهة من ذاك؛ لأن الخمر من العنب، وليس الأسد من الرجل، ولا الرجل من الأسد.

القسم الثالث: تسمية الشيء باسم فرعه، كقول الشاعر:

وَمَـا الْعَيْشُ إلاَّ نَـوْمَـةٌ وَتَشَـرُّقٌ ... وَتَمْـرٌ عَلَى رَأْسِ النَّخِيـلِ وَمَـاءُ

(١) لا، ليس هذا من الاستعارة وإن جلف المؤلف على ذلك، بل هو مما سماه المؤلف التوسع، وهو في التحقيق كما ذكر أبو حامد من باب تسمية الشيء باسم ما يئول إليه؛ فإن العصير الذي هو ماء العنب يصير خمراً، وهو إنما يقصد لما يصير إليه، وسترى أثر العنت في الجدل ظاهراً على كثير من نقد المؤلف لأبي حامد، فنكتفي بهذه الإشارة عن القول عن كل كلمة منه بمفردها.

فسمي الرطب تمراً، وهذا القسم والقسم الذي قبله سواء؛ لأن هناك سمى العنب خمراً، وههنا سمى الرطب تمراً؛ فالعنب أصل، والخمر فرع، وكذلك الرطب أصل والتمر فرع، وكلا هذين القسمين داخل في القسم الأول.

وهب أن الغزالي لم يحقق أمر المجاز وانقسامه إلى تلك الأقسام الثلاثة التي أشرت إليها، ألم ينظر إلى هذين القسمين اللذين هما العنب والخمر والرطب والتمر ويعلم أنهما شيء واحد لا فرق بينهما؟.

القسم الرابع: تسمية الشيء باسم أصله، كقولهم للآدمي: مُضْغَة، وهذا ضد القسم الذي قبله؛ لأن ذاك جعل الأصل فيه فرعاً، وهذا جعل الفرع فيه أصلاً، وهو داخل في القسم الأول أيضاً.

القسم الخامس: تسمية الشيء بدواعيه، كتسميتهم الاعتقاد قَوْلاً، نحو قولهم: هذا يقولُ بقول الشافعي رحمه الله: أي يعتقد اعتقاده، وهذا القسم داخل في القسم الأول؛ لأن بين القول وبين الاعتقاد مناسبة كالمناسبة بين السبب والمسبب والباطن والظاهر.

القسم السادس: تسمية الشيء باسم مكانه، كقولهم للمطر: سَمَاء؛ لأنه ينزل منها، وهذا القسم داخل في الأول؛ لصفة المناسبة بين المنقول والمنقول إليه، وهو النزول من عالٍ، وكل ما علاك فأظَلَّكَ فهو سماء، على أن الأغلب على ظني أن هذا القسم من الأسماء المشتركة، وتسمية المطر بالسماء حقيقة فيه، وليس من المجاز في شيء.

القسم الرابع: تسمية الشيء باسم مُجَاوِرِه، كقولهم لِلْمَزادَةِ: راوية، وإنما الراوية الجملُ الذي يحملها، وهذا القسم من باب التوسع، لا من باب التشبيه، ولا من باب الاستعارة؛ لأن على قياسه ينبغي أن يسمى الجمل زاملة لأنه يحملها.

القسم الثامن: تسمية الشيء باسم جزئه، كقولك لمن تبغضه: أبعدَ الله وَجْهَه عني، وإنما تريد سائر جثته، وهذا القسم داخل في القسم الأول، وهو شبيه بتسمية الشيء باسم فرعه.

القسم التاسع: تسمية الشيء باسم ضدِّه، وكقولهم للأسود والأبيض: جَوْن، وهذا القسم ليس من المجاز في شيء ألبتة، وإنما هو حقيقة في هذين المسميين معاً؛ لأنه من الأسماء المشتركة، كقولهم: شِمْتُ السيف، إذا سللته، وشمَته، إذا أغمدته، فدل الشيم على الضدين معاً بالوضع الحقيقي؛ وفي اللغة من هذا شيء كثير، فكيف يجعل هذا القسم من المجاز؟.

ولا شك أن الغزالي نظر إلى أن الضدين لا يجتمعان في محل واحد، فقاس الاسم على الذات، وظن أن الذاتين لا يجتمعان في اسم واحد، كما أنهما لا يجتمعان في محل واحد.

فإن قيل: لا نسلم أن اللفظ المشترك حقيقة بالوضع في المعنيين معاً؛ لأن ذلك يخلُّ بفائدة الوضع الذي هو البيان، وإنما هو حقيقة في أحد معنييه مجاز في الآخر.

فالجواب عن ذلك: أن هذا الموضع تَقَدَّمَ الكلام عليه في الفصل الثاني من مقدمة الكتاب، وهو الفصل الذي يشتمل على آلات علم البيان وأدواته، فليؤخذ من هناك، فإني قد أشبعت القول فيه إشباعاً لا مزيد عليه.

القسم العاشر: تسمية الشيء بفعله، كتسمية الخمر مُسْكراً، وهذا القسم داخل في القسم الأول، وأيُّ مشاركة أقرب من هذه المشاركة؟ فإن الإسكار صفة لازمة للخمر، وليست الشجاعة صفة لازمة لزيد؛ لأنه يمكن أن يكون زيد ولا شجاعة، ولا يمكن أن يكون خمر ولا إسكار، ألا ترى أنها لم تسم خمراً إلا لإسكارها، فإنها تخمر العقل: أي تستره.

القسم الحادي عشر: تسمية الشيء بكله، كقولك في جواب: «ما فعل زيد»: القيام، والقيام جنس يتناول جميع أنواعه، وهذا القسم لا ينبغي أن يوصل بأقسام المجاز؛ لأن القيام لزيد حقيقة.

فإن قيل: إن القيام يشمل جميع أنواع القيام من الماضي والحاضر والمستقبل.

قلت: وهذا من أقرب أقسام المجاز مناسبة؛ لأنه إقامة للمصدر مقام الفعل الماضي، والمصدر أصل الفعل، وعلى هذا فإن هذا داخل في القسم الأول.

القسم الثاني عشر: الزيادة في الكلام لغير فائدة، كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ فما ههنا زائدة لا معنى لها: أي فبرحمة من الله لنت لهم، وهذا القول لا أراه صواباً، وفيه نظر من وجهين: أحدهما: أن هذا القسم ليس من المجاز؛ لأن المجاز هو دلالة اللفظ على غير ما وضع له في أصل اللغة، وهذا غير موجود في الآية، وإنما هي دالة على الوضع اللغوي المنطوق به في أصل اللغة؛ والوجه الآخر: أني لو سلمت أن ذلك من المجاز لأنكرت أن لفظة «ما» زائدة لا معنى لها، ولكنها وردت تفخيماً لأمر النعمة التي لاَنَ بها رسول الله ﷺ له، وهي محض الفصاحة، ولو عرى الكلام منها لما كانت له تلك الفخامة، وقد ورد مثلها في كلام العرب، كالذي يحكى عن الزباء، وذاك أن الوَضّاح الـذي هو جَـذِيمة الأبـرش تزوَّجها، والحكاية في ذلك مشهورة، فلما دخل عليها كشفت له عن فرجها وقد ضفرت الشعر من فوقه ضفيرتين، وقالت: أذات عرس ترى(١)؛ أما إنه ليس ذلك من عوز المواس، ولا من قلة الأواس، ولكنه شيمةُ ما أُنَاس، فمعنى الكـلام ولكنه شيمة أناس، وإنما جاءت لفظة «ما» ههنا تفخيماً لشأن صاحب تلك الشيمة وتعظيماً لأمره، ولو أسقطت لما كان للكلام ههنا هذه الفخامة والجزالة، ولا يعرف ذلك إلا أهله من علماء الفصاحة والبلاغة، وأما الغزالي رحمه الله تعالى فإنه معذور عندي في ألَّا يعرفَ ذلك؛ لأنه ليس فنه، ومن ذهب إلى أن في القرآن لفظاً زائداً لا معنى له فإما أن يكون جاهلاً بهذا القول، وإما أن يكون متسمحاً في دينه واعتقاده، وقول النحاة إن «ما» في هذه الآية زائدة فإنما يعنون به أنها لا تمنع ما قبلها عن العمل؛ كما يسمونها في موضـع آخر كَـافَّةً: أي أنهـا تكفّ الحرف العـامل عن عمله؛ كقولك: إنما زيدٌ قائم، فما قد كفت إنّ عن العمل في زيد، وفي الآية لم تمنع عن العمل، ألا ترى أنها لم تمنع الباء عن العمل في خفض الرحمة.

---

(١) في ب، ج «أذات عروس ترى».

القسم الثالث عشر: تسمية الشيء بحكمه، كقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ فسمي النكاح هبة، وهذا القسم داخل في القسم الأول؛ لأن النكاح هو تمكين الزوج من الوطء على عوض على هيئة مخصوصة، والهبة، تمكينه من الشيء الموهوب على غير عوض، فشاركت الهبة النكاح في نفس التمكين من الوطء، وإن اختلفا في الصورة.

القسم الرابع عشر: النقصان الذي لا يبطل به المعنى، كحذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً﴾ أي: شخصاً بريئاً، وكحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ قال الله تعالى: ﴿وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: أهل القرية؛ وهذا القسم داخل في القسم الأول: أما حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه فلأن الصفة لازمة للموصوف، وأما حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه فلأنه دل بالمسكون على الساكن، وتلك مقارنة قريبة.

فهذه أقسام المجاز التي ذكرها الغزالي رحمه الله تعالى، وقد بينت فساد التقسيم فيها، وأنها ترجع إلى ثلاثة أقسام، هي: التوسع، والتشبيه، والاستعارة.

وحيث انتهى بي الكلام إلى ههنا، وفرغت مما أردت تحقيقه، وبينت ما أردت بيانه؛ فإني أتبع ذلك بضرب الأمثلة للاستعارة التي يستفيد بها المتعلم ما لا يستفيده بذكر الحد والحقيقة.

فمما جاء من ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى في أول سورة إبراهيم صلوات الله عليه: ﴿آلر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فالظلمات والنور: استعارة للكفر والإيمان، أو للضلال والهدى، والمستعار له مطويّ الذكر، كأنه قال: لتخرج الناس من الكفر الذي هو كالظلمة إلى الإيمان الذي هو كالنور.

وكذلك ورد قوله تعالى في هذه السورة أيضاً: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ والقراءة برفع لتزول منه

الجبال ليست من باب الاستعارة، ولكنها في نصب تزول، واللام لام كي، والجبال ههنا: استعارة طوى فيها ذكر المستعار له، وهو أمر رسول الله ﷺ وما جاء به من الآيات والمعجزات: أي إنهم مكروا مكرهم لكي تزول منه هذه الآيات والمعجزات التي هي في ثباتها واستقرارها كالجبال.

وعلى هذا ورد قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ فاستعار الأودية للفنون والأغراض من المعاني الشعرية التي يقصدونها، وإنما خص الأودية بالاستعارة ولم يستعر الطرق والمسالك أو ما جرى مجراها لأنّ الشعر تستخرج بالفكرة والروية، والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض؛ فكان استعارة الأودية لها أشبه وأليق.

والاستعارة في القرآن قليلة، لكن التشبيه المضمر الأداة كثير، وكذلك هي في فصيح الكلام من الرسائل والخطب والأشعار؛ لأن طيّ المستعار له لا يتيسر في كل كلام، وأما التشبيه المضمر الأداة فكثير سهل؛ لمكان إظهار المشبه والمشبه به معاً.

ومما ورد من الاستعارة في الأخبار النبوية قول النبيّ ﷺ: «لَا تَسْتَضِيئوا بِنَارِ الْمشْرِكِينَ» فاستعار النار للرأي والمشورة: أي لا تهتدوا برأي المشركين ولا تأخذوا بمشورتهم.

وروي عنه ﷺ أنه دخل يوماً مُصَلاه فرأى أناساً كأنهم يكثرون، فقال: «أمَا إنَّكُم لَوْ أَكْثَرْتُمْ مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ لَشَغَلَكُمْ عَـمّا أَرَى» وهاذم اللذات أراد به الموت، وهو مطويّ الذكر.

وبلغني عن العرب أنهم يقولون عند رؤية الهلال: لَا مَرْحَباً بِاللجينِ مُقَرِّبُ أَجَل ومَحْل، وهذا من باب الاستعارة في طيّ ذكر المستعار له.

وكذلك بلغني عن الحجاج بن يوسف أنه خطب خطبة عند قدومه العراق في أول ولايته إياه، والخطبة مشهورة، من جملتها أنه قال: إنَّ أميرَ المؤمنين نَثَلَ كنانَتَهُ وعَجَمَها عُوداً عُوداً، فرآني أصْلَبَها نجَاراً وَأقْوَمَها عُوداً وأنْفَذَها نَصْلاً، فقوله: «نثل

كنانته وعجمها عوداً عوداً» يريد أنه عَرَض رجاله واختبرهم واحداً واحداً جد اختباره[1] فرآني أشدهم وأمضاهم، وهذا من الاستعارة الحسنة الفائقة.

وقد جاءني من الاستعارة في رسائلي ما أذكر شيئاً منه، ولو مثالاً واحداً، وذلك أنه سألني بعض الأصدقاء أن أصف له غلامين تركيين كان يهواهما، وكان أحدهما يلبس قباء أحمر، والآخر قباء أسود، فقلت: إذا تَشَعَّبَتْ أسبابُ الهوى كانت لسره أظهر، وأضحت أمْرَاضُهُ خطراً كلها ولا يقال في أحدها هذا أخطر، وقد هويت بدرين على غصنين، ولا طَاقَةَ للقلب بهوى واحد فكيف إذا حمل هوى اثنين، ومما شجاني أنهما يتلونان في أصباغ الثياب، كما يتلونان فيَ فنون التجرم والعتاب، وقد استجدَّا الآن زياً لا مزيد على حسنهما في حسنه، فهذا يخرج في ثوب من حمرة خده وهذا في ثوب من سواد جفنه، وما أدري من دَلَّهما على هذا العجيب، غير أنه ليس على فتنة المحب أهدى من حبيب.

وهذا الفصل بجملته مما تواصفه الناس وأغروا بحفظه.

وأما ما ورد من ذلك شعراً فكقول مسكين الدارمي من شعراء الحماسة[2]:

لِحَافِي لِحَافُ الضَّيْفِ وَالْبَيْتُ بَيْتُهُ ... وَلَمْ يُلْهِني عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّعُ

أُحَدِّثُهُ؛ إنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقِرَى ... وَتَعْلَمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ

فالغزال المقنع هذا استعارة للمرأة الحسناء.

وكذا ورد قول رجل من بني يسار في كتاب الحماسة أيضاً[3]:

(١) في أ، ب، ج «حد اختباره» بالحاء المهملة.

(٢) البيتان نسبهما أبو تمام في الحماسة لعتبة بن بجير، لكن قال التبريزي: «ويقال إنهما لمسكين الدارمي» انظر شرح التبريزي (١ - ٢٤٣).

(٣) البيتان نسبهما أبو تمام لرجل من بني أسد، يقولهما في يوم اليمامة، وقد تقدم ذكرهما في هذا الجزء (ص ٢٧٥).

أَقُــولُ لِنَفْسِي حِينَ خَــوَّدَ رَأْلُـهَــا ... رُوَيْـدَكِ لَمَّا تُشْفِقِي حِينَ مُشْفَقِ[1]

رُوَيْــدَكِ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلِي ... عَمَـايَةُ هٰـذَا الْعَـارِضِ الْمُتَـأَلِّقِ[2]

فالعارض المتألق: استعارة للحرب، أو الذي أطل بمكروهه كالبارق المتألق.

ويحكى أن امرأة وقفت لعبدالملك بن مروان وهو سائر إلى قتال مُصْعَب بن الزبير، فقالت: يا أمير المؤمنين؛ فقال: رويدك حتى تنظري عَمَّ تنجلي، وأنشد البيت.

ومن هذا الباب قول عبدالسلام بن رَغْبَان[3] المعروف بديك الجن:

لَمَّـا نَظَرْتِ إِلَيَّ عَنْ حَـدَقِ المَهَـا ... وَبَسَمْـتِ عَنْ مُـتَفَـتِّـحِ النُّـوَّارِ

وَعَقَــدْتِ بَيْنَ قَضِيبِ بَــانٍ أَهْيَفٍ ... وَكَـثِيـبِ رَمْـلٍ عُـقْـدَةَ الـزُّنَّـارِ

عَفَّرْتُ خَدِّي في الثَّرَى لَكِ طَـائِعاً ... وَعَـزَمْتُ فِيـكِ عَلَى دُخُـولِ النَّـارِ

وهذه الأبيات لا تجد لها في الحسن شريكاً، ولأن يسمى قائلها شحروراً أولى من أن يسمى ديكاً.

وكذلك ورد قوله:

لَا وَمَكَــانِ الصَّلِيبِ فِي النَّحْـرِ مِنْـ ... ـكَ وَمَجْـرَى الـزُّنَّـارِ فِي الْخَصْـرِ

وَالْخَــالِ فِي الْـخَــدِّ إِذْ أَشْبَـهَــهُ ... وَرْدَةُ مِـسْــكٍ عَـلَـى ثَــرَى تِـبْــرِ

---

(١) وقع هذا البيت محرفاً في أ، ب، ج ههنا، فورد فيها هكذا:

أقُـولُ لِـنَفْـسِي حِيـنَ حقّ زوالـهـا ... رُوَيْــدَكِ لَمَّــا تَشْتقـي حيـن مشفق

مع أنه ورد في الموضع الذي أشرنا إليه من هذا الجزء صحيحاً فيها.

(٢) ورد في أ، ب، ج هنا «غمامة هذا العارض المتألق» وورد في الموضع السابق فيها «غيابة هذا العارض» وما أثبتناه ههنا عن الحماسة.

(٣) وقع في أ، ب، ج «بن رعبان» بالعين المهملة في اسم أبيه (انظر ص ١٢٦ هـ ١ و ص ٢٩٢ هـ ٢ من هذا الجزء).

وَحَاجِبٍ مُذْ خَطَّهُ قَلَمُ الْـ ـحُسْنِ بِحِبْرِ الْبَهَاءِ لَا الْحِبْرِ
وَأُقْحُوَانٍ بِفِيكَ مُنْتَظِمٍ عَلَى شَبِيهٍ مِنْ رَائِقِ الْخَمْرِ

فالبيت الرابع هو المخصوص بالاستعارة، والمستعار له هو الثغر والريق.

ومما ورد لأبي تمام في هذا المعنى قوله[1]:

لَمَّا غَدَا مُظْلِمَ الأَحْشَاءِ مِنْ أَشَرٍ أَسْكَنْتَ جَانِحَتَيْهِ كَوْكَباً يَقِدُ

فالكوكب: استعارة للرمح.

وكذلك ورد قوله في الاعتذار[2]:

أسرى طريداً لِلْحَيَاءِ مِنَ الَّتِي زَعَمُوا وَلَيْسَ لِرَهْبَةٍ بِطَرِيدِ
وَغَداً تَبَيَّنُ مَا بَرَاءَةَ سَاحَتِي لَوْ قَدْ نَفَضْتَ تَهَائِمِي وَنُجُودِي

والتهائم والنجود: هما استعارة مما استعاره من باطن أمره وظاهره.

وكذلك ورد قوله[3]:

كَمْ أَحْرَزَتْ قُضُبُ الْهِنْدِيِّ مُصْلَتَةً تَهْتَزُّ مِنْ قُضُبٍ تَهْتَزُّ فِي كُثُبِ

فالقُضُب والكُثُب: استعارة للقدود والأرداف.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي، وأولها قوله:

يَا بُعْدَ غَايَةِ دَمْعِ الْعَيْنِ إِنْ بَعُدُوا هِيَ الصَّبَابَةُ طُولَ آلدَّهْرِ وَالسُّهُدُ

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن أبي داود، ويستشفع له بخالد بن يزيد، وأولها قوله:

أَرَأَيْتَ أَيُّ سَوَالِفٍ وَخُدُودِ عَنَّتْ لَنَا بَيْنَ اللِّوَى فَزَرُودِ

(٣) من قصيدته المشهورة التي يمدح فيها المعتصم بعد فتح عمورية، وأولها قوله:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

وكذلك ورد في هذه القصيدة أيضاً عند ذكر ملك الروم وانهزامه لما فتحت مدينة عَمُّورية، فقال:

إنْ يَعْدُ مِنْ حَرِّهَا عَدْوَ الظَّلِيمِ فَقَدْ ... أوْسَعْتَ جَاحِمَهَا مِنْ كَثْرَةِ الحَطَبِ

فالحطب: استعارة للقتلى.

وقبل هذا البيت ما يدل عليه؛ لأنه قال:

أحْذَى قَرَابِيْنَهُ صِرْفَ الرَّدَى وَمَضَى ... يحْتَثُّ أنْجَى مَطَايَاهُ مِنَ الهَرَبِ

مُوَكَّلاً بِيَفَاعِ الأَرْضِ يُشْرِفُهَا ... مِنْ خِفَّةِ الْخَوْفِ لاَ مِنْ خِفَّةِ الطَّرَبِ

إن يعد من حرها عدو الظليم ... . البيت

وأحسن من هذا كله قوله[1]:

تِطِلُّ الطُلولُ الدَّمْعَ في كُلِّ مَنْزِلٍ ... وَتَمْثُلُ بِالصَّبْرِ الدِّيَارُ المَوَاثِلُ

دَوَارِسُ لَمْ يَجْفُ الرَّبيعُ رُبُوعَهَا ... وَلاَ مَرَّ في أَغْفَالِهَا وَهْوَ غَافِلُ

يُعَفِّينَ مِنْ زَادِ الْعُفَاةِ إِذَا انْتَحَى ... عَلَى الْحَيِّ صِرْفُ الأَزْمَةِ الْمُتَحَامِلُ[2]

فقوله: «زاد العفاة»: استعارة طوى فيها ذكر المستعار له، وهو أهل الديار، كأنه قال: يعفين من قوم هم زاد العفاة.

وله في الغزل من الاستعارة ما بلغ به غاية اللطافة والرقة، وذلك في قصيدته التي مطلعها:

إنَّ عَهْداً لَوْ تَعْلَمَانِ ذَمِيمَا[3]

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات، وأولها قوله:

مَتَى أنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةِ الْحَيِّ ذَاهِلُ ... وَقَلْبُكَ مِنْهَا مُدَّةَ الدَّهْرِ آهِلُ

(٢) في أ، ب، ج «ضرب الأزمة» وهو تحريف، وتصويبه عن الديوان.

(٣) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد، وعجزه قوله:

أنْ تَنَامَا عَنْ لَيْلَتِي أوْ تُنِيمَا

فقال:

قَدْ مَرَرْنَا بِالدَّارِ وَهْيَ خَلاَءٌ فَبَكَيْنَا طُلولَها وَالرُّسُومَا
وَسَأَلْنَا رُبُوعَهَا فَانْصَرَفْنَا بِسَقَامٍ وَمَا سَأَلْنَا حَكِيماً[1]
كُنْتُ أَرْعَى النُّجُومَ حَتَّى إذَا مَا فَارَقُونِي أَمْسَيْتُ أَرْعَى النُّجُومَا[2]

والبيت الثالث هو المخصوص بالاستعارة.

وعلى هذا المنهاج ورد قول البحتري:

وَأَغَرَّ في الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ قَدْ رُحْتُ مِنْهُ عَلَى أَغَرَّ مُحَجَّلِ

والأغر المحجل الأول: هو الممدوح، والأغر المحجل الثاني: هو الفرس الذي أعطاه إياه.

وكذلك ورد قوله[3]:

وَصَاعِقَةٍ في كَفِّهِ تَنْكَفِي بِهَا عَلَى أَرْؤُسِ الأَعْدَاءِ خَمْسُ سَحَائِبِ

وهذا من النمط العالي الي شغلت براعة معناه وحسن سبكه عن النظر إلى استعارته؛ والمراد بالسحائب الخمس الأصابع.

وكذلك ورد في أبيات الحماسة[4]:

---

(١) في الديوان:

بِشِفَاءٍ وَمَا سَأَلْنَا حَكِيمَا

(٢) الذي في الديوان:

كُنْتُ أَرْعَى الْبُدُورَ حَتَّى إذَا مَا فَارَقُونِي أَمْسَيْتُ أَرْعَى النُّجُومَا

(٣) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن يوسف، وأولها قوله:

هَبِيهِ لِمُنْهَلِّ الدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ وَهَبَّاتِ شَوْقٍ فِي حَشَاهُ لَوَاعِبِ

(٤) هذان البيتان ليسا من شعر الحماسة الذي اختاره أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، وقد يفهم =

دَكَّ طَوْدَ الْكُفْرِ دَكًّا ... صَاعِقٌ مِنْ وَقْعِ سَيْفِكْ
أَرْسَلَتْهُ خَمْسُ سُحْبٍ ... نَشَأَتْ مِنْ بَحْرِ كَفِّكْ

وكذلك ورد قوله في أبيات يصف فيها السيف:

حَمَلَتْ حَمَائِلُهُ الْقَدِيمَةُ بَقْلَةً ... مِنْ عَهْدِ عَادٍ غضةً لَمْ تَذْبُلِ

وهذا من الحسن على ما يشهد لنفسه، كأنه قال: حملت حمائله سيفاً أخضر الحديد كالبقلة.

وعلى هذا الأسلوب ورد قول أبي الطيب المتنبي(١):

فِي الْخَدِّ إِنْ عَزَمَ الْخَلِيطُ رَحِيلاَ ... مَطَرٌ تَزِيدُ بِهِ الْخُدُودُ مُحُولاَ(٢)

وكذلك ورد قوله:

يمد يديه في المفاضة ضيغم

وأحسن من هذا قوله في قصيدته التي مطلعها:

عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَغَى نَدَمُ(٣)

= من كلام المؤلف أنها منه؛ فقد اشتهر على ألسنة العلماء والأدباء أنهم يقولون «قال الحماسي» أو «وفي شعر الحماسة» فينصرف ذلك إلى أنه من ديوان الحماسة.

(١) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها بدر بن عمار.

(٢) الخليط في الأصل: الذي يعاشرك، وأراد ههنا الحبيب، ومحول الخدود: ذهاب نضرتها وشحوبها. وقد نظر أبو الطيب في هذا إلى قول الشاعر:

لَوْ نَبَتَ الْعُشْبُ مِنْ دُمُوعٍ ... لَكَانَ فِي خَدِّيَ الرَّبِيعُ

(٣) هذا صدر المطلع وعجزه قوله:

مَاذَا يَزِيدُكَ فِي إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ

وهي قصيدة يمدح فيها سيف الدولة، ويعرض بابن شمشقيق بطريق الروم؛ وكان قد حلف لملك الروم أن يلقى سيف الدولة في بطارقته، ففعل، فغيب الله ظنه، وأتعس جده.

وَأَصْبَحَتْ بِقُرَى هِنْزِيطَ جَائِلَةً تَرْعَى الظُّبَى في خَصِيبٍ نَبْتُهُ اللِّمَمُ[(١)]
فَمَا تَرَكْنَ بِهَا خُلْداً لَهُ بَصَرُ تَحْتَ التُّرَابِ وَلَا بَازاً لَهُ قَدَمُ[(٢)]
وَلَا هِزَبْراً لَهُ مِنْ دِرْعِهِ لِبَدُ وَلَا مَهَاةً لَهَا مِنْ شِبْهِهَا حَشَمُ[(٣)]

وهذا من المليح النادر؛ فالخلد: استعارة لمن اختفى تحت التراب خائفاً، والباز: استعارة لمن طار هارباً، والهزبر والمهاة: استعارتان للرجال المقاتلة والنساء من السبايا.

ومن هذا الباب قوله[(٤)]:

كُلُّ جَرِيحٍ تُرْجَى سَلَامَتُهُ إِلَّا جَرِيحاً دَهَتْهُ عَيْنَاهَا[(٥)]
تَبُلُّ خَدَّيَّ كُلَّمَا ٱبْتَسَمَتْ مِنْ مَطَرٍ بَرْقُهُ ثَنَايَاهَا[(٦)]

---

(١) هنزيط: بلد من بلاد الروم، والظبي: جمع ظبة، وهي حد السيف؛ والخصيب: المكان الكثير النبات، واللمم: جمع لمة، وهي ما ألم وأحاط بالمنكب من شعر الرأس، يريد أن خيل سيف الدولة أصبحت في هذا المكان تجول للقتل والغارة والسيوف ترعى في مكان خصيب من رءوسهم إلا أن نبته الشعر.

(٢) الخلد: ضرب من الفار ليست له عيون، يريد أن الروم كانوا قسمين: أحدهما: دخلوا الأسراب والمطامير، شأنهم في ذلك شأن الفأ إذا فزعت من شيء انطلقت هاربة إلى حجرها، والثاني: الذين صعدوا إلى الجبال يعتصمون بها، شأنهم في ذلك شأن البازي الذي يطير عن الأرض عالياً.

(٣) الهزبر في الأصل: الأسد، واللبد: جمع لبدة، وهي الشعر الذي على كتفي الأسد، والمهاة في الأصل: بقرة الوحش، والحشم: الخدم، وهم حاشية العظيم من الناس؛ يريد أن سيوف سيف الدولة لم تترك فارساً من فرسان أعدائه إلا جندلته، ولا امرأة جميلة من ذوات الحشم واليسار إلا أوقعوها في أسرهم.

(٤) من قصيدة له يمدح فيها عضد الدولة أبا شجاع فنا خسرو، وأولها قوله:

أَوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهَا لِمَنْ نَأَتْ وَالْبَدِيلُ ذِكْرَاهَا

(٥) يريد أن من أصابته هذه الحسناء الفاتنة بعينها لم ترج له السلامة من دائه.

(٦) عبارة ابن جني كما نقلها الواحدي عنه في شرح هذا البيت: «دل بهذا البيت على أنها كانت

والبيت الثاني من الأبيات الحسان التي تتواصف، وقد حسن الاستعارة التي فيه أنه جاء ذكر المطر مع البرق.

وبلغني عن أبي الفتح بن جني رحمه الله أنه شرح ذلك في كتابه الموسوم بالمفسر الذي ألفه في شرح شعر أبي الطيب؛ فقال: إنها كانت تبزق في وجهه؛ فظن أن أبا الطيب أراد أنها كانت تبسم فيخرج الريق من فمها ويقع على وجهه فشبهه بالمطر، وما كنت أظنّ أن أحداً من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره، وإذا كان هذا قول إمامٍ مِنْ أئمة العربية تُشَدُّ إليه الرحال فما يقال في غيره؟ لكن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب.

وكذلك ورد قول الشريف الرضي(١):

إذَا أَنْتَ أَفْنَيْتَ الْعَرَانِينَ وَالذُّرَى ... رَمَتْكَ اللَّيَالي مِنْ يَدِ الْخَامِلِ الْغَمْرِ
وَهَبْكَ اتقَيْتَ السَّهْمَ مِنْ حَيْثُ يُتَّقَى ... فَمَنْ لِيَدٍ تَرْمِيكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِي

فالْعَرَانين والذرى: هما عظماء الناس وأشرافهم، كأنه قال: إذا أفنيت عظماء الناس رُمِيتَ من يد الخامل.

وإذا قد بينت أن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يُطْوَى ذكر المستعار له فإنها لا تجيء إلا ملائمة مناسبة، ولا يوجد فيها مباينة ولا تباعد؛ لأنها لا تذكر مَطْوِيَّة إلا لبيان المناسبة بين المستعار منه والمستعار له، ولو طويت ولم يكن هناك مناسبة بين المستعار منه والمستعار له لعسر فهمه، ولم يبن المراد منها.

= متكئة عليه وعلى غاية القرب منه» اهـ. وقال ابن فورجة: «أظنها وقعت عليه تبكي فوقع دمعها عليه» اهـ.

(١) البيتان من كلمة له عدتها سبعة أبيات (الديوان: ١ ـ ٤٠٧) وقبلهما قوله:

تَجَافَ عَنِ الأَعْدَاءِ بُقْيَا فَرُبَّمَا ... كُفِيتَ وَلَمْ تُعْقَرْ بِنَابٍ وَلَا ظُفْرِ
وَلَا تَبْرِ مِنْهُمْ كُلَّ عُودٍ تَخَافُهُ ... فَإِنَّ الأَعَادِي يَنْبُتُونَ مَعَ الدَّهْرِ
إذَا شِئْتَ أَنْ تَبْقَى خَلِيًّا مِنَ الْعِدَى ... فَعِشْ عَيْشَ خَالٍ مِنْ عَلَاءٍ وَمِنْ وَفْرِ

ورأيت أبا محمد عبدالله بن سنان الخفاجي رحمه الله تعالى قد خلط الاستعارة بالتشبيه المضمر الأداة، ولم يفرق بينهما، وتأسَّى في ذلك بغيره من علماء البيان، كأبي هلال العسكري والغانمي وأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، على أن أبا القاسم بن بشر الآمدي كان أثْبَتَ الْقَومِ قدماً في فن الفصاحة والبلاغة، وكتابه المسمى بـ «الموازنة بين شعر الطائيين» يشهد له بذلك، وما أعلم كيف خفي عليه الفرق بين الاستعارة والتشبيه المضمر الأداة.

ومما أورده ابن سنان في كتابه الموسوم بـ «سر الفصاحة»[1] قول امرىء القيس في صفة الليل:

فَقُلْتُ لَـهُ لَمَّـا تَمَـطَّى بِصُلْبِـهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَـاءَ بِكَلْكَـلِ[2]

وهذا البيت من التشبيه المضمر الأداة؛ لأن المستعار له مذكور، وهو الليل، وعلى الخطأ في خَلْطه بالاستعارة فإن ابن سنان أخطأ في الرد على الآمدي، ولم يوفق للصواب، وأنا أتكلم على ما ذكره ولا أضايقه في الاستعارة والتشبيه، بل أنزل معه على ما رآه من أنه استعارة، ثم أبين فساد ما ذهب إليه.

وذاك أن الآمدي قال في كتاب الموازنة[3]: «إن امرأ القيس وصف أحوال

---

(١) انظر سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ص ١١٤).

(٢) البيت في وصف الليل من معلقة أمرىء القيس، وقبله قوله:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أرْخَى سُدُولَـهُ عَـلَيَّ بِـأَنْـواعِ الْهُمُـومِ لِيَبْتَـلِي

وقد وقع في أ، ب، ج «وماء بكلكل» بالميم، وهو تحريف غريب مع شهرة البيت، ومع قول المؤلف فيما نقله عن الآمدي «واستعار له اسم الكلكل وجعله نائياً لتثاقله».

(٣) قد تصرف المؤلف في عبارة الآمدي، ونحن ننقلها لك عن كتاب الموازنة بحروفها؛ لتكون فيصلاً بين الرجال الثلاثة فيما اختلفوا فيه؛ قال (ص ١٠٨ الجوائب عام ١٢٨٧): «وقد عاب امرأ القيس بهذا المعنى من لم يعرف موضوعات المعاني ولا المجازات، وهو في غاية الحسن والجودة والصحة، وهو إنما قصد وصف أجزاء الليل الطويل، فذكر امتداد وسطه، وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث، وترادف أعجازه وأواخره شيئاً فشيئاً؛ وهذا عندي منتظم =

الليل الطويل، فذكر امتداد وسطه، وتثاقل صدره، وتَرَادُفَ أعجازه، فلما جعل له وسطاً ممتداً وصدراً ثقيلاً وأعجازاً رادفة لوسطه استعـار له اسْمَ الصُّلْبِ، وجعله متمطياً من أجل امتداده، واسْمَ الْكَلْكَل وجعله نائياً لتثاقله، واسْمَ العجز من أجل نهوضه».

فقال ابن سنان الخفاجي معترضاً عليه(١): «إن هذا الذي ذكره الآمدي ليس بمرضـي غاية الرضـا؛ وإن بيت امرىء القيس ليس من الاستعـارة الجيدة، ولا الرديئة، بل هو وسط؛ فإن الآمدي قد أفصح بأن آمرأ القيس لما جعل لليل(٢) وَسَطاً ممتداً استعار له اسم الصُّلْب وجعله متمطِّياً من أجل امتداده، وحيث جعل له آخراً وأوّلاً استعار له عجزاً وكلكلاً، وهذا كله إنما يحسن بعضه مع بعض؛ فذكر الصلب إنما يحسن من أجل العجز والوسط، والتمطِّي من أجل الصلب، والكلكل لمجموع ذلك، وهذه استعارة مبنيَّة على استعارة أخرى».

هذا حكاية كلامه في الاعتراض على الآمدي.

وفيه نظر من وجهين:

= لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته، وذلك أشدّ ما يكون على مَنْ يراعيه ويترقب تصرمه؛ فلما جعل له وسطاً يمتد، وأعجازاً رادفة للوسط، وصدراً متثاقلاً في نهـوضه؛ حسن أن يستعير للوسط اسم الصلب، وجعله متمطياً من أجل امتـداده؛ لأن تمطى وتمـدّد بمنزلـة واحدة؛ وصلح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه؛ وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة، وأشدّ لملاءمته هنا لما استعيرت له، وكذلك قول زهير:

وَعُـرِّيَ أَفْـرَاسُ الـصِّـبَـا وَرَوَاحِـلُهْ

لما كان من شأن ذي الصبا أن يوصف أبداً بأن يقال: ركب جواده، وجرى في ميدانه، وجمح في عنانه، ونحو هذا؛ حسن أن يستعار للصبا اسم الأفراس، وأن يجعل النزوع عنه أن تعري أفراسه ورواحله، وكانت هذه الاستعارة أيضاً من أليق شيء بما استعيرت له» اهـ.

(١) انظر سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ص ١١٤).

(٢) في أ، ب، ج «لما جعل الليل وسطاً» وهو تحريف بزيادة الألف، وصوابه عن سر الفصاحة في الموضع المشار إليه.

الأول: أنه قال: «هذا بيت من الاستعارة الوسطى التي ليست بجيدة ولا رديئة» ثم جعلها استعارة مبنية على استعارة أخرى، وعنده أن الاستعارة المبنية على الاستعارة من أبعد الاستعارات، وذاك أنه قَسَّم الاستعارة إلى قسمين: قريب مختار، وبعيد مُطَّرَحٌ، فالقريب المختار: ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوي وشبه واضح، والبعيد المطَّرح: إما أن يكون لبعده مما استعير له في الأصل، أو لأنه استعارة مبنية على استعارة أخرى؛ فيضعف لذلك؛ هذا ما ذكره ابن سنان الخفاجي في تقسيم الاستعارة، وإذاكانت الاستعارة المبنية على استعارة أخرى عنده بعيدةً مطَّرحَةً فكيف جعلها وسطاً؟ هذا تناقض في القول.

الوجه الثاني: أنه لم يأخذ على الآمدي في موضع الأخذ؛ لأنه لم يختر إلا ما حسن اختياره، وذاك أن حَدَّ الاستعارة على ما رآه الآمدي وابن سنان هو نقل المعنى من لفظ إلى لفظ بسبب مشاركة بينهما، وإن كان المذهب الصحيح في حد الاستعارة غير ذلك، على ما تقدم الكلام عليه، ولكني في هذا الموضع أنزل معهما على ما رأياه حتى يتوجَّه الكلام على الحكم بينهما في بيت امرىء القيس، وإذا حَددنا الاستعارة بهذا الحدّ فبه يفرق على رأي ابن سنان بين الاستعارة المرضية والاستعارة المطرحة؛ فإذا وجدنا استعارة في كلام ما عرضناها على هذا الحد؛ فما وجدنا فيه مناسبة بين المنقول عنه والمنقول إليه حكمنا له بالجودة، وما لم نجد فيه تلك المناسبة حكمنا عليه بالرداءة، وبيت امريء القيس من الاستعارات المرضية؛ لأنه لو لم يكن لليل صدر أعني أوَّلاً ولم يكن له وسط وآخر لما حسنت هذه الاستعارة، ولمَّا كان الأمر كذلك استعار لوسطه صُلْباً وجعله متمطِّياًواستعار لصدره المتثاقل ـ أعني أوَّله ـ كَلْكَلاً وجعله نائياً، واستعار لآخره عَجُزاً وجعله رَادِفاً لوسطه؛ وكل ذلك من الاستعارة المناسبة.

وأما قول ابن سنان الخفاجي: «إن الاستعارة المبنية على استعارة أخرى بعيدة مطرحةٌ» فإن في هذا القول نظراً، وذاك أنه قد ثبت لنا أصلٌ نقيسُ عليه في الفرق بين الاستعارة المرضية والمطَّرحة، كما أريناك، ولا يمنع ذلك من أن تجيء استعارة مبنية على استعارة أخرى وتوجد فيها المناسبة المطلوبة في الاستعارة المرضية فإنه قد ورد في القرآن الكريم ما هو من هذا الجنس، وهو قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ

مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ﴾؛ فهذه ثلاث استعارات ينبني بعضها على بعض؛ فالأولى: استعارة القرية للأهل، والثانية: استعارة الذَّوْق للباس، والثالثة: استعارة اللباس للجوع والخوف، وهذه الاستعارات الثلاث من التناسب على ما لا خفاء به، فكيف يذُمُّ ابن سنان الخفاجي الاستعارةَ المبنية على استعارة أخرى؟ وما أقول إن ذلك شذ عنه، إلا لأنه لم ينظر إلى الأصل المقيس عليه، وهو التناسب بين المنقول عنه والمنقول إليه، بل نظر إلى التقسيم الذي هو قَسَّمه في القرب أو البعد، ورأى أن الاستعارة المبنية على استعارة أخرى تكون بعيدة، فحكم عليها بالاطّراح، وإذا كان الأصل إنما هو التناسب فلا فرق بين أن يوجد في استعارة واحدة أو في استعارة مبنية على استعارة، ولهذا أشباه ونظائر في غير الاستعارة، ألا ترى أن المنطقيّ في المقدمة والنتيجة: كل إنسان حيوان، وكل حيوان نام، فكل إنسان نام، وكذلك يقول المهندس في الأشكال الهندسية: إذا كان خط أب مثل خط بج، وخط بج مثل خط جد؛ فخط أب مثل خط جد، وهكذا أقول أنا في الاستعارة: إذا كانت الاستعارة الأولى مناسبة ثم بنى عليها استعارة ثانية وكانت أيضاً مناسبة فالجميع متناسب، وهذا أمر برهاني لا يتصور إنكاره.

وهذا الشكل الذي أوردته ههنا هو اعتراض على ما ذكره ابن سنان الخفاجي في الاستعارة، فلا تظن أني موافقه في الأصل، وإنما وافقته قصداً لتبيين وجه الخطأ في كلامه، وكيف يسوغ لي موافقته، وقد ثبت عندي بالدليل أن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يُطوَى ذكر المستعار له؟.

وفيما قدمته من الكلام كفاية.

النوع الثاني
في التشبيه

وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتمثيل، وجعلوا لهذا باباً مفرداً، ولهذا باباً مفرداً، وهما شيء واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع، يقال: شبهت هذا الشيء بهذا الشيء، كما يقال: مثلته به، وما أعلم كيف خفي ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه. وكنت قدمت القول في باب الاستعارة على الفرق بين التشبيه وبينها، ولا حاجة إلى إعادته ههنا مرة ثانية.

والتشبيه ينقسم قسمين: مظهر، ومضمر، وفي المضمر إشكال في تقدير أداة التشبيه فيه في بعض المواضع.

وهو ينقسم أقساماً خمسة؛ فالأول: يقع موقع المبتدأ والخبر مفردين، والثاني: يقع موقع المبتدأ المفرد وخبره جملة مركبة من مضاف ومضاف إليه، والثالث: يقع موقع المبتدأ والخبر جملتين، والرابع: يرد على وجه الفعل والفاعل، والخامس: يرد على وجه المثل المضروب.

وهذان القسمان الأخيران هما أشكل الأقسام في تقدير أداة التشبيه.

أما الأول: فكقولنا: زيد أسد؛ فهذا مبتدأ وخبره، وإذا قدرت أداة التشبيه فيه كان ذلك ببديهة النظر على الفور، فقيل: زيد كالأسد.

وأما القسم الثاني والثالث: فإنهما متوسطان في تقدير أداة التشبيه فيهما؛ فالثاني كقول النبي ﷺ: «الْكَمْأَةُ جُدَرِيُّ الأَرْضِ» وهذا يتنوع نوعين، فإذا كان المضاف إليه معرفة كهذا الخبر النبويّ لا يحتاج في تقدير أداة التشبيه إلى تقديم المضاف إليه، بل إن شئنا قدمناه، وإن شئنا أخرناه، فقلنا: الكمأة للأرض كالجدري، أو الكمأة كالجدري للأرض، وإذا كان المضاف إليه نكرة فلا بد من تقديمه عند تقدير أداة التشبيه.

فمن ذلك قول البحتري[١]:

غَمَامُ سَمَاحٍ لَا يَغِبُّ لَهُ حَياً وَمِسْعَرُ حَرْبٍ لَا يَضِيعُ لَهُ وِتْرُ[٢]

فإذا قدرنا أداة التشبيه هٰهنا قلنا: سماح كالغمام: ولا يقدر إلا هٰكذا، والمبتدأ في هذا البيت محذوف، وهو الإشارة إلى الممدوح، كأنه قال: هو غمام سماح.

ومن هذا النوع ما يشكل تقدير أداة التشبيه فيه على غير العارف بهذا الفن؛ كقول أبي تمام[٣]:

أَيُّ مَرْعَى عَيْنٍ وَوَادِي نَسِيبِ لَحَبَتْهُ الأَيَّامُ فِي مَلْحُوبِ

ومراد أبي تمام أن يصف هذا المكان بأنه كان حسناً ثم زال عنه حسنه، فقال: إن العين كانت تلتذ بالنظر إليه كالتذاذ السائمة بالمرعى؛ فإنه كان يشبب به في الأشعار لحسنه وطيبه، وإذا قدرنا أداة التشبيه هٰهنا قلنا: كأنه كان للعين مرعًى وللنسيب منزلاً ومَألَفاً.

وإذا جاء شيء من الأبيات الشعرية على هذا الأسلوب أو ما يجري مجراه فإنه يحتاج إلى عارف بوضع أداة التشبيه فيه.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين المتوكل على الله، وأولها قوله:

مَتى لَاحَ بَرْقٌ أَوْ بَدَا طَلَلٌ قَفْرُ جَرَى مُسْتَهِلٌّ لَا بَكِيءٌ وَلَا نَزْرُ

انظر الديوان (١ ـ ٢١٧ مصر).

(٢) في أ، ب، ج «غمام سحاب لا يحب» وهو تحريف، وما أثبتناه عن الديوان والمعنى أن جدواه لا تتأخر على العافين، بل هي دائمة عليهم.

(٣) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها سليمان بن وهب، وبعده قوله:

مَلَكَتْهُ الصَّبَا الْوَلُوعُ فَأَلْقَتْـ ـهُ قَعُودَ الْبِلَى وَسُؤْرَ الْخُطُوبِ

نَـدُّ عَنْكَ الْعَزَاءُ فِيهِ فَقَادَ الدَّ مْعَ مِنْ مُقْلَتَيْكَ قَوْدَ الْجَنِيبِ

انظر الديوان (ص ٣٦ بيروت).

وأما الثالث فكقول النبي ﷺ: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» كأنه قال: كلام الألسنة كحصائد الْمَناجِل.

وهذا القسم لا يكون المشبه به مذكوراً فيه، بل تذكر صفته، ألا ترى أن الْمِنْجَل لم يذكر هٰهنا، وإنما ذكرت صفته، وهي الحصد؛ وكل ما يجيء من هذا القسم فإنه لا يرد إلا كذلك.

وأما القسم الرابع والخامس اللذان هما أشكل الأقسام المذكورة في تقدير أداة التشبيه فيهما فإنهما لا يتفطن لهما أنهما تشبيه.

فمما جاء من القسم الرابع قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالإِيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وتقديره أداة التشبيه في هذا الموضع أن يقال: هم في إيمانهم كالمتبوىء داراً: أي أنهم قد اتخذوا الإيمان مسكناً يسكنونه، يصف بذلك تمكنهم منه.

وعلى هذا ورد قول أبي تمام[1]:

نَـطَقَتْ مُقْلَةُ الْفَتَى الْمَلْهُـوفِ ... فَتَشَكَّتْ بِفَيْضِ دَمْـعٍ ذَرُوفِ

وإذا أردنا أن نقدر أداة التشبيه هٰهنا قلنا: دمع العين كنطق اللسان، الباكية كأنما تنطق بما في الضمير.

---

(١) هذا مطلع كلمة له يعاتب فيها أبا سعيد، وبعده قوله:

تَـرْجَمَ الـدَّمْـعُ في صَحَائِفِ خَـدَّيـ ... ـهِ سُطُوراً مُـؤَلَّـفَـاتِ الحُـرُوفِ
فَـلَئِنْ شَـطَّتِ الـدِّيَـارُ وَغَـالَ الـدَّ ... هْـرُ فـي آلِـفٍ وَفِـي مَـأْلُـوفِ
وَتَـبَـدَّلْـتُ بِـالْـبَشَـاشَـةِ حُـزْنـاً ... بَـعْـدَ لَهْـوٍ في مَـرْبَـعٍ وَمَصِيـفِ
فَـعَـزَائِي بِـأَنَّ عِـرْضِـي مَـصُـونٌ ... سَـائِـغُ الـوِرْدِ، وَالسَّمَـاحَ حَلِيفِي

انظر الديوان (ص ٤٠٤ بيروت).

وأما ما جاء من القسم الخامس فكقول الفرزدق يهجو جريراً[١]:

مَا ضَرَّ تَغْلِبَ وَائِلٍ أَهَجَوْتَهَا   أَمْ بُلْتُ حَيْثُ تَنَاطَحَ الْبَحْرَانِ

فشبه هجاء جرير تغلب وائل ببوله في مجمع البحرين، فكما أن البول في مجمع البحرين لا يؤثر شيئاً فكذلك هجاؤك هؤلاء القوم لا يؤثر شيئاً، وهذا البيت من الأبيات الذي أقَرَّ لَهُ الناس بالحسن[٢].

وكذلك ورد قوله أيضاً[٣]:

قَوَارِصُ تَأْتِينِي وَتَحْتَقِرُونَهَا   وَقَدْ يَمْلأُ الْقَطْرُ الإِنَاءَ فَيُفْعَمُ

فإنه شبه القوارص التي تأتيه محتقَرة بالقطر الذي يملأ الإناء على صغر مقداره، يشير بذلك إلى أن الكثرة تجعل الصغير من الأمر كبيراً.

وهذا الموضع يشكل على كثير من علماء البيان ويخلطونه بالاستعارة، كقول البحتري في التعزية بولد[٤]:

---

(١) هذا هو البيت الثاني من قصيدة له طويلة يهجو فيها جريراً ويمدح بني تغلب ويذكر تفضيل الأخطل إياه، والبيت الأول قوله:

يَابْنَ المَرَاغَةِ وَالْهِجَاءِ إِذَا الْتَقَتْ   أَعْنَاقُهُ وَتَمَاحَكَ الْخَصْمَانِ

وبعده البيت الذي أنشده المؤلف، وبعده قوله:

يَابْنَ المَرَاغَةِ إِنَّ تَغْلِبَ وَائِلٍ   رَفَعُوا عِنَانِي فَوْقَ كُلِّ عِنَانِ

(٢) كذا في أ، ب، ج؛ والصواب أن يقال: «وهذا البيت من الأبيات التي أقر الناس لها بالحسن».

(٣) لم أجد هذا البيت في شعر الفرزدق الذي بين يدي، وهو في اللسان (ق ر ص) منسوباً للفرزدق.

(٤) هو من قصيدة يرثي فيها ابن أبي الحسن بن عبد الملك بن صالح الهاشمي، وأولها قوله:

لأَيَّةِ حَالٍ أَعْلَنَ الْوَجْدَ كَاتِمُهْ   وَأَقْصَرَ عَنْ دَاعِي الصَّبَابَةِ لاَئِمُهْ

وقبل البيت الذي أنشده المؤلف قوله:

=

تَعَــزَّ فَـإِنَّ السَّيْفَ يَمْـضِي وَإِنْ وَهَتْ حَـمَـائِلُهُ عَـنْـهُ وَخَـلَّاهُ قَـائِـمُـهُ

وهذا ليس من التشبيه، وإنما هو استعارة؛ لأن المستعار له مَطْويّ الذكر، وهو المُعَزَّى، كأنه قال: تعز فإنَّكَ كالسيف الذي يمضي وإن وَهت حمائله وخلّاه قائمه.

فإن قيل: إنك قدمت القول في باب الاستعارة بأن التشبيه المضمر الأداة يحسن تقدير أداة التشبيه فيه، والاستعارة لا يحسن تقدير أداة التشبيه فيها، وجعلت ذلك هو الفرق بين التشبيه المضمر الأداة بين الاستعارة، وقررت ذلك تقريراً طويلاً عريضاً، ثم نراك قد نَقَضْته ههنا بقولك: إن من التشبيه المضمر الأداء ما يشكل تقدير أداة التشبيه فيه، وإنه يحتاج في تقديرها إلى نظر، كهذين البيتين المذكورين للفرزدق وما يجري مجراهما.

فالجواب عن ذلك أني أقول: هذا الذي ذكرته لا ينقص عليّ شيئاً مما قدّمت القول فيه في باب الاستعارة؛ لأني قلت: إن التشبيه المضمر الأداة يحسن تقدير الأداة فيه: أي لا يتغير بتقديرها فيه عن صفته التي اتَّصَف بها من فصاحة وبلاغة؛ وليس كذلك الاستعارة؛ فإنها إذا قدرت أداة التشبيه فيها تغيرت عن صفتها التي اتّصفت بها من فصاحة وبلاغة، وأما الذي ورد ههنا من بيتي الفرزدق وما يجري مجراهما من التشبيه المضمر الأداة فإن أداة التشبيه لا تتقدر فيه، وهو على حالته من النظم، حتى تتبين هل تغيرت صفته التي اتصف بها من فصاحة وبلاغة أم لا، وإنما تتقدر أداة التشبيه فيه على وجه آخر، وهذا لا ينقض ما أشرت إليه في باب الاستعارة.

وإذا ثبتت هذه الأقسام الأربعة فأقول: إن التشبيه المضمر أبلغ من التشبيه المظهر وأوجز: أما كونه أبلغ فلجعل المشبه مُشبهاً به من غير واسطة أداة؛ فيكون هو إياه؛ فإنك إذا قلت: زيد أسد، كنت قد جعلته أسداً من غير إظهار أداة التشبيه،

= أَبَـا حَسَنٍ، وَالصَّبْـرُ مَـنْكِـبُ مَنْ غَـدَا عَلَى سَنَنٍ وَٱلْحَـادِثَـاتُ تُـزَاحِـمُـهْ
وَلَـوْلَا التقَى لَمْ يَـرْتَدِ ٱلـدَّمْـعَ رَبُّـهُ وَلَـوْلَا ٱلْحِمَى لَمْ يَكْظِمِ الْغَيْظَ كَـاظِمُهْ

وأما كونه أوجز فلحذف أداة التشبيه منه، وعلى هذا فإن القسمين من المظهر والمضمر كليهما في فضيلة البيان سواء؛ فإن الغرض المقصود من قولنا: «زيد أسد» أن يتبين حال زيد في اتّصافه بشهامة النفس وقوة البطش وجراءة الإقدام وغير ذلك مما يجري مجراه، إلا أنا لم نجد شيئاً ندلّ به عليه سوى أن جعلناه شبيهاً بالأسد؛ حيث كانت هذه الصفات مختصة به، فصار ما قصدناه من هذا القول أكشف وأبين من أن لو قلنا: زيد شهم شجاع قوي البطش جريء الجنان، وأشباه ذلك، لما قد عرف وعهد من اجتماع هذه الصفات في المشبه، أعني الأسد، وأما زيد الذي هو المشبه فليس معروفاً بها وإن كانت موجودة فيه.

وكلا هذين القسمين أيضاً يختصّ بفضيلة الإيجاز، وإن كان المضمر أوجز من المضمر؛ لأن قولنا: زيد أسد، أو كالأسد، يسدُّ مسدَّ قولنا: زيد من حاله كيت وكيت، وهو من الشجاعة والشدة على كذا وكذا، مما يطول ذكره.

فالتشبيه إذاً يجمع صفات ثلاثة، هي: المبالغة، والبيان، والإيجاز، كما أريتك، إلا أنه من بين أنواع علم البيان مستوعر الذهب، وهو مَقْتَل من مقاتل البلاغة، وسبب ذلك أن حمل الشيء على الشيء بالمماثلة إما صورة وإما معنى يعز صوابه وتعمر الإجادة فيه، وقلّما أكثر منه أحَدٌ إلا عثر، كما فعل ابن المعتز من أدباء العواق، وابن وكيع من أدباء مصر؛ فإنهما أكثرا من ذلك لا سيما في وصف الرياض والأشجار والأزهار والثمار، لا جرم أنهما أتيا بالغث البارد الذي لا يثبت على محكّ الصواب؛ فعليك أن تتوقى ما أشرت إليه.

وأما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه، أو التنفير عنه، ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً حسناً يدعو إلى الترغيب فيها، وكذلك إذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً قبيحاً يدعو إلى التنفير عنها، وهذا لا نزاع فيه.

ولنضرب له مثالاً يوضحه فنقول: قد ورد عن ابن الرومي في مدح العسل وذمه بيت من الشعر، وهو:

تَقُولُ هٰذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ وَإِنْ تَعِبْ قُلْتَ ذَا قَيْءُ الزَّنَابِيرِ

ألا ترى كيف مدح وذم الشيء الواحد بتصريف التشبيه المجازي المضمر الأداة الذي خَيَّلَ به إلى السامع خيالاً يحسن الشيء عنده تارة ويقبحه أخرى، ولولا التوصُّل بطريق التشبيه على هذا الوجه لما أمكنه ذلك، وهذا المثال كاف فيما أردناه.

واعلم أن محاسن التشبيه أن يجيء مَصْدَرِيًّا؛ كقولنا: أقدم إقْدَامَ الأسد، وفَاضَ فَيْضَ البحر، وهو أحسن ما استعمل في باب التشبيه، كقول أبي نُوَاس في وصف الخمر[1]:

وَإِذَا مَا مَزَجُوهَا وَثَبَتْ وَثْبَ الْجَرَادِ
وَإِذَا مَا شَرِبُوهَا أَخَذَتْ أَخْذَ الرُّقَادِ

وقيل: إن من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الشيء بما هو أكبر منه وأعظم، ومن هٰهنا غلط بعض الكتاب من أهل مصر في ذكر حصن من حصون الجبال مشبهاً له؛ فقال: هَامَةٌ عليها من الغمامة عِمَامة، وأنملة خَضَّبَهَا الأصيلُ فكان الهلال منها قُلاَمَة؛ وهذا الكاتب حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء؛ فإنه أخطأ في قوله: «أنملة» وأي مقدار للأنملة بالنسبة إلى تشبيه حِصْنٍ على رأس جبل؛ وأصاب في المناسبة بين ذكر الأنملة والقُلاَمة وتشبيهها بالهلال.

---

(١) من كلمة له أولها قوله:

إسْقِنِيْهَا بِسَوَادِ قَبْلَ تَغْرِيدِ المُنَادِي
مِنْ عُقَارٍ بَلَغَتْ فِي الـ ـدَّنِّ أَقْصَى مُسْتَزَادِ
رَضَعَتْ وَالدَّهْرُ ثَدْياً وَتَلَتْهُ فِي الْوِلَادِ

فإن قيل: إن هذا الكاتب تأسَّى فيما ذكره بكلام الله تعالى حيث قال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ فمثل نوره بطَاقَةٍ فيها ذبالة، وقال الله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ فمثل الهلال بأصل عِذْقِ النخلة.

فالجواب عن ذلك أني أقول: أما تمثيل نور الله تعالى بمشكاة فيها مصباح فإن هذا مثال ضربه للنبي ﷺ، ويدلّ عليه أنه قال: ﴿تُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ وإذا نظرت إلى هذا الموضع وجدته تشبيهاً لطيفاً عجيباً، وذاك أن قلب النبي ﷺ وما ألقى فيه من النور وما هو عليه من الصفة الشفافة كالزجاجة التي كأنها كوكب لصفائها وإضاءتها؛ ويما الشجرة المباركة التي لا شرقية ولا غربِيَّة فإنها عبارة عن ذات النبي ﷺ لأنه من أرض الحجاز التي لا تميل إلى الشرق ولا إلى الغرب، وأما زيْت هذه الزجاجة فإنه مضيء من غير أن تمسَّه نار، والمراد بذلك أن فِطْرَتَه فِطْرَةٌ صافية، من الأكدار، مُنيرة من قبل مصافحة الأنوار؛ فهذا هو المراد بالتشبيه الذي ورد في هذه الآية.

وأما الآية الأخرى فإنه شَبَّه الهلال فيها بالْعُرْجُون القديم، وذلك في هيئة نحوله واستدارته، لا في مقداره؛ فإن مقدار الهلال عظيم، ولا نسبة للعرجون إليه، لكنه في مَرْأى النظر كالعُرْجُون هيئةً، لا مقداراً.

وأما هذا الكاتب فإن تشبيهه ليس على هذا النسق؛ لأنه شبه صورة الحصن بأنملة في المقدار، لا في هيئة والشكل، وهذا غير حسن ولا مناسب، وإنما ألقاه فيه أنه قصد الهلال والقُلاَمة مع ذكر الأنملة، فأخطأ من جهة، وأصاب من جهة، لكن خطؤه غطَّى على صوابه.

والقول السديد في بلاغة التشبيه هو ما أذكره، وهو: أن إطلاق من أطلق قوله في أن من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الأصغر بالأكبر غَيْرُ سديد؛ فإن هذا قول غير حاصرٍ للغرض المقصود؛ لأن التشبيه يأتي تارة في معرض المدح، وتارة في معرض الذم، وتارة في غير معرض مدح ولا ذم، وإنما يأتي قصداً للإبانة والإيضاح، ولا يكون تشبيه أصغر بأكبر، كما ذهب إليه من ذهب، بل القول الجامع في ذلك أن

يقال: إن التشبيه لا يعمد إليه إلا لضرب من المبالغة: فإما أن يكون مدحاً، أو ذماً، أو بياناً وإيضاحاً، ولا يخرج عن هذه المعاني الثلاثة، وإذا كان الأمر كذلك فلا بُدَّ فيه من تقدير لفظة أفْعَلَ، فإن لم تقدر فيه لفظة أفعل فليس بتشبيه بليغ، ألا ترى أنا نقول في التشبيه المضمر الأداة: زيد أسد، فقد شبهنا زيداً بأسد الذي هو أشجع منه، فإن لم يكن المشبه به في هذا المقام أشجع من زيد الذي هو المشبه، وإلا كان التشبيه ناقصاً؛ إذ لا مبالغة فيه.

وأما التشبيه المظهر الأداة فكقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَئَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ وهذا تشبيه كبير بما هو أكبر منه؛ لأن خلق السفن البحرية كبير وخلق الجبال أكبر منه، وكذلك إذا شبه شيء حسن بشيء حسن، فإنه إذا لم يشبه بما هو أحسن منه فليس بوارد على طريق البلاغة، وإن شبه قبيح بقبيح، وهكذا[1] ينبغي أن يكون المشبه به أقبح، وإن قصد البيان والإيضاح فينبغي أن يكون المشبه به أبين وأوضح، فتقدير لفظة أفْعَلَ لا بد منه فيما يقصد به بلاغة التشبيه، وإلا كان التشبيه ناقصاً، فاعلم ذلك وقس عليه.

واعلم أنه لا يخلو تشبيه الشيئين: أحدهما بالآخر من أربعة أقسام: إما تشبيه معنى بمعنى، كالذي تقدم ذكره من قولنا: زيد كالأسد، وإما تشبيه صورة بصورة، كقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾، وإما تشبيه معنى بصورة، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ وهذا القسم أبلغ الأقسام الأربعة؛ لتمثيله المعاني الموهومة بالصور المشاهدة، وإما تشبيه صورة بمعنى، كقول أبي تمام[2]:

وَفَتَكْتَ بِالْمَالِ الْجَزِيلِ وَبِالْعِدَا ... فَتْكَ الصَّبَابَةِ بِالْمُحِبِّ الْمُغْـرَمِ

فشبه فَتْكَهُ بالمال وبالعِدَا وذلك صورة مرئية بفَتْك الصبابة وهو فتك معنوي، وهذا القسم ألطف الأقسام الأربعة؛ لأنه نقل صورة إلى غير صورة.

---

(١) هذه الكلمة ثابتة في جميع الأصول؛ ولا داعي لها.

(٢) لم أجد هذا البيت في شعر أبي تمام.

وكل واحد من هذه الأقسام الأربعة المشار إليها لا يخلو التشبيه فيه من أربعة أقسام أيضاً: إما تشبيه مفرد بمفرد، وإما تشبيه مركب بمركب، وإما تشبيه مفرد بمركب، وإما تشبيه مركب بمفرد.

والمراد بقولنا مفرد ومركب: أن المفرد يكون تشبيه شيء واحد بشيء واحد، والمركب تشبيه شيئين اثنين، وكذلك المفرد بالمركب، والمركب بالمفرد؛ فإن أحدهما: يكون تشبيه شيء واحد بشيئين، والآخر: يكون تشبيه شيئين بشيء واحد، ولست أعني بقولي: «تشبيه شيئين بشيئين» أنه لا يكون إلا كذلك، بل أردت تشبيه شيئين بشيئين فما فوقهما، كقول بعضهم في الخمر:

وَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّ حَامِلَ كَأسهَا إذْ قَامَ يَجْلُوهَا عَلَى النُّدَمَاءِ
شَمْسُ الضُّحَى رَقَصَتْ فَنَقَّطَ وَجْهَهَا بَدْرُ الدُّجَى بِكَوَاكِبِ الْجَوْزَاءِ

فشبه ثلاثة أشياء بثلاثة أشْيَاء؛ فإنه شبه الساقي بالبدر، وشبه الخمر بالشمس، وشبه الْحَبَبَ الذي فوقها بالكواكب.

وإذا بَيَّنْتُ أن التشبيه ينقسم إلى تلك الأقسام الأربعة فإني أقول: إن التشبيه المضمر الأداة قد قدمت القول في أنه ينقسم إلى خمسة أقسام؛ فالقسم الأول: لا يرد إلا في تشبيه مفرد بمفرد، والقسم الثاني: لا يرد إلا في تشبيه مفرد بمركب، والقسم الثالث: لا يرد إلا في تشبيه مركب بمركب، والقسم الرابع والخامس: لا يردان إلا في تشبيه مركب بمركب؛ ألا ترى أنا إذا قلنا في القسم الأول: زيد أسد، كان ذلك تشبيه مفرد بمفرد، وإذا قلنا في القسم الثاني: ما مثلناه به من الخبر النبوي وهو «الكمأة جدريُّ الأرض» كان ذلك تشبيه مفرد بمركب، وكذلك بيت البحتري، وبيت أبي تمام المشار إليهما فيما تقدم، وإذا قلنا في القسم الثالث ما أشرنا إليه من الخبر النبوي أيضاً الذي هو: «وهَلْ يكبُّ الناسَ على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم» كان ذلك تشبيه مركب بمركب، وإذا قلنا في القسم الرابع والخامس: ما مَثَّلنا به من بيتي الفرزدق والبحتري كان ذلك تشبيه مركب بمركب، وإذا كان الأمر كذلك وجاءك شيء من التشبيه المضمر الأداة وهو من القسم الأول فاعلم أنه تشبيه مفرد بمفرد بمركب، وإذا جاءك شيء من القسم الثالث

فاعلم أنه تشبيه مركب بمركب، وكذلك إذا جاءك شيء من القسم الرابع والقسم الخامس؛ فإنهما من باب تشبيه المركب بالمركب.

ولنرجع إلى ذكر ما أشرنا إليه أولاً في تقسيم التشبيه إلى الأربعة الأقسام الأخرى التي هي: تشبيه مفرد بمفرد، وتشبيه مركب بمركب، وتشبيه مفرد بمركب، وتشبيه مركب بمفرد.

فالقسم الأول منها: كقوله تعالى في المضمر الأداة: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً﴾ فشبه الليل باللباس. وذاك أنه يَسْتُر الناس بعضهم عن بعض لمن أراد هرباً من عدو أو ثباتاً لعدو أو إخفاء ما لا يُحِبُّ الإطلاع عليه من أمره، وهذا من التشبيهات التي لم يأته بها إلا القرآن الكريم، فإن تشبيه الليل باللباس مما اختصّ به دون غيره من الكلام المنظوم والمنثور.

وكذلك قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ فشبه المرأة باللباس للرجل وشبه الرجل باللباس للمرأة.

ومن محاسن التشبيهات قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ وهذا يكاد ينقله تناسبه عن درجة المجاز إلى الحقيقة، والحرث: هو الأرض التي تحرث للزرع، وكذلك الرحم يُزْدَرَع فيه الولد ازدراعاً كما يزدرع البذر في الأرض.

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ فشبه تبرؤ الليل من النهار بانسلاخ الجلد المسلوخ، وذاك أنه لما كانت هَوادي الصبح عند طلوعه ملتحمةً بأعجاز الليل أجْرَى عَليهما اسم السَّلْخ، وكان ذلك أولى من أن لو قيل «يُخْرِج» لأن السلخ أدلّ على الالتحام من الإخراج، وهذا تشبيه في غاية المناسبة.

وكذلك ورد قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ فشبه انتشار الشيب باشتعال النار، ولما كان الشيب يأخذ في الرأس ويَسْعَى فيه شيئاً فشيئاً حتى يُحِيله إلى غير لونه الأول بمنزلة النار التي تشتعل في الجسم وتَسْرِي فيه حتى تُحِيله إلى غير حاله الأولى، وأحسن من هذا أن يقال: إنه شبه انتشار الشيب باشتعال النار: في سرعة

التهابه، وتعذر تلافيه، وفي عظم الألم في القلب به، وأنه لم يبق بعده إلا الخمود، فهذه أوصاف أربعة جَامعة بين المشبه والمشبه به، وذلك في الغاية القصوى من التناسب والتلاؤم.

وقد ورد في الأمثال: «اللَّيْلُ جُنَّةُ ٱلْهَارِبِ» وهذا تشبيه حسن.

وكل ذلك من التشبيه المضمر الأداة.

ومما ورد منه شعراً قول أبي الطيب المتنبي(١):

وَإِذَا اهْتَزَّ لِلنَّدَى كَانَ بَحْراً ... وَإِذَا اهْتَزَّ لِلْوَغَى كَانَ نَصْلاً
وَإِذَا الأَرْضُ أَظْلَمَتْ كَانَ شَمْساً ... وَإِذَا الأَرْضُ أَمْحَلَتْ كَانَ وَبْلاَ

فحرف التشبيه هٰهنا مضمر، وتقديره كان كأنه بحر، وكان كأنه نَصْلٌ. وكذلك يقال في البيت الثاني: كان كأنه شمس، وكان كأنه وبل، وهذا تشبيه صورة بصورة، وهو حسن في معناه.

وكذلك ورد قول أبي نواس، وهو في تشبيه الْحَبَب(٢):

فَإِذَا مَا ٱعْتَرَضَتْهُ الْـ ـعَيْنُ مِنْ حَيْثُ اسْتَدَارَا
خِلْتَهُ فِي جَنَبَاتِ الْـ ـكَأْسِ وَاوَاتٍ صِغَارَا

وهذا تشبيه صورة بصورة أيضاً.

---

(١) من قصيدة له يعزي فيها سيف الدولة بأخته الصغرى، وأولها قوله:

إنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِي الرَّزِيَّةِ فَضْلاً ... فَكُنِ الأَفْضَلَ الأَعَزَّ الأَجَلاَّ

(٢) من كلمة له أولها قوله:

دَعْ لِبَاكِيهَا الدِّيَارَا ... وَٱنْفِ بِالخَمْرِ الْخُمَارَا
وَاشْرَبَنْهَا مِنْ كُمَيْتٍ ... تَدَعُ اللَّيْلَ نَهَارَا

وانظر الديوان (ص ٢٧٤ مصر).

وقد أبرز هذا المعنى في لباس آخر؛ فقال[١]:

وَإِذَا عَــلاَهَــا الْمَــاءُ أَلْبَسَهَــا حَبَبـاً شَبِيهَ جَـلاَجِلِ الْحِجْـلِ
حَتَّى إِذَا سَكَنَتْ جَــوَامِحُهَــا كَتَبَتْ بِمِثْـلِ أَكَارِعِ النَّمْـلِ

ومن هذا قول البحتري[٢]:

تَبَسُّــمٌ وَقُـطُوبٌ فِي نَــدًى وَوَغًـى كَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ تَحْتَ العَارِضِ الْبَرِدِ

وهذا من أحسن التشبيه وأقربه، إلا أن فيه إخلالاً من جهة الصنعة، وهي ترتيب التفسير؛ فإن الأولى أن كان قَدَّمَ تفسير التبسم على تفسير القطوب: بأن كان قال: كالبرق والرعد، فانظر أيهما المنتمي إلى الفن كيف ذهب على البحتري مثل هذا الموضوع على قربه، مع تقدمه في صناعة الشعر، وليس في ذلك كبير أمر، سوى أن كان قدم ما أخر لا غير، وإنما يعذر الشاعر في مثل هذا المقام إذا حكم عليه الوزن والقافية واضطر إلى ترك ما يجب عليه، وأما إذا كانت الحال كالتي ذكرها البحتري فحينئذ لا عذر له، وسيأتي لذلك باب مفرد في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وهو باب ترتيب التفسير.

وكذلك ورد قول البحتري[٣]:

---

(١) من كلمة له أولها قوله:

كَــانَ الشَّبَــابُ مَـطِيَّــةَ الْجَهْــلِ وَمُحَسِّنَ الضَّـحِكَــاتِ وَالْـهَــزْلِ
كَــانَ الْجَمَــالَ إِذَا آرْتَــدَيْتُ بِــهِ وَمَشَيْـتُ أَخْــطِرُ صَيِّتَ النَّعْــلِ

انظر الديوان (ص ٣١١).

(٢) من قصيدة له يمدح فيها أبا نهشل بن حميد، وأولها قوله:

إِنِّـي تَــرَكْتُ الـصِّبَــا عَـمْــداً وَلَـمْ أَكَــدِ مِـنْ غَيْــرِ شَـيْـبٍ وَلاَ عَــذْلٍ وَلاَ فَــنَـدِ

انظر الديوان (ج ١ ص ١٥١ مصر).

(٣) من قصيدة له يمدح فيها محمد بن يوسف، وأولها قوله:

فِـيمَ آبْتِــدَارُكُمُ الْمَــلاَمَ وَلُــوعَــا أبــكَـيْــتُ إِلاَّ دِمْــنَــةً وَرُبُــوعَــا

انظر الديوان (ج ٢ ص ٨٤ مصر).

فِي مَعْـرَكٍ ضَنْكٍ تَخَـالُ بِـهِ الْقَنَـا بَـيْنَ الضُّلُوعِ إذا انْـحَنَـيْنَ ضُـلُوعَـا

ومن تشبيه المفرد بالمفرد قول أبي الطيب المتنبي(١):

خَـرَجْنَ مِنَ النَّقْـعِ فِي عَـارِضٍ وَمِنْ عَـرَقِ الرَّكْضِ فِي وَابِـلِ(٢)

فَلَمَّـا نَشِفْنَ لَقِيـنَ السِّيَـاط بِمِثْـلِ صَفَا الْبَلَدِ الْمَـاحِـلِ(٣)

وقد حوى هذان البيتانُ قرب التشبيه مع براعة النظم وجزالة اللفظ.

وأما القسم الثاني: ـ وهو تشبيه المركب بالمركب ـ فمما جاء منه مُضْمَرَ الأداة ما يروى عن النبي ﷺ في حديث يَرْوِيه مُعَاذُ بن جَبَل رضي الله عنه، وهو حديث طويل يشتمل على فضائل أعمال متعددة، ولا حاجة إلى إيراده ههنا على نَصِّه، بل نذكر الْغَرَض منه، وهو أنه قال له رسول الله ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ هٰذَا» وأشار إلى لسانه، فقال مُعَاذ: أو نحن مُؤَاخذونَ بما نَتَكلم به؟ فقال: «ثَكِلَتْكَ أمُّكَ

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ويذكر استنقاذه أبا وائل تغلب بن داود من الأسر، وأولها قوله:

إلاَمَ طَـمَـاعِـيَـةُ الْـعَـاذِلِ وَلَا رَأيَ فِي الْـحُـبِّ لِلْـنَّـاقِـلِ

وقبل البيتين اللذين أنشدهما المؤلف قوله:

كَـأنَّ خَـلَاصَ أبـي وَائِـلٍ مُـعَـاوَدَةُ الْـقَـمَـرِ الْأفِـلِ

دَعَـا فَـسَـمِـعْـتَ وَكَـمْ سَـاكِـتٍ عَلَى الْبُعْـدِ عِنْدَكَ كَـالْقَـائِـلِ

فَـلَبَّـيْـتَـهُ بِـكَ جَـحْـفَـلٍ لَـهُ ضَـامِـنٍ وَبِـهِ كَـافِـلِ

(٢) النقع: الغبار، والعارض: السحاب، والوابل: المطر الكثير. يريد أن خيل سيف الدولة خرجت من الغبار فيما يشبه السحاب ومن العرق الذي أوجبه الركض فيما يشبه المطر الشديد.

(٣) الصفا: اسم جنس جمعي، واحده صفاة، وهي الصخرة الملساء، والسياط: جمع سوط، والماحل: الذي لم يمطر، يريد أن الخيل لما نشفت من العرق لقيت السياط من جلودها بمثل الحجر الأملس الذي يكون في البلد الممحل، وذلك أبلغ ليبس الحجر.

يَا مُعَاذ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» فقوله: «حصائِد ألسنتهم» من تشبيه المركب بالمركب؛ فإنه شَبَّه الألسنة وما تمضي فيه من الأحاديث التي يؤاخذ بها بالْمَنَاجِل التي تَحْصِد النبات من الأرض، وهذا تشبيه بليغ عجيب لم يسمع إلا من النبي ﷺ.

ومما ورد منه شعراً قول أبي تمام[1]:

مَعْشَر أصْبَحُوا حَصُونَ الْمَعَالِي   وَدُرُوعَ الأَحْسَابِ وَالأَعْرَاضِ

فقوله: «حصون المعالي» من التشبيه المركب، وذاك أنه شبههم في مَنْعِهم المعالي أن يَنالَهَا أحدٌ سواهم بالحصون في منعها مَنْ بها وحمايته، وكذلك قوله: «دروع الأحساب».

وأما الْمُظْهَرُ الأداةِ فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ فَشُبِّهت حالُ الدنيا في سرعة زوالها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جَفَافه وذَهَابه حُطاماً بعدما التفَّ وتكاثَفَ وزَيَّنَ الأرض، وذاك تشبيه صورة بصورة، وهو من أبدع ما يجيء في بابه.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في وصف حال المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ تقديره أن مثل هؤلاء المنافقين كمثل رجل أَوْقَدَ ناراً في ليلة مظلمة بمفازة فاستضاء بها ما حوْله، فاتَّقى ما يخاف وأمِنَ، فبينا هو كذلك إذ طَفِئَتْ ناره،

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن أبي داود، وأولها قوله:

بُـدِّلَـتْ عَبْـرَةً مِـنَ الإيـمـاضِ   يَـوْمَ شَدُّوا الـرِّحَـالَ بِـالأَغْـرَاضِ
أَعْـرَضَتْ بُـرْهَـةً فَلَمَّـا أَحَسَّتْ   بِـالنَّوَى أَعْـرَضَتْ عَنِ الإعْـرَاضِ
غَـصَبَتْهَـا نَـجِيبَهَـا عَـزَمَـاتٌ   غَصَبَتْنِي تَصَبُّـرِي وَاغْتِمَـاضِي

فبقي مظلماً خائفاً، وكذلك المنافق إذا أظهر كلمة الإيمان استنار بها واعتزَّ بعزها وأمِنَ على نفسه وماله وولده، فإذا مات عاد إلى الخوف وبقي في العذاب والنقمة.

ومما ورد منه في الأخبار النبوية قول النبي ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَلاَ طَعْمَ لَهَا، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا مرٌّ» وهذا من باب تشبيه المركب بالمركب، ألا ترى أن النبي ﷺ شبه المؤمن القارىء وهو مُتَّصِف بصفتين - هما الإيمان والقراءة - بالأُتْرُجَّة، وهي ذات وصفين، هما الطعم والريح، وكذلك يجري الحكم في المؤمن غير القارىء، وفي المنافق القارىء، والمنافق غير القارىء.

وقد جاءني شيء من ذلك أوردته في فصلٍ من كتاب أَصف فيه البر والمسير، فقلت: لم أزل أصل الذَّميل بالذميل، وألفّ الضُّحى بالأصِيل، والأرضُ كالبحر في سَعَة صدره، والمَطَايا كالجواري راكدة على ظهره، فمكان الركب منها كمكانهم من الأكوار، ومسيرهم فيها على كرة لا تستقر بها حركة الأدوار.

وأما ما ورد من ذلك شعراً فكقول البحتري(١):

خُلُقٌ مِنْهُم تَرَدَّدَ فِيهِمْ وَلِيَتْهُ عِصَابَةٌ عَنْ عِصَابَهْ(٢)

(١) من قصيدة له يمدح فيها ابن ثوابة، وأولها قوله:

أَنْ دَعَاهُ دَاعِي ٱلْهَوَى فَأَجَابَهْ وَرَمَى قَلْبَهُ الصِّبَا فَأَصَابَهْ
عِبْتَ مَا جَاءَهُ وَرُبَّ جَهُول جَاءَ مَا لاَ يُعَابُ يَوْماً فَعَابَهْ

(٢) قبل هذين البيتين قوله:

هِمَمٌ فِي السَّمَاءِ تَذْهَبُ علْواً وَرِبَاعٌ مَغْشِيَّةٌ مُنْتَابَهْ
وَرِجَالٌ إنْ ضَيَّعَ النَّاسُ أَمْراً حَفِظُوا المَجْدَ أَنْ يُضِيعُوا طِلاَبَهْ
مَا سَعَوْا يَخْلُفُونَ غَيْرَ أَبِيهِمْ كُلُّ سَاعٍ مِنَّا يُرِيدُ نِصَابَهْ
جَمَعَتْهُمْ أَكْرُومَةٌ لَمْ يَجُوزُوا مُنْتَهَاهَا جَمْعَ الْقِدَاحِ الرِّبَابَهْ

كـالْحُسَامِ الْجـرَازِ يَبْقَى عَلَى الدَّهْـ ـرِ وَيُفْني في كـلِّ حِينٍ قِـرَابَـهْ

وكذلك ورد قول ابن الرومي[1]:

أَدْرِكْ ثِـقَـاتَـكَ إِنَّهُـمْ وَقَـعُـوا في نَـرْجِسٍ مَعَـهُ ابْنَـةُ الْعِنَبِ
فَهُمُ بِـحَـالٍ لَـوْ بَصُـرْتَ بِـهَـا سَبَّحْتَ مِنْ عُـجْبٍ وَمِـنْ عَجَـبِ
رَيْـحَـانُـهُـمْ ذَهَـبٌ عَـلَى دُرَرٍ وَشَـرَابُـهُـمْ دُرَرٌ عَـلَى ذَهَـبِ

وهذا تشبيه صنيع، إلا أن تشبيه البحتري أصنع، وذلك أن هذا التشبيه صدر عن صورة مشاهدة، وذاك إنما استنبطه استنباطاً من خاطره، وإذا شئت أن تفرق بين صناعة التشبيه فانظرِ إلى ما أشرت إليه ههنا: فإن كان أحد التشبيهين عن صورة مشاهدة والآخر عن صورة غير مشاهدة فاعلم أن الذي هو عن صورة غير مشاهدة أصنع، ولعمري إن التشبيهين كليهما لا بُدَّ فيهما من صورة تحكي، لكن أحدهما: شوهدت الصورة فيه فحكيت، والآخر: استنبطها، ألا ترى أن ابن الرومي نظر إلى النرجس وإلى الخمر فَشَبَّه، وأما البحتري فإنه مدح قوماً بأن خُلُق السماح باقٍ فيهم ينتقل عن الأول إلى الآخر، ثم استنبط لذلك تشبيهاً، فأدَّاه فكره إلى السيف وقُرُبه التي تفنى في كل حين وهو باق لا يفنى بفنائِها، ومن أجل ذلك كان البحتري أصنع في تشبيهه.

وسأورد ههنا من كلامي نَبْذَة يسيرة؛ فمن ذلك ما كتبتهُ من جملة كتاب إلى ديوان الخلافة أذكر فيه نزول العدو الكافر على ثغر عَكّا في سنة خمس وثمانين وخمسمائة، فقلت: وأحاط بها العدوُّ إحاطة الشِّفَاه بـالثغور، ونـزل عليها نـزول

---

(١) البيت من كلمة له يقولها لعلي بن عبدالله، وقبله قوله:

يَـابْـنَ الْمُـسَيَّبِ عِشْـتَ فـي نِـعَـمٍ وَسَـلِمْـتَ مِـنْ هُـلْكٍ وَمِـنْ عَـطَبِ
يَـا شَـاعِـرَ الْعَجَمِ الْكِـرَامِ كمـا أَنَّ ابْـنَ حُـجْـرٍ شـاعِـرُ الْـعَـرَبِ
يَـا قَـائِـدَ الـظُّرَفَـاءِ لا كَـذِبـاً يَـا قُـدْوَةَ الأُدَبَـاءِ فـي الأَدَبِ

انظر الديوان (١ ـ ١١٨).

الظلماء على النور. وهذا من التشبيهات المناسبة، ثم لما جئت إلى ذكر قتال المسلمين إياه وإزالته عن جانب الثغر قلت: وقد اصطدم من الإسلام والكفر ابْنَا شمام، والتَقى من عَجاجتهما ظلام، وعند ذلك أخذ العدوُّ في التحيز إلى جانب، وكان كحاجب على عين فصار كعين في حاجب، وإذا تزعزع البناء فقد هوى، وإذا قبض من طرق البساط فقد انطوى. وهذا التشبيه في مناسبته كالأول، بل أحسن.

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الإخوان، فقلت: وما شَبَّهْتُ كتابه في وروده وانقباضه، إلا بنظر الحبيب في إقباله وإعراضه، وكلا الأمرين كالسَّهْم في ألم وقعه وألم نزعه، والمَشُوقُ مَنِ استوت صبابته في حَالتي وَصْلِهِ وَقَطْعه، وما أزال على وَجَل من إرسال كتبه وإجمامها واشتباه لمها بإلمامها.

ومما جاء من هذا القسم في الشعر قولُ بَكْر بن النطاح:

تَـرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى الْمَعَـالِي كَمَا نَظَرَتْ إِلَى الشَّيْبِ الْمِـلَاحُ
يُحِدُّونَ الْعُيُـونَ إِلَيَّ شَـذْراً كَـأَنِّي فِي عُيُونِهِمُ السَّمَـاحُ

وهذا بديع في حسنه بليغ في تشبيهه.

وعلى هذا النهج ورد قول أبي تمام(١):

خَلَطَ الشَّجَاعَةَ بِالْحَيَاءِ فَأَصْبَحَا كَالْحُسْنِ شِيبَ لِمُغْرَمٍ بِـدَلَالِ

وهذا من غريب ما يأتي في هذا الباب، وقد تغالت شيعة أبي تمام في وصف هذا البيت، وهو لعمري كذلك.

ومن هذا القسم أيضاً قوله(٢):

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم ويذكر أخذ بابك، وأولها قوله:

آلَـتْ أُمُـورُ الـشِّـرْكِ شَـرَّ مَـآلِ وَأَقَـرَّ بَـعْـدَ تَـخَـمُّطٍ وَزِيَـالِ

أنظر الديوان (صفحة ٢٥٩ بيروت).

(٢) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم، ويذكر إحراق الأفشين، وأولها قوله:

الْـحَـقُّ أَبْـلَجُ وَالـسُّـيُـوفُ عَـوَارِ فَـحَـذَارِ مِنْ أُسْـدِ الْـعَـرِينِ حَـذَارِ =

كَمْ نِعْمَـةٍ لِلَّهِ كَـانَتْ عِنْـدَهُ ... فَكَـأَنَّهَـا فِي غُـرْبَـةٍ وَإِسَـارِ
كُسِيَتْ سَبَائِبَ لُؤْمِـهِ فَتَضَاءَلَتْ ... كَتَضَاؤُلِ الْحَسْنَاءِ فِي الأَطْمَارِ (١)

وكذلـك قولـه (٢):

صَـدَفْتُ عَنْهُ وَلَمْ تَصْـدِفْ مَوَاهِبُـهُ ... عَنِّي، وَعَـاوَدَهُ ظَنِّي فَـلَمْ يَخِـبِ
كَـالْغَيْثِ إِنْ جِئْتَـهُ وَافَـاكَ رَيِّقُـهُ ... وَإِنْ تَـرَحَّلْتَ عَنْـهُ لَجَّ فِي الـطَّلَبِ

وعلى هذا الأسلوب ورد قول علي بن جبلة:

إِذَا مَـا تَـرَدَّى لأْمَـةَ الْـحَـرْبِ أَرْعِـدَتْ ... حَشَـا الأَرْضِ وَاسْتَـدْمَى الـرِّمَـاحُ الشَّـوَارِعُ
وَأَسْفَـرَ تَحْتَ النَّقْـعِ حَتَّـى كَـأَنَّـهُ ... صَبَـاحٌ مَشَى فِي ظُلْمَةِ اللَّيْـلِ طَـالِـعُ

وقد أحسن علي بن جبلة في تشبيهه هذا كلَّ الإحسان.

وكمثله في الحسن قوله أيضاً في تشبيهه الْحَبَبَ فوق الخمر:

تَـرَى فَـوْقَهَـا نَمَشـاً لِلْمَـزَاجِ ... تبَـاذِيـر لاَ يَتَّـصِلْنَ اتِّـصَـالاَ
كَـوَجْهِ الْعَـرُوسِ إِذَا خَـطَّطَتْ ... عَلَى كُـلِّ نَـاحِيَـةٍ مِنْـهُ خَـالاَ

= وقبل البيتين اللذين أنشدهما المؤلف قوله:

يَـا رُبَّ فِتْنَـةِ أُمَّـةٍ قَـدْ بَـزَّهَـا ... جَبَّـارُهَـا فِي طَـاعَـةِ الْـجَبَّـارِ
جَـالَتْ بِخَيْـذَرَ جَـوْلَـةُ الْمِقْـدَارِ ... فَـأَحَـلَّهُ الـطُّغْـيَـانُ دَارَ بَـوَارِ

(١) السبائب: جمع سبيبة، وهي شقة رقيقة. وتضاءلت: أخفت شخصها وتصاغرت، والأطمار: الثياب البالية، واحدها طمر؛ بكسر فسكون.

(٢) من كلمة له يمدح فيها الحسن بن سهل، وأولها قوله:

أَبْـدَتْ أَسًـى أَنْ رَأَتْنِـي مُخْـلَسَ الْقُـصُبِ ... وَآلَ مَـا كَـانَ مِـنْ عُـجْـبٍ إِلَى عَـجَـبِ

ومن هذا القسم قول مسلم بن الوليد[١]:

تَلْقَى الْمَنِيَّةَ فِي أَمْثَالِ عُدَّتِهَا ... كَالسَّيْلِ يَقْذِفُ جُلْمُوداً بِجُلْمُودِ

وعلى هذا الأسلوب ورد قول العباس بن الأحْنَفِ[٢]:

لَا جَزَى اللَّهُ دَمْعَ عَيْنِيَ خَيْراً ... وَجَزَى اللَّهُ كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِي
نَمَّ دَمْعِي فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئاً ... وَوَجَدْتُ اللِّسَانَ ذَا كِتْمَانِ
كُنْتُ مِثْلَ الْكِتَابِ أَخْفَاهُ طَيٌّ ... فَاسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِالْعُنْوانِ

وهذا من اللطيف البديع.

ويروى أن أبا نُوَاس لما دخل مصر مادحاً للخصيب جلس يوماً في رَهْط من الأدباء، وتذكروا مَنَازِهَ بغداد، فأنشد مرتجلاً[٣]:

ذَكَرَ الْكَرْخَ نَازِحُ الأَوْطَانِ ... فَصَبَا صَبْوَةً وَلَاتَ أَوَانِ[٤]

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها داود بن حاتم بن خالد بن المهلب، وأولها قوله:

لَا تَدْعُ بِي الشَّوْقُ إِنِّي غَيْرُ مَعْمُودِ ... نَهَى النُّهَى عَنْ هَوَى ٱلْهِيفِ ٱلرَّعَادِيدِ
لَوْ شِئْتُ لا شِئْتُ رَاجَعْتُ الصِّبَا وَمَشَتْ ... فِيَّ الْعُيُونُ وَفَاتَتْنِي بِمَجْلُودِ

(٢) هذه الأبيات مشهورة النسبة إلى العباس بن الأحنف، ومن العجيب أنها ليست في ديوانه المطبوع في الجوائب عام ١٢٩٨ من الهجرة.

(٣) هذا مطلع قصيدة له من مديح الخصيب كما قال المؤلف، وبعده قوله:

لَيْسَ لِي مُسْعِدٌ بِمِصْرَ عَلَى الشَّوْ ... قِ إِلَى أَوْجُهٍ هُنَاكَ حِسَانِ
إِذْ لِبَابِ الأَمِيرِ صَدْرُ نَهَارِي ... وَرَوَاحِي إِلَى بُيُوتِ الْقِيَانِ

وانظر الديوان (ص ٩٧ مصر).

(٤) في أ، ب، ج «ذكر الكرج» وهو تحريف.

ثم أتم ذلك قصيداً مدح به الخصيب، فلما عاد إلى بغداد دخل عليه العباس ابن الأحنف، وقال: أنشدني شيئاً من شعرك بمصر، فأنشده:

ذَكَــرَ الْـكَــرْخَ نَــازِحُ الأَوْطَــانِ

فلما استتمَّ الأبيات قال له: لقد ظلمك من ناواك، وتخلف عنك من جارك، وحرامٌ على أحدٍ يتفوّه بقول الشعر بعدك، فقال أبو نواس: وأنت أيضاً يا أبا الفضل تقول هذا؟ ألست القائل:

لاَ جَــزَى اللَّهُ دَمْــعَ عَـيْـنِـيَ خَـيْــراً

وأنشد الأبيات، ثم قال: ومن الذي يحسن أن يقول مثل هذا؟

ومن تشبيه المركب بالمركب قول البحتري[1]:

جِـدَةٌ يَـذُودُ الْبُخْـلَ عَنْ أَطْـرَافِهَـا   كَـالْبَحْـرِ يَمْنَـعُ مِلْحَـهُ عَنْ مَـائِـهِ

وهذا من محاسن التشبيهات.

وكذلك ورد قوله[2]:

وَتَــرَاهُ فِي ظُلَمِ الْـوَغَى فَتَخَــالُـهُ   قَمَراً يَكُرُّ عَلَى الرِّجَالِ بِكَـوْكَبِ[3]

وفي هذا البيت تشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء؛ فإنه شبه العَجَاج بالظلمة، والممدوح بالقمر، والسنان بالكوكب، وهذا من الحسن النادر.

---

(١) من كلمة له يمدح فيها يوسف بن محمد، وأولها قوله:

يَـا غَـادِيـاً وَالثَّغْـرُ خَلْفَ مَسَـائِـهِ   يَصِــلُ السُّرَى بِـأَصِيلِهِ وَضُحَـائِـهِ

وانظر الديوان (ج ١ ص ٩ مصر).

(٢) من قصيدة له يمدح فيها مالك بن طوق، وأولها قوله:

رَحَـلُوا فَـأَيَّـةُ عَبْـرَةٍ لَـمْ تُـسْكَـبِ   أَسَفـاً؟ وَأَيُّ عَـزِيمَـةٍ لَـمْ تُغْـلَبِ؟

وانظر الديوان (ج ١ ص ١٩ مصر).

(٣) في الديوان «قمراً يشد على الرجال».

وكذلك ورد قوله[١]:

يَمْشُــونَ فِي زَغْفٍ كَـأَنَّ مُتُــونَهَـا ... فِي كُــلِّ مَعْـرَكَـةٍ مُتُونُ نِهَــاء[٢]
بِيضٌ تَسِيلُ عَلَى الْكُمَاةِ نُصُـولُهَـا ... سَيْــلَ السَّـرَابِ بِقَفْـرةٍ بَيْـدَاءِ[٣]
فَـإِذَا الأَسِنَّةُ خَـالَـطَتْهَـا خِلْتَهَـا ... فِيهـا خَـيَـالَ كَـوَاكِبٍ فـي مَـاءٍ

فالبيتان الأخيران هما اللذان تضمنا تشبيه المركب بالمركب، وإنما جئنا بالبيت الأول سياقة إلى معناهما، وهو من التشبيه الذي أحسن فيه البحتري وأغرب.

ومن هذا الباب ما ورد لبعض الشعراء في وصف الخمر، فقال:

كَـانَتْ سِـرَاجَ أُنَـاسٍ يَهْتَـدُونَ بِهَـا ... فِي سَـالِفِ الـدَّهْـرِ قَبْـلَ النَّـارِ وَالنُّـورِ
تَـهْتَــزُّ فِي الْكَــأْسِ مِنْ ضَـعْـفٍ ومِـنْ هَـرَمٍ ... كَـأَنَّــهَـا قَــبَسٌ فِــي كَــفِّ مَــقْـرُورِ

وقد يندر للناظم أو الناثر شيء من كلامه يبلغ الغاية التي لا أمد فوقها، وهٰذان البيتان من هذا القبيل.

ومن أغرب ما سمعته في هذا الباب قول الحُسَيْن بن مُطَير يرثي مَعْنَ بن زَائدة[٤]:

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف، وأولها قوله:

زَعَـمَ الْـغُــرَابُ مُـنَـبِّــيءُ ٱلأَنْبَــاءِ ... أَنَّ ٱلأَحِـبَّــةَ آذَنُــوا بِـتَــنَـاءِ

وانظر الديوان (ج ١ ص ٣ مصر).

(٢) الزغف: اسم جنس جمعي، واحده زغفة، وهي الدرع، والنهاء: جمع نهى ـ بكسر النون وفتحها مع سكون الهاء ـ وهو الغدير.

(٣) في الديوان «بيض تسيل على الكماة فضولها».

(٤) من كلمة له رواها أبو تمام في باب الرثاء من الحماسة، وأولها قوله:

أَلِـمَّـا عَـلَى مَعْـنٍ وَقُـولاَ لِـقَـبْـرِهِ ... سَقَتْـكَ الْغَـوَادِي مَـرْبَعـاً ثُمَّ مَـرْبَعَـا

انظر شرح التبريزي (٢ ـ ٣٩٠).

فَتًى عِيشَ في مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعَا

القسم الثالث: في تشبيه المفرد بالمركب.

فمما ورد منه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾.

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن استنجاداً؛ فقلت: وهو إذا استصرِخ أَصْرَخ بعَزْم كالشهاب في رَجْمه، وهم كالقَوْسِ الممتلىء بنزع سَهْمه، ويرى أن صريخه لم يخب، وأنه إذا لم يجبه بالسيف فكأنه لم يجب؛ فهو مغري جواده وحسامه، ومسمع العدو صَرِيرَ رُمْحه قبل قَعْقَعَة لجامه.

وكذلك أيضاً ما كتبته في كتاب إلى بعض الإخوان أذمُّ الفراق، فقلت: والفِراق شيء لا كالأشياء، وصاحبه ميت لا كالأموات وحيٌّ لا كالأحياء، وما أراه إلا كَنَارِ الله الموقَدَة، التي تطَّلع على الأفئدة، وما يجعل صاحبها في ضَحْضَاحٍ منها إلا تواتر الكتاب التي تقيه بعض الوقاء، وتقوم له وإن لم يُسْقَ مقام الإسقاء.

وأما ما ورد منه في الشعر فكقول أبي نواس(١):

---

(١) البيت من خمسة أبيات له في الزهد، وهو آخرها بيتاً، وقبله قوله:

أَيَا رُبَّ وَجْهٍ في التُّرَابِ عَتِيقِ وَيَا رُبَّ حُسْنٍ في التُّرَابِ رَقِيقِ
وَيَا رُبَّ حَزْمٍ في التُّرَابِ وَنَجْدَةٍ وَيَا رُبَّ رَأْيٍ في التُّرَابِ وَثِيقِ
أَرَى كُلَّ حي هَالِكاً وَٱبْنَ هَالِكٍ وَذَا حَسَبٍ في ٱلْهَالِكِينَ عَرِيقِ
فَقُلْ لِقَرِيبِ ٱلدَّارِ إِنَّكَ ظَاعِنٌ إِلَى مَنْزِلٍ نَائِي المَحَلِّ سَحِيقِ

وانظر الديوان (ص ١٩٢ مصر).

إِذَا ٱمْتَحَنَ الــدُّنْيَــا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ لَــهُ عَـنْ عَــدُوٍ فِي ثِيَــابِ صَــدِيقِ

وكذلك قول أبي تمام يصف قصيداً له(١):

خُــذْهَــا مُثَقَّفَــةَ الْقَــوَافِي رَبُّهَــا لِسَـوابِـغِ النَّعْمَـاءِ غَيْـرُ كَنُــودِ(٢)
كَـالـدُّرِّ وَالْمَـرْجَـانِ أُلِّفَ نَـظْمُـهُ بـالشَّـذْرِ فِي عُنُقِ الْفَتَـاةِ الـرُّودِ(٣)

وكذلك ورد قول البحتري، وهو من جملة قصيدتـه المشهورة التي وصف فيها الفرس والسيف، وأولها:

أَهْــلاً بِــذَلِكُمُ الْخَيَــالِ الْـمُقْبِــلِ (٤)

فقال فيها من أبيات تضمَّنَتْ وصف السيف بيتاً أجاد في تشبيهه:

وَكَـأَنَّمَـا سُودُ النِّمـالِ وَحُمْــرُهَـا دَبَّـتْ بِـأَيْـدٍ فِي قُــوَاهُ وأَرْجُــلِ

فشبه فِرِنْدَ السيف بدَبيب النمل سودِها وحمرِها، وذلك من التشبيه الحسن.

(١) البيتان من قصيدة له يمدح فيها أحمد بن أبي داود، وأولها قوله:

أَرَأَيْــتَ أَيَّ سَــوَالِــفٍ وَخُــدُودِ عَــنَّتْ لَــنَــا بَيْــنَ ٱلـلِّوَى فَــزَرُودِ

وقد وقع في أ، ب، ج «يصف قيداً» وهو تحريف بحذف الصاد المهملة.

(٢) وقع في ج «لسوابغ النّعمان» وهو تحريف، وبين هذا البيت والذي بعده بيتان آخران، وهما قوله:

حَــذَّاءَ تَــمْــلأُ كُــلَّ أُذْنٍ حِكْــمَــةً وَبَــلاَغَــةً وَتُــدِرُّ كُــلَّ وَرِيــدِ
كَــالـطَّعْنَــةِ النَّجْلاَءِ مِنْ يَــدِ ثَــائِــرٍ بِــأَخِيــهِ أَوْ كَــالضَّــرْبَــةِ الأُخْــدُودِ

(٣) وقع في أ، ب، ج «بالشد في عنق» وهو تحريف، وتصويبه عن الديوان، وفي الديـوان «الكعاب الرود». والشذر: قطع من الذهب تلقط من معدنه، ولا تستخرج بإذابة الحجارة، والرود: الجارية الناعمة.

(٤) لم أجد هذه القصيدة، ولا هذا البيت، في شعر البحتري.

وأما ما ورد منه مضمر الأداة فكقول النبي ﷺ وقد سئل عن الْعَزْلِ فقال: «هُوَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ» وهذا تشبيه بليغ، والوأد: هو ما كانت العرب تفعله في دفن البنات أحْيَاء، فجعل العزل في الجماع كالوأد إلا أنه خفيٌّ، وذاك أنهم كانوا يفعلون بالبنات ذلك هَرَباً منهن، وهكذا من يَعْزِلُ في الجماع فإنما يفعل ذلك هرباً من الولد.

وكذلك قال النبي ﷺ: «هُوَ الْوَأْدَة الصُّغْرَى» وهذا من الحسن إلى غاية تغضّ لها العيون طرفَها، ولا ينتهي الوصف إليها فيكون ترك وصفها كوصفها.

ومما جاءني من ذلك فصل من جملة كتاب ضمنته وصف القلم، فقلت: جدع أنفه فصار في الكيد قصيراً، وأرهف صدره فصار في المَضَاء غَضْباً شهيراً، وقمص لباس السواد وهو شعار الخطباء فنطق بفصل الخطاب، ونكس رأسه وهي صورة الإذلال فاختال في مشيه من الإعجاب، وأوحى إليه بنَجْوَى الخواطر وهو الأصم فأفْضَى بما سمعه إلى الكتاب.

وهذه الأوصاف غريبة جداً، ومن أغربها ذكر قَصِير عند جَدْع الأنف.

وأما القسم الرابع، وهو تشبيه المركب بالمفرد؛ فإنه قليل الاستعمال بالنسبة إلى الأقسام الثلاثة، وليس ذلك إلا لعدم النظير بين المشبه والمشبه به، وعلى كثرة ما حفظته من الأشعار لم أجد ما أمثل به هذا القسم إلا مثالاً واحداً، وهو قول أبي تمام في وصف الربيع[1]:

يَا صَاحِبَيَّ تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُمَا ... تَرَيَا وُجُوهَ الأَرْضِ كَيْفَ تُصَوَّرُ
تَرَيَا نَهَاراً مُشْمِساً قَدْ شَابَهُ ... زَهْرُ الرُّبَا فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْمِرُ

(١) من قصيدة له يمدح فيها المعتصم، وأولها قوله:

رَقَّتْ حَواشِي الدَّهْرِ فَهْيَ تَمَرْمَرُ ... وَغَدا الثَّرَى في حَلْيِهِ يَتَكَسَّرُ

انظر الديوان (ص ١٢٦ بيروت).

فشبه النهار المشمس مع الزهر الأبيض بضوء القمر، وهو تشبيه حسن واقع في موقعه، مع ما فيه من لطف الصنعة.

ولربما اعترض في هذا الموضع معترض، وقال: إنك أوردت هذا القسم من التشبيه، وذكرت أنه قليل، وليس كذلك؛ فإن تشبيه شيئين بشيء واحد كثير، كقول أبي الطيب المتنبي(١):

تُشْرِقُ أَعْرَاضُهُمْ وَأَوْجُهُهُمْ ... كَأَنَّهَا في نُفُوسِهِمْ شِيَمُ(٢)

فشبه إشراق الأعراض والوجوه بإشراق الشيم.

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها علي بن إبراهيم التنوخي، وأولها قوله:

أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الْهِمَمُ ... أَحْدَثُ شَيْءٍ عَهْداً بِهَا الْقِدَمُ

العافي: الدارس الذاهب، والهمم: جمع همة، والقدم: خلاف الحدوث؛ قال أبو الفتح: سألته عن معنى هذا البيت، فقال: أحق ما صرفت إليه بكاءك همم الناس لأنها قد عفت ودرست فصار أحدثها عهداً قديماً، وقال الخطيب: أحق عاف بأن يبكي عليه همم الكرام؛ لأنها عفت كما تعفو الربوع؛ فهي أحق بدمعك من كل الدارسات، وجعل القدم أحدث الأشياء عهداً بالهمم: أي دروسها قديم؛ فلا همم في الأرض.

(٢) قبل هذا البيت قوله:

قَوْمٌ بُلُوغُ الْغُلَامِ عِنْدَهُمُ ... طَعْنُ نُحُورِ الْكُمَاةِ لَا ٱلْحُلُمُ
كَأَنَّمَا يُولَدُ النَّدَى مَعَهُمْ ... لَا صِغَرٌ عَاذِرٌ وَلَا هَرَمُ
إِذَا تَوَلَّوْا عَدَاوَةً كَشَفُوا ... وَإِنْ تَوَلَّوْا صَنِيعَةً كَتَمُوا
تَظُنُّ مِنْ فَقْدِكَ ٱعْتِدَادَهُمُ ... أَنَّهُمُ أَنْعَمُوا وَمَا عَلِمُوا
إِنْ بَرَقُوا فَالْحُتُوفُ حَاضِرَةٌ ... أَوْ نَطَقُوا فَالصَّوَابُ وَٱلْحِكَمُ
أَوْ حَلِفُوا بِالْغَمُوسِ وَٱجْتَهَدُوا ... فَقَوْلُهُمْ خَابَ سَائِلِي الْقَسَمُ
أَوْ رَكِبُوا ٱلْخَيْلَ غَيْرَ مُسْرَجَةٍ ... فَإِنَّ أَفْخَاذَهُمْ لَهَا حُزُمُ
أَوْ شَهِدُوا ٱلْحَرْبَ لَاقِحاً أَخَذُوا ... مِنْ مُهَجِ الدَّارِعِينَ مَا ٱحْتَكَمُوا

الجواب عن ذلك أني أقول: هذا البيت المعترض به على ما ذكرتـه ليس كالذي ذكرته؛ فإن أردت أن يشبه شيئـان هما كشيء واحـد في الاشتراك بشيء واحد، ألا ترى أن نور الشمس مع بياض الزهر وهما شيئان مشتركان قد شُبِّها بضوء القمر؛ وأما هذا البيت الذي لأبي الطيب المتنبي فإنه تشبيه شيئين كل واحد منهما مفرد برأسه بشيء واحد؛ لأنه شبه إشراق الأعراض وإشراق الوجوه بإشراق الشِّيَم، وهذا غير ما أردته أنا.

لكن ينبغي أن تعلم أن تشبيه المركب بالمفرد ينقسم قسمين: أحدهما: تشبيه شيئين مشتركين بشيء واحد، كالذي أوردته لأبي تمام؛ وهـو قليل الاستعمـال، والآخر: تشبيه شيئين منفردين بشيء واحد، كالذي ذكرته أنت لأبي الطيب المتنبي، وهو كثير الاستعمال.

وإذ ذكرنا أقسام التشبيه، وبَيَّنَّا المحمودَ منها الذي ينبغي اقتفاءُ أثره واتبـاع مذهبه، فَلْنُتْبِعْه بضده مما ينبغي اجتنابه والإضراب عنه، على أنه قد قدمنا القول بأن حَدَّ التشبيه هو: أن يُثْبَتَ للمشبه حُكْمٌ من أحكام المشبه به، فإذا لم يكن بهذه الصفة، أو كان بين المشبه والمشبه به بُعْدٌ؛ فذلك الذي يُطْرَح ولا يستعمل، والذي يرد منه مضمر الأداة لا يكون إلا في القسم الـواحد من أقسـام المجازي، وهـو التوسع، وقد قدمت القول في ذلك في أول باب الاستعارة، وضربت له أمثلة منها قول أبي نواس(١):

مَـا لِـرِجْـلِ الْمَـالِ أمْسَتْ   تَـشْتَـكِي مِـنْـكَ الْكَـلاَلاَ

فجعل للمال رجلاً، وذلك تشبيه بعيد، ولا حاجة إلى إعادة ذلك الكلام ههنا بجملته، لكن قد أشرت إليه إشارة خفيفة.

ومن أقبح ما سمعته من ذلك قول أبي تمام(٢):

---

(١) انظر هذا البيت وبيان ما فيه في (ص ٣٤٩ من هذا الجزء).

(٢) من كلمة له يمدح فيها أبا سعيد، وأولها قوله:

وَتَقَاسَمَ النَّاسُ السَّخَاءَ مُجَزَّأً ... وَذَهَبْتَ أَنْتَ بِرَأْسِهِ وَسَنَامِهِ(١)
وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ الإِهَابَ وَمَا بَقَى ... مِنْ فَرْثِهِ وَعُرُوقِهِ وَعِظَامِهِ(٢)

والقبح الفاحش في البيت الثاني، فإن غرضه أن يقول: ذهب بالأعلى وترك للناس الأدنى، أو ذهبت بالجيد وتركت للناس الرديء.

وقد عيب عليه قوله(٣):

لاَ تَسْقِنِي مَاءَ المُلاَمِ فَإِنَّنِي ... صَبٌّ قَدِ آسْتَعْذَبْتُ مَاءَ بكائي

وقيل: إنه جعل للملام ماء، وذلك تشبيه بعيد، وما بهذا التشبيه عندي من بأس، بل هو من التشبيهات المتوسطة التي لا تحمد ولا تذم، وهو قريب من وجه بعيد من وجه: أما مناسب قربه فهو أن الملام هو القول الذي يُعَنَّفُ به المَلُوم لأمر جَنَاه، وذاك مختصٌّ بالسمع، فنقله أبو تمام إلى السقيا التي هي مختصة بالحلق، كأنه قال: لا تذقني الملامَ، ولو تهيأ له ذلك مع وزن الشعر لكان تشبيهاً حسناً، لكنه جاء بذكر الماء فحط من درجته شيئاً، ولما كان السمع يَتَجَرَّع الملامَ أولاً أولاً كتجرع الحلق الماء صار كأنه شبيه به، وهو تشبيه معنى بصورة؛ وأما سبب بُعْدِ هذا التشبيه فهو أن الماء مستلَذّ، والملام مستكره، فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه، فهذا التشبيه إن بعد من وجه فقرب من وجه، فيغفر هذا لهذا، ولذلك جعلته من التشبيهات المتوسطة التي لا تحمد ولا تذم.

قُلْ لِلأَمِيرِ أَبِي سَعِيدٍ ذِي النَّدَى ... وَالْمَجْدِ زَادَ اللَّهُ فِي إِكْرَامِهِ

وقبل هذين البيتين وهو داخل فيما دخلا فيه قوله:

قُسِمَ الْحَيَاءُ عَلَى الأَنَامِ جَمِيعِهِمْ ... فَنَهَضْتَ أَنْتَ فَقُدْتَهُ بِزِمَامِهِ

(١) في الديوان «وتقسم الناس».
(٢) الإهاب ـ بكسر الهمزة ـ: الجلد؛ والفرث: ما في الكرش من السرجين.
(٣) هو ثاني بيت من قصيدة له يمدح فيها يحيى بن ثابت، وقبله، وهو المطلع:

قَدْكَ آتئِبْ أَرْبَيْتَ فِي الْغُلَوَاءِ ... كَمْ تَعْذِلُونَ وَأَنْتُمُ سُجَرَائِي

وقد روي ـ وهو رواية ضعيفة ـ أن بعض أهل الْمَجَانة أرسل إلى أبي تمام قَارورةً، وقال: ابْعَثْ في هذه شيئاً من ماء الملام، فأرسل إليه أبو تمام، وقال: إذا بعثت إليَّ ريشةً من جَنَاح الذل بعثت إليك شيئاً من ماء الملام، وما كان أبو تمام ليذهب عليه الفرق بين هذين التشبيهين؛ فإنه ليس جعلُ الجناح للذل كجعل الماء للملام، فإن الجناح للذل مناسب، وذاك أن الطائر إذا وَهَن أو تَعِبَ بَسَطَ جناحه وخَفَضه وألقى نفسه على الأرض، وللإنسان أيضاً جناح، فإن يَدَيْه جَنَاحَاه، وإذا خضع واستكان طأطأ من رأسه، وخفض من يديه؛ فحسن عند ذلك جعلُ الجناح للذل، وصار تشبيهاً مناسباً، وأما الماء للملام فليس كذلك في مناسبة التشبيه.

وأما التشبيه المضمر الأداة من هذا الباب فقد أوردت له أمثلة يستدل بها على أشباهه وأمثاله؛ فإن لذكر المثال فائدة لا تكون لذكر الحد وحده.

فمن ذلك قول بعضهم:

مَـلاَ حَاجِبَيْـكَ الشَّيْبُ حَتَّى كَـأَنَّـهُ ... ظِبَـاءٌ جَـرَتْ مِنْهَـا سَنِيـحٌ وَبَــارِحُ

وكذلك قول الآخر يصف السهام[1]:

كَسَاهَا رَطِيب الرِّيشِ فَاعْتَـدَلَتْ لَهُ ... قِـدَاحٌ كَـأَعْنَـاقِ الـظِّبَــاءِ الْفَـوَارِقِ

فإنه شبه السهام بأعناق الظباء، وذلك من أبعد التشبيهات.

وعلى نحو منه قول الفرزدق:

يَمْشُونَ في حَلَقِ الْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ ... جُرْبُ الْجِمَالِ بِهَا الْكُحَيْلُ الْمُشْعَلُ

فشبه الرجال في دروع الزرَد بالجمال الجُرْب، وهذا من التشبيه البعيد؛ لأنه إن أراد السواد فلا مقاربة بينهما في اللون؛ لأن لَوْنَ الحديد أبيضُ، ومن أجل ذلك سميت السيوف بالبيض؛ ومع كون هذا التشبيه بعيداً فإنه تشبيه سخيف.

(١) البيت لساعدة بن جؤلة، ويروى «قداح كأعناق الظباء رقاق» انظر الصناعتين (١٩٧).

ومن التشبيهات الباردة قول أبي الطيب المتنبي[١]:

وَجَرَى عَلَى الْوَرَقِ النَّجِيعُ الْقَانِي   فَكَأَنَّهُ النَّارَنْجُ في الأَغْصَانِ[٢]

وهذا تشبيه ينكره أهل التجسيم، وإذا قسمت التشبيهات بين البعد والبرد[١] حاز طرفي ذلك التقسيم.

وأبشع من هذا قول أبي نواس في الخمر[٤]:

كَأَنَّ بَرَانِساً رَوَاكِدَ حَوْلَهَا   وَزُرْق سَنَانِيرٍ تُدِيرُ عُيُونَهَا[٥]

والعجب أنه يقول مثل هذا الغث الذي لا لاءمة بينه وبين ما شبه به ويقرنه بالبديع الذي[٦] أحسن فيه وأبدع، وهو:

كَأَنَّا حُلُولٌ بَيْنَ أَكْنَافِ رَوْضَةٍ   إِذَا مَا سَلَبْنَاهَا مَعَ اللَّيْلِ طِينَهَا

فانظر كيف قَرَنَ بين وَرْدِهِ وَسَعْدَانه، لا، بل بين بَعَره ومَرْجانه، وقد أكثر في تشبيه الخمر فأحسن في موضع وأساء في موضع، ومن إساءته قوله أيضاً في أبيات لامية[٧]:

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة، وأولها قوله:

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ   هُوَ أَوَّلٌ وهِيَ المحلُّ الثَّانِي

(٢) قبل هذا البيت قوله:

هَيْهَاتِ عَلقَ عَنِ الْعِوَادِ قَوَاضِبٌ   كَثُرَ الْقَتِيلُ بِهَا وَقَلَّ الْعَانِي
وَمُهَذَّبٌ أَمَرَ الْمَنَايَا فِيهِمُ   فَأَطَعْنَهُ فِي طَاعَةِ الرَّحْمَانِ
قَدْ سَوَّدَتْ شَجَرَ الْجِبَالِ شُعُورُهُمْ   فَكَأَنَّ فِيهِ مُسِفَّةَ الْغِرْبَانِ

(٣) في أ، ب، ج «وإذا قسمت التشبيهات بعد البعد والبرد».

(٤) بحثت ديوان أبي نواس كله فلم أجد هذين البيتين.

(٥) كذا في أ، وفي ب، ج «كأن بواسار».

(٦) في أ، ب، ج «ويقرنه بالبديع البارد الذي أحسن فيه وأبدع».

(٧) البيتان من كلمة له أولها قوله:

وإذَا مَـا الـمَـاءُ وَاقَـعَـهَـا　　أَظْهَـرَتْ شَكْـلاً مِنَ الْغَـزَلِ
لُـؤْلُـؤات يَـنْـحَـدِرْنَ بِـهَـا　　كَـانْحِـدَارِ الـذَّرِّ مِنْ جَبَـلِ[1]

فشبه الحَبَبَ في انحداره بنَمْل صغار ينحدر من جبل، وهذا من البعد على غاية لا يحتاج إلى بيان وإيضاح.

واعلم أن من التشبيه ضرباً يسمى الطرد والعكس، وهو أن يجعل المشبه به مشبهاً والمشبه مشبهاً به، وبعضهم يسميه غلبة الفروع على الأصول، ولا تجد شيئاً من ذلك إلا والغرض به المبالغة.

فمما جاء من ذلك قول ذي الرُّمَّة[2]:

وَرَمْلٍ كَأَرْدَافِ الْعَذَارَى قَطَعْتُهُ　　إِذَا أُلْبِسَتْهُ الْمُظْلِمَاتُ الْحَنَادِسُ

ألا ترى إلى ذي الرمة كيف جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً؟ وذاك أن العادة والعُرْفَ في هذا أن تشبه أعجاز النساء بكُثْبان الأنْقاء، وهو مُطَّرد في بابه، فعكس ذو الرمة القصَّة في ذلك، فشبه كُثْبان الأنقاء بأعجاز النساء، وإنما فعل ذلك مبالغةً: أي قد ثبت هذا الموضع وهذا المعنى لأعجاز النساء وصار كأنه الأصل حتى شبهت به كُثْبان الأنقاء.

= يَـا مُبِيحَ الـدَّمْـعِ فِي الـطَّلَلِ　　رَاكِـبـاً مِـنْـهُ إِلَـى أَمَـلِ

انظر الديوان (ص ٣١٦ مصر).

(١) رواية الديوان ليست كما رواها المؤلف واعترض عليه، بل هي هكذا:

لُـؤْلُـؤاتٌ يَـنْـحَـدِرْنَ بِـهَـا　　كَـانْحِـدَارِ الـدَّمْـعِ فِي عَجَـلِ

(٢) من قصيدة له أولها قوله:

أَلَمْ تَسْأَلِ الْيَـوْمَ الرُّسُـومُ الـدَّوَارِسُ　　بِحُزْوَى؟ وَهَلْ تَدْرِي القفارُ البسابِسُ؟

وعلى نحو من هذا جاء قول البحتري[1]:

فِي طَلْعَهِ الْبَدْرِ شَيْءٌ مِنْ مَحَاسِنِهَا وَلِلْقَضِيبِ نَصِيبٌ مِنْ تَثَنِّيهَا

وكذلك ورد قول عبدالله بن المعتز في قصيدته المشهورة التي أولها:

سَقَى المَطِيرَةَ ذَاتَ الطَّلِّ وَالشَّجَرِ[2]

فقال في تشبيه الهلال:

وَلَاحَ ضَوْءُ قُمَيْرٍ كَادَ يَفْضَحُنَا مِثْلُ الْقُلَامَةِ قَدْ قُدَّتْ مِنَ الظُّفُرِ

ولما شاع ذلك في كلام العرب واتسع صار كأنه هو الأصل، وهو موضع من علم البيان حسن الموقع، لطيف المأخذ.

وهذا قد ذكره أبو الفتح بن جني في كتاب الخصائص، وأورده هكذا مهملاً.

ولما نظرت أنا في ذلك، وأنعمت نظري فيه؛ تبين لي ما أذكره، وهو: أنه قد تقرر في أصل الفائدة المستنتجة من التشبيه أن يشبه الشيء بما يطلق عليه لفظة أفْعَلَ: أي يشبه بما هو أبين وأوضح، أو بما هو أحسن منه أو أقبح، وكذلك يشبه الأقل بالأكثر، والأدنى بالأعلى.

وهذا الموضع لا ينقض هذه القاعدة؛ لأن الذي قدمناه ذكره مطرد في بابه، وعليه مدار الاستعمال، وهذا غير مطرد، وإنَّما يحسن في عكس المعنى المتعارف، وذاك أن تجعل المشبه به مشبهاً، والمشبه مشبهاً به، ولا يحسن في غير ذلك مما

---

(١) من قصيدة له يمدح فيها أمير المؤمنين المتوكل، وأولها قوله:

أَنَافِعِي عِنْدَ لَيْلَى فَرْطُ حُبِّيهَا وَلَوْعَةٌ لِيَ أُبْدِيهَا وَأُخْفِيهَا
أَمْ لَا تُقَارِبُ لَيْلَى مَنْ يُقَارِبُهَا وَلَا تُدَانِي بِوَصْلٍ مَن يُدَانِيهَا
بَيْضَاءُ أَوْقَدَ خَدَّيْهَا الصِّبَا وَسَقَى أَجْفَانَهَا مِنْ مُدَامِ الرَّاحِ سَاقِيهَا

(٢) هذا صدر المطلع وعجزه قوله:

وَدَيْرَ عَبْدُونَ هُطَّالٌ مِنَ الْمَطَرِ

ليس بمتعارف، ألا ترى أن من العادة والْعُرْف أن تشبه الأعجاز بـالْكُثْبَان، فلما عكس ذو الرمة هذه القضية في شعره جاء حسناً لائقاً؟ وكذلك فعل البحتري؛ فإن من العادة والعرف أن يشبه الوجه الحسن بالبدر والقدُّ الحسن بالقضيب، فلما عكس البحتري القضية في ذلك جاء أيضاً حسناً لائقاً، ولو شبه ذو الرمة الكثبان بما هو أصغر منها غير الأعجاز لما حسن ذلك؛ وهكذا لو شبه البحتري طلعة البدر بغير طلعة الحسناء والقضيب بغير قدِّها لما حسن ذلك أيضاً، وهكذا القول في تشبيه عبدالله بن المعتز صورة الهلال بالقُلَامة؛ لأن من العادة أن تشبه القلامة بالهلال، فلما صار ذلك مشهوراً متعارفاً حسن عكس القضية فيه.

النوع الثالث

في التجريد

وهذا اسم كنت سمعته؛ فقال القائل: التجريد في الكلام حسن، ثم سكت، فسألته عن حقيقته، فقال: كذا سمعت، ولم يزد شيئاً؛ فأنعمت حينئذ نظري في هذا النوع من الكلام، فألقي في روعي أنه ينبغي أن يكون كذا وكذا، وكان الذي وقع لي صواباً، ثم مضى على ذلك برهة من الزمان، ووصل إلى ما ذكره أبو علي الفارسي رحمه الله تعالى، وقد أوردته ههنا، وذكرت ما أتيت به من ذات خاطري من زيادة لم يذكرها، وستقف أيها المتأمل على كلامه وكلامي.

فأما حدّ التجريد فإنه إخْلَاصُ الخطاب لغيرك، وأنت تريد به نفسك، لا المخاطب نفسه؛ لأن أصله في وضع اللغة من جَـرَّدْتُ السيف؛ إذا نَزَعْتَه من غِمْدِهِ، وجَرَّدْت فلاناً؛ إذا نزعت ثيابه، ومن ههنا قال ﷺ: «لَا مَدَّ وَلَا تَجْرِيدَ» وذلك في النهي عند إقامة الحد أن يُمَدَّ صاحبه على الأرض وأن تجرَّد عنه ثيابه، وقد نقل هذا المعنى إلى نوع من أنواع علم البيان.

وقد تأملته فوجدت له فائدتين: إحداهما أبلغ من الأخرى:

فالأولى: طلب التوسع في الكلام، فإنه إذا كان ظاهره خطاباً لغيرك وباطنهُ

خطاباً لنفسك فإن ذلك من باب التوسع؛ وأظن أنهُ شيء اختصت بهِ اللغة العربية دون غيرها من اللغات.

والفائدة الثانية: ـ وهي الأبلغ ـ وذاك أنه يتمكن المخاطب من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره عَلَى نفسه؛ إذ يكون مخاطباً بها غيره؛ ليكون أعذر وأبرأ من العهدة فيما يقوله غير محجور عليهِ.

وعلى هذا فإن التجريد ينقسم قسمين: أحدهما: تجريد محض، والآخر: تجريد غير محض.

فالأول: ـ وهو المحض ـ أن تأتي بكلام هو خطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك، وذلك كقول بعض المتأخرين وهو الشاعرالمعروف بالْحَيْصَ بَيْصَ في مطلع قصيدة له[1]:

إلاَمَ يَـرَاكَ المَجْـدُ في زِيِّ شـاعِـرِ وَقَـدْ نَحلت شَوْقـاً فُـرُوعُ المَنَـابِـرِ
كَتَمْتَ بِعَيْبِ الشِّعْر حِلْماً وَحِكْمَـةً بِبَعْضِهِمَـا يَنْقَـادُ صَعْبُ المَفَـاخِـرِ
أَمَـا وَأَبِيكَ الْخَيْـرِ إِنَّـكَ فَـارِسُ الْـ ـمَقَالِ وَمُحْيِي الدَّارِسَاتِ الْغَوَابِـرِ
وَإِنَّــكَ أَعْيَيْتَ المَسَـامِـعَ وَالنُّهَى بِقَـوْلِكَ عَمَّـا فِي بُـطُونِ الـدَّفَـاتِـرِ

فهذا من محاسن التجريد، ألا ترى أنه أجرى الخطاب على غيره وهو يريد نفسه، كي يتمكن من ذكر ما ذكره من الصفات الفائقة، وعَدِّ ما عَدَّه من الفضائل التائهة، وكل ما يجيء من هذا القبيل فهو التجريد المحض.

وأما ما قصد به التوسع خاصة فكقول الصِّمَّة بن عبدالله من شُعَراء الحماسة[2]:

---

(١) هو أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد، التميمي، ويلقب شهاب الدين، له ترجمة في وفيات الأعيان، لابن خلكان (١ ـ ٣٦٠ الوطن).

(٢) هذه الأبيات أول ما اختاره أبو تمام في باب النسيب من ديوان الحماسة؛ انظر شرح التبريزي (٣ ـ ١٩٦).

حَنَنْتَ إِلَى رَيَّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وَشَعْبَاكُمَا مَعَا
فَمَا حَسَنٌ أَنْ تَأْتِيَ الأَمْرَ طَائِعاً وَتَجْزَعَ إِنْ دَاعِي الصَّبَابَةِ أَسْمَعَا

وقد ورد بعد هذين البيتين ما يدل على أن المراد بالتجريد فيهما التوسع، لأنه قال(1):

وَأَذْكُرُ أَيَّامَ الْحِمَى ثُمَّ أَنْثَنِي عَلَى كَبِدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا
بِنَفْسِيَ تِلْكَ الأَرْضُ مَا أَطْيَبَ الرُّبَا وَمَا أَحْسَنَ الْمُصْطَافَ وَالْمُتَرَبَّعَا

فانتقل من الخطاب التجريديّ إلى خطاب النفس، ولو استمر على الحالة الأولى لما قضي عليه بالتوسع، وإنما كان يقضى عليه بالتجريد البليغ الذي هو الطرف الآخر، ويتأول له بأن غرضه من خطاب غيره أن ينفي عن نفسه سمعة الهوى ومَعَرَّةَ العشق؛ لما في ذلك من الشهرة والغضاضة، لكن قد زال هذا التأويل بانتقاله عن التجريد أولاً إلى خطاب النفس.

وعلى هذا الأسلوب ورد قول أبي الطيب المتنبي:

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالُ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقَ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

---

(1) هذان البيتان ليسا متصلين في رواية الحماسة، وهاك القطعة كلها برواية الحماسة:

حَنَنْتَ إلى رَيَّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وَشَعْبَا كَمَا مَعَا
فَمَا حَسَنٌ أَنْ تَأْتِيَ الأَمْرَ طَائِعاً وَتَجْزَعَ إِنْ دَاعِي الصَّبَابَةِ أَسْمَعَا
قِفَا وَدِّعَا نَجْداً وَمَنْ حَلَّ بِالْحِمَى وَقَلَّ لِنَجْدٍ عِنْدَنَا أَنْ يُوَدَّعَا
بِنَفْسِيَ تِلْكَ الأَرْضُ مَا أَطْيَبَ الرُّبَا وَمَا أَحْسَنَ الْمُصْطَافَ وَالْمُتَرَبَّعَا
وَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْحِمَى بِرَوَاجِعٍ عَلَيْكَ وَلٰكِنْ خَلِّ عَيْنَيْكَ تَدْمَعَا
وَلَمَّا رَأَيْتُ الْبِشْرَ أَعْرَضَ دُونَنَا وَحَالَتْ بَنَاتُ الشَّوْقِ يَحْنِنَّ نُزَّعَا
بَكَتْ عَيْنِيَ الْيُسْرَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحِلْمِ أَسْبَلَتَا مَعَا
تَلَفَّتُّ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيتاً وَأَخْدَعَا
وَأَذْكُرُ أَيَّامَ الْحِمَى ثُمَّ أَنْثَنِي عَلَى كَبِدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا

وَآجْزِ الأَمِيرَ الَّذِي نُعْمَاهُ فَاجِئَةٌ بِغَيْرِ قَوْلٍ وَنُعْمَى الْقَوْمِ أَقْوَالُ

وهذان البيتان من مطلع قصيدة يمدح بها فاتكاً الإخشيدي بمصر، وكان وَصَله بِصِلة سنية من نفقة وكسوة قبل أن يمدحه، ثم مدحه بعد ذلك بهذه القصيدة وهي من غُرَر شعره، وقد بنى مطلعها على المعنى المشار إليه من ابتداء فاتك إياه بالصلة قبل المديح، وليس في التجريد المذكور في هذين البيتين ما يدل على وصف النفس ولا على تزكيتها بالمديح، كما ورد في الأبيات الرائية المتقدم ذكرها، وإنما هو توسع لا غير.

وأما القسم الثاني: ـ وهو غير المحض ـ فإنه خطاب لنفسك لا لغيرك، ولئن كان بين النفس والبدن فرق إلا أنهما كأنهما شيء واحد، لعلاقة أحدهما بالآخر.

وبين هذا القسم والذي قبله فرق ظاهر، وذاك أولى بأن يسمى تجريداً؛ لأن التجريد لائق به، وهذا هو نصف تجريد؛ لأنك لم تجرّد به عن نفسك شيئاً، وإنما خاطبت نفسك بنفسك، كأنك فصلتها عنك وهي منك.

فمما جاء منه قول عَمرو بن الإطنابة[1]:

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ جَشَأَتْ وَجَاشَتْ رُوَيْدَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

---

(١) هذا البيت من كلمة له اختارها البحتري في كتاب الحماسة وافتتح بها هذا الكتاب، وهاكها بروايته:

أَبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى بَلائِي وَأَخْذِيَ الْحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وَإِعْطَائِي عَلَى الْمَعْسُورِ مَالِي وَضَرْبِي هَامَةَ الْبَطَلِ الْمُشِيحِ
وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي
لأَدْفَعَ عَنْ مَكَارِمَ صَالِحَاتٍ وَأَحْمِيَ بَعْدُ عَنْ عِرْضٍ صَحِيحِ

وكذلك قول الآخر[1]:

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعْزِيَةً إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابَتْنِي وَلَمْ تُرِدِ

وليس في هذا ما يصلح أن يكون خطاباً لغيرك كالأول، وإنما المخاطب هو المخاطب بعينه، وليس ثَمَّ شيء خارج عنه.

وأما الذي ذكره أبو علي الفارسي رحمه الله فإنه قال: إن العرب تعتقد أن في الإنسان مَعْنى كامناً فيه كأنه حقيقته ومحصوله، فيخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجرداً من الإنسان كأنه غيره، وهو هو بعينه، نحو قولهم: لَئِنْ لقيت فلاناً لَتَلْقَيَنَّ به الأسد، ولئن سألته لتسألنَّ منه الْبَحْر، وهو عينه الأسد والبحر، لا أن هناك شيئاً منفصلاً عنه أو متميزاً منه.

ثم قال: وعلى هذا النمط كون الإنسان يخاطب نفسه حتى كأنه يقاول غيره كما قال الأعشى:

وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ[2]

وهو الرجل نفسه لا غيره.

هذا خلاصة ما ذكره أبو علي رحمه الله.

---

(١) هذا بيت من شعر الحماسة يقوله أعرابي قتل أخوه ابناً له؛ فقدم إليه أخوه ليقتاد منه، فألقى السيف من يده وأنشأ يقول:

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعْزِيَةً إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابَتْنِي وَلَمْ تُرِدِ
كِلاَهُمَا خَلَفٌ مِنْ فَقْدِ صَاحِبِهِ هَذَا أَخِي حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلَدِي

انظر شرح التبريزي على ديوان الحماسة (١ ـ ٢٠٥).

(٢) هذا عجز بيت هو مطلع قصيدة طويلة للأعشى ميمون يعدها بعض الناس في المعلقات، وصدره قوله:

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إن الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ

والذي عندي فيه أنه أصاب في الثاني، ولم يصب في الأول؛ لأن الثاني هو التجريد، ألا ترى أن الأعشى جَرّد الخطاب عن نفسه وهو يريدها، وأما الأول ـ وهو قوله: «لئن لقيت فلاناً لتلقين به الأسد، ولئن سألته لتسألن منه البحر» ـ فإن هذا تشبيه مضمر الأداة؛ إذ يحسن تقدير أداء التشبيه فيه؛ وبيان ذلك أنك تقول: لئن لقيت فلاناً لتلقينّ منه كالأسد، ولئن سألته لتسألن منـه كالبحـر، وليس هذا بتجريد؛ لأن حقيقة التجريد غير موجودة فيه، وإنما هو تشبيه مضمر الأداة، ألا ترى أن المذكور هو كالأسد، وهو كالبحر، وليس ثمّ شيء مجرد عنه، كما تقدم في الأبيات الشعرية.

ويبطل على أبي عليّ قوله أيضاً من وجه آخر، وذاك أنه قال: «إن العرب تعتقد أن في الإنسان معنى كامناً فيه كأنه حقيقته ومحصوله، فخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجرداً من الإنسان كأنه غيره، وهو هو» كالمثال الذي مثله في تشبيهه بالأسد وتشبيهه بالبحر، وهذا ينتقض بقولنا: لئن رأيت الأسد لَتَرَينّ منـه هضبة، ولئن لقيته لتلقينَّ منه الموت؛ فإن الصورة التي أوردها في الإنسان وزعم أن العرب تعتقد أن ذلك معنى كامن فيه قد أوردنا مثلها في الأسد؛ فتخصيصه ذلك بالإنسان باطل، وكلا الصورتين ليس بتجريد، وإنما هو تشبيه مضمر الأداة، وقد سبق القول بأن التجريد هو أن تطلق الخطاب على غيرك ولا يكون هو المراد، وإنما المراد نفسك، وهذا لا يوجد في هذا المثال المضمر الأداة، بل المخاطب هو هـو لا غيره؛ فلا يطلق عليه إذاً اسم التجريد؛ لأنه خارج عن حقيقته، ومُناف لموضوعه، فإذا قال القائل: لئن لقيته لتلْقَيَنَّ به كالأسد، ولئن سألته لتسألن منه كالبحر؛ لم يجرد عن المقول عنه شيئاً، وإنما شبهه تارة بالأسد في شجاعته وتارة بالبحر في سخائه.

وما أعلم كيف ذهب هذا على مثل أبي علي رحمه الله حتى خلطه بالتجريد وأجراه مجراه.

وأما قوله: «إن العرب تعتقد أن في الإنسان معنى كـامناً فيـه كأنـه حقيقته ومحصوله» فأقول: وغير العرب أيضاً تعتقد ذلك: فإن عنى بالمعنى الكامن معنى الإنسانية الذي هو الاستعداد للعلوم والصنائع، فما هذا من الشيء الغريب الخفي

الذي علمته العرب خاصة وانفرد باستخراجه أبو على رحمه الله، وإن عنى بالمعنى الكامن ما فيه من الأخلاق كالشجاعة والسخاء في المثال الذي ذكره حتى يشبه بالأسد، تارة وبالبحر أخرى فليس الإنسان مختصًّا بهذا المعنى الكامن دون غيره من الحيوانات، بل الأسد فيه من معنى الشجاعة ما ليس في الإنسان؛ ولهذا إذا بولغ في وصف الإنسان بالشجاعة شبّه بالأسد، وكذلك في بعض الحيوانات من السخاء ما ليس في الإنسان، ومن أمثال: أكرم من ديك؛ لأنه إذا ظفر بحبة من الحنطة أخذها في منقاره وطاف بها على الدجاج حتى يضعها في منقار واحدة منهن؛ فالأخلاق إذاً مشتركَةٌ بين الإنسان وبين غيره من الحيوانات، غير أن الإنسان يجتمع فيه ما تفرق في كثير منها.

وما أعلم ما أراد أبو علي رحمه الله بقوله: «إن في الإنسان معنى كامناً فيه كأنه حقيقته ومحصوله» إلا أن يكون أحد هذين القسمين اللذين أشرت إليهما.

على أن القسم الواحد الذي هو خلق الشجاعة والسخاء وغيره من الأخلاق ليس عبارة عن حقيقة الإنسان؛ إذ لا يقال في حده: حيوان شجاع، ولا سخي، بل يقال: حيوان ناطق، فالنطق الذي هو الاستعداد للعلوم والصنائع هو حقيقة الإنسان؛ فبطل إذاً قول أبي علي رحمه الله في تمثيله حقيقة الإنسان بالشجاعة والسخاء.

فالخطأ توَجّه في كلامه من وجهين: أحدهما: أنه جعل حقيقة الإنسان عبارةً عن خلقه، والآخر: أنه أدخل في التجريد ما ليس منه.

وهذا القدر كاف في هذا الموضع؛ فليتأمل.

قد تمّ ـ بحمد الله تعالى وحسن توفيقه ـ
الجزء الأول من كتاب:
المثل الثائر في أدب الكاتب والشاعر
ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء الثاني:
مفتتحاً بـ «النوع الرابع في الالتفات»

فهرس الأبواب
الواردة في الجزء الأول من كتاب
«المثل الثائر، في أدب الكاتب والشاعر»

الموضوع — الصفحة

خطبة المؤلف وتتضمن أن الغرض من الكتاب يقع في مقدمة ومقالتين ٥
مقدمة الكتاب وهي تشتمل على أصول علم البيان، ويقع ذلك في عشرة فصول: .. ١١
الفصل الأول: في موضوع علم البيان
الفصل الثاني: في آلات علم البيان وأدواته ٢٧
الفصل الثالث: في الحكم على المعاني ٤٩
الفصل الرابع: في الترجيح بين المعاني ٥٧
الفصل الخامس: في جوامع الكلم ٦٥
الفصل السادس: في الحكمة التي هي ضالة المؤمن ٦٩
الفصل السابع: في الحقيقة والمجاز ٧٤
الفصل الثامن: في الفصاحة والبلاغة ٨٠
الفصل التاسع: في أركان الكتابة ٨٧
الفصل العاشر: في الطريق إلى تعلم الكتابة ٩١
المقالة الأولى: في الصناعة اللفظية، وهي قسمان ١٤٩
القسم الأول: في اللفظة المفردة
القسم الثاني: في الألفاظ المركبة ١٩٤

الموضوع الصفحة

صناعة تأليف الألفاظ تنقسم إلى ثمانية أنواع: ١٩٥

النوع الأول: السجع.

السجع ينقسم إلى ثلاثة أقسام ٢٣٣

السجع بأقسامه ضربان قصير وطويل ٢٣٥

التصريع في الشعر بمنزلة السجع في الكلام ٢٣٧

التصريع على سبع مراتب

النوع الثاني: التجنيس ٢٤١

التجنيس وما جرى مجراه ينقسم إلى سبعة أقسام.

النوع الثالث: الترصيع ٢٥٨

النوع الرابع: في لزوم ما لا يلزم ٢٦١

النوع الخامس: في الموازنة ٢٧٢

النوع السادس: في اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها ٢٧٤

النوع السابع: في المعاظلة اللفظية ٢٨٥

النوع الثامن: في المنافرة بين الألفاظ في السبك ٢٩٦

المقالة الثانية: في الصناعة المعنوية ٣٠١

النوع الأول: في الاستعارة ٣٤٢

النوع الثاني: في التشبيه ٣٧٣

النوع الثالث: في التجريد ٤٠٥